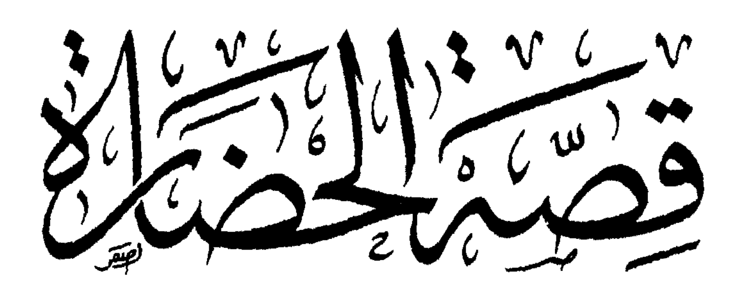

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
28
بداية عصر العقل



ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد السابع





تونس



بيروت

فهرس

الجزء الأول من المجلد السابع

من قصة الحضارة

الكتاب الاول

ابتهاج غامر فى انجلترا

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الاول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

رقم بيان

١) مزايا المحنة ٢
٢) حكومة اليزابث ٦
٣) العذراء العاشقة ١
٤) اليزابث وحاشيتها ١٤
٥) اليزابث والدين ٢٠
٦) اليزابث والكاثوليك ٢٦
٧) اليزابث والبيوريتانيون ٣٢
٨) اليزابث وايرلنده ٣٩

٩) اليزابث وأسبانيــا ٤٣
١٠) رالى واسكس ٥٤
١١) السحر يدوى ويدبل ٦١

الفصل الثانى

انجلترا المرحة

١٥٥٨ — ١٦٢٥

---

١) فى العمــل ٦٦
٢) فى المدارس ٧٤
٣) الفضيلةوالرذيلة ٧٦
٤) العدالة والقانون ٧٩
٥) فى البيت ٨١
٦) الموســيقى الانجليزية ٨٧
٧) الفن الانجليزى ٩٠
٨) الرجل فى عهــد اليزابث ٩٤

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ — ١٦٠٣

---

١) الـكتب ٩٧
٢) حــرب الأدباء ١٠١
٣) فيليب سدنى ١٠٤

٤) ادموند سبنسر ١١٠
٥) المسرح ١١٥
٦) كرستوفر مارلو ١٢١

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

١) أيام الشباب ١٣٠
٢) تطور الشاعر... ... ... ١٣٢
٣) تفوق الشاعر... ... ... ١٣٦
٤) براعة شكسبير الفنية ١٤٣
٥) فلسفة شكسبير ١٥٠
٦) الرضا والقناعة ١٥٦
٧) بعد موت الشاعر ١٦٠

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

١) الملكة الجنية ١٦٥
٢) اسكتلنده ١٦٧
٣) مارى ونوكس ١٧٠
٤) الملكة تقع فى شراك الغرام ١٧٧
٥ — التكفير ١٨٦

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

١) جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٩٦
٢) جيمس الأول ملك انجلترا ٢٠٤
٣) مؤامرة البارود ٢٠٩
٤) المسرح فى عهد جيمس ٢١٤
٥) بن جونسون ٢١٩
٦) جون دون ٢٢٨
٧) جيمس يثير العاصفة ٢٣٥

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

١) الخرافة ٢٤٣
٢) العلـوم ٢٤٥
٣) صعود فرانسيس بيكون وسقوطه ٢٥٤
٤) التجديد الكبير ٢٥٧
٥) فلسفة رجل الدولة ٢٦٤
٦) صيحة العقل ٢٦٩

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ — ١٦٤٩

---

١) الاقتصاد المتغير ٢٧٦
٢) مرجل الديانة... ... ... ٢٧٩
٣) البيوريتانيون والمسرح ٢٨٩
٤) النثر فى عهد شارل الأول ٢٩١
٥) الشعر فى عهد شارل الأول ٢٩٥
٦) شارل الأول يواجه البرلمان ٣٠٠
٧) شارل حاكم مطلق ٣٠٦
٨) البرلمان الطويل ٣١١
٩) الحرب الأهلية الأولى ٣١٩
١٠) المتطرفون ٣٢٤
١١) وأسدل الستار ! ٣٢٨

الكتاب الأول

ابتهاج غامر فى إنجلترا

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الأول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ — مزايا المحنة

فى السابع عشر من نوفمبر ١٥٥٨ ، ركض أحد الرسل إلى فناء القصر الملكى فى هاتفيلد — على مسافة ٣٦ ميلا إلى الشمال من لندن — وأعلن إلى اليزابث تيودور أنها أصبحت ملكة على إنجلترا . ان أختها غير الشقيقة ، الملكة مارى ذات السمعة التى يرثى لها ، قد وافاها الأجل المحتوم فى غسق الصبح فى ذاك اليوم . وفى لندن عند ما تلقى البرلمان هذا النبأ هتف : « حفظ الله الملكة اليزابث ! فايطل أمد حكمها علينا ! » — ولم يكن يدور بخلده أو يحلم بأن حكمها سوف يمتد إلى خمسة وأربعين عاما. وعلى الرغم من أن الكنائس كانت توجس خيفة فإن صلاصيل نواقيسها هز أجواز الفضاء . ومد الناس فى إنجلترا موائد الأفراح فى الشوارع ، كما فعلوا من أجل مارى من قبل ، وصبغوا السماء فى ذاك المساء بأضواء المشاعل التى تشف عن الأمل الخالد .

وفى يوم السبت التاسع عشر من نوفمبر ، احتشد كبار اللوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم من جميع أنحاء المملكة فى قصر هاتفيلد ، ليقسموا يمين الولاء للملكة ، ويلتمسوا فى هذه المناسبة غنما ، وفى اليوم العشرين خطبت فيهم اليزابث فى أسلوب ملكى حقا ، قائلة :

أيها اللوردات : أن قوانين الطبيعة لتثير فى نفسى لواعج الأسى والحزن على أختى ، وإن العبء الذى ألقى على كاهلى ليذهلنى ، ولكننى بوصفى من عباد الله ، يتعين

علىّ الامتثال لاختياره إياى لهذا المنصب . انى فوق ذلك سوف أخضع لمشيئته ، تحدونى الرغبة من أعماق قلبى ، فى أن يهبنى العون ، بفضله وكرمه ، على تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى فى المهمة التى وكلت اليوم إلى ، وما أنا ، من الناحية المادية إلا بشر ، ولكنى بإذنه تعالى بشر سياسى عليه أن يحكم . فهل لى أيها اللوردات ، وخاصة النبلاء منكم ، كل على قدر مرتبته وسلطته — هل لى أن أطمع فى أن تكونوا عونا لى ، حتى أستطيع أنا بحكمى وأنتم بخدماتكم ، أن نقدم لله سبحانه وتعالى عملا مقبولا ، ونترك لأعقابنا على الأرض شيئا من الرفاهية والراحة(١) . »

وفى اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ، اخترقت اليزابث ، مرتدية ثوبا من القطيفة القرمزية ، شوارع لندن فى موكب عام ، إلى نفس « برج لندن » التى كانت سجينة فيه منذ أربعة أعوام ؛ تنتظر الموت . وفى طريقها ، أخذ الأهالى اليوم يهللون ويهتفون لها والمنشدون يتغنون بمجدها وعظمتها ، والأطفال يتلون عليها ، وهم يرتعدون ، ما حفظوه من عبارات الولاء والإجلال ، ورحبت طلقات المدافع والبنادق التى لم يسمع لها نظير من قبل ، بحكم قدر له أن يكون أزهى وأحفل بالرجال والعقول من أى حكم سبقه فى إنجلترا .

وكانت خمس وعشرون سنة من المحاكمات قد هيأت اليزابث لتسيطر وتتفوق . وفى ١٥٣٣ بدا أن من حسن طالعها أن يكون هنرى الثامن أبا لها ، ولكن كان خطرا عليها أن تكون أمها آن بولين . إن العار الذى لحق بأمها ثم إعدامها ، وقعا فى وقت لم تكن الطفلة فيه تعى أو تذكر شيئا (١٥٣٦) ، ولكن مرارة هذا التراث الكريه لازمتها وما انجابت عنها طيلة شبابها ، ولم تبرأ منها إلا بفضل بلسم الملك : ونص قرار أصدره البرلمان فى ١٥٣٦ على أن زواج آن باطل ، ومن ثم صارت اليزابث ابنة غير شرعية ، ولاكت الألسنة موضوع أبوة البنت ، واختلفت الأقوال فيه بشكل قاس ، وكانت فى نظر معظم الإنجليز ، على أية حال ، ابنة زنى . ولم تعد الشرعية إليها قط بحكم القانون ، ولكن قرارا آخر من البرلمان (١٥٤٤) ثبت حقها فى تولى العرش ، بعد ادوارد أخيها من أبيها ، ومارى أختها لأبيها . وفى أثناء حكم ادوارد (١٥٤٧ — ١٥٥٣) تمسكت اليزابث بالبروتستانتية ولكن عندما أعتلت

ماری الكاثوليكية العرش ، آثرت اليزابث الحياة على التمسك بمذهبها ، فتحولت إلى الطقوس الرومانية الكاثوليكية . ولما اخفقت ثورة ويات Wyatt (١٥٥٤) فى خلع ماری ، اتهمت اليزابث بالاشتراك فى المؤامرة ، وأرسلت إلى برج لندن (السجن) . ولكن مارى قررت بأن التهمة غير ثابتة على اليزابث ، وأفرجت عنها لتعيش فى وودستوك **Woodstock** تحت المراقبة . وأقرت مارى قبل وفاتها أن تخلفها أختها على العرش ، وأرسلت إليها بجوهرات التاج . وإنا لنعزو حكم اليزابث إلى شفقة مارى « السفاحة » .

وكان التعليم الأكثر منهجية لا ليزابث واسعا ، وكان معلمها الخاص المشهور — روجر أسكام — يتيه فخرا « بأنها تتحدث بالفرنسية والإيطالية بمثل ما تتحدث بالإنجليزية ، وأنها كثيرا ما تحدثت معى فى يسر وطلاقة باللاتينية ، وإلى حد ما باليونانية[٢] » ، وكانت تتلقى فى كل يوم لمحة من اللاهوت ، وتضلعت فى العقيدة البروتستانتية ، ولكن يبدو أن معلميها الإيطاليين نقلوا إليها شيئا من مذهب الشك الذى رضعوه وتأثروا به من بومبوناتزى ومكيافللى ورومه فى عصر النهضة .

ولم تكن اليزابث مطمئنة على تاجها وعرشها قط . وأكد البرلمان من جديد فى ١٥٥٣ عدم شرعية زواج أمها من أبيها ، واتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة زنى ، واستبعد القانون الإنجليزى — متجاهلا وليم الفاتح — كل أولاد الزنى ، من ولاية العرش ؛ واعتقد العالم الكاثوليكى — وكانت إنجلترا لا تزال كاثوليكية إلى حد كبير — أن الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزى هى مارى استيوارت ، ابنة حفيدة هنرى السابع ؛ وقد أشير على اليزابث بأنها لو سالمت الكنيسة ، لمحا عنها البابا وصمة بنوة الزنى واعترف بحقها فى الحكم . ولم يكن بها ميل شديد إلى هذا . فإن آلافا من الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة فى عهد هنرى الثامن وادوارد السادس . وكان هؤلاء الملاك ذوو النفوذ يخشون العودة إلى الكاثوليكية ، ومن ثم تفرض الكنيسة استعادة أملاكها . ولذلك كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية ، كما أن الكاثوليك فى إنجلترا آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية . وفى ١٥ يناير ١٥٥٩ ، وسط هتافات اللندن

البروتستانتية ، توجت اليزابث فى كنيسة وستمنستر « ملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلنده ، وحامية للعقيدة » . ذلك أن ملوك إنجلترا منذ عهد ادوارد الثامن طالبوا ، بانتظام ، بحقهم فى عرش فرنسا ، إنهم لم يقصروا فى شىء يثقل كاهل المملكة بالمتاعب .

إن اليزابث الآن فى سن الخامسة والعشرين ، وفيها كل الفتنة التى تقترن بنضج الأنوثة . وكانت متوسطة الطول ، حسنة المظهر ، مليحة القسمات ، ذات بشرة تميل إلى السمرة ، وعينين وضاءتين ، وشعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، ويدين جميلتين عرفت كيف تظهرهما للعيان[٣] . ويبدا ضربا من المستحيل أن تتمكن مثل هذه الفتاة من آن تواجه بنجاح الفوضى التى تحيط بها ، فقد مزقت المذاهب الدينية المتصارعة أوصال البلاد ، جريا وراء السلطة ، مستخدمة السلاح ، وكان الفقر المدقع داء متوطنا ، وكان التشرد قد بقى على حاله بعد العقوبات الرهيبة التى فرضها عليه هنرى الثامن . وعوقت العملة الزائفة سير التجارة الداخلية ، وانتشرت هذه العملة الزائفة لمدة نصف قرن ، وكان لهـذا أثره فى هبوط رصيد الخزانة ، مما جعل الحكومة تدفع ١٤٪ فائدة على القروض ، واستغرقت العقيدة الدينية كل تفكير مارى تيودور إلى حد أنها لم تول شئون الدفاع الوطنى أية عناية ، وقبضت يديها عنه ، فأهملت الحصون وبقيت الشواطىء دون حماية ، ولم تعد البحرية صالحة ، وساءت رواتب الجيش وطعامه ، وشغرت الوظائف فيه . وباتت إنجلترا — التى كانت أيام ولزى تحتفظ بميزان القوى فى أوربا — باتت الآن كسيحا سياسيا مشلولا تتقاذفه كل من أسبانيا وفرنسا . ودخلت الجيوش الفرنسية إلى اسكتلندة ، وكانت إيرلنده توجه الدعوة إلى أسبانيا . وكان الحرمان من الكنيسة — حرمانا مطلقا أو جزئيا — سيفا مصلتا على رأس الملكة يهددها به البابا ، كما كان يهددها بغزو الدول الكاثوليكية لبلادها . وبدا الغزو وشيكا قطعا فى ١٥٥٩ . وكان الخوف من القتل يساورها دوما ، ولم ينقذها إلا دبيب الشقاق بين أعدائها ، وحكمة مستشاريها ، وشجاعة روحها . ولقد صعق السفير الأسبانى « بروح المرأة . . . . . أن بين جنبيها شيطانا يتملكها ، ويقودها حيث يريد[٤] » . ولم تكن أوربا تحسب أنها ستجد روح إمبراطور وراء ابتسامات فتاة .

٢ — حكومة اليزابث

برزت قدرة إليزابث على التميز وحدة ذهنها ، على الفور ، فى اختيار معاونيها . انها مثل أبيها الذى كان يستعد دوما للمعركة . وعلى الرغم من خطابها السياسى فى هاتفيلد ، اختارت رجالا ليسوا من أصل عريق أو محتد كريم ، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك ، وحسب بعضهم أنهم أصلح منها لتولى العرش . فعينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أولا لها ، وهو الذى أصبحت عبقريته فى انتهاج سياسة حكيمة وفى الملاطفة وتدبر الأمور عاملا بارزا فى نجاحها ، إلى حد خيل معه إلى الذين لا يعرفون الملكة ، أنه هو الملك . وكان جده من صغار الأعيان الميسورين ، ثم أصبح سيدا من سادة الريف ، وكان أبوه موظفا فى خزائن الملابس فى قصر هنرى الثامن وهيأ صداق أمه للأسرة ضيعة مناسبة . وترك وليم جامعة كمبردج دون الحصول على درجة جامعية ، ودرس القانون فى Oray's Inn (أحد أجهزة العدل التى تمنح أجازة الاشتغال بالقانون فى لندن) . وقضى شبابه الداعر يعيث فسادا فى مواخير لندن(٥) . ودخل مجلس العموم فى سن الثالثة والعشرين (١٥٤٣) . وتزوج زوجته الثانية ملدرد كوك Mildred Cooke . وقد ساعدته بيوريتانيتها القاسية على التزامه المذهب البروتستانتى والتمسك به . وخدم الوصى « سومرست » ثم غريمه نورثمبرلند . وأيدليدى جين جراى لتخلف ادوارد السابع ، ثم تحول فى اللحظة الحاسمة إلى مارى تيودور ، وأصبح كاثوليكيا مطيعا بناء على اقتراح منها ، وندبته للترحيب بتقدم الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان رجل عمل ومصلحة ، لا يسمح لتقلباته اللاهوتية أن تخل بتوازنه السياسى . وعندما عينته اليزابث سكرتيرا لها تحدثت بفطنتها المألوفة . إليه قائلة : —

« لقد عهدت إليك بهذه المهمة . وهى أن تكون من بين أعضاء مجلس شورى الملكة . وترتضى أن تبذل أقصى الجهد من أجلى ومن أجل مملكتى . وانى لآنس فيك أنك لن تفسدك أية منحة أو هدية مهما يكن نوعها ؛ وأنك ستكون مخلصا للدولة ، وأنك ستمحضنى ما ترى أنه خير الرأى والنصيحة ، دون اعتبار لإرادتى الخاصة ،

وأنك إذا رأيت أن ثمة شيئا ضروريا يجب إبلاغى إياه سرا فستفضى به إلى وحدى ، وتأكد أنى لن أعجز عن التزام الصمت فى مثل هذه الحالة ، ومن ثم فانى أعهد إليك بهـذه المهمة[٦] » .

واحتفظت به سكرتيرا لمـدة أربعة عشر عاما ، كانت بمثابة امتحان لأمانته وكفايته ، عينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى ، حتى وفاته . ولقد رأس مجلس شورى المملكة ، وأدار دفة العلاقات الخارجية ، والشئون المالية العامة والدفاع الوطنى ، وقاد خطى اليزابث فى تدعيم المذهب البروتستانتى فى إنجلترا . انه ، مثل ريشيليو ، اعتبر أن سلامة بلاده واستقرارها يتطلبان الحكم الملكى المطلق الذى يعمل على التوحيد ، فى مواجهة النبلاء المتناحرين والتجار الجشعين ، والعقائد التى يحاول بعضها القضاء على بعض ، وكل أولئك يعمل على التفريق والتمزيق . واتبع بعض أساليب مكيافللى ، وقليلا ما كان قاسيا ، ولكنه أخذ المعارضة بلا رحمـة وبلا هوادة[٧] ، وفكر مرة فى قتل ارل وستمورلند[٨] ، وكان ذلك فى لحظة نفد فيها الصبر ، حانت فى نصف قرن من التشبث الصابر والاستقامة الشخصية . وكان له عيون وجواسيس على كل شيء ولكن اليقظة الباطنية هى ثمن السلطة والقوة . وكان مقتصدا مولعا بالكسب ، ولكن اليزابث غفرت له ثراءه لقاء حكمته ، وأحبت فيه لتقتير الذى أعد الوسائل لقهر الأرمادا ، ولولاه لكان من المحتمل أن تضللها المظاهر البراقة والمغرورون المبذرون مثل ليستر وهاتون واسكس . وقال السفير الأسبانى فى تقرير له : « إن ذكاء سيسل يفوق كل ذكاء سائر أعضاء المجلس مجتمعين ، ومن ثم فهو موضع حسد الجميع وكراهيتهم[٩]» . وأصغت اليزابث أحيانا إلى ما يقوله عنه أعداؤه ، فعاملته من حين لآخر فى خشونة وجفوة إلى حد أنه كان يخرج من حضرتها محطما باكيا ، حتى إذا هدأت سورة غضبها أدركت أنه أثبت دعامة لملكها . وفى ١٥٧١ عينته « لورد برجلى » Burghley ، أى زعيم الارستقراطية الجديدة التى وقفت فى وجه النبلاء المعادين . فدعمت عرشها ورفعت من شأن مملكتها .

ويستحق صغار معاونيها أن نلم بهم فى بضعة سطور فى هذه العجالة التاريخية . لأنهم خدموها بكفاية وشجاعة ، ولم يجزوا الجزاء الأوفى ، حتى أفنوا حياتهم فى

خدمتها . منهم سير نيقولا بيكون — والد فرنسيس بيكون — وكان حامل الخاتم الملكى منذ بداية حكم اليزابث حتى وفاته ١٥٧٩ . وسير فرانسيس نولليس **Knollys** الذى كان عضوا فى مجلس شورى المملكة منذ ١٥٥٨ ، ورئيسا للخاصة الملكية حتى وفاته (١٥٩٦) ، كما كان سير نيقولا ثروكمورتون **Throckmorton** سفيرها البارع فى فرنسا ، وتوماس رندولف سفيرها فى اسكتلنده وروسيا وألمانيا ، وكان فى المرتبة الثانية ، بعد سيسل ، من حيث الاخلاص والدهاء ، وسير فرنسيس ولسنهام الذى تولى منصب الوزارة من ١٥٧٣ حتى وافته المنية (١٥٩٠) ، وكان رجلا دمثا مرهف الحس ، قال عنه سبنسر « إنه ماسيناس(*) العظيم فى عصره » ، روعته المؤامرات المتكررة على حياة الملكة حتى أنه أقام لحمايتها شبكة من الجاسوسية ، امتدت من ادنبره إلى القسطنطينية ، وأوقعت فى شراكها ملكة اسكتلنده المنكوبة الحظ . وقلما حظى حاكم بمعاونين على مثل هذا القدر من الكفاية والقدرة والولاء ، مع هذا القدر من الرواتب الضئيلة التى كانوا يتقاضونها .

وكانت الحكومة الإنجليزية نفسها فقيرة . وزادت الثروات الخاصة على الاعتمادات العامة . وبلغ مجموع الدخل ٥٠٠,٠٠٠[١٠] جنيه فى ١٦٠٠ ، وهو ما يعادل المبلغ التافه ٢٥ مليون دولار . وقلما فرضت اليزابث ضرائب مباشرة ، ولم تحصل من الرسوم الجمركية إلا على ٣٦,٠٠٠ جنيه ، واعتمدت عادة على دخل ممتلكات التاج ، وعلى منح من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى قروض من الأغنياء ، كانت من الوجهة العملية إجبارية ، ولكنها كانت تسدد بانتظام[١١]. وأقرت الديون التى خلفها أبوها وأخوها وأختها ، وتمتعت بسمعة طيبة فى الوفاء بالدين إلى حد أنها استطاعت أن تحصل على القروض من أنتورب بفائدة قدرها ٥٪ على حين أن فيليب الثانى ملك أسبانيا لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقترض قط ، وكانت الملكة مسرفة ، على أية حال ، فى الانفاق على ملابسها وحليها ، وفى المزايا الاقتصادية التى تغدقها على ذوى الحظوة لديها .

(*) **Moeceuas** أحد رجال الدولة الرومان ، فى القرن الأول ق . م . كان صديقا لهوراس وفرجيل ، وكان كريما راعيا للآداب .

وقل أن دعت اليزابث البرلمان ، وعلى مضض منها ، لمساعدتها من الناحية المالية ، لأنها لم تكن تطيق المعارضة أو النقد أو المراقبة ، ولم تؤمن قط بنظريات سيادة الشعب أو البرلمان . وآمنت مع هوميروس وشكسبير بأن رأسا واحدا هو الذى يجب أن يتولى الحكم — ولم لا يكون رأسها هى ، الذى جرى فيه دم هنرى الثامن وتألقت كبرياؤه ؟ وتمسكت بحقوق الملوك والملكات الآلهية . وأودعت بعض الأفراد السجون بمحض إرادتها هى دون محاكمة ، أو سبب واضح ، وكان مجلس الشورى الذى ينعقد على هيئة محكمة عليا لمحاكمة المجرمين السياسيين ، يعطل ، دون استئناف ، حقوقهم فى المعارضة وفى قانونية حبسهم ، أو فى محاكمتهم أمام المحلفين[١٢]. وعاقبت أعضاء البرلمان الذين اعترضوا سبيلها فى تحقيق أهدافها . وأوحت إلى الأقطاب المحليين الذين يديرون شئون الانتخابات النيابية ويؤثرون فيها، أنه مما ييسر الأمور أن يختاروا مرشحين ليس لديهم نزعات صبيانية فى حرية الكلام ، إنها طمعت فى الحصول على المال دون أن يناقشها أحد الحساب ! واستسلمت برلماناتها الأولى إلى هذا الوضع بلباقة ، وخضعت البرلمانات غاضبة فى أواسط عهدها ، أما بعد ذلك فقد قاربت البرلمانات أن تثور .

وتغلبت إرادتها لأن الأمة آثرت حكمها المطلق الحكيم على عنف الأحزاب التى تتنافس على السلطة ، ولم يفكر أحد فى أن يدع الشعب يحكم ، وكانت السياسة — وهى كذلك دائما — صراعا بين الأقليات ، على أنها يحكم الأغلبية . واستاء نصف إنجلترا من سياسة اليزابث الدينية ، واغتاظت كل إنجلترا تقريبا من عزوبتها ، ولكن الناس فى جملتهم ، وهم يحمدون الضرائب المنخفضة والتجارة المزدهرة ، والنظام فى الداخل ، والسلام الذى طال أمده ، بادلوا الملكة حبا بحب . لقد أقامت لهم المهرجانات ، وقامت بجولات ملكية بينهم ، واستمعت إليهم دون أن يظهر عليها أى امتعاض ، وشاركتهم ألعابهم العامة . وبمائة أسلوب آخر تصيدت قلوب الناس[١٣] » . وكتب السفير الأسبانى ، وهو يذوب حسرة على اعتناقها البروتستانتية ، إلى الملك فيليب يقول : « إنها أشد التصاقا بالأهالى ، وهى على ثقة من أنهم جميعا إلى جانبها ، وهذا هو الحق بعينه[١٤] » . وزادت المحاولات

التي بذلت القضاء على حياتها من شعبيتها وسلطانها ، حتى أن البيوريتانيين الذين اضطهدتهم دعوا لها بالسلامة ، وأصبحت الذكرى السنوية لارتقائها العرش عيدا قوميا للشكر وإقامة الاحتفالات .

وهل كانت اليزابث هى الحاكم الفعلى ، أو مجرد واجهة محبوبة للطبقة الدنيا من النبلاء فى إنجلترا ، والأقلية التجارية فى لندن ؟ وكثيرا . ما صحح معاونوها أخطاء سياستها ، على الرغم من خوفهم من انفعالها ، ولكنها بدورها ، كثيرا ما صححت أخطاءهم كذلك . لقد أبلغوها حقائق مرة ، وزودوها بنصائحهم المعارضة لرأيها ، وامتثلوا لقراراتها ، انهم حكموا ولكنها ملكت . وقال السفير الأسبانى : « إنها تصدر الأوامر ، وتفعل ما تريد ، تماما كما كان يفعل أبوها(١٥) » . وقلما أدرك سيسل نفسه ماذا اعتزمت أن تفعل ، واضطرب واغتاظ من رفضها المتكرر لمشورته التى وصل إليها بعد جهد شاق وتمحيص دقيق وعندما حثها على عدم التفاوض مع فرنسا ، والاعتماد فقط على تأييد البروتستانت ، انتهرته فى قسوة وحدة « أيها السكرتير ، أفهم أنى انتهيت من هذا الموضوع . ولسوف استمع إلى مقترحات ملك فرنسا ، ولن أكون بعد اليوم مربوطة إليك وإلى اخوتك فى المسيحية ١٦) » .

ودفعت تصرفاتها فى شئون الدولة الأصدقاء والأعداء إلى البكاء ، على حد سواء . فقد كانت متأنية مترددة إلى حد مثير ، فى البت فى الأمور ، ولكن ترددها عاد بالفائدة فى أحوال كثيرة ، لقد عرفت كيف تتحالف مع الزمن الذى يحل من المشاكل أكثر مما يحل الرجال ، وكم هيأ تسويفها فى البت ، للعوامل المعقدة فى موقف ما ، أن تستقر وتتركز وتتضح . لقد أعجبت بالفيلسوف الأسطورى الذى ألحوا عليه فى طلب الجواب ، فتلا حروف الهجاء فى صمت قبل الادلاء به . واتخذت شعارا لها : « انى أرى وأنا صامت » . واكتشفت أنه فى السياسة كما فى الحب ، من لم يتردد يضيع نفسه . وإذا تذبذبت سياستها فى غالب الأحيان ، فهذا هو شأن الحقائق والقوى التى يعمل حسابها . ولما كانت محاطة بالأخطار والدسائس ، فانها تحسست طريقها فى حذر موسوم بالتسامح والصفح ، محاولة آنا سبيلا آخر ، فهى لا تدعى الثبات فى عالم مائع . وتعثر ترددها فى بعض أخطاء جسيمة ، ولكنها

احتفظت بانجلترا فى سلام حتى بلغت من القوة ما تستطيع معه أن تحارب . ولما كانت قد ورثت أمة تشيع فيها الفوضى من الناحية السياسية ، منهارة من الناحية العسكرية ، فقد كانت السياسة الوحيدة التى يمكن انتهاجها هى الحيلولة دون اتحاد أعدائها ضدها ، وتشجيع ثورة الهيجونوت ضد ملك فرنسا ، وثورة الأراضى الوطنية ضد أسبانيا ، وثورة البروتستانت ضد ملكة اسكتلنده الوثيقة الصلة بفرنسا . لقد كانت هذه سياسة مجردة من المبادئ الأخلاقية ، ولكن اليزابث آمنت مع مكيافللى بأن الوساوس لا تلتئم مع الحكام المسئولين عن الدول . ومهما يكن من أمر فان ضعفها الموسوم بالحذق والدهاء يشير إلى أنها حافظت على بلادها من السيطرة الأجنبية ، وحافظت على السلام لمدة ثلاثين عاما — باستثناء فترات قصيرة ، وتركت إنجلترا أغنى مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، ماديا وفكريا .

واستطاعت اليزابث الدبلوماسية ، أن تلقن وزراء الخارجية فى زمانها ، دروسا فى الإعلام النشيط السريع والوسائل اللبقة الماكرة والخطوات الكثيرة التى لا يمكن التنبؤ بها . وكانت أقدر أهل زمانها على الكذب . ومن بين النساء الأربع — مارى تيودور ، مارى ستيوارت ، كاترين دى مديتشى واليزابث — اللائى ضربهن نوكس Knox مثلا على « حكم النساء الرهيب » فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، تفوقت اليزابث عليهن بلا منازع فى الفطنة السياسية والبراعة الدبلوماسية . وذهب سيسل إلى أنها « أعقل امرأة وجدت ، لأنها فهمت ميول كل أمير فى زمانها وما يولع به وما يستهويه . وكانت على علم تام بمملكتها إلى حد أن أيا من مستشاريها لم يكن لينبئها بشىء لم تكن تعرفه من قبل[١٧]. وهذا بطبيعة الحال يتطلب الرقية من الحسد ببعض حصوات من الملح ، وتمتعت الملكة بميزة التباحث مباشرة مع السفراء بالفرنسية أو الإيطالية أو اللاتينية ، ومن ثم كانت فى غنى عن الاعتماد على المترجمين والوسطاء . ويقول السفير الأسبانى : « ان هذه المرأة يتملكها مائة ألف شيطان ، ولكنها مع ذلك تزعم لى أنها تحب أن تكون راهبة ، تعيش فى صومعة تتلو تسابيحها وصلواتها من الصباح إلى الليل[١٨]» ، لقد أدانتها كل حكومة فى قارة أوربا ، وفى نفس الوقت أعجبت بها وقال عنها البابا سكستس السادس : « لو لم تكن زنديقة لكانت تساوى عالما بأسره[١٩] » .

٣ — العذراء العاشقة

كانت عذرية اليزابث هى السلاح الخفى فى دبلوماسيتها . وهـــذا بطبيعة الحال تفصيل ثانوى عويص يجدر بالمؤرخين ألا يزعموا التيقن منه ، أو لنــكن نزاعين إلى الثقة ، مثل ســـير والتررالى حين يطلق الاسم على مستعمرة ويعينها بذاتها . ولقد ساورت سيسل بعض شكوك عابرة عندما لاحظ عبث اليزابث الطويل الأمد مع لستر ومغازلتهما . ولـكن سفيرين أسبانيين لا يتورعان ولا يجدان حرجا فى تشويه سمعة الملـكة ، انتهيا إلى أنها شريفة[٢٠] . وذكرت الاشاعات التى انتشرت فى البلاط — كما رواها بن جونسون لدروموند هوثورندن — « أن فيها غشاء يجعلها غير أهل لمعاشرة الرجال ، ولو أنها حاولت مع كثير منهم لمجرد اللهو والمرح . . . . » وأخذ جراح فرنسى على عاتقه أن يستأصله ، ولـكن الخوف منعها من ذلك[٢١] . وكتب كاندن فى حولياته ١٦١٥ : « صب الناس اللعنات على هويك Huic طبيب الملـكة لأنه ثبط همتها فى الزواج بسبب عائق وعاهة فيها[٢٢] » . غير أن البرلمان الذى توسل إليها مرارا لتتزوج ، افترض قدرتها على الحمل ، ولقد منى معظم ملوك آل تيودور بالاخفاق فى هذه الناحية : فيحتمل أن تـكون مصائب كاترين أوف أراجون فى الولادة ترجع إلى داء الزهرى الذى أصيب به هنرى الثامن ، ومات ابنه ادوارد فى سن الشباب نتيجة علة كريهة الوصف . وحاولت ابنته مارى محاولة شديدة أن يكون لها طفل ، وكل ما حدث أنها ظنت خطأ أن داء الاستسقاء حمـــل ، وعبثت اليزابث ما شاءت ، ولـكنها لم تجرؤ على الزواج ، وقالت : « لقد كنت أنفر منه دائما » . وأعلنت منذ ١٥٥٩ عزمها على أن تبقى عذراء[٢٣] . وفى ١٥٦٦ وعدت البرلمان : « سوف أتزوج حالما أرى الوقت مناسبا . . . . وآمل أن يـكون لى أطفال[٢٤] » . ولـكن فى نفس العام ، عندما أنبأها سيسل أن مارى ستيوارت أنجبت طفلا ، كادت اليزابث تذرف الدمع وقالت : « ان ملـكة الاسكتلنديين أم لابن جميل ، أما أنا فلست إلا أرضا مجدبة[٢٥] » . وهنا ولفترة وجيزة ، كشفت عن حزنها المقيم — لأنها لم تستطع أن تحقق أنوثتها .

وزادت التورطات السياسية فى عمق المأساة . وأعتقد كثير من رعاياها الكاثوليك أن عقمها ليس إلا عقابا وفاقا على خطايا والدها ، ووعد بأن مارى الكاثوليكية سوف ترث العرش . ولكن البرلمان وسائر إنجلترا البروتستانتية كانوا يوجسون خيفة من هذه التوقعات ، وألحوا عليها فى أن تجد لها زوجا . ولقد حاولت ، ولكنها بدأت بأن شغفت حبا برجل متزوج ، هو لورد روبرت ددلى وهو رجل مديد القامة وسيم كيس مصقول شجاع ، وهو ابن دوق نورثمبرلند الذى كان قد لقى حتفه على حبل المشنقة لمحاولته ابعاد مارى تيودور عن وراثة العرش لتجلس عليه جين جراى . وتزرج ددلى من آمى روبسار Amy Robsart ولكنه لم يكن يقيم معها . وراجت الإشاعات بأنه عابث خليع لاخلاق له . وكان بمعية اليزابث فى وندسور ، عند ما سقطت زوجته من على درج السلم فى Cumnor Hall فدق عنقها وقضت نحبها (١٥٦٠) . وحامت الشبهات عند السفير الأسبانى وآخرين غيره بأن ددلى والملكة دبرا هذه الميتة الشنيعة . وكانت الريب ظالمة[٢٦] . ولكنها قضت ، لبعض الوقت ، على آمال ددلى فى أن يصبح زوجا لاليزابث . ولما ذهب بها الظن إلى أنها ستقضى نحبها (١٥٦٢) توسلت أن يعين ددلى وصيا على المملكة ، واعترفت بأنها أحبته منذ زمن طويل ، ولكنها أشهدت الله : على أنهما لم يرتكبا عملا غير لائق[٢٧]». وبعد عامين قدمته إلى ملكة اسكتلنده ، وخلعت عليه لقب « ارل لستر » ، لتزيد من مفاتنه ، ولكن مارى كرهت أن يشاركها عشيق غريمتها فراشها فواسته اليزابث وهدأت من روعه بما أغدقت عليه من احتكارات ، وكان موضع عطفها ورعايتها حتى مات (١٥٨٨) .

واحتمل سيسل هذه الإشاعة فى اشمئزاز وقور ، وفكر لبعض الوقت فى الاستقالة من منصبه احتجاجا ، فقد اتجه تفكيره الخاص إلى زواج يعمل على تقوية إنجلترا ، بعقد أواصر الصداقة مع دولة قوية . ولمدة ربع قرن من الزمان حوم حول الملكة نفر عديد من الأجانب يطلبون يدها . وكتب أحد السفراء : « هناك اثنى عشر سفيرا ينافس بعضهم بعضا فى طلب يد جلالتها ، ولسوف يأتى بعد ذلك دوق هولشتين ليطلب يدها لملك الدنمرك . وهنا دوق فنلنده الذى جاء رسولا عن أخيه ملك السويد ،

وهو يهدد بقتل مبعوث الإمبراطور ، ولشد ما تخشى الملكة أن يقطع كل منهم رقبة الآخر فى حضرتها(٢٨) . ولا بد أنها أحست بشىء من الرضا حين قدم لها فيليب الثانى ، وهو أعظم عاهل فى العالم المسيحى يده المحنكة (١٥٥٩) ، ولكنها رفضت هذه الحيلة لتحويل إنجلترا إلى ولاية كاثوليكية تابعة لأسبانيا . وتمهلت طويلا فى الرد على اقتراح من شارل التاسع ملك فرنسا ،

كانت آنذاك تسلك سلوكا محمودا . وشكا السفير الفرنسى « من أن الدنيا خلقت فى ستة أيام ، وأن الملكة قضت حتى الآن ثمانين يوما ، ولا تزال مترددة » . فأجابت هى جوابا بارعا ماكرا بأن الدنيا « خلقها من هو أعظم منها(٢٩) » . وبعد عامين أوعزت لوكلاء إنجلترا أن يقترحوا زواجها من شارل أرشيدوق النمسا ، ولكنها بتحريض من ليستر تخلت عن هذه الفكرة . ولما كان الموقف الدولى يقتضى مسايرة فرنسا (١٥٧٠) ، فقد تشجع دوق ألنسون (ابن هنرى الثانى من كترين دى مديتشى) على التفكير فى أن يصبح زوجا فى السادسة والعشرين للملكة فى السابعة والثلاثين ، ولكن المفاوضات توقفت بسبب ثلاث عقبات — مذهبه الكاثوليكى ، وشبابه غير الناضج وندوب فى أنفه . وانقضت خمس سنوات ذللت فيها إحدى هذه العقبات ، واتجه التفكير مرة أخرى إلى ألنسون الذى أصبح الآن دوق أنجو ، ودعى إلى لندن ، ولمدة خمس سنوات أخرى غررت اليزابث به وبفرنسا ؛ وعقب فترة أخيرة (١٥٨١) تلاشت هذه المغازلة المرحة ، وانسحب دوق أنجو من الميدان ، وهو يلوح برباط لجورب الملكة تذكارا لهذه الواقعة ، وكانت الملكة فى نفس الوقت قد منعته من الزواج من ابنة ملك أسبانيا ، ومن ثم حالت دون تحالف عدوتيها فرنسا وأسبانيا . وقل أن غنمت امرأة مثل هذا الغنم من عقمها ، أو نعمت بمثل هذا اللهو والسرور من عذريتها .

٤ — اليزابث وحاشيتها

وجدت الملكة فى تودد هذه الزمرة من رجال عصرها النشيطين المكتملين رجولة وقوة إليها وملاطفتهم إياها — نقول وجدت ارتياحا ورضا أكثر مما هو فى

مضاجعة شاب مريض بالزهرى مثلا . وان المغازلة لتبقى ما لم يقض عليها الزواج ، ومن ثم تلذذت اليزابث بالزلفى والملق والتودد طوال الوقت واستطابت ذلك كله فى نهم لا يشبع . وجر اللوردات الخراب على أنفسهم فى سبيل الاحتفاء بها وتسليتها ، وعبروا بالمواكب والمهرجانات ومظاهر الأبهة والمسرحيات التنكرية عن عظمة الملكة ومجدها ، وأغرقها الشعراء بقصائدهم واهداءاتهم ، وداعب الموسيقيون أوتار آلاتهم شدوا بمديحها . ولقد تغنت قصيدة غزلية بعينيها على أنهما كرتان ملكيتان تأسران الناظر إليهما وتقهرانه ، وصدرها على أنه « أكمة جميلة تكمن فيها الفضيلة والبراعة القدسية[٣٠]» وقال لها رالى إنها تحكى فى مشيتها فينوس ، وفى صيدها ديانا ، وفى ركوبها الخيل الأسكندر ، وفى غنائها ملاكا ، وفى لعبها أورفيوس[٣١] . وكادت اليزابث تصدق هذا . وكانت مزهوة ، وكأن كل مزايا إنجلترا وفضائلها لم تكن إلا الثمار المباركة لأمومتها ، وهذا حق إلى درجة ما . ولما كانت ترتاب فى مفاتن جسمها ، فقد لجأت إلى ارتداء أثمن الثياب التى تغيرها كل يوم تقريبا ، حتى لقد تركت عند موتها ألفى ثوب . وقد تحلت بالمجوهرات فى شعرها وذراعيها ومعصميها وأذنيها وأثوابها ، وإذا ما استنكر أحد الأساقفة حبها للمجوهرات ، بعثت إليه بمن ينذره بألا يطرق هذا الموضوع ثانية ، وإلا لقى ربه قبل الأوان[٣٢] .

وقد يكون سلوكها وعاداتها مفزعة . فقد صفعت رجال حاشيتها أو لاطفتهم وداعبتهم ، بل حتى المبعوثين الأجانب . ولقد وخزت رقبة ددلى من الخلف حين انحنى ليتسلم براءة لقب ارل[*] ، وبصقت أنى شاءت — وذات مرة على معطف ثمين . وكانت عادة أليفة يسهل الوصول إليها . ولكنها تحدثت بلسان ذرب ، وربما غدت سليطة لا يمكن الرد عليها ، وأقسمت كما يقسم القرصان (وكانت كذلك بالوكالة) وكان من أخف الأيمان التى تقسم بها « بحق وفاة الرب » . وكان فى مقدورها أن تكون قاسية ، كما هو الحال فى لعبة القط والفأر ، التى لعبتها مع مارى ستيوارت ،

(*) يروى أوبرى قصة سمجة : « ان ادوارد دى فر de Vere ارل أكسفورد ، وهو ينحنى اجلالا للملكة اليزابث خرجت منه ريح فخجل وشعر بالعار . وغادر البلاد لمدة سبع سنين دأبا ، فلما عاد رحبت الملكة بعودته إلى الوطن وقالت سيدى اللورد ، لقد نسيت الريح[٣٣] .

أو فى ترك ليدى كاترين جراى تذبل وتهن حتى الموت فى « برج لندن » . ولكنها كانت أساسا عطوفة رحيمة ، وخلطت بين رقتها وضرباتها . وكثيرا ما ثارت وفقدت صوابها ، ولكن سرعان ما استعادت ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب . وكانت تنفجر ضاحكة إذا تسلت ، وكثيرا ما حدث ذلك . وأولعت بالرقص فرقصت على قدم واحدة حتى بلغت التاسعة والستين وكانت تثب وتغامر وتصطاد . كما أحبت المسرحيات والحفلات التنكرية ، واحتفظت بروح معنوية عالية حتى حين هبطت مواردها .

وكانت غاية فى الشجاعة والذكاء عند مواجهة الخطر . وكانت معتدلة فى طعامها وشرابها ، شرهة فى المال والمجوهرات ، وكانت تجد لذة كبيرة فى مصادرة ممتلكات العصاة الأثرياء ، ودبرت أن تحصل على مجوهرات التاج فى اسكتلنده وبرجندى والبرتغال وتقتنيها ، بالإضافة إلى ذخيرة من الجواهر والأحجار الكريمة أهداها إليها اللوردات المرتقبون نفعا أو المرشحون للمناصب ، ولم تشتهر بعرفان الجميل ولا بالسخاء ، وحاولت فى بعض الأحيان أن تدفع أجور العاملين لديها كلمات حلوة بدلا من النقود ، وقد كان ثمة شىء من حب الوطن فى تقتيرها وكبريائها على السواء . وعند ما تولت العرش ، لم تكد توجد أمة بلغت من الفقر حدا تنظر معه إلى إنجلترا بعين الاجلال والتقدير ، أما عند مماتها فقد كانت لإنجلترا السيادة على البحار . كما كانت تتحدى سيطرة إيطاليا وفرنسا فى مجال الفكر والعقل .

وأى نوع من العقل كان لهذه المرأة ؟ لقد حصلت من التعليم على القدر الذى يمكن أن تحصل عليه ملكة دون عناء ، وقد استمرت أثناء حكمها فى دراسة اللغات . وتبادلت الرسائل بالفرنسية مع ماری ستيوارت ، وتحدثت بالإيطالية مع أحد سفراء البندقية ، ووبخت مبعوثا بولنديا بلغة لاتينية قوية . وترجمت سالوست Sallust وبوثيوس Boethius ، وألمت بقدر من اليونانية يكفى لقراءة سوفوكليس ولترجمة إحدى مسرحيات يوريبيدس . وزعمت أنها قرأت من الكتب عدد ما قرأ أى أمير فى العالم المسيحى ، والأرجح أن يكون الأمر كذلك . ودرست التاريخ كل يوم تقريبا ، ونظمت الشعر وألفت الموسيقى ، وعزفت ، مع شىء من التسامح ، على العود والعذراوية (آلة موسيقية تشبه البيان الصغير بدون قوائم) ، ولكن كان

عندها من الادراك ما تسخر به من منجزاتها ، وتميز به بين التعليم والذكاء . وإذا ما أطرى سفير معرفتها باللغات ردت عليه قائلة : « ليس غريبا أن تعلم امرأة أن تتكلم ، بل الأصعب منه كثيرا أن تعلمها كيف تكف عن الكلام[٣٤] . » وكان ذهنها حادا قدر حدة كلامها وكان ذكاؤها يجارى الزمن ولا يتخلف عنه . وقال فرنسيس بيكون : « إنه كان من عادتها أن تقول عن توجيهاتها لكبار موظفيها إنها مثل الثياب ، تكون محكمة محبوكة لأول مرة يلبسها الإنسان ، ولكنها تصبح يوما بعد يوم فضفاضة[٣٥] » وكانت رسائلها وخطبها بلغة إنجليزية من إنشائها وحدها : معقـــدة ملتوية متكلفة ، ولكنها زاخرة بالصيغ الغريبة ، ساحرة فى فصاحتها وأسلوبها .

وتحلت اليزابث بالذكاء أكثر منها بسداد الرأى . قال عنها ولسنهام : « انها غير صالحة لمعالجة أى موضوع له وزنه[٣٦] » . ولكنه ربما تحدث فى مرارة التفانى الذى لم يلق جزاءه . لقد كمنت براعتها فى الرقة الأنثوية ودقة الادراك الحسى ، لا فى المنطق المرهف . وفى بعض الأحيان كشفت نتيجة هذا كله عن حكمة أكبر فى تصرفاتها الماكرة منها فى تعليلها لها ، انها روحها التى يتعذر تحديدها أو تعريفها هى التى يعتد بها ، وهى التى حيرت أوربا وسحرت إنجلترا ، وأمدت بلادها بالقوة والقـــدرة على الازدهار والنمو . وأعادت اليزابث بناء الاصلاح الدينى من جديد ، ولكنها مثلت عصر النهضة — التلهف على أن يحيا الإنسان هذه الحياة الدنيا إلى أبعد مدى ، ينعم بها ويزينها كل يوم . ولم تكن نموذجا للفضيلة ، ولكن كانت مثالا للحيوية والنشاط . ان سيرجون هايوارد الذى كانت قد زجت به فى السجن لتزويده اسكس الأصغر ببعض الأفكار الثورية ، غفر لها ذلك فكتب عنها ، بعد تسع سنوات من مكافأتها إياه (بالادراج عنه) — كتب يقول : —

إذا كان ثمة إنسان أوتى من الموهبة أو الأسلوب ما يستطيع أن يكسب به قلوب الناس ، فهو هذه الملكة . وإذا أظهرت شيئا مثل هذا يوما ، فقد ظهر فى أنها تجمع بين اللطف والجلال كما كانت تفعل ، وفى تواضعها الموسوم بالفخامة حتى مع أقل الناس شأنا . وكانت كل قدراتها فى حركة دائبة ، وبدت وكأن كل حركة بمثابة

عمل موجه أحسن توجيه . فقد تكون عيناها عالقتين بشخص ما ، على حين أرهفت أذنيها لآخر وأصدرت أمرا لشخص ثالث ، ووجهت حديثها لرابع ، وكأنما روحها تحوم فى كل مكان ، ومع ذلك تبدو منطوية على نفسها وكأنها غير موجودة فى أى مكان آخر . وكانت ترثى لبعض الناس ، وتطرى آخرين ، وتقدم الشكر لغيرهم ، وتداعب فريقا آخر فى سرور وسخرية ، دون أن تزدرى أحداً ، أو تغفل واجبا ، وكانت توزع ابتساماتها ونظراتها ولفتاتها بقدر من الدهاء والفطنة يضاعف معه الناس من مظاهر اغتباطهم وابتهاجهم[٢٧] .

وتطبعت حاشيتها بطباعها — يحبون ما تحب ، ويقوون من ميلها إلى الموسيقى والروايات والعبارات المشرقة ، ويرقون به إلى نشوة القصيد والغزليات والتمثيليات وحفلات الرقص ، والنثر الذى لم تشهد إنجلترا مثيلا له فيما بعد . وفى قصورها — هويتهول ، وند سور ، جرينتش ، رتشموند ، هامبتون كورت ، تنقل اللوردات والسيدات والفرسان والسفراء والمغنون والخدم والحشم بين ألوان عدة من المراسم الملكية والمرح الأنيق . وكان ثمة دائرة خاصة تعد ألوان التسلية إبتداء بالاحاجى والنرد إلى حلبات الرقص الصاخبة وروايات شكسبير ، وأقيمت الاحتفالات بانتظام فى عيد الصعود وعيد الميلاد وعيد رأس السنة والليلة الثانية عشرة ، وكاندلماس (عيد العذراء) ، وشروفتيد (عيد قبل الصوم الكبير) ، وزخرت بألوان الملاهى والتسلية ، والمباريات الرياضية ، والمقارعة بالسيوف ، والتمثيل التنكرى والمسرحيات وحفلات الرقص . وكانت الحفلات التنكرية شيئاً من الأشياء الكثيرة التى استوردت من إيطاليا إلى إنجلترا فى عهد اليزابث ، وكانت خليطا براقا من المهرجانات والشعر ، والموسيقى والقصص الرمزى والتهريج والباليه ، ضمها بعضها إلى بعض الروائيون والفنانون ، وكانت تقدم فى البلاط أوفى ضياع الأثرياء ، بأجهزة ووسائل وحركات معقدة ، تؤديها سيدات ورجال متنكرون يرتدون أغلى الثياب فى تصميم بسيط ، وكانت اليزابث مولعة بالتمثيليات ، وبخاصة الهزلية منها . ومن يدرى كم من روايات شكسبير كان يصل إلى المسرح أو إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، لو لم تقف الملكة وليستر إلى جانب

المسرح وتدعمانه ضد كل الهجمات التى شنها عليه البيوريتانز .

ولم تقنع اليزابث بقصورها الخمسة ، فانطلقت كل صيف تقريبا فى جولات تجوب البلاد ، لترى الناس ويروها وتراقب اللوردات التابعين وتستمتع بما يبذلون لها من اجلال وتكريم كارهين . وكان يتبعها بعض رجال البلاط ، فرحين بالتغيير ، متذمرين لعدم توفر وسائل الراحة والبهرة . وارتدى أهالى المدن ثيابا من القطيفة والحرير ليرحبوا بها بالخطب والهدايا ، وكم أفلس النبلاء فى سبيل الاحتفاء بها ، وابتهل اللوردات المعسرون إلى الله ألا تعرج عليهم . وامتطت الملكة فى جولاتها صهوة جواد أو تنقلت فى محفة مكشوفة ، تحيى فى فرح وسرور الجمـــوع التى احتشدت على الطريق . وابتهج الناس لرؤية مليكتهم التى لا تقهر ، وافتتنوا بتحياتها الكريمة وسعادتها التى انتقلت إليهم فغمرتهم ودفعتهم إلى تجديد الولاء لها .

وانتهجت الحاشية نهجها فى مرحها وحريتها فى السلوك ، وترفها فى الثياب . وولعها بالمراسم ، ومثلها الأعلى فى الكياسة ، فقد أحبت أن تســمع خشخشة المجوهرات ونافس الرجال المحيطون بها النساء فى تشــكيل ما يحصلون عليه من منتجـــات الشرق على طرز إيطالية . وكان السرور واللهو يشكلان البرنامج المعتاد ولكن على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد فى أية لحظة لأية مغامرات عسكرية نيا وراء البحار . وينبغى على من يقــدم على اغواء الفتيات أن يكون على أشد الحذر ، لأن اليزابث كانت تحس بأنها مسئولة أمام آباء وصيفات الشرف اللائى يعملن لديها عن شرفهن . ومن ثم أبعدت ارل بمـــبروك عن البلاط لأن مارى فتون حملت منه سفاحا(٣٨) . وفى بلاطها ــ مثل أى بلاط آخر ، حيكت الدسائس مثل نسيج العنكبوت ، وتنافس النساء على الرجال ، وتنافس الرجال على النساء ، دون وازع من ضمير أو خلق ، وكل ذلك ارضاء للملكة وكسبا لعطفها ، وللمنح التى تغدقها نتيجة لذلك . ان هؤلاء السادة الذين رفعوا ، شعرا ، من شأن نقاوة الحب والأخلاق ، تلهفوا نثرا على المناصب الكبيرة التى تدر ربحا بلا عمل ، وقدموا الرشاوى أو أخذوها ، وعضوا بالنواجذ على الاحتكارات ، وشاركوا فى أسلاب القرصنة ، ونظرت الملكة الشرهة بعــين التسامح إلى الرشوة التى تزيد من الأجر

الضئيل الذى يحصل عليه خدمها . وبفضل هباتها أو باذن منها أصبح ليستر أغنى لوردات إنجلترا ، واستولى سير فيليب سدنى على أراض شاسعة فى أمريكا ، وأخذ رالى أربعين ألف فدان فى إيرلنده ، ونعم ارل اسكس الثانى باحتكار استيراد النبيذ الحلو ، وارتفع سيركرستوفر هاتون من مجرد « كلب مدلل » لدى الملكة إلى أكبر منصب فى الدولة وحامل خاتم الملكة . ولم تعد اليزابث تحس بالعقول الجبارة قدر احساسها بالسيقان الرشيقة — لأن عهد المجتمع هؤلاء لم يكونوا قد غطوا سيقانهم بالبنطلونات بعد ، وعلى الرغم من كل أخطاء الملكة ، فانها اتخذت خطوة وشقت الطريق بغية ابراز الطاقات المختزنة فى رجال إنجلترا الأفذاذ . واستثارت هممهم وشجاعتهم للقيام بالمشروعات الضخمة ، وعقولهم إلى التفكير الجرئ ، وسلوكهم نحو الكياسة والفطنة ، وإلى نظم الشعر والدراما والفن . وحول هذه الحاشية ، وهذه المرأة تكاد تكون قد تجمعت كل عبقرية إنجلترا فى أزهى عصورها .

٥ — اليزابث والدين

احتدمت معركة الاصلاح الدينى المريرة داخل البلاط الملكى والأمة ، وأثارت مشكلة اتجه تفكير كثير من الناس إلى أنها ستربك المملكة وتدمرها ، فقد كان ثلثا إنجلترا : وربما ثلاثة أرباعها من الكاثوليك[٣٩]. وكان معظم القضاة والحكام وكل رجال الدين من الكاثوليك . وكان البروتستانت محصورين فى الثغور الجنوبية والمدن الصناعية ، وكانت لهم الغلبة فى لندن حيث تضخم عددهم بسبب اللاجئين إليها من وجه الظلم فى القارة . أما فى المقاطعات الشمالية والغربية — وكلها زراعية تقريبا — فكان عددهم لا يكاد يذكر[٤٠] . وكانت روح البروتستانت على أية حال : أشد حماسا وغيرة من الكاثوليك بشكل لا يقاس . وفى ١٥٥٩ نشر جون فوكس كتابا يصف فيه ، فى غضب شديد ، معاناة البروتستانت فى العهد السابق : وترجمت مجلدات الكتاب فى ١٥٦٣ تحت اسم Aclesand Monuments (الأعمال والآثار) . وكانت معروفة بين الناس باسم « كتاب الشهداء » وكان لها أثر مثير فى نفوس البروتستانت الإنجليز لأكثر من قرن من الزمان . وكان للبروتستانتية

فى القرن السادس عشر الطاقة المحمومة لفكرة جديدة تناضل من أجل المستقبل ، على حين كان للكاثوليكية قوة المعتقدات والأساليب التقليدية المتأصلة فى أعماق الماضى .

وفى الأقلية الآخذة فى الانتشار زاد الاضطراب الدينى من نزعة الشك ، بل حتى الالحاد ، هنا وهناك . وباتت العقول العملية الواقعية شكاكة فى كل النظريات اللاهوتية ، بسبب الصراع بين المذاهب ، والنقد المتبادل بينها ، وتعصبها الدامى والتناقض بين الإيمان الذى يجهر به المسيحيون وبين سلوكهم . وإليك ما قال روجر أسكام فى « المعلم » ١٥٦٣ :

ان الإيطالى الذى ابتدع لأول مرة المثل الإيطالى ضد رجالنا الإنجليز الذين تشبهوا بالإيطاليين ، لم يعد يقصد زهوهم وخيلاءهم فى حياتهم أكثر مما يقصد رأيهم القبيح فى الدين . وإنهم لأشد اعتدادا بعظات شيشرون منهم برسائل القديس بولص ، وبقصة من بوكاشيو منهم بقصص الكتاب المقدس ، وانهم ليعتبرون أسرار الديانة المسيحية من قبيل الأساطير الخرافية ، ويجعلون المسيح والجيله فى خدمة السياسة المدنية ، ثم إن المذهبين كليهما (البروتستانتية والكاثوليكية) لا يأتيان خطأ إليهم . وفى الوقت المناسب يرفعون من شأنهما علانية ، وبين الجدران يسخرون منهما سرا . . . . وانى استطاعوا سبيلا ، ومع رفاقهم ، يضحكون أو يزدرون البروتستانتية والبابوية . ولا يلقون بالا إلى الكتب المقدسة ، وانهم ليهزأون بالبابا ، ويشكون مر الشكوى ، وبألفاظ جارحة ، لوثر . . . . . ان المعبود الذى يرتضون ليس إلا مسرتهم الشخصية ونفعهم الخاص . ومن ثم فانهم يعلنون فى وضوح أنهم يتبعون فى حياتهم مدرسة الأبيقوريين ، وأنهم من الناحية النظرية ملحدون[٤١] .

وشكا سيسل (١٥٦٩) من « أن الساخرين من الدين والأبيقوريين والملحدين موجودون فى كل مكان[٤٢] » . وفى ١٥٧١ صرح جون ستريب Strype « هناك كثيرون تخلوا عن الكنيسة تماما ، ولم يعودوا يحضرون لأداء واجباتهم الدينية[٤٣] » وذهب جون ليلى Lyly (١٥٧٩) إلى أنه « لم يكن بين الوثنيين الهمجيين مثل هذه

الفرق الدينية ، ولا مثل هذه المعتقدات الخاطئة بين الكفار ، مثل ما هو حادث الآن بين العلماء[٤٤] » . وألف علماء اللاهوت وغيرهم كتبا كثيرة ضد « الالحاد » وهو يعني على أية حال الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بألوهية المسيح . وفى ١٥٧٩ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٩ أحرق بعض الأفراد لانكارهم ألوهية المسيح[٤٥] : واشتهر عدد من الروائيين — جرين ، كد Kyd ومارلو — بأنهم ملحدون . إن الدراما فى عصر اليزابث — وهى فيما عدا ذلك تصور الحياة تصويرا شاملا — تتضمن أقل القليل عن صراع المعتقدات ، ولكنها تعرض الأساطير الوثنية أكبر عوض .

وفى رواية شكسبير Love's Labour's Lost هناك بيتان غامضان :

أى تناقض هذا ؟ السواد شارة الجحيم ،
ولون السجن و مدرسة الليل .

وفسر كثيرون[٤٦] العبارة الأخيرة على أنها تشير إلى الاجتماعات التى كان يعقدها والتر رالى ، والعالم الفلكى توماس هاريوت ، والعالم لورنس كيمس ، وربما الشاعران مارلو وتشابمان ، وغيرهم ، فى دار رالى الريفية فى شربورن ، لدراسة الفلك والجغرافيا والكيمياء والفلسفة واللاهوت . وقال أنتونى رود عالم الآثار عن هاريوت — ومن الواضح أنه الزعيم الفخرى لهذه الجماعة — « إنه كانت لديه أفكار غريبة عن الكتب المقدسة . وكان دائما يحط من قدر القصة القديمة عن الخلق (التكوين) . . . . . وألف لاهوتا نبذ فيه التوراة » . لقد آمن بالله ، ولكنه أنكر الوحى وألوهية المسيح[٤٧] » وكتب روبرت بارسونز — وهو من الجزويت — فى ١٥٠٢ عن « مدرسة والتر رالى للالحاد . . . . . حيث كانت السخرية من موسى وعيسى المخلص ، والتوراة والإنجيل على حد سواء ، ولقن التلاميذ أن يطرحوا الرب وراء ظهورهم[٤٨] » واتهم رالى بأنه استمع إلى بحث قرأه مارلو عن » الالحاد » . وفى مارس ١٥٩٤ أجتمعت لجنة حكومية فى Cerne Abbes فى دورست ، للتحقيق فى شائعات راجت عن مجموعة من الملحدين فى الأماكن المجاورة ، ومن بينها موطن رالى . ولم يؤد التحقيق إلى إجراء معروف لدينا اليوم . ولكن تهمة الالحاد وجهت إلى رالى أثناء محاكمته (١٦٠٣)[٤٩]. وفى

مقدمة كتابه « تاريخ العـــالم » أشار إلى إيمانه بالرب ، على أنه نقطة يتناولها بالتفصيل فيما بعد .

وحامت الشبهات فى حرية الفكر حول اليزابث نفسها . ويقول جون ريتشارد جرين « لم توجد قط امرأة مثلها مجردة تجردا تاما من أية عاطفة نحو الدين[٥٠] » . ويقرر المؤرخ الإنجليزى فرود « أن اليزابث لم يكن لديها اقتناع عاطفى واضح . . وأنها ، وهى التى كان إيمانها بصـــدق المذهب البروتستانتى والمذهب الكاثوليكى ضعيفا على حد سواء ، كانت تنظر باحتقار موســوم بالتسامح إلى كل الأفكار والنظريات اللاهوتية[٥١] » . لقد دعت الله بأغلظ الأيمان التى أزعجت وزراءها . أن يدمرها إذا هى نقضت عهدها بالزواج من ألنسون ، على حين أنها فيما بينها وبين نفسها سخرت من مزاعمه بطلب يدها[٥٢] . وصرحت الملكة لمبعوث أسبانى بأن الفرق بين المذاهب المسيحية المتناحرة لم يكن سوى « شىء تافه » ، ومن ثم استخلص أنها ملحدة[٥٣] .

وعلى الرغم من كل شىء ، فانها ، مثل كل الحكومات تقريبا قبل ١٧٨٩ ، اعتبرت كقضية مسلم بها ، أن شيئا من الدين وشيئا من مصدر القوة الخارقة وشيئا من الوازع الأخلاقى ، كل أولئك أمور لا يمكن الاستغناء عنها من أجل النظام الاجتماعى والاستقرار فى الدولة . ولفترة من الوقت ، حتى دعمت مركزها ، بدا أنها تتردد ، وتلاعبت على آمال زعماء الكاثوليك فى احتمال أن يكسبوها فى مذهبهم العام ، لقد أحبت الطقوس الكاثوليكية وعزوبة رجال الدين الكاثوليك ، ودراما القداس ، ولربما كان من المحتمل أن تعقد أواصر السلام مع الكنيسة ، لولا أن هذا كان يحمـــل فى طياته الخضوع للبابا . وارتابت فى الكاثوليكية على أنها قوة أجنبية يمكن أن تؤدى بالإنجليز إلى وضع اخلاصهم للكنيسة فوق ولائهم للملكة . ولقد ترعرعت فى أحضان بروتستانتية والدها ، وهى تعنى الكاثوليكية بغــير البابوية : وهذا ، أساسا ، هو ما عقدت العزم على إقراره من جديد فى إنجلترا . وراودها الأمل فى أن تهدئ الطقوس شبه الكاثوليكية فى كنيستها الإنجليزية من روع الكاثوليك فى الريف . على حين يرضى نبذ البابوية البروتستانت فى المدن ، وتشكل

الرقابة الحكومية على التعليم الجيل وفى هذه التسوية التى دبرتها اليزابث ، فهدأ هذا الصراع الدينى الذى يمزق البلاد ، ويستتب السلام . انها اتخذت من ترددها فى موضوع الدين ، مثل ترددها فى أمر الزواج ، وسيلة لخدمة أغراضها السياسية ، وأبقت على أعدائها الأقوياء مذهولين ممزقين حتى أصبح فى مقدورها أن تواجههم بحقيقة بارعة كاملة .

وحرضتها قوى كثيرة على استكمال الاصلاح الدينى . وكتب إليها المصلحون الدينيون فى أنحاء القارة شاكرين لها سلفا اعادة العبادة الجديدة . وأثرت فيها رسائلهم. وكان الذين استولوا على الأراضى التى كانت ملكا للكنيسة من قبل ، يرجون تسوية بروتستانتية . وأغرى سيسل اليزابث بأن تجعل من نفسها زعيمة لأوربا البروتستانتية . وأبدى البروتستانت فى لندن مشاعرهم بتحطيم تمثال للقديس توماس والقائه فى عرض الطريق . وكان أول برلمان فى عهدها — ٢٣ يناير — ٨ مايو ١٥٥٩) بروتستانتيا بأغلبية ساحقة ، وتمت الموافقة على الاعتمادات التى طلبتها دون تحفظ أو ابطاء . ومن أجل توفيرها فرضت ضريبة على كل الأفراد ، دينيين أو علمانيين . وصدر قانون التنسيق الجديد Act of Uniformity (١٨ أبريل ١٥٥٩) وبمقتضاه أصبح « كتاب كرامر للصلوات العامة » ، بعد مراجعته ، هو قانون الطقوس الانجليزية ، وحرم كل ما عداه من الطقوس الدينية ، وألغى القداس ، وطلب إلى كل الانجليز حضور صلوات يوم الأحد فى الكنيسة الأنجليكانية ، أو دفع غرامة قدرها شلن لمعونة الفقراء . وفى ٢٩ أبريل صدر « قانون السيادة » الجديد الذى نص على أن تكون اليزابث الحاكم الأعلى لانجلترا فى المسائل الروحية والزمنية على السواء . ووضع « قسم السيادة » يعترف بالسيادة الدينية للملكة ، وكان من المحتم أن يؤدى هذا القسم كل رجال الدين والمحامين والمعلمين ، والمتخرجين فى الجامعات والحكام والقضاة وكل موظفى الكنيسة والتاج ، وعهد إلى محكمة كنسية ذات سلطة عليا ، تختار الحكومة أعضاءها ، باجراء التعيينات الكبرى فى الكنيسة واتخاذ القرارات الكنسية . وأى دفاع عن سلطة البابا على انجلترا كان عقابه السجن مدى الحياة لأول مخالفة والموت للثانية (١٥٦٣) . ولم تأت سنة ١٥٩٠ حتى كانت

كل الكنائس الانجليزية بروتستانتية .

وزعمت اليزابث أنها لم تضطهد حرية الرأى . فقالت ان لكل إنسان أن يتمتع بحرية الفكر وحرية العقيدة كما يشاء . شريطة أن يطيع القانون ؛ وان كل ما تتطلبه هو الانسجام الخارجى : حرصا على وحدة الأمة . وأكد لها سيسل : « أن هذه الدولة لن تستشعر الأمان والاطمئنان ، ما دام فيها تسامح نحو عقيدتين[٥٤] » — ولو أن هـذا لم يمنعها من طلب التسامح مع البروتستانت الفرنسيين فى فرنسا الكاثوليكية[٥٥] . ولم يكن لديها اعتراض على الرياء المسالم ، على ألا تكون حرية الرأى هى حرية الكلام . ومن ثم فان الوعاظ الذين لم يشاركوها وجهات نظرها فى أى موضوع هام كان مصيرهم أن تخرس ألسنتهم أو يطردوا[٥٦] . وحددت من جديد قوانين الهرطقة وطبقت . وحرم من حماية القانون طائفة الموحدين (الذين يقولون بالتوحيد لا التثليث) والقائلين باعادة تعميد البالغين[٥٧] . وأعدم أثناء حكم الملكة خمسة من المهرطقين ، وهذا رقم متواضع فى ذاك الزمان .

وحدد مجمع من رجال اللاهوت فى ١٥٦٣ المذهب الجديد . واتفق رأى الجميع على « القضاء والقدر » . فان الله بمحض مشيئته ، قبل خلق الدنيا . ودون اعتبار لمزايا الإنسان أو مثالبه . كان قد اصطفى أفرادا ليكونوا من الصفوة التى كتب لها الخلاص ، على حين ترك بقية البشر من الهالكين الملعونين . وتقبلوا فكرة لوثر عن الخـلاص بالإيمان بنعمة الله ، ودم المسيح المخلص ، على أنهم فسروا « القربان المقدس » بالمعنى الذى ذهب إليه كلفن ، أى أنه اتصال روحى أكثر منه مادى بالمسيح . وبمقتضى قرار من البرلمان (١٥٦٦) انتظمت المواد التسع ، والثلاثون العقيدة الجديدة . وأصبحت اجبارية على كل رجال الدين فى إنجلترا ، ولا تزال تعبر عن المذهب الانجليكانى الرسمى .

وكذلك كانت الطقوس الجديدة حلا وسطا . فالغى القداس ، ولكن مما أزعج البيوريتانز أن صدرت التعليمات إلى رجال الدين بارتداء الملابس الكهنوتية البيضاء عند تلاوة الصلوات وعند تقديم القربان المقدس . وكان يجب تناول القربان ركوعا — فى شكلى الخبز والنبيذ . واستبدل بالتوسل بالقديسين الاحتفال سنويا بذكرى أبطال

البروتستانتية ، واستبقى تثبيت العماد ورسامة الكهنة على أنهما طقوس مقدسة ، ولكن لا يعتبران من الأسرار المقدسة التي عينها السيد المسيح ، وشجع الاعتراف للكاهن في حالة دنو الأجل فقط . واحتفظ كثير من الصلوات بصيغته الكاثوليكية الرومانية ، ولكنها اكتست بالرداء الانجليزي ، وأصبحت جزءا بارزا عظيما من آداب الأمة . ولمدة أربعمائة سنة ، نفخت هذه الصلوات والتراتيل التي تتلوها الفرق أو الكاهن في الكاتدرائيات الفسيحة الفخمة ، أو في كنيسة الأبرشية البسيطة — نقول نفخت في روح الاسرات الانجليزية وحياتها ، وزودتها بالسلوى والتهذيب الخلقي والهدوء العقلي .

٦ — اليزابث والكاثوليك

والآن جاء دور الكاثوليك ليعانوا من الاضطهاد . فقد كان محرما عليهم — ولو انهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية — أن يقيموا الصلوات الكاثوليكية ، أو يكون لهم أدب كاثوليكي . وحطمت الصور المقدسة في الكنائس بأمر الحكومة ، كما أزيلت المذابح . وأرسل ستة من طلبة اكسفورد إلى « البرج » لمقاومتهم إزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كليتهم[٥٨] ، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة في حزن وأسى ، ولكن عددا كبيرا منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الانجليكانية . وجمع المجلس الملكي نحو خمسين ألفا من هؤلاء « العصاة المتمردين » في إنجلترا (١٥٨٠)[٥٩] . وشكا الأساقفة الانجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام في بيوت خاصة ، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة ، وأنه كان من الخطر في بعض الجهات المتحمسة أن يكون المرء بروتستانتيا[٦٠] . ووبخت اليزابث رئيس الأساقفة باركر على تراخيه (١٥٦٥) ، ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة . وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس في كنيسة سفير أسبانيا ، وفتشت البيوت في لندن — وأمر الأجانب الذين وجدوا فيها بالادلاء ببيان عن ديانتهم ، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الروماني الكاثوليكي (١٥٦٧)[٦١] .

ويجدر بنا ألا نحكم على هذا التشريع على أساس التسامح الديني النسبي الذي أكسبنا اياه الفلاسفة والثورات في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فان المعتقدات آنذاك كانت تحارب بعضها بعضا ، وكانت متشابكة بالسياسة : وفي هـذا المجال كان التسامح محدودا . فقد اتفقت كل الأحزاب والحكومات في القرن السادس عشر على أن الانشقاق الديني كان شكلا من التمرد السياسي . وأصبح الصراع الديني — عندما أصدر البابا بيوس الخامس — بعد احساسه بأنه تأخر تأخيرا طويلا مملا — مرسوما (١٥٧٠) ، لم يحرم اليزابث من الكنيسة فحسب ، بل أحل رعاياها من الولاء لها كذلك ، وحرم عليهم الامتثال لتنبيهاتها وأوامرها وقوانينها » . ومنع انتشار المرسوم في أسبانيا وفرنسا اللتين كانتا تخطبان ود إنجلترا آنذاك ، ولكن نسخة منه وضعت بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتي في لندن وسرعان ما كشف المحرم وأعدم ، وعندما ووجه وزراء الملكة بهذا الإعلان للحرب ، طلبوا إلى البرلمان سن قوانين أشد صرامة ضد الكاثوليك ، وصدرت تشريعات تنص على أنه يعتبر من الجرائم التي يعاقب مرتكبوها بالاعدام : قذف الملكة بأنها هرطيقة أو منشقة أو مغتصبة . أو طاغية : أو ادخال مرسوم بابوي إلى إنجلترا ، أو تحويل بروتستانتي إلى الكنيسة الرومانية[٦٢]. وفوضت المحكمة العليا في اختبار آراء أي فرد مشتبه فيه ، وأن تعاقبه على أية مخالفة لأي قانون ، لم يعاقب عليهـا من قبل ، بمـا في ذلك الفسق أو الزني[٦٣] .

ولم يجد ماوك أوربا الكاثوليك لديهم من الجرأة ما يحتجون به على هـذه الاجراءات الظالمة التي شابهت إجراءاتهم إلى حد كبير ، واستمر معظم كاثوليك إنجلترا على الخضوع في سلام ، وأملت حكومة اليزابث في أن تؤدي العادة إلى القبول والرضا ، ثم الايمان في الوقت المناسب ؛ ولكن حال دون هذا أن وليم ألن Allen المهاجر الانجليزي أسس في دوي Douai (مدينة في شمال فرنسا) ثم في الأراضي الوطيئة الأسبانية ، كلية ومعهدا لاهوتيا لتدريب المبعوثين الانجليز الكاثوليك لارسالهم إلى إنجلترا . وأفصح عن غرضه في حماسة قائلا :

إن دراستنا في المقام الأول . . . تقوم على أن نثير في عقول الكاثوليك الحماسة

والازدراء المبنى على الحق بالمراطقة . وإنا لنفعل هذا بأن نضع أمام أعين الطلاب الجلال الفريد الذى تتميز به طقوس الكنيسة الكاثوليكية فى المكان الذى نعيش فيه . . . وفى نفس الوقت نعيد إلى الذاكرة النقيض المحزن الذى يحدث فى وطننا ، ألا وهو الدمار الشامل الذى حل بكل الأشياء المقدسة هناك . . . وأصدقائنا وأقربائنا ، وأعزائنا ، إلى جانب الأرواح التى لا تحصى ، ممن هلكوا فى الانشقاق والكفر ، وفى الأبراج المحصنة والسجون المكتظة عن آخرها ، لا باللصوص والأشرار ، بل بكهنة المسيح وخدامه ، بل كذلك بآبائنا وأنسبائنا وعشيرتنا . ومن ثم فليس هناك شىء يجدر بنا ألا نكابده، أكثر من أن نتعهد بعلاج ما تعانيه أمتنا من علل[٦٤] .

وعملت الكلية فى دوى حتى ١٥٧٨ ، حين استولى الكلفنيون على المدينة ، ثم فى ريمس ؛ ثم فى دوى ثانية (١٥٩٣) . وأخرج إنجيل دوى — وهو ترجمة إنجليزية عن الأصل اللاتينى الذى وضعه جيروم — فى ريمس ودوى (١٥٨٢ — ١٦١٠) وكان معدا للنشر قبل طبعة الملك جيمس بسنة واحدة . وفيما بين عامى ١٥٧٤ و ١٥٨٥ رسمت الكلية ٢٧٥ كاهنا من المتخرجين فيها ، وأرسلت ٢٦٨ منهم للعمل فى إنجلترا . واستدعى ألن إلى رومه وعين كاردينالا . ولكن العمل فى الكلية استمر ، وأرسلت ١٧٠ كاهنا آخر إلى إنجلترا قبل وفاة اليزابث (١٦٠٣) ، ومن مجموع هؤلاء المبعوثين (٤٣٨) عوقب ٩٨ بالاعدام .

وانتقلت رياسة هذه الارساليات إلى رجل من الجزويت ، هو روبرت بارسونز Parsons ، وهو رجل يتقد حماسة وجرأة وشجاعة ، قوى الحجة شديد المراس فى المناظرة والجدل ، بارع فى النثر الانجليزى . وأعلن بصراحة أن مرسوم خلع اليزابث يبرر قتلها . وصعق كثير من الكاثوليك الانجليز لدى سماع هذا التصريح ، ولكن تولوميو جالى ، أحد مستشارى البابا جريجورى الثالث عشر السياسيين أبدى موافقته على هذه الفكرة[٦٥] (*) . وحرض بارسونز الدول الكاثوليكية على غزو

(*) يضيف مؤرخ كاثوليكى إلى ذلك قوله : « إذا كان مستشار البابا أقر قتل اليزابث فان هذا يتفق مع القانون الذى كان نافذا آنذاك . كما أن جريجورى أيضا — ولا بد أن مستشاره كان قد عرض عليه الأمر قبل ارسال كتابه — وافق على هذه الفكرة (٦٦)

إنجلترا . ولكن السفير الأسبانى فى إنجلترا استنكر هـذه الخطة على أنها « حماقة إجرامية » ، وحرم افرار مركوريان Everard Mercurian رئيس طائفة الجزوبت — على بارسونز التدخل فى السياسة[٦٧] . ولم يرتدع ، وعقد العزم على أن يغزو إنجلترا شخصيا . وتنكر فى زى ضابط إنجليزى عائد من الخدمة فى الأراضى الوطيئة . وهيأت له عصاه العسكرية وسترته الموشاة بالخيوط الذهبية وقبعته ذات الريش ، الوصول إلى موظفى الحدود (١٥٨٠) ، بل انه كذلك مهد الطريق لرجل آخر من الجزوبت ، ادموند كامبيون ، ليتبعه فى زى تاجر مجوهرات ، وأقاما سرا فى قلب لندن .

وزار الرجلان الكاثوليك المسجونين ، ووجدا أنهم يعاملون معاملة حسنة . وقد جندا معاونين علمانيين وروحانيين ، وشرعا فى العمل ، يحثان ويشجعان الكاثوليك على أن يبقوا مخلصين للكنيسة ، ويردان البروتستانت الحديثين إلى مذهبهم الأول . ولكن القساوسة المدنيين المختفين فى إنجلترا ، الذين روعتهم جرأة الرجلين ، أنذروهما بأنهما لا بد أن يكشف أمرهما ويقبض عليهما سريعا ، وان اكتشافهما سوف يسيء أكثر إلى الكاثوليك ، وتوسلوا إليهما أن يعودا إلى القارة . ولكن بارسونز وكامبيون تمسكا بموقفهما . وانتقلا من بلد إلى بلد ، يعقدان الاجتماعات سرا ويسمعان الاعترافات ، ويقيمان القداس ، ويمنحان البركات للمصلين الهامسين الذين نظرا إليهما على أنهما رسولان من عند الله . وقيل إنهما فى بحر سنة من قدومهما حولا عشرين ألف مرتد[٦٨] ، وانشأا مطبعة ونشرا الدعاية ، ولقد وجدت فى شوارع لندن نشرات جاء فيها أنه ما دامت اليزابث قد حرمت من الكنيسة ، فانها لم تعد الملكة الشرعية لإنجلترا[٦٩] . وأرسل رجل جزويتى ثالث إلى ادنبره ليحرض الاسكتلنديين الكاثوليك على غزو إنجلترا من الشمال . ولبى ارل وستمورلاند نداء من الفاتيكان ، وأحضر معه من رومه إلى الفلاندرز مجموعة من السبائك الذهبية لتمويل الغزو من الأراضى الوطيئة . وفى صيف ١٥٨١ اعتقد كثير من الكاثوليك أن قوات دوق ألفا الأسبانية سوف تعبر البحر إلى إنجلترا[٧٠] .

وتلقت الحكومة الإنجليزية تحذيرات من جواسيسها ، فضاعفت جهودها للقبض

على الجزويت . أما بارسونز فقد شق طريقه عبر القنال الإنجليزى ، ولكن قبض على كامبيون فى يولية ١٥٨١ . ونقل إلى « برج لندن » عبر القرى المتعاطفة ولندن المعادية . وارسلت اليزابث فى طلبه وحاولت انقاذه . وسألته : هل يعتبرها عاهله الشرعى ؟ فرد بالإيجاب . وكان سؤالها الثانى هل يستطيع البابا قانونا أن يحرمها من الكنيسة ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يبت فى مسألة اختلف عليها أولو العلم . فأعادته إلى البرج ، مع توجيهات بحسن معاملته ، ولكن سيسل أصدر أوامره بتعذيبه حتى يعترف بأسماء رفاقه المتآمرين . وبعد يومين من الكرب والألم المبرح استسلم وأدلى ببضعة أسماء ، فألقى القبض على عدد آخر من الأفراد . فلما استعاد جرأته تحدى رجال الدين البروتستانت أن يشهدوا معه حوارا عاما . وعقد الحوار فى كنيسة برج لندن ، باذن من مجلس شورى الملكة ، وسمح لرجال البلاط والمسجونين والجمهور بحضوره ، ووقف الجزويتى على ساقيه الواهنتين عدة ساعات يدافع عن المذهب الكاثوليكى . ولم يقنع أحد الطرفين الآخر . ولكن عند ما قدم كامبيون إلى المحاكمة لم يتهم بالزندقة ، بل وجهت إليه تهمة التآمر على قلب الحكومة عن طريق التخريب الداخلى والغزو الخارجى . وأدين كامبيون وأربعة عشر شخصا معه ، وشنقوا فى أول ديسمبر ١٥٨١ .

إن أولئك الكاثوليك الذين تنبأوا بأن بعثة الجزويت سوف تغضب الحكومة وتؤدى بها إلى مزيد من الاضطهاد ، اثبتوا أنهم كانوا على حق . وأصدرت اليزابث نداء إلى رعاياها ، ليفصلوا بينها وبين أولئك الذين ابتغوا سبيلا إلى عرشها أو حياتها واصدر البرلمان (٥٨١) قانونا ينص على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى ، وأن أى قسيس يقيم قداسا يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام ، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيها فى الشهر[٧١] ، وهذا يكفى لافلاس الناس اللهم إلا أثرياء الكاثوليك . وكان العجز عن دفع الغرامة يستتبع الاعتقال ومصادرة الأملاك . وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استعملت بمثابة سجون[٧٢] . وساد التوتر كل الجوانب ، وزاد من حدته ما كان مرتقبا من إعدام مارى ستيوارت ،

والصراع المتزايد مع أسبانيا وروما . وفى يونية ١٥٨٣ قدم أحد سفراء البابا إلى جريجورى الثالث عشر خطة تفصيلية لغزو إنجلترا بثلاثة جيوش فى وقت واحد ، من إيرلنده وفرنسا وأسبانيا وأبدى البابا تقديره وتأييده لمشروع غزو إنجلترا ، واتخذت الإجراءات اللازمة له[٧٣] . ولكن الجواسيس الإنجليز تنسموا أخبار هذه التدابير ، واتخذت إنجلترا ترتيبات مضادة ، وأجل الغزو .

وثأر البرلمان بمزيد من تشريعات القمع . فكل القساوسة الذين رسموا منذ يونية ١٥٥٩ وظلوا على امتناعهم عن أداء « قسم السيادة » ، طلب إليهم أن يغادروا البلاد فى بحر أربعين يوما ، وإلا أعدموا بتهمة التآمر الموسوم بالخيانة العظمى ، وشنق كل من آووهم أو أخفوهم[٧٤] . وبمقتضى هذا القانون وغيره من القوانين أعدم فى عهد اليزابث ١٢٣ قسيسا و٦٠ من العلمانيين ، وربما قضى مائتان آخرون نحبهم فى السجن[٧٥] . واحتج بعض البروتستانت على قساوة هذا التشريع ، وارتد بعضهم إلى الكاثوليكية . وفر وليم ، حفيد سيسل إلى روما (١٥٨٥) واقسم يمين الطاعة للبابا[٧٦] .

وكان معظم الكاثوليك الإنجليز يعارضون أى إجراء عنيف ضد الحكومة . وفى ١٥٨٥ وجهت زمرة منهم إلى الملكة اليزابث نداء أكدوا فيه ولاءهم ، والتمسوا « النظر بعين العطف والرحمة إلى ما يعانون من شقاء » . ولكن — وكأنما كان يؤيد ما زعمته الحكومة من أن إجراءاتها إنما تبررها الحرب — أصدر الكاردينال ألن (١٥٨٨) منشورا قصد به شحذ همم الإنجليز الكاثوليك لمساندة هجوم أسبانيا الوشيك على إنجلترا . ودمغ الملكة بأنها « ابنة زنى حمل بها وولدت فى الخطيئة لأم سيئة السمعة من محظيات البلاط » واتهمها « بأنها باعت جسدها ولوثته مع ليستر وكثيرين غيره ، . . . مما يندى الجبين لذكره ، وبما لا يصدق من ألوان الشهوة والفسق » ، وأهاب بالكاثوليك فى إنجلترا أن يهبوا فى وجه هذه الهرطيقة الفاسقة اللعينة المحرومة من الكنيسة » ، « ووعد بأكبر التسامح والغفران كل من يعاون فى خلع « رأس الخطيئة والمقت فى هذا العصر[٧٧] » فما كان جواب الكاثوليك فى إنجلترا إلا أن قاتلوا بمثل البسالة التى قاتل بها البروتستانت ضد الأسطول الأسبانى « الأرمادا » .

واستمر الاضطهاد بعد هذا الانتصار، كجزء من الحرب المستمرة ، وشنق ٦١ قسيسا و ٤٩ علمانيا فيما بين عامى ١٥٨٨ — ١٦٠٣ . واقتلع كثير من هؤلاء من المشنقة وسحبوا ونزعت أحشاؤهم وقطعوا اربا — وهم أحياء[٧٨] . وفى خطاب شهير قدم إلى الملكة فى عام وفاتها ، التمس ١٣ قسيسا الترخيص لهم بالبقاء فى إنجلترا . وتبرأوا من كل عدوان على حقها ، وانكروا أى سلطان للبابا فى خلعها، ولكنهم لم يستطيعوا ، فى ضمائرهم ، أن يعترفوا بغير البابا على رأس الكنيسة لمسيحية[٧٩] . ووصلت هذه الوثيقة إلى الملكة قبل وفاتها بأيام قلائل ، ولم يرد ذكر شىء عن نتيجتها ، ولكنها ، عن غير عمد ، ولمدة قرنين من الزمان ، رسمت المبادئ التى يمكن على أساسها حل المشكلة . ووافى الملكة أجلها منتصرة فى أعظم صراع شهده عهد لم يلطخ بشىء أسوأ من هذا الانتصار .

٧ — البزابث والبيوريتانيون (المتطهرون)

لم تنتصر البزابث على العدو الذى كان من الواضح أنه أشد ضعفاً ، وهم حفنة من البيوريتان . وكانوا رجالا أحسوا تأثير كلفن ، وكان بعضهم قد زار جنيف فى أيامه بوصفهم لاجئين مريميين ، وقرأ كثيرون الانجيل الذى ترجمه وزوده بالملاحظات والتعليقات جماعة من أتباع كلفن بجنيف ، وكان بعضهم قد سمع أو قرأ عن نفخات بوق جون نوكس (واعظ ومصلح دينى بروتستانتى اسكتلندى فى القرن / ١٦) ، وربما كان بعضهم قد سمع أصداء حركة ويكلف وأتباعه « القساوسة الفقراء » . وقد اتخذوا من الانجيل دليلا لا يخطئ ، فلم يجدوا فيه شيئا عن الدرجات الأسقفية والملابس الكهنوتية التى نقلتها البزابث عن الكنيسة الرومانية إلى الكنيسة الأنجليكانية ، بل إنهم على النقيض من ذلك وجدوا كثيرا عن المشايخ (الكهنة) الذين لم يكن لهم سيد أو ملك غير المسيح وأقروا بأن البزابث رأس الكنيسة فى إنجلترا ، لا لشىء إلا لغل يد البابا ، ولكنهم فى أعماق قلوبهم ، رفضوا أية رقابة من الدولة على الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة . وبدئ حوالى ١٥٦٤ بتسميتهم « البيوريتانز » (المتطهرون) وهو لفظ أسئ استخدامه ، لأنهم طالبوا بتطهير المذهب البروتستانتى الإنجليزى من كل الطقوس والعبادات غير الوارة

فى العهد الجديد — الانجيل . واستمسكوا كل الاستمساك بنظريات القضاء والقدر ، والاصطفاء ، واللعنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا باخضاع كل ناحية من نواحى الحياة للدين والأخلاق . وكلما قرأوا الانجيل فى أيام الأحد المقدسة المهيبة فى بيوتهم ، كاد أن يتوارى شكل المسيح أمام الرب الحقود المحب للانتقام « يهوه » الوارد ذكره فى التوراة (اشارة إلى تشددهم وقسوتهم) .

وبدات حملة البيوريتانز على اليزابث فى الظهور (١٥٦٩) عندما ألحت محاضرات توماس كارتريت أستاذ اللاهوت فى كمبردج ، على أوجه التناقض بين نظام المشيخية فى الكنيسة المسيحية القديمة والكيان الأسقفى فى الكنيسة الرسمية الانجليكانية . وأيد كثيرون فى الكلية كارتريت ، ولكن جون وتجفت Whitgift رئيس كلية ترنتى ، أبلغ الملكة بما كان من أمر كارتريت ووشى به لديها ، وحصل على موافقتها ، على فصله من هيئة التدريس (١٥٧٠) . وهاجر كارتريت إلى جنيف حيث نهل — تحت رياسة تيودور دى بيز de Bèze — أصول التيوقراطية الكلفنية فى أقوى صورها . ولدى عودته إلى إنجلترا ، أسهم مع والتر ترافرس وآخرين فى صياغة فكرة البيوريتانز عن الكنيسة . ومن رأيهم أن السيد المسيح كان قد استن أن يعهد بالسلطة الكنسية إلى الكهنة وكبار السن من العلمانيين . كل أولئك تنتخبهم كل أبرشية ومديرية ودولة . وتقرر الهيئة المشكلة على هذا النحو ، المذهب والطقوس والقانون الأخلاقى ، بما يتسق مع ما جاء فى الكتاب المقدس . وكان ينبغى أن يكون لهم حق الدخول إلى كل بيت ، والسلطة التى يفرضون بها الالتزام « بالحياة الربانية أو بأوامر الرب ونواهيه » ، من حيث المظهر الخارجى على الأقل ، كما يكون لهم الحق فى حرمان المتمردين من الكنيسة ، و لحكم بإعدام الهراطقة . وكان على القضاة المدنيين أن ينفذوا هذه المراسيم التنظيمية ، على ألا يكون للدولة أى سلطان قضائى روحى بأى شكل من الأشكال(٨٠) .

وأسست أول أبرشية إنجليزية على هذه المبادئ فى واند زورث Wandsworth فى ١٥٧٢ ، وقامت كنائس (مشيخيات) مماثلة فى المقاطعات الشرقية والوسطى . وفى هذا الوقت كانت أغلبية البروتستانت فى لندن وفى مجلس العموم من البيوريتانز

واستحسن الحرفيون فى لندن ، الذين تسربت إليهم بقوة مبادئ كلفن ، عن طريق اللاجئين الكلفنيين من فرنسا والأراضى الوطيئة — نقول استحسن هؤلاء الحرفيون ، هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفى وعلى الطقوس : ونظر رجال الأعمال فى العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع للبروتستانتية ضد الكاثوليكية التى لا تنظر بعين الرضا بصفة تقليدية إلى « الربا » وإلى الطبقة المتوسطة . وكان كلفن « صارما » بعض الشيء فى نظرهم ولكنه كان قد أقر « الفائدة » واعترف بمزايا الصناعة والادخار ، وحتى المقربون إلى الملكة وجدوا بعض الخير لهم فى البيوريتانية ، بل أن سيسل ولستر ، وولسنجهام ونولليس راودهم الأمل فى أن يستخدموها سيفا يشهرونه فى وجه الكاثوليكية إذا وصلت مارى ستيوارت إلى عرش إنجلترا [٨١] .

ولكن اليزابث أحست بأن الحركة البيوريتانية تهدد كل التسوية التى دبرتها لتهدئة الصراع الدينى ، وارتأت أن الكالفنية شبيهة بنظرية جون نوكس الذى لم تغفر له الملكة قط احتقاره لحكم النساء . واحتقرت النظريات البيوريتانية المتشددة من كل قلبها ، وربما إلى حد أكبر من كراهيتها للكاثوليكية ، وكان لها ولع قديم بصورة المسيح المصلوب ، وغيرها من الصور الدينية ، وعندما دمرت الثورة ضد الصور المقدسة اللوحات والتماثيل والزجاج الملون فى أوائل حكمها[٨٢] ، قدمت التعويضات إلى ضحايا الثورة ، وحظرت اقتراف مثل هذا العمل فى المستقبل[٨٣] . ولم تكن تهتم بالتفاصيل الدقيقة فى كلامها ، ولكنها استاءت من الوصف الذى نعت به أحد البيوريتانيين « كتاب الصلوات بأنه نفاية مأخوذة من الاقذار البابوية : كتاب القداس » ، وما نعت به محكمة اللجنة العليا من أنها « خندق بغيض صغير[٨٤] » . كما رأت الملكة فى الانتخاب العام للكهنة وفى حكومة الكنيسة عن طريق المشايخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة ، شيئا من النظام الجمهورى الذى يهدد الملكية . ورأت أن سلطتها الملكية فحسب هى التى يمكن أن تبقى على البروتستانتية فى إنجلترا ، أما الاقتراع الشعبى فيؤدى إلى عودة الكاثوليكية .

وشجعت الأساقفة على التنكيل بمثيرى الفتنة ، فأوقف رئيس الأساقفة باركر مطبوعاتهم ، وأخرس ألسنتهم فى الكنائس ، ومنع اجتماعاتهم . وكان رجال الدين

البيوريتانز ينظمون اجتماعات للمناقشة العامة فى نصوص الكتب المقدسة ، فأصدرت اليزابث أمرها إلى باركر بوضع حد لهذه « المواعظ » ففعل . وحاول خلفه ادموند جرندال أن يحمى البيوريتانز ، ولكن اليزابث أوقفته عن العمل . ولما مات (١٥٨٣) عينت فى منصب رئيس أساقفة كنتربرى ، قسيسها الجديد ، جون وتجفت Whitgift الذى نذر نفسه لاخراس ألسنة البيوريتانز . وطلب إلى جميع رجال الدين الانجليز أن يؤدوا قسما بقبول « المواد التسع والثلاثين » ، وكتاب الصلوات ، والسيادة الدينية للملكة ، واستدعى كل المعارضين للمثول أمام محكمة اللجنة العليا ، وهنا تعرضوا لتحقيق تفصيلى ملح عن سلوكهم ومعتقداتهم ، إلى حد أن سيسل وازن بين هـذا الاجراء وبين محاكم التفتيش[٨٥] .

وازدادت حدة الثورة البيوريتانية ، وانشقت أقوية ذات عزم أكيد عن حظيرة الكنيسة الأنجليكانية ، وعقدت مجامع مستقلة لانتخاب الكهنة الخاصين بها ، ولم تعترف بأية رقابة أو سيادة أسقفية . وفى ١٥٨١ أقلع إلى هولنده روبرت براون — وكان تلميذ كارتريت (ثم أصبح عدوا له فيما بعد) ، وأول لسان ناطق باسم هؤلاء « المستقلين » أو « الانفصاليين » أو « الأبرشانيين » (الذين يقولون بالاستقلال الذاتى لكل أبرشية) ، وهناك نشر كراستين صاغ فيهما دستورا ديموقراطيا للمسيحية نص فيه على أنه يجب أن يكون لأية جماعة مسيحية الحق فى أن تنظم عبادتها ، وتشكل عقيدتها على أساس الكتاب المقدس ، وتختار رؤساءها وقادتها وتحيا حياتها الدينية متحررة من أى تدخل أجنبى ، ولا تعترف إلا بحكم الكتاب المقدس، وسلطان المسيح ، وقبض فى إنجلترا على اثنين من أتباع براون واتهما بالطعن فى السيادة الدينية للملكة ، وشنقا (١٥٨٣) .

وفى الحملات الانتخابية لبرلمان ١٥٨٦ شن البيوريتانز حربا خطابية على كل مرشح غير متعاطف مع مبادئهم . ودمغ مثل هذا الشخص بأنه « مقامر ، مدمن على الخمر ، كما وصم آخر بأنه « أقرب إلى البابوية أو الكثلكة ، قلما يأتى إلى كنيسته وانه داعر خليل للبغايا » وتلك كانت أيام الكلام القوى الحاسم . وعندما اجتمع البرلمان قدم جون بنرى التماسا لاصلاح الكنيسة ، واتهم الأساقفة بالمسئولية عن مفاسد رجال

الدين وعن الوثنية الشائعة . وأمر وتجفت باعتقاله ، ولكن سرعان ما أفرج عنه . وتقدم أنطونى كوب Cobe بمشروع قانون بإلغاء الكنيسة الرسمية الأسقفية برمتها واعادة تنظيم المسيحية الانجليزية على أساس الخطة المشيخية (على أساس الانتخاب) . وأصدرت اليزابث أمرها إلى البرلمان بعدم عرض مشروع القانون هذا للمناقشة . وأثار بيتر ونتورث موضوع الحرية البرلمانية ، وأيده أربعة آخرون من الأعضاء . فما كان من اليزابث إلا أن زجت بالخمسة جميعا فى السجن فى برج لندن .

ولما خاب فأل البيوريتانز فى البرلمان ، انصرف بنرى وآخرون إلى المنشورات ، وتخلصا من رقابة وتجفت الشديدة على المطبوعات ، وأغرقوا إنجلترا (١٥٨٨ — ١٥٨٩) ، بوابل من الكراسات المطبوعة سرا ، وكلها ممهورة بتوقيع « Martin Marprelate Gentleman » هاجموا فيها سلطة الأساقفة وخلقهم الشخصى فى نقد لاذع بذئ ممتلىء بالسباب . وبث وتجفت واللجنة العليا كل أجهزة التجسس للكشف عن المؤلفين والطابعين . ولكن هؤلاء كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر ، وساعدهم تعاطف الجمهور معهم على الافلات من أيدى الجواسيس حتى أبريل ١٥٨٩ . واستخدم الكتاب المحترفون — مثل جون ليلى ، وتوماس ناش — فى الرد على مارتن (صاحب التوقيع) ونافسوه أيما منافسة فى البذاءة . وأخيرا ، وعندما نفدت لغة السوقة ، خفت حدة الشتائم والتراشق ، ورثى الرجال المعتدلون لامتهان المسيحية على هذا النحو والانحدار بها إلى فن للمهارة والقدح .

وآلمت هذه النشرات الملكة أشد الايلام فأطلقت يد وتجفت فى كبح جماح البيوريتانز . وتقد عثر على من تولوا طبع Marprelate ، وزاد عدد المقبوض عليهم ، وتلا ذلك تنفيذ الاعدام ، وصدر الحكم بإعدام كرتريت ، ولكن الملكة أصدرت عفوا عنه . وفى ١٥٩٣ شنق أثنان من زعماء « حركة براون » ، هما جون جرينلند وهنرى بارو ، وسرعان ما لحق بهما جون بنرى . وأصدر البرلمان (١٥٩٣) قانونا ينص على أن كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة ، أو يتغيب عمدا عن الصلوات فى الكنيسة الأنجليكانية ، أو يشهد « اجتماعات أو صلوات سرية غير مشروعة أو لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة أو ادعاء لممارستها » يعاقب بالسجن

— فإذا لم يتعهد بالتزام العقيدة الرسمية ، عليه أن يغادر إنجلترا دون رجعة ، وإلا كان جزاءه الموت[٨٦] .

وعند هذا الحد ، وسط هذا العنف البالغ والاضطراب الشديد ، ارتفع قس متواضع بموضوع النزاع إلى مستوى الفلسفة والتقوى والنثر الرائع . وكان ريتشارد أحد اثنين من رجال الدين عهد إليهما باقامة الصلوات فى معبد لندن ، أما الثانى فهو والتر ترافرس ، صديق كارتريت . وفى موعظة الصباح دافع هوكر عن سيادة الېزابث الدينية ، وفى المساء انتقد ترافرس حكومة الكنيسة من وجهة نظر البيوريتانز ، ووسع كل منهما عظته حتى صارت كتاباً . ولما كان هوكر يكتب أدبا كما يكتب اللاهوت ، فقد توسل إلى أسقفه أن ينقله إلى بيت ريفى هادئ . ومن ثم فإنه فى بسكوم Boscombe فى ولتشير أكمل الأجزاء الأربعة الأولى من مؤلفه « قوانين الدولة الكنسية » (١٥٩٤) ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام ، فى Bishopsbourne أرسل الكتاب الخامس إلى المطبعة ، وهناك فى سنة ١٦٠٠ قضى نحبه ، وهو فى سن السابعة والأربعين .

ولقد أدهشت إنجلترا « قوانينه » بالوقار الهادئ غير المتحيز الذى اتسمت به مناقشته وحججه ، والعظمة الرزانة التى تميز بها أسلوب كتبه الذى كاد أن يكون لاتينيا . وامتدحه الأسقف ألن بأنه خير كتاب أخرجته إنجلترا . وأثنى عليه البابا كليمنت الثامن لفصاحته وغزارة علمه . وقرأته الېزابث شاكرة ممتنة على أنه دفاع مجيد عن حكومتها الدينية . وسكن روع البيوريتانز لما رأوا من الوضوح المهذب فى لهجته . وتلقته الأجيال بوصفه مجاملة نبيلة للتوفيق بين الدين والعقل ، وأدهش هوكر معاصريه بتسليمه بأن البابا نفسه يمكن تخليصه . وأذهل هوكر رجال اللاهوت بتصريحه بأن « توكيد ما نؤمن به بكلمة الرب ليس مقدا لنا قدر الاقتناع بما ندركه بالعقل[٨٧] » وأن موهبة التعليل والتعقل ، ان هى إلا هبة وإلهام من عند الله .

بنى هوكر نظريته فى « القانون » على فلسفة العصور الوسطى التى صاغها توماس الأكوينى ، وسبق نظرية « العقد الاجتماعى » التى جاء بها هوبز ولوك . وبعد أن أبرز ضرورة التنظيم الاجتماعى ونعمته ، جادل فى أن الاشتراك الاختيارى

فى مجتمع يتضمن قبول الحكم بقوانينه ، ولكن المنبع الأساسى للقوانين هو الجماعة نفسها . وقد يصدر الملك أو البرلمان القوانين بوصفه مفوضا أو ممثلا للجماعة فحسب. « ان القانون يصنع الملك ؛ وان أية منحة أو منة من الملك تتعارض مع القانون عقيمة لا قيمة لها . . . . ومن أجل الرضا السلمى من جانب الطرفين ، تبدو موافقة المحكومين ضرورية . . . وليست القوانين هى تلك التى لم يجعل منها الاستحسان العام قوانين(٨٨) » . وأضاف هوكر نبذة ربما أزعجت شارل الأول :

ان برلمان إنجلترا ، مع المجمع الكنسى الذى انضم إليه ، هو الأساس الذى تعتمد عليه كل حكومة فى هذه المملكة . بل انه جسم المملكة بأسرها ، انه ينتظم الملك وكل رعاياه على هذه الأرض ، لأنهم موجودون جميعا هناك بأشخاصهم . أو انهم فوضوه مختارين(٨٩) .

وبدا الدين فى نظر هوكر جزءا لا يتجزأ من الدولة ، لأن النظام الاجتماعى ، ومن ثم الازدهار المادى نفسه ، يعتمدان على التنظيم الاخلاقى الذى ينهار إذا لم يغرسه الدين ويدعمه . ولذلك ينبغى على كل دولة أن توفر التعليم الدينى لشعبها . وقد يشوب الكنيسة الأنجليكانية بعض الشوائب . ولكن هـذا هو ما ينتظر من أية نظم يقيمها بنو آدم أو يعملون بها . « ان هذا الذى يجوب الآفاق ليقنع الناس بأنهم ليسوا كما ينبغى أن يكونوا عليه ، من أوضاع مرضية ، لن يعوزه من ينصتون إليه ويتعاطفون معه ، لأنهم يعرفون النقائص البشرية التى تتعرض لها أية حكومة أيا كان نوعها . أما العوائق والصعاب الخفية التى لا تحصى والتى لا يمكن تفاديها فى مجريات الأمور العامة ، فليس من المألوف أن يكون لأى الناس من التمييز والعقل ما يمكنهم من النظر إليها وتقديرها(٩٠) » .

وكان منطق هوكر غير مباشر بدرجة كان معها غير مقنع كما كان علمه تقليديا قديما بحيث لم يواجه قضايا عصره ، كما كان يلتزم الحذر والتحفظ إلى حد شكر معه النظام وامتدحه فلم يدرك اللهفة على الحرية . وأقر البيوريتانز بفصاحته ، ولكنهم ساروا فى طريقهم واضطروا إلى الخيار بين وطنهم وعقيدتهم ، فهاجر كثير منهم ، مؤلبين الحركة البروتستانتية فى القارة على إنجلترا ، ورحبت هولنده بهم وقامت

المجامع الإنجليزية فى مدلبرج وليدن وامستردام ، وهناك عمل المنفيون وذرياتهم بجد وعلموا ووعظوا وكتبوا ، وبذلك مهدوا الطريق فى شغف هادئ لانتصاراتهم فى إنجلترا وتوفيقهم فى أمريكا .

٨ — اليزابث وايرلنده

غزا الإنجليز أيرلنده بين عامى ١١٦٩ — ١١٧١ ، ووضعوا أيديهم عليها منذ ذلك الوقت ، على أساس أنها ، بغير ذلك ، سوف تستخدمها فرنسا وأسبانيا كقاعدة لشن الهجمات على إنجلترا . وعند اعتلاء اليزابث العرش كان الحكم الإنجليزى المباشر فى أيرلنده مقصورا على الساحل الشرقى ، حول دبلن وفى جنوبها «The Pale». أما باقى الجزيرة فكان يحكمه شيوخ القبائل الايرلنديون الذين اعترفوا لإنجلترا بالسيادة الاسمية فقط . وعوق الصراع الدائم مع الانجليز الادارة القبلية التى كانت قد جلبت لايرلنده الفوضى والعنف ، ولكنها كذلك هيأت لها الشعراء والعلماء والقديسين ، وكانت الغابات والمستنقعات تغطى معظم الأرض ، وكان النقل والمواصلات بمثابة مغامرات بطولية ، وعاش السكان الأصليون الكلتيون وعددهم نحو ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة ، فى بؤس على حافة الهمجية لا يكاد يسود فيهم قانون . وكاد الانجليز فى إقليم « البال » أن يكونوا على مثل هذه الحال من الفقر ، وازدادت مشكلة اليزابث سوءا بفسوقهم واختلاساتهم وجرائمهم ، ودأبوا على اغتصاب أموال حكومة لندن ، مثل دأبهم على سلب الفلاحين الايرلنديين . وأثناء حكم اليزابث أخرج المستوطنون الانجليز ملاك الأراضى والمستأجرين عن أراضيهم عن طريق « بيوع التصفية » ، وناضل من انتزعت أملاكهم إلى حد ارتكاب جريمة القتل ، وأصبحت حياة الغالبين والمغلوبين ، على حد سواء ، جحيما لا يطاق من العنف والكراهية . وذهب سيسل نفسه إلى حد القول بأن « الفلمنكيين لم يكن لديهم ما يحملهم على الثورة على ظلم الأسبان ، مثل ما كان لدى الايرلنديين للثورة ضد الحكم الانجليزى[٩١] » .

وقامت سياسة اليزابث فى أيرلنده على اقتناعها بأن أيرلنده الكاثوليكية سوف

تكون خطرا يهدد إنجلترا البروتستانتية ، فأمرت بفرض البروتستانتية فرضا كاملا فى أنحاء الجزيرة . وحرم القداس ، وأغلقت الأديرة وتوقفت الصلوات العامة خارج اقليم « البال » الضيق . وظل القساوسة مختفين عن الأنظار ، وأدوا الأسرار المقدسة لقليل من الناس خفية . وكادت الأخلاق أن تختفى بعد الحرمان من الدين والسلام ، وانتشر القتل والسرقة والزنى والاغتصاب والسلب ، وغير الرجال زوجاتهم دون تذمر أو وخز من الضمير ، واستصرخ الزعماء الايرلنديون البابا وملك أسبانيا لحمايتهم أو نجدتهم . وخشى فيليب الثانى أن يغزو أيرلنده حتى لا يغزو الانجليز الأراضى الوطيئة ويساعدوا ثوارها ، ولكنه أسس مراكز وكليات للاجئين الايرلنديين فى أسبانيا . وبعث بيوس الرابع إلى أيرلنده بجزويتى أيرلندى (١٥٦٠) هو دافيد ولف الذى جمع بين الشجاعة والاخلاص اللذين تميز بهما النظام الجزويتى . وأسس ولف بعثات سرية ، واستقدم أفرادا آخرين من الجزويت متنكرين واستعاد للكاثوليكية تقواها وآمالها ، وتحمس شيوخ القبائل وثاروا ، الواحد بعد الآخر ، ضد الحكم الانجليزى .

وكان أقوى الشيوخ هو شين (أى جون) أونل أوف تيرون . وكان رجلا يمكن أن تتغنى به الأساطير ويقاتل الأيرلنديون من أجله . ولقد دافع بضراوة عن لقبه (أونل) ضد أخ مغتصب . وتجاهل كل « الوصايا » وعبد الكنيسة ، وأحبط كل جهود الانجليز لإخضاعه . وغامر برأسه ليزور لندن ويكسب التحالف مع اليزابث وتأييدها له ، وعاد ظافرا ليحكم ألستر كما كان يحكم نيرون ، واشتبك فى حروب ضروس مع عشيرة « أودونل » المنافسة ، وأخيرا هزم أمامها (١٥٦٧) ، عندما التجأ إلى آل مكدونل ، وهم المهاجرون الاسكتلنديون الذين سبق له أن هاجم مستوطنتهم فى أنتريم .

وكان تاريخ أيرلنده بعد موته عرضا من الثورات والمذابح والمندوبين السامين (ممثلى الملكة) . وخدم سير هنرى سدنى (والد فيليب) اليزابث فى هذا المنصب الجحود تسع سنين . واشترك فى هزيمة أونل ، وتعقب رورى أو مور حتى الموت ، واستدعى فى ١٥٧٨ لأن انتصاراته كانت باهظة التكاليف . وفى عامين من تولى

والتر دفريه — وكان ارل اسكس من قبل — هذا المنصب ، اشتهر اسمه بمذبحة فى جزيرة راتلين بعيدا عن شاطىء انتريم . وكان الثوار هناك — وهم آل مكدونل السابق ذكرهم ، قد أبعدوا زوجاتهم وأطفالهم وشيوخهم ومرضاهم ، حرصا على سلامتهم ، مع حرس يحميهم . وأرسل اسكس قوة للاستيلاء على الجزيرة . وعرضت الحامية الاستسلام إذا سمح لها بالابحار إلى اسكتلنده . ورفض هـذا العرض ، واستسلمت الحامية . فأعمل السيف فيهم وفى النساء والأطفال والشيوخ والمرضى . وكان عددهم نحو ستمائة شخص (١٥٧٥)(٩٢)

أما الثورة العظمى التى قامت فى أثناء حكم الملكة فى أيرلنده فهى ثورة عشيرة جيرالدين فى مونستر Munster فان جيمس فتزموريس فتزجرالد وقع فى الأسر وهرب مرات كثيرة ، استطاع بعدها أن يعبر إلى القارة ، حيث شكل فرقة من الأسبان والايطاليين والبرتغاليين والفلمنكيين والانجليز الكاثوليك المهاجرين ، ونزل بهم على ساحل كرى Kerry (١٥٧٩) ، وكل الذى حدث أنه لقى حتفه فى قتال طارئ نشب بينه وبين عشيرة أخرى . وقاد الثورة من بعـده ابن عمه جيرالد فتزجيرالد — الارل الخامس عشر لدسموند Desmond ، ولكن عشيرة بتلر المجاورة بزعامة ارل أورمند البروتستانتى انحازت إلى إنجلترا . ونظم الكاثوليك فى اقليم البال جيشا وهزموا قوات نائب الملكة الجديد ، آرثر لورد جراى (١٥٨٠) . ولكنه بعد أن وصـلته الامدادات حاصر قوات دسموند الرئيسية برا وبحرا من نتوء جبلى فى خليج سمروك Smerwick . ولما وجد الثوار الباقون على قيد الحياة وعددهم نحو ٦٠٠ ، أنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ضد مدفعية جراى ، استسلموا والتمسوا العطف والرحمة ؛ ولكن كان مصيرهم القتل ، رجالا ونساء ، اللهم إلا بعض الضباط الذين يمكن أن يعـدوا بدفع فدية كبيرة(٩٣) . وخربت مونستر الحرب بين الانجليز والايرلنديين . وبين العشائر بعضها البعض ، إلى درجة قال عنها كاتب حوليات أيرلندى : « لم يسـمع خوار بقرة أو صوت رجل يحرث الأرض طوال هذه السنة من دنجل إلى صخرة كاشل » . وكتب أحـد الانجليز (١٥٨٢) : « أودت المجاعة بحياة ٣٠ ألفا فى مونستر فى أقل من نصف عام . غير

الذين شنقوا وقتلوا[٩٤] ، وكتب مؤرخ إنجليزى كبير « إن قتل أيرلندى من أهالى هذه المنطقة لم يكن ينظر إليه إلا على أنه قتل كلب مسعور[٩٥] » . وكادت مونستر أن تخلى من الايرلنديين وقسمت إلى مستعمرات ومزارع للمستوطنين الانجليز (١٥٨٦)، ومنهم ادموند سبنسر الذى أكمل هناك رواية The Faerie Queen .

وثار الأيرلنديون اليائسون مرة أخرى فى ١٥٩٣ ، وانضمت قوات هيو أودونل إلى قوات هيو أونل ارل تيرون الثانى . ووعدت أسبانيا بالمساعدة ، حيث كانت آنذاك فى حرب مكشوفة مع إنجلترا . وفى فترة خلا فيها منصب نائب الملكة هزم أونل جيشا إنجليزيا هزيمة منكرة فى أرماغ ، واستولى على بلاكووتر ، وهو معقل إنجليزى فى الشمال (١٥٩٨) ، وأرسل قوة تعمل على اشعال نار الثورة من جديد فى مونستر ، ولاذ المستعمرون الانجليز بالفرار تاركين مزارعهم ، وعم الأمل والفرح أيرلنده ، بل إن الانجليز أنفسهم توقعوا أن تسقط دبلن نفسها .

تلك هى الأزمة التى عينت فيها اليزابث الشاب روبرت ديفريه ارل اسكس الثانى نائبا للملكة فى أيرلنده (مارس ١٥٩٩) . وزودته بجيش قوامه ١٧٫٥٠٠ رجل ، وهو أكبر جيش أرسلته إنجلترا إلى الجزيرة . وأمرته بمهاجمة أونل فى تيرون ، وألا يعقد صلحا إلا بعد استشارتها ، والا يعود إلا بترخيص منها . وضيع ديفريه الوقت سدى أثناء الربيع ، وقام بمناوشات قليلة ، وفنى جيشه بسبب الأمراض ، ووقع مع أونل هدنة لم يكن لديه السلطة لإبرامها ، وعاد إلى إنجلترا فى سبتمبر ١٥٩٩ ، ليفسر للملكة أسباب اخفاقه . وسرعان ما خلفه فى منصبه شارل بلونت ، لورد مونتجوى الذى واجه فى بسالة وبراعة تكتل أونل الداهية مع أودونل غير الهياب ، وأسطولا راسيا فى كنسال Kinsale يحمل جنوداً وأسلحة من أسبانيا . وغفرانا من البابا كليمنت الثامن لكل من يدافع عن أيرلنده وعن العقيدة . وأسرع مونتجوى إلى الجنوب ليقابل الأسبان ، فهزمهم فى معركة فاصلة إلى حد أن أونل استسلم ، وانهارت الثورة وصدر عفو عام أدى إلى سلام مزعزع (١٦٠٣) وفى تلك الأثناء كانت اليزابث قدماتت .

وانتقص سجل تاريخ اليزابث فى أيرلنده من مجدها وعظمتها . لقد أساءت تقدير صعوبة الغزو فى بلد تكاد تنعدم فيه الطرق ، وسط شعب لا يربطه بالحياة

وبالوقار إلا حبه لبلده ولعقيدته . وأنحت باللائمة على نوابها لاخفاقهم الذى كان من أسبابه تقتيرها هى ، حيث عجزوا عن دفع رواتب الجند الذين وجدوا أنه من الأربح لهم أن يسلبوا الإيرلنديين من أن يحاربوهم . وتذبذبت بين المهادنة والإرهاب ، ولم تلتزم قط سياسة واحدة إلى نقطة حاسمة . وأسست كلية ترنتى وجامعة دبلن (١٥٩١) ولكنها تركت الإيرلنديين أميين كما كانوا من قبل . وبعد انفاق عشرة ملايين من الجنيهات ، تمخض السلام الذى أمكن الوصول إليه عن بيداء قاحلة غطت نصف الجزيرة الجميلة ، وعن روح كراهية لا توصف سادت الجزيرة بأسرها ، تنتظر الفرصة الملائمة لتستأنف القتل والتخريب من جديد .

٩ ــ البزابث وأسبانيا

كانت الملكة فى خير حال لدى تدبير الأمر مع أسبانيا ، لقد مدت للملك فيليب حبل الأمل فى أن تكون زوجا له أو لابنه ، وحبل الأمل فى الظفر بانجلترا مقابل خاتم العرس . وتذرع فيليب بالصبر حتى نفر منه أصدقاؤه وابتعدوا عنه ، وقويت البزابث ، فاربما رجاه البابا والإمبراطور وملكة اسكتلندة المنكودة الطالع أن يغزو إنجلترا ، ولكنه كان شديد الارتياب فى فرنسا ، وكان يلاقى أشد المتاعب فى الأراضى الوطيئة ، إلى حد لا يجرؤ معه على أن يوجه ضربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها فى لعبة السياسة . ولم يكن يضمن ألا تنقض فرنسا على الأراضى الوطيئة الأسبانية فى اللحظة التى يتورط فيها مع إنجلترا . وكان يتردد فى تشجيع الثورة فى أى بلد ، أو على طريقته فى التباطؤ الثقيل ، وثق بأن البزابث قد تجد فى الوقت المناسب مخرجاً أو آخر من المخارج التى وهبتها إيانا الطبيعة الحاذقة فى حياتنا ، ومع ذلك لم يتعجل تسليم عرش إنجلترا إلى فتاة اسكتلندية وقعت فى غرام فرنسا . ومنع لعدة سنوات البابا من إعلان قرار حرمان البزابث من الكنيسة . واحتمل فى صمت كئيب معاملتها للكاثوليك فى إنجلترا ، واحتجاجاتها على معاملة الانجليز البروتستانت فى أسبانيا ، وحافظ ، قرابة ثلاثين عاما ، على السلام ، بينما شن القراصنة الإنجليز ، بأمر من الحكومة ، الحرب على مستعمرات أسبانيا وتجارتها .

إن طبيعة الإنسان لتكشف عن نفسها فى سلوك الدول ، لأن هذه الدول ليست إلا أشخاصاً فى جملتها ، وهى تتصرف على نفس النسق الذى يحتمل أن الإنسان كان يتصرف عليه قبل أن يفرض الدين والقوة أخلاقاً وقوانين . وإن الضمير ليسير وراء رجل الشرطة ، ولكن لم يكن ثمة رجال شرطة من أجل الدول . ولم يكن ثمة « وصايا عشر » على البحار ، وإنما قامت التجارة بإذن من القراصنة ، واستخدمت مراكب القرصنة الصغيرة مداخل الشاطىء الإنجليزى مخابئ لها ، ومنها انطلقت لتستولى على كل ما يمكن أن تستولى عليه — وإذا كان الضحايا من الأسبان كان للإنجليز أن ينعموا بالحماسة الدينية التى يجدونها فى سلب ونهب رجل ينتمى إلى البابا . ودرب رجال جسورون من أمثال جون هوكنز وفرانسيس دريك عدداً كبيراً من القراصنة وكأن البحار ملك لهم . وتبرأت الملكة [illegible] منهم وأنكرتهم ، ولكنها لم تعكر صفوهم أو تزعجهم ، لأنها رأت فى القراصنة نواة أسطول لها ، وفى هؤلاء المغامرين أمراء البحر لها فى المستقبل : وصار ثغر الهيجونوت « لا روشسيل » مكانا أثيراً للقاء بين قوارب الإنجليز والهولنديين والهيجونوت ، « تنقض منه على تجارة الكاثوليك أياً كان العلم الذى ترفعه (٩٦) » ، وعلى تجارة البروتستانت أيضاً ، عند الحاجة

ومن هذه القرصنة عبر هؤلاء المغامرون إلى تجارة الرقيق الرائجة التى كانت قد بدأها البرتغاليون قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المواطنون فى المستعمرات الأسبانية فى أمريكا يموتون تحت تأثير الكدح المضنى الذى لا يتناسب مع بيئتهم أو مع المناخ الذى يعيشون فيه . واقتضى الأمر المطالبة بسلالة من العمال أشد وأقوى . واقترح المدافع عن المواطنين : لاس كاساس ، نفسه ، على شارل الأول ملك أسبانيا أن زنوج أفريقية أقوى من هنود البحر الكاريبى ، ويجب نقلهم إلى أمريكا لينهضوا بالعمل الشاق من أجل الاسبانيين هناك(٩٧) . ووافق شارل ، ولكن فيليب استنكر هذه التجارة ، وأمر الحكام الأسبان فى أمريكا أن يمنعوا استيراد العبيد إلا بترخيص من الإدارة المحلية فى أسبانيا (٩٨) — وهذا أمر عسير وباهظ التكاليف . وقاد هوكنز وهو يعلم أن بعض الحكام الأسبان يراوغون فى هذه القيود — ثلاث سفن إلى أفريقية (١٥٦٢) وقبض على ٣٠٠ من الزنوج ، وأخذهم إلى جزر الهند الغربية ، وباعهم

إلى المستوطنين الأسبان ، مقابل السكر والتوابل والعقاقير . ولما عاد إلى إنجلترا أغرى لورد بمبروك وآخرين غيره ، بأن يسهموا بأموالهم فى مغامرة ثانية ، وحرض اليزابث على أن تضع سفينة من أحسن سفنها تحت تصرفه ، وفى ١٥٩٤ انطلق جنوباً بأربع سفن ، وأمسك بأربعمائة من زنوج أفريقية ، وأبحر إلى جزر الهند الغربية ، وباع العبيد إلى الأسبان ، تحت التهديد بضربهم بمدافعه إذا هم رفضوا الشراء . وعاد إلى إنجلترا حيث رحبوا به بوصفه بطلا ، واقتسم الغنائم بينه وبين أنصاره وبين الملكة التى حصلت على ٦٠ ٪ نظير استثماراتها (٩٩) . وفى ١٥٦٧ أعارته سفينتها « يسوع » . وأبحر بها مع أربع سفن أخرى إلى أفريقية ، ووضع يده على كل ما أمكنه من العبيد ، وباعهم فى أمريكا الاسبانية بمائة وستين جنيها للواحد ، وفى طريق عودته ، ومعه غنيمة تقدر قيمتها بنحو مائة ألف جنيه ، اعترضه أسطول أسبانى بعيداً عن شاطىء المكسيك : عند سان جوان دى ألوا ، ودمر أسطوله فيما عدا مركبين صغيرين عاد فيهما هوكنز إلى إنجلترا صفر اليدين (١٥٦٩) ، بعد أن لاقى آلاف الأهوال والأخطار .

وكان ممن بقوا على قيد الحياة بعد هذه الرحلة ، أحد أقرباء هوكنز الصغار ، وهو فرنسيس دريك . ولما كان قد تربى على نفقة هوكنز ، فقد قيل عنه إنه من سكان البحر . وفى سن الثانية والعشرين تولى إمرة سفينة فى رحلة هوكنز الفاشلة . وفى سن الثالثة والعشرين ، بعد أن فقد كل شيء إلا اشتهاره بالبسالة ، أقسم أن ينتقم من الأسبان ، وفى سن الخامسة والعشرين حصل من اليزابث على براءة بالقرصنة . وفى ١٥٧١ ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، أسر قافلة من السفن الإسبانية محملة بسبائك الفضة قرب شاطىء بنما ، وعاد إلى إنجلترا ثريا منتقما من أسبانيا ، وأخفاه مستشارو اليزابث عن الأنظار لمدة ثلاث سنوات ، على حين كانت أسبانيا تطالب برأسه . ثم جهز له لستر وولسنهام وهاتون أربع سفن صغيرة يبلغ مجموع حمولتها ٣٧٥ طناً ، أبحر بها من بليموث فى ١٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، فيما صار فيما بعد ثانى طواف حول الكرة الأرضية . ولما خرج أسطوله من مضايق ماجلان إلى المحيط الهادى واجهته عاصفة هوجاء ، أطاحت بالسفن بعيداً بعضها عن بعض ، ولم يلتئم شملها ثانية قط ، وسار

دريك وحده بالسفينة « بليكان » على الساحل الغربى للأمريكتين إلى سان فرنسيسكو مهاجما كل السفن الأسبانية فى طريقه ، ثم انعطف غرباً فى جرأة وبسالة ، إلى الفلبين وأبحر من جزر ملقاً إلى جاوه ، وعبر المحيط الهندى إلى أفريقية، وحول رأس الرجاء الصالح صعداً فى المحيط الأطلسى ، ليصل بليموث فى ١٦ سبتمبر ١٥٨٠ ، أى بعد مغادرتها بأربعة وثلاثين شهراً . ومعه من الأرباح ٦٠٠,٠٠٠ جنيه سلم الملكة منها ٢٧٥,٠٠٠ (١٠٠) ، وحيته إنجلترا على أنه أعظم ملاح وقرصان فى عصره وتناولت اليزابث العشاء على ظهر سفينته ، ومنحته لقب فارس .

ومن الوجهة الفنية ، كانت انجلترا طوال هذا الوقت فى سلام مع أسبانيا . وكم قدم فيليب إلى الملكة من احتجاجات ، فقدمت هى الاعتذارات ، وتشبثت بغنائمها ، وأشارت إلى أن الملك نفسه كان هو أيضاً يخرق « القانون » الدولى بإرساله المساعدات إلى الثوار فى أيرلنده . ولما هدد السفير الأسبانى بالحرب ، هددت هى بالزواج من ألنسون وبالتحالف مع فرنسا . ولما كان فيليب مشغولا بغزو البرتغال ، فقد أصدر أمره إلى سفيره بالإبقاء على السلام . وكما هى العادة ، انضم حسن حظ الملكة إلى عبقريتها الموسومة بالتردد ، فماذا كان عساه يحدث لها لو لم تشطر الحرب الأهلية فرنسا الكاثوليكية إلى شطرين ، ولو لم يرهق الأتراك بغاراتهم المتكررة الإمبراطور والنمسا الكاثوليكية ، ولو لم تكن أسبانيا متورطة مع البرتغال وفرنسا والبابا ورعاياها الثائرين فى الأراضى الوطيئة ؟

ولعدة سنوات كانت اليزابث تناور وتداور فى مكر وخداع فى الأراضى الوطيئة ، وتغير سياستها وفق الظروف المائعة . ولم تكن أية اتهامات بالتردد أو الخيانة تجعلها تسير فى طريق مستقيم واحد لا تحيد عنه . ولم تكن تحب الكلفنية فى الأراضى الوطيئة أكثر من حبها للبيوريتانية فى إنجلترا ، كما لم تكن تحب التحريض على الثورة أكثر من حب فيليب له . وأدركت أهمية التجارة المنتظمة مع الأراضى الوطيئة للاقتصاد الإنجليزى ، فعملت على تأمين الثورة ومساعدتها هناك بشكل يحفظها من الاستسلام لأسبانيا أو الارتماء فى أحضان فرنساء ، وما دامت الثورة قائمة ، انشغلت أسبانيا بها بعيداً عن إنجلترا .

وحانت لحظة مباركة ابتسم فيها الحظ السعيد للملكة ، فهيأ لها الفرصة لمساعدة الثوار مقابل كسب مغر يدخل إلى خزائنها . ذلك أن القراصنة الإنجليز ساقوا فى ديسمبر ١٥٨٨ إلى موانى القنال الإنجليزى عدة سفن أسبانية كانت تحمل ١٥٠,٠٠٠ جنيه لدفع رواتب جنود دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، ورأت اليزابث — وكانت قد ترامت إليها لتوها أنباء الكارثة التى وقعت لهوكنز فى سان جوان دى ألوا — رأت أن العناية الإلهية هيأت لها هذه الفرصة لتعويض إنجلترا عما فقدته بسبب تلك الهزيمة . وسألت الأسقف جول Jewel : هل لها حق فى الأموال الأسبانية ؟ فحكم بأن الرب ، وهو بروتستانتى قطعاً ، يسره أن يرى البابويين يسلبون . وفوق ذلك ، علمت الملكة أن فيليب كان قد اقترض هذا المبلغ من مصارف جنوه ، ورفض الاعتراف بملكيته حتى يصل سالماً إلى أنتورب . ونقل المال إلى خزائن الملكة ، وجأر فيليب بالشكوى وقبض دوق ألفا على كل ما وصلت إليه يداه من رعايا إنجليز وبضائع إنجليزية فى الأراضى الوطيئة ، واعتقلت اليزابث كل الأسبان فى إنجلترا . ولكن مقتضيات التجارة أعادت بالتدريج العلاقات الطبيعية بين الطرفين . وأبى دوق ألفا أن يستحث اليزابث على التحالف مع الثوار ، والتزم فيليب الهدوء والصبر ، واحتفظت اليزابث بالمال .

واستمر السلم المزعزع يجرر أذياله ، إلى أن ورطت الحملات الإنجليزية المتكررة على السفن الأسبانية وصرخات أصدقاء مارى ستيوارت المسجونين ، نقول ورطت هذه وتلك فيليب فى مؤامرة لقتل الملكة[١٠١] ، وكانت اليزابث مقتنعة باشتراكه فيها ، فطردت السفير الأسبانى (١٥٨٤) وساعدت الثوار علانية . ودخلت الجيوش الإنجليزية فلشنج ، بريل ، أوستند ، سليس Sluys ، وأرسل لستر ليتولى قيادتها . ولكن الأسبان هزموهم فى زوتفين Zutphen (١٥٨٦) . ولكن الآن ، على الأقل بلغ السيل الزبى ، وحانت ساعة الفصل . فقد استعد فيليب واليزابث بكل ما أوتيا من قوة للحرب التى قد تحدد لأيهما تكون السيادة على البحار ، كما تحدد ديانة إنجلترا ، وربما ديانة أوربا ، وربما ديانة الدنيا الجديدة .

وأثرت أسبانيا ثراء واسعاً بفضل كولمبس والبابا اسكندر السادس وقرارات التحكيم التى أصدرها (١٤٩٣) والتى منحت وطنه أسبانيا كل الأمريكتين تقريباً ؛

وبهذه الرحلات والمراسيم لم يعد البحر المتوسط مركز حضارة الرجل الأبيض وقوته ، وبدأ عصر الأطلنطى . ومن بين دول أوربا العظمى الثلاث المطلة على المحيط ، كانت فرنسا مغلولة اليدين بسبب الحرب الأهلية فلم تشارك فى الصراع الدائر حول السيادة على المحيطات أما إنجلترا وأسبانيا فقد استمر الصراع بينهما ، وصارت كل منهما تمتد نحو الأرض الموعودة مثل الصخرة الناتئة فى البحر . وبدا من العسير زحزحة أسبانيا عن مكان الصدارة والغلبة فى أمريكا ، فما وافت ١٥٨٠ حتى كان لها فيها مئات المستعمرات ، على حين لم يكن لإنجلترا شىء قط . وتدفقت الثروات الهائلة من مناجم المكسيك وبيرو إلى أسبانيا ، وبدا قدراً محتوماً أن تحكم أسبانيا نصف الكرة الغربى ، وتدخل الأمريكيتين فى نطاق كيانها السياسى والدينى .

ولم يكن دريك راضياً عن هذا المشهد الذى توقعه ، أو قانعاً به . وكانت الحرب من أجل السيطرة على العالم ، لفترة من الوقت ، محصورة بينه وبين أسبانيا . وفى ١٥٨٥ أمده أصدقاؤه والملكة بالمال اللازم ، فجهز ثلاثين سفينة انقض بها على الإمبراطورية الأسبانية . ودخل مصب نهر فيجو فى شمال غرب أسبانيا ، وأعمل السلب والنهب فى ثغر فيجو ، وعرى تمثالا للعذراء ، وحمل معه المعادن النفيسة والملابس الثمينة من الكنائس . وأبحر إلى جزر الكنارى والرأس الأخضر واجتاح أكبرها ، وعبر إلى الأطلنطى ، وأغار على سان دومنجو ، وقبض ثلاثين ألفاً من الجنيهات ، منحة أو رشوة ، لئلا يدمر مدينة قرطاجنه فى كولمبيا . وسلب وأحرق مدينة سانت أوجستين فى فلوريدا ، وعاد إلى إنجلترا (١٥٨٦) ، لا لشىء إلا أن الحمى الصفراء أودت بثلث بحارته .

تلك كانت حرباً دون أن تحمل اسم الحرب وفى ٨ فبراير ١٥٨٧ ، أعدمت الحكومة الإنجليزية ملكة اسكتلنده ، وهنا أبلغ فيليب البابا سكستس الخامس أنه على استعداد لغزو إنجلترا وخلع الزنادقة . وطلب إليه الإسهام بمليونى كراون ذهباً . وعرض سكستس ستمائة ألف لا تدفع لأسبانيا إلا إذا وقع الغزو فعلا . وأصدر فيليب أمره إلى خير قواده ، أمير البحر مركيز سانتا كروز . بإعداد أكبر أسطول عرف فى التاريخ حتى ذلك الوقت ، وتجمعت السفن أو بنيت فى لشبونه وأعدت المخازن والمستودعات فى قادس .

وألح دريك على اليزابث لتزوده بأسطول يدمر الأرمادا قبل أن يتخذ وضعا تتعذر معه مقاومته ، فوافقت ، وفى الثانى من أبريل ١٥٨٧ انطلق مسرعا من بليموث ومعه ثلاثون سفينة ، قبل أن تغير الملكة رأيها . وهذا ما حدث فعلا ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلم تدركه . وفى ١٦ أبريل أسرع بأسطوله إلى ميناء قادس ، وأجرى مناورة بعيدا عن سرى مدفعية الشاطىء ، وأغرق بارجة أسبانية ، وهاجم سفن النقل والتموين ، واستولى على حمولتها ، وأشعل النار فى كل سفن العدو ، وارتحل دون أن يمسه أذى . وألقى مراسيه بالقرب من لشبونة وتحدى سانتا كروز أن يخرج لملاقاته . فأبى المركيز أن يفعل ، لأن سفنه لم تكن قد زودت بالسلاح بعد ، فسار دريك شمالا إلى لاكورونا واستولى على سؤن وذخائر كثيرة كدست هناك ، ثم إلى جــزر الآزور حيث استولى على سفينة أسبانية ضخمة (غليون) ، وعاد بها إلى إنجلترا بين سفنه . وعجب الأسبان أنفسهم لجرأته ومهارته البحرية وقالوا « لو لم يكن لوثريا ، بروتستانيا ، لما كان له نظير فى العالم[١٠٢] » .

وأعاد فيليب بناء أسطوله ، فى صبر ، ومات المركيز سانتا كروز فى يناير ١٥٨٨ ، فعين مكانه دوق مدينا — سيدونيا ، وهو نبيل يتميز بكرم المحتد أكثر منه بالكفاية والقدرة . ولما اكتمل الأرمادا آخر الأمر ، كانت عدة سفنه ١٥٠ سفينة حمولة كل منها فى المتوسط ٤٤٥ طنا ، وكان نصفها من سفن البضائع ، ونصفها الآخر من البوارج الحربية ، مزودة بثمانية آلاف وخمسين بحارا ، وأبحر عليها تسعة عشر ألف جندى . وفكر فيليب وقواده فى اتباع الطريقة القديمة فى الحروب البحرية — وهى القفز فوق ظهر سفن العدو . ومصارعة الرجل للرجل ، على حين كانت خطة الإنجليز أن يغرقوا سفن العدو بمن احتشد عليها من بحارة ، واطلاق النيران عليها دفعة واحدة من الجوانب ، وأصدر فيليب تعلماته إلى الأسطول بألا يجد فى طلب السفن الإنجليزية ويهاجمها ، بل لا بد من الاستيلاء على رأس جسر ساحلى فى إنجلترا ، والعبور إلى الفلاندرز ، لينقل إلى المراكب الثلاثون ألف جندى الذين كانوا قد أعدهم هناك دوق بارما ، والسير إلى لندن بعد الحصول على هذا المدد . وفى نفس الوقت هرب إلى إنجلترا (أبريل ١٥٨٨) رسالة دبجها كاردينال ألن

يأمر فيها الكاثوليك بالانضمام إلى الأسبان لخلع مليكتهم « المغتصبة الهرطيقة البغى[١٠٣] » . ورافق الأرمادا للمعاونة فى إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا مئات من الرهبان تحت رياسة النائب الأسقفى العام لمحاكم التفتيش[١٠٤] . وهزت روح دينية مخلصة مشاعر البحارة الأسبان وسادتهم ، وآمنوا إيمانا عميقا مخلصا بأنهم كانوا يؤدون مهمة مقدسة ، فأبعدوا البغايا ، وانقطع التجديف والدنس ، وامتنع القمار ، وفى صباح اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٥٨٨ ، حين أقلع الأسطول من لشبونه ، تناول القربان المقدس كل من كان على ظهر السفن ، وأقامت كل أسبانيا الصلوات .

وواتت الريح البزابث ، على حين واجه الأرمادا عاصفة مدمرة ، فالتجأ إلى ميناء لاكورونا ، حيث ضمد جراحه ، وأقلع ثانية (١٢ يوليه) . وانتظرته إنجلترا فى مزيج محموم من الآراء المنقسمة والاستعدادات المتعجلة والعزيمة اليائسة ، والآن حانت الساعة لتنفق اليزابث الأموال التى كانت قد كنزتها فى ثلاثين عاما من التقتير والتهور والشرور ، وهب شعبها فى شجاعة وتصميم ، كاثوليك وبروتستانت على السواء ، لنجدتها ، وتدرب الحرس الوطنى المتطوع فى المدن ، وأمد تجار لندن الفرق بالمال اللازم ، وطلب إليهم أن يجهزوا خمس عشرة سفينة ، فأمدوها بثلاثين . وكان قد مضى على هوكنز عشر سنوات وهو يبنى السفن لبحرية الملكة . وأصبح دريك الآن نائبا لأمير البحو ، وأتى قراصنة البحر بسفنهم فى انتظار اللقاء الحاسم . وفى أوائل يولية ٨٨ ١ احتشد فى بليموث للقاء العدو القادم ، اثنتان وثمانون سفينة كاملة العدة ، تحت امرة شارل ، لورد هوارد افنجهام ، أمير البحر العام فى إنجلترا .

وفى ١٩ يولية(*) شوهدت طلائع الأرمادا عند مدخل القنال الإنجليزى . وأقلع الأسطول المدافع من بليموث ، وفى اليوم الحادى والعشرين بدأ العمل . وانتظر الأسبان حتى يقترب الإنجليز منهم إلى حد يكفى ليناوش الواحد منهم الآخر ، ولكن

(*) التقويم القديم ، وهو أسبق بعشرة أيام من الجريجورى الذى اقتبس فى أسبانيا ١٥٨٢ ، ولكن لم يؤخذ به فى إنجلترا إلا فى ١٧٥١ .

على العكس من ذلك ، فإن السفن الإنجليزية الخفيفة المبنية خصيصا للمياه الضحلة والمسالك الضيقة ، انطلقت مسرعة حول البوارج الأسبانية الثقيلة ، تمطرها بوابل من النيران من كل جانب ، وكانت سطوح المراكب الأسبانية عالية ، وكانت مدافعها تطلق قذائفها على بعد مرتفع فوق السفن الإنجليزية محدثة بها أقل الأضرار ، وجرت السفن الإنجليزية تحت النيران ، وتركت قدرتها على المناورة وسرعتها ، الأسبان عاجزين حيارى مضطربين . وعندما جن الليل هرب الأسبان فى اتجـــاه الريح ، تاركين احدى سفنهم ليأخذها دريك ، وأخرى نسفها أحد رجال المدفعية الألمان المتمردين ، ووقع حطامها فى أيدى الإنجليز . ولحسن الحظ كانت كلتاهما تحمل مؤنا وذخائر سرعان ما نقلت إلى أسطول الملكة . وجاء مزيد من المؤن والذخائر . ولكن الانجليز لم يكن لديهم منها حتى الآن إلا ما يكفى لقتال يوم واحد فقط . وفى الخامس والعشرين ، وبالقرب من جزيرة وايت ، قاد هوارد هجوما ، وسارت سفينة قيادته إلى قلب الأرمادا ، وتبادلت النار مع كل بارجة مرت بها ، وحطم تفوق النار الانجليزية الروح المعنوية لدى الأسبان . وكتب مدبنا سيدونيا فى تلك الليلة إلى دوق بارما : « ان العدو يطاردنى . إنهم يرموننى بالنيران من الاصباح إلى المساء . ولكن السفن لن تلقى مراسيها . . . وليس ثمة من علاج ، فهم سريعو الحركة ونحن بطيئون(١٠٥) » . وتوسل إلى بارما أن يرسل إليه ذخيرة ومددا ، ولكن ثغور دوق بارما كانت تحاصرها وتعترض سبيلها السفن الهولندية .

وفى اليوم السابع والعشرين ألقى الأرمادا مراسيه فى مداخل كاليه . وفى الثامن والعشرين أشعل دريك النار فى ثمان سفن صغيرة غير ضرورية يمكن الاستغناء عنها ، ووضعها فى مهب الريح لتسير وسط الأسطول الأسبانى . وتوجس مدينا سيدونيا شرا ، فأمر سفنه بالخروج إلى عرض البحر . وفى اليوم التاسع والعشرين هاجمها دريك فى جرافلين ، بعيدا عن الشاطىء الفرنسى ، فى حرب حقيقية . وقاتل الأسبان فى بسالة ، ولكن كان يعوزهم المدفعية والبراعة فى فن الملاحة . وظهر أسطول هوارد وصب الأسطول الإنجليزى بكامل عدده من النيران على الأرمادا ما أعجز بعض سفنه عن العمل وأغرق بعضها الآخر . واخترقت طلقات الإنجليز أبدان سفن

الأرمادا على الرغم من أن سمكها يبلغ ثلاثة أقدام ، وقتل آلاف من الأسبان ، وشوهدت الدماء تسيل من ظهور السفن إلى البحر . وما أن غربت شمس ذلك النهار حتى كان قد فقد من الأسبان أربعة آلاف رجل وجرح أربعة آلاف آخرون ، وأمكن بصعوبة الاحتفاظ بالسفن الأسبانية الباقية عائمة على سطح الماء . ولما رأى مدينا سيدونيا أن بحارته لا يستطيعون احتمال شيء بعد ما حدث ، أصدر أوامره بالانسحاب . وفى اليوم الثلاثين من يولية حملت الريح حطام الأرمادا إلى بحر الشمال . وتبعه الإنجليز شمالا إلى مصب نهر فورت ؛ وكانت تعوزهم الأغذية والذخيرة فعادوا إلى مراسيهم ، وكانوا قد فقدوا ستين رجلا ، ولم يفقدوا سفينة واحدة .

أما بالنسبة لبقايا الأرمادا ، فلم يكن ملاذ أقرب من أسبانيا نفسها . فقد كانت اسكتلنده معادية ، وثغور أيرلنده فى أيدى القوات الإنجليزية . واستماتت السفن المصابة والرجال الذين يتضورون جوعا فى شق طريقهم حول الجزر البريطانية ، وكانت المياه هائجة والريح عاصفة ، فتحطمت الصوارى وتمزقت الأشرعة ، وما كان يمر يوم حتى يغرق مركب أو يغادره ملاحوه ، وألقيت جثث ألوف فى البحر . وتحطمت سبع عشرة سفينة على شواطئ أيرلنده الوعرة . وفى سليجو Sligo وحدها ظهر على شاطئها الرملى جثث ١١٠٠ من الغرقى الأسبان . ونزل بعض البحارة إلى البر فى أيرلنده يلتمسون بعض الطعام والشراب ، فلم يصيبوا شيئاً ، وبلغ المئات منهم من الهزال حدا لم يستطيعوا معه القتال ، فكان مصيرهم الذبح بأيدى أشباه المتوحشين من سكان السواحل من كل جنس . ومن المائة والثلاثين سفينة التى كانت قد غادرت أسبانيا أول الأمر ، عاد ٥٤ فقط ، ومن السبعة والعشرين ألفا من الرجال عاد عشرة آلاف معظمهم جريح أو مريض . ولما كان فيليب يحاط علما بأنباء هذه الكارثة الطويلة الأمد يوما بيوم ، فقد حبس نفسه فى صومعة فى الاسكوريال . ولم يكن أحد يجرؤ على التحدث إليه . أما البابا سكستس الخامس فقد دفع بأنه ما دام لم يحدث غزو على إنجلترا قط ، فإنه لن يرسل إلى أسبانيا المفلسة بدوكات واحد .

وكانت اليزابث حريصة على المال قدر حرص البابا عليه . وكانت يقظة إلى أية اختلاسات فى البحرية ، وطالبت بحساب عن كل شلن انفقته البحرية والجيش قبل المعركة وفى اثنائها وبعدها . وعوض كل من هوارد وهوكنز من جيبه الخاص عن أى تناقض أو تضارب لم يستطيعا له تفسيرا (١٠٦) . وكانت اليزابث تتوقع حربا طويلة الأمد ، ومن ثم كانت تصرف للملاحين والجنود مؤنا قليلة ورواتب ضئيلة ، وانتشر الآن مرض فتاك ، أشبه بالتيفود ، بين الرجال العائدين ، قضى فى بعض المراكب على نصف من فيها من الملاحين أو أقعدهم عن العمل ، حتى تعجب هوكنز قائلا : ماذا كان عساه أن يكون مصير إنجلترا لو أن الوباء سبق العدو ؟

واستمرت الحرب البحرية حتى موت فيليب ١٥٩٨ . وسار دريك بأسطول وخمسة عشر ألفا من الرجال لمساعدة البرتغاليين فى ثورتهم ضد الأسبان (١٥٨٩) ولكن البرتغاليين أحسوا ببغض أكثر للبروتستانت منه للأسبان . وأفرط الإنجليز فى احتساء النبيذ الذى استولوا عليه إلى حد الثمل ، وباءت الحملة بالفشل والعار . وقاد لورد توماس هوارد أسطولا إلى جزر الآزور ليعترض طريق الأسطول الأسبانى الذى يحمل الفضة والذهب إلى أسبانيا ، ولكن أسطول فيليب الجديد أرغم السفن الإنجليزية على الفرار ، فيما عدا السفينة « ريفنج » Revenge التى أمسكوا بها تتسكع خلف سائر السفن ، فقاتلت قتالا بطوليا حتى تغلب عليهـا الأسبان (١٥٩١) . وقام دريك وهوكنز بحملة أخرى على جزر الهند الغربية (١٥٩٥) ولكنهما تنازعا وماتا فى الطريق . وفى ١٥٩٦ أرسلت اليزابث أسطولا آخر لتدمير السفن فى الثغور الأسبانية مثل قادس ، فوجد هناك ١٩ بارجة حربية و ٣٦ سفينة تجارية ، ولكنها جميعا هربت إلى عرض البحر ، على حين أعمل اسكس السلب والنهب فى المدينة . وأخفقت هذه الحملة كذلك ولكنها أظهرت من جديد سيادة إنجلترا على الأطلنطى .

وكان لهزيمة الأرمادا أثرها على كل شىء تقريبا فى مدنية أوربا الحديثة . فكانت بداية تغيير حاسم فى تكتيك البحرية ، وأخلى القفز إلى سفن العدو ومصارعة الرجل الرجل مكانيهما للتراشق بالمدافع من جوانب السفينة وظهرها . وساعد

إضعاف أسبانيا الهولنديين على نيل استقلالهم ، وارتقى بهنرى الرابع إلى عرش فرنسا ، وفتح أمريكا الشمالية أمام المستعمرات الإنجليزية . وبقيت البروتستانتية وقويت . وتضاءل شأن الكثلكة . وكف جيمس السادس ملك اسكتلنده عن مصادقة البابوات ومجاملتهم . ولو أن الأرمادا بنى بطريقة أحكم ، وسارت قيادته على وجه أكمل ، فلربما كانت الكاثوليكية قد استعادت إنجلترا ، وسادت أسرة جيز فى فرنسا . وخضعت هولنده ، ولم يظهر قط شكسبير وبيكون وهما رمزان لإنجلترا الظافرة وثمرتان من نتاجها ، ولربما كان على النشوة الغامرة فى عهد اليزابث أن تواجه محكمة التفتيش الأسبانية . وهكذا تحدد الحروب مصير اللاهوت والفلسفة ، كما أن القدرة على القتل والتدمير شرط أساسى للحصول على الترخيص بالحياة والبناء .

١٠ — رالى واسكس

على الرغم من أن سيسل وولسنهام ودريك وهوكنز كانوا الأدوات المباشرة للمجد والنصر ، إلا أن اليزابث هى التى تجسدت فيها إنجلترا الظافرة المنتصرة ، وكانت وهى فى سن الستين فى ذروة الشهرة والقوة والسلطان ، وتجعد وجهها قليلا ، وتساقط شعرها ، وفقدت بعض أسنانها ، وأسود البعض الآخر ، ولكنها فى مجوهراتها التى تبعث الرهبة فى النفوس ، من غطاء الرأس المخرم وطوق الرقبة المكيشكش المهفهف ، والأكمام المحشوة ، والتنورة المطوقة وكلها تتألق بالجواهر واللآلئ ، وقفت مزهوة رافعة الرأس ، ملكة بلا منازع . وتذمر البرلمان من أساليبها الملكية ولكنه خضع واستسلم ، وقدم المستشارون القدامى نصائحهم فى رعدة الشباب الغض الذى يطلب يد المرأة ، ولكن الطلاب الشبان الذين انطلقت ألسنتهم بالتمجيد والتسبيح أحاطوا بالعرش . وقضى لستر وولسنهام نحبهما ، وسرعان ما يبتلع البحر دريك وهوكنز ، وقد ظنا أنهما سيحكمانه . أما سيسل الذى أطلق عليه بيكون(١٠٧) « نصف الإله الذى يحمل السماء على كتفيه Atlas فى هذه الدولة » ، فقد كبرت الآن سنه ، وكان يئن ويذبل بداء النقرس ، وكان على اليزابث الآن أن تتولى تمريضه فى مرضه الأخير وتطعمه لقيماته الأخيرة بيدها(١٠٨) واعتراها الحزن لفقدان

هؤلاء الرجال ، ولكنها لم تدع هذا كله يشوه فخامة جلالتها أو يقلل من حيوية بلاطها ومرحه ونشاطه .

وتألقت حولها وجوه جديدة ، جلبوا إليها شبابا بديلا . وكان كرستوفر هاتون رشيقا لدرجة أنها عينته مستشارا (١٥٨٧) . وظلت مترددة تسع سنوات فى قبول نصيحة برجلى فى تعيين ابنه الحصيف الأحدب روبرت سيسل وزيرا لها . وكانت أكثر استساغة لقسمات والتر رالى الجميلة وقعقعة سيفه ، ولم تعبأ بشكوكه الدينية الخاصة ، فقد كانت لها هى الأخرى شكوكها الخاصة كذلك .

ويكاد رالى أن يكون رجل عصر اليزابث الكامل : سيد مهذب ، جندى ، ملاح ، مغامر ، شاعر ، فيلسوف ، خطيب ، مؤرخ ، شهيد ، فكان « الرجل العالمى » الذى صورته أحلام النهضة الأوربية ، والذى جمع العبقرية من أطرافها ، ولكنه لم يدع الجزء قط ليكون كلا . ولد رالى فى ديفونشير فى ١٥٥٢ ، والتحق بجامعة اكسفورد فى ١٥٦٨ ، ولكنه فر من الكتب إلى الحياة ، وانضم إلى مجموعة شهمة من المتطوعين ذوى الأصل الكريم ، عبروا البحر إلى فرنسا ليناضلوا فى صفوف الهيجونوت . وربما كانت الأعوام الستة التى قضاها فى تلك الحروب قد علمته شيئاً من العنف المجرد من المبادئ الخلقية فى العمل والجرأة غير المكترثة فى الحديث مما شكل مصيره فى مستقبل أيامه ، وعاد إلى إنجلترا ١٥٧٥ وألزم نفسه بدراسة القانون ، ولكنه غادر البلاد ثانية فى ١٥٧٨ متطوعا لمساعدة الهولنديين ضد الأسبان . وبعد ذلك بعامين كان فى أيرلنده رئيسا فى الجيش الذى أخمد ثورة دسموند ، ولعب دورا فعالا فى مذبحة سمروك Smerwick . وكافأته اليزابث باثنى عشر ألف فدان فى أيرلنده ، وبضمه إلى بلاطها . ولابتهاجها بقوامه ومديحه لها وتملقه إياها(*) وذكائه . أصغت إليه فى شك أقل ما اعتادت أن تنظر أو تسمع به إلى الناس ، عند ما اقترح عليها إنشاء مستعمرات إنجليزية فى أمريكا ، ومنحته امتيازا بذلك ، وفى ١٥٨٤ أرسل — ولكنه لم يصحب — أول حملة من عدة حملات ؛ حاولت

(*) أن قصة سجوده تحت قدميها ومعطفه ممرغ فى الوحل ، قصة خيالية .

تأسيس مستعمرة فى فرجينيا ، ولكنها أخفقت ، وبقى الاسم تذكارا خالدا لعدم وصول الملكة إلى مبتغاها ، وأثبتت اليزابث تركمورتون Throckmon tor — وهى وصيفة شرف فى البلاط — أنها أقرب منالا ، وارتضت رالى عشيقا لها ، وتزوجت منه سرا (١٥٩٣) . ولما كان محظورا على أى عضو فى البلاط أن يتزوج دون موافقة الملكة ، فان العروسين المتيمين قضيا شهر عسل غير متوقع فى برج لندن (السجن) . وظفر رالى باطلاق سراحه — مع اقصائه عن البلاط — بارساله كتابا إلى برجلى يصف فيه الملكة بأنها مزيج من كل ألوان الكمال والقداسة فى التاريخ .

وآوى رالى إلى ضيعته فى شربورن ، ونظم رحلات واكتشافات ، وتلاعب بالإلحاد ، ونظم شعرا كان لكل بيت فيه رنين متميز ولذع خاص . ولكن عامين من الهدوء والدعة استنفدا ثباته واستقراره ، وبفضل مساعدة أمير البحر هوارد وروبرت سيسل جهز خمس سفن وأقلع بها إلى أمريكا الجنوبية بحثا عن ألدرادو — وهى أرض أسطورية فيها قصور من ذهب ، وأنهار يجرى فيها الذهب ، ونساء محاربات (أمازونات) لا تذبل مفاتنهن . وسار مائة ميل صعدا فى نهر أورينوكو ، ولكنه لم يعثر على نساء محاربات ولا على ذهب ، ولقد حيرته وعوقته مساقط المياه وسرعة جريانها فعاد إلى إنجلترا صفر اليدين ، ولكنه روى كيف أن السكان الأمريكيين دهشوا وأعجبوا بجمال الملكة حين أراهم صورتها . وسرعان ما أعيد إلى البلاط . وأكد بيانه الفصيح عن « امبراطورية جويانا الشاسعة الغنية الجميلة » نقول أكد من جديد إيمانه بأن الشمس لا تشرق على أية ثروات فى أى جزء فى العالم » . أكثر منها فى إقليم الأورينوكو » . وألح دون كلل أو ملل فى اثارة الرغبة فى انتزاع ثروات أمريكا من أيدى الأسبان إلى أيدى الإنجليز ، وشرح نظرية سيادة البحار أكمل شرح ، « أن من يسيطر على البحار يسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم يسيطر على ثرواته ، ومن ثم يسيطر على العالم نفسه[١٠٩] » .

وفى ١٥٩٦ انضم إلى الحملة على قادس . وقاتل ببسالة — كما قال ، وأصيب بجرح فى رجله . وعاملته الملكة يومئذ « معاملة كريمة » وعينته قائدا للحرس . وفى ١٥٩٧ قاد قسما من الأسطول الذى كان تحت امرة اسكس إلى جزر الآزور ، وفصلت

العاصفة بينهما . ولكن أسطول رالى التحم مع العدو وهزمه ، ولكن اسكس لم يغفر له قط انتزاع قصب السبق منه .

وفاق روبرت دفريه ارل اسكس الثانى ، حتى رالى نفسه ، فتنة وسحرا . وكان له طموح رالى وحيويته وزهوه ، ويزيد عنه حدة فى الطبع ، ويقل عنه ذكاء ، ويفوقه كثيرا فى الكرم والنبل . وكان رجل عمل مفتونا بالذكاء والفطنة ، حالفه النصر فى المقارعة بالسيف وفى ميدان الألعاب الرياضية ، يتميز بالبسالة والجرأة فى الحرب ، إلى جانب أنه كان مع ذلك صديقا نافعا للشعراء والفلاسفة مقدرا لهم . ولما أصبحت أمه الزوجة الثانية لارل لستر ، رفع مكانته فى البلاط ليتكافأ مع ما تميز به رالى من فتنة سارة مداهنة . ووقعت الملكة ، وهى فى سن الثالثة والخمسين ، فى حب الأمومة مع ابن العشرين الوسيم الشديد الحساسية (١٥٨٧) . فهنا ولد يعزيها عن عدم انجابها أولادا ، وتجاذبا أطراف الحديث واستمعا إلى الموسيقى ، ولعبا الورق معا ، وانتشر القيل والقال : « إن سيدى اللورد لا يعود إلى مسكنه قبل صياح الديكة عند الفجر[١١٠] » . وتوجع قلبها المرم حين تزوج سرا من أرملة فيليب سدنى ، ولكن سرعان ما اغتفرت له هذا . وفى ١٥٩٣ صار عضوا فى مجلس شورى الملكة ، ومهما يكن من أمر فانه كان قليل الصلاحية لحياة البلاط وعمل رجل الدولة . وقال عنه خادمه كوف : « ان وجهه نم دوما بوضوح عما يكنه من حب وبغض ، ولم يعرف قط كيف يخفى هذا أو ذاك[١١١] » . وجلب عداوة رالى ، ووليم سيسل وروبرت سيسل ، وأخيرا عداوة بيكون العاق والملكة المستاءة الكارهة .

أما فرانسيس بيكون الذى قدر له أن يكون أكبر أثرا على الفكر الأوربى من أى شخص عداه من رجال عصر اليزابث . فقد ولد فى ١٥٦١ فى قلب البلاط الملكى ، فى يورك هاوس ، المقر الرسمى للورد حامل خاتم الملكة ، وهو أبوه ، سير نيقولا ، وأطلقت اليزابث على الابن « حامل خاتم الملكة الصغير » وقد صرفه ضعف بنيته عن الألعاب الرياضية إلى الدراسة . وساعده ذكاؤه المتقد على التقاط العلم والمعرفة فى نهم . وسرعان ما باتت سعة اطلاعه إحدى عجائب تلك « الأزمنة

المترفة » . وبعد سنوات ثلاث قضاها فى كمبردج أرسل إلى فرنسا مع السفير الإنجليزى ليتيح له الفرصة ليتعلم فنون السياسة والحكم . وفى أثناء وجوده هناك مات أبوه فجأة (١٥٧٩) قبل أن يشترى الضيعة التى كان قد قصد شراءها لابنه فرانسيس ، وكان من أصغر أولاده . وفجأة ضعفت موارد فرانسيس فعاد إلى إنجلترا ليدرس القانون فى Gray,s Inn . ولما كان ابنا لأخت وليم سيسل ، فقد توسل إليه أن يعينه فى منصب سياسى ، وبعد أربع سنوات من الانتظار أرسل إليه كتابا غريبا يذكره فيه بموضوعه جاء فيه « أن الاعتراض على سنى سوف يزول مع طول سترتى[١١٢] » . وبطريقة ما انتخب فى تلك السنة (١٥٨٤) عضوا فى البرلمان ، ولو أنه كان فى سن الثالثة والعشرين . واشتهر بتأييده لمزيد من التسامح مع البيوريتانز (وكانت أمه منهم) وتجاهلت الملكة حججه ، ولكنه أعاد اثباتها فى شجاعة ، فى منشور وزع سرا . مس فيه تناقضات كنيسة إنجلترا (١٥٨٩) واقترح فيه ألا يضار إنسان بسبب عقيدته الدينية إذا تعهد بالدفاع عن إنجلترا ضد أية سلطة أجنبية — بما فى ذلك البابوية — تهدد سيادة إنجلترا أو حريتها الكاملتين . ورأت الملكة وسيسل أن الفيلسوف الشاب قد تقدم قليلا . والحق أنه كان سابقا لزمانه .

واطمأن اسكس إلى حدة ذهن بيكون وطلب مشورته . وأشار الحكيم الصغير على النبيل الصغير أن يتظاهر بالتواضع ، أن لم يستطعه ، ويخفض من انفاقه ، ويلتمس وظيفه مدنية أكثر منها حربية ، حيث أن التخلص من آثار النكسات السياسية والتعويض عنها ، ميسوران أكثر منهما فى الهزائم العسكرية . كما أشار عليه بأن يعتبر أن كسب حب الناس خطر عليه لدى الملكة[١١٣] . وكان بيكون يراوده الأمل فى أن ينضج اسكس فيصبح من رجال الدولة ويهيئ لناصحه المخلص أو معلمه الخاص فرصة للارتقاء والظهور .

وفى ١٥٩٢ ناشد سيسل مرة ثانية فى سطور مشهورة قال فيها : —

لقد أصبحت الآن أكبر سنا إلى حد ما . وان إحدى وثلاثين سنة ليست بالشىء اليسير فى عمر الإنسان . . . . وإن صغر ضيعتى يقلقنى بعض الشىء . واعترف أن عندى من الغايات التأملية الفكرية الواسعة قدر ما عندى من الغايات الدنيوية المتواضعة

أو المعتدلة ، أى أن ما عندى من التطلع إلى العلم والمعرفة يفوق كثيرا تطلعى إلى أى جاه مادى . لأنى اعتبرت العلم والمعرفة هما دنياى أو مجالى الخاص . وإذا كان هذا فضولا ، أو عظمة جوفاء ، أو طبيعة فىّ ، فهو راسخ فى ذهنى ، ولا يمكن محـــوه(١١٤) .

وعند ما ألح اسكس على وليم سيسل وروبرت سيسل والملكة لتعيين بيكون فى وظيفة المدعى العام الشاغرة ، ذهبت توسلاته أدراج الرياح ، واختير بدلا منه ادوارد كوك Coke وهو أكبر منه سنا وأكثر صلاحية من الناحية الفنية . وتحمل اسكس اللوم فى رقة وكياســة ؛ وأقطع بيكون ضيعة فى توكنهام تدر ١٨٠٠ جنيه(١١٥) . وقبل أن يستطيع بيكون الإفادة من هذه المنحة عانى من سجن قصير الأمد بسيط من أجل الديون(١١٦) . وفى ١٥٩٧ عين فى « المجلس العلمى » الذى يضم المحامين الذين كانوا يقدمون المشورة إلى مجلس شورى الملكة(١١٧) .

وعلى الرغم من نصيحة بيكون انضم اسكس إلى جماعة الحرب ، ودبر أن يكون على رأس الجيش . وهيأت له بسالته المندفعة فى قادس شعبية بالغة لدى المجلس . ولكن اخفاقه فى الآزور ، وكبرياءه لم تتضاءل قط ، وتبذيره ، ولسانه السليط ، كل أولئك نفر منه المجلس واهاج ثائرة الملكة . ولما رفضت صراحة توصيته بتعيين سير جورج كارو فى إحدى الوظائف فى أيرلنده ، أدار لها ظهره ، بإيماءة تنم على الاحتقار والزراية . فاستشاطت غيظا ولكمته على أذنيه صارخة : « اذهب إلى الشيطان » . فأمسك بسيفه وصاح فيها « هذه اساءة لن أصبر عليها ، وما كنت لأحتملها من يدى أبيك » . واندفع غاضبا من الغرفة ، وتوقع كل رجال البلاط أن يعجل بزجه فى السجن فى برج لندن (١٥٩٨)(١١٨) . ولكن اليزابث لم تفعل شيئا . بل على النقيض من ذلك ، وربما لتتخلص منه ، عينته بعد عدة أشهر من هذا الحادث ، نائبا للملكة ، فى أيرلنده .

وكان بيكون قد حذر اسكس من اللجوء إلى هذا العمل البغيض ، ألا وهو مقاومة العقيدة بالقوة . ولكنه طلب جيشا : وفى ٢٧ مارس ١٥٩٩ ارتحل إلى

دبلن ؛ وسط تهليل الجماهير ، وهواجس أصدقائه وريبهم ، وارتياح أعدائه ورضاهم . وأخفق فى مهمته ، وبعد ستة أشهر عاد مسرعا إلى لندن دون إذن من الملكة ، واندفع ، دون أن يعلن عن قدومه ، إلى غرفة ملابسها ، وحاول أن يفسر أعماله فى أيرلنده ، فأصغت إليه فى غضب مكظوم ، ثم أمرت بنقله إلى سجن قصر حامل الأختام فى يورك هاوس حتى يمكن الاستماع إلى التهم الموجهة إليه .

وتذمر الناس فى لندن لأنهم كانوا يجهلون اخفاقه ويذكرون انتصاراته . وأمر مجلس شورى الملكة ، بمحاكمة شبه علنية ، وفوض بيكون بوصفه عضوا فى مجلس العلماء ومحاميا تعهد بالدفاع عن الملكة ، فى أن يعد قرار الاتهام ، وطلب بيكون اعفاءه . ولكنهم ألحوا فقبل . وكان الاتهام الذى أعده معتدلا ، أقر اسكس بصحته ، وعرض خضوعه المتواضع وقد جرد من جميع وظائفه ، وأبلغ أن يلزم داره حتى تتفضل الملكة باطلاق سراحه (٥ يونيه ١٦٠٠) ودافع بيكون عنه ، فأعيدت إليه حريته فى ٢٦ أغسطس .

والآن وهو فى قصر اسكس ظل يواصل السعى وراء السلطة . فأرسل صديقا حميما له ، حامى شكسبير وراعيه هنرى ريوتسلى Wriothesley ، ارل سوثمبتون — أرسله إلى أيرلنده ليقترح على مونتجوى نائب الملكة هناك ؛ أن يعود إلى إنجلترا مع الجيش الإنجليزى ، ويعاون اسكس فى تولى حكم أيرلنده . ورفض مونتجوى . وفى أوائل ١٦٠١ كتب اسكس إلى جيمس السادس ملك اسكتلنده طالبا مساعدته مع وعد بتأييده خلفا لاليزابث على عرش إنجلترا . ورد عليه جيمس بكتاب مشجع ، وراجت الاشاعات الفظيعة فى العاصمة المهتاجة بأن روبرت سيسل كان يخطط ليضع ابنة ملك أسبانيا Infanta ملكة على عرش إنجلترا ، ويزج باسكس فى برج لندن ، وأن رالى أقسم ليقتلنه . وحث سيسل الأصغر الملكة على أن تبعث برسالة إلى اسكس تطلب إليه الحضور إلى المجلس ، وربما كان الغرض من ذلك ارغامه على الافصاح عن نياته ، وحذره أصدقاؤه بأن هذا ربما كان خدعة للقبض عليه . وحجز أحد الأصدقاء وهو سير جيللى مرك للمستشار وصحبه مقاعد فى المسرح حيث كانت تمثل ذاك المساء فى سوثوارك Southwark ، رواية شكسبير

« ريتشارد الثانى » ، وهى تظهر كيف أن ملكا خلع عن عرشه عدلا وحقا[١١٩] .

وفى اليوم التالى (٧ فبراير ١٦٠١ احتشد ثلثمائة من أنصار اسكس المتحمسين المسلحين فى فناء داره . وعندما خرج إليهم اللورد حامل الأختام وثلاثة من الشخصيات الكبيرة ليسألوهم عن سبب هذا التجمع غير المشروع أغلق عليهم الحشد الأبواب وساقوا الارل الحائر معهم إلى لندن وإلى الثورة ، وكان يراوده الأمل فى أن يهب الناس لمساعدته ، ولكن الخطباء أمروهم بالتزام بيوتهم فامتثلوا . وكانت قوات الحكومة لهم بالمرصاد ، فتعقبوا المتمردين ، وقبض على اسكس وزج به فى برج لندن .

وسرعان ما قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة . وأمر المجلس بيكون بمساعدة كوك فى إعداد قرار الحكومة . وربما كان رفضه يؤدى إلى تدمير حياته السياسية ، وقبوله إلى انهيار سمعته التى واتته بعد وفاة أبيه ، فلما تلعثم كوك فى عرض التهمة نهض بيكون وعرض المسألة فى وضوح مقنع يدين المتهم ، واعترف اسكس بجرمه ، وذكر أسماء شركائه[١٢٠] . وقبض على خمسة من هؤلاء وقطعت رؤوسهم ، وحكم على سوثمبتون بالسجن مدى الحياة ؛ وأفرج عنه جيمس الأول فيما بعد . وتروى أسطورة أن اسكس بعث إلى الملكة بخاتم كانت قد أعطته إياه يوما مع الوعد بأن تهب لنجدته إذا أعاده إليها فى ساعة العسرة . ولكن الخاتم لم يصل إليها ، ولو كان قد أرسل[١٢١] . ففى الخامس والعشرين من فبراير ١٦٠١ ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، ذهب اسكس فى بسالة إلى المصير الذى كان طابع شخصيته . وبكى عدوه رالى عندما هوت الضربة على عنقه ، وعرض برج لندن ، لمدة عام ، الرأس المفصول عن جسده ، والذى أصابه الانحلال والعفن .

١١ — السحر يلوى ويذبل ١٦٠٠ — ١٦٠٣

إن منظر رأس اسكس ، أو ادراك اليزابث أن الرأس كان يحدق النظر إليها ليل نهار ، لا بد أن يكون قد شارك فى الكآبة التى خيمت على الملكة فى سنواتها الأخيرة : فكانت تقضى الساعات الطوال جالسة وحيدة فى صمت ، حزينة تطيل

التفكير ، وأبقت على ملاهى حاشيتها ، وتظاهرت أحيانا ، تظاهرا جريئا بالمرح ، ولكن اعتلت صحتها ومات قلبها . ولم تعد إنجلترا تحبها ، حيث أحست بأنها عمرت أكثر مما ينبغى لهـــا ، وأنه يجدر بها أن تخلى الطريق للملكية فتية . وثار آخر البرلمانات فى عهدها ثورة اتسمت بعنف أكثر من ذى قبل ، ضد انتهاكها لحرية البرلمان واضطهادها للبيوريتانية ، وطلباتها المتزايدة للاعتمادات ، واغداقهـــا احتكارات التجارة على ذوى الحظوة لديها . ودهش الجميع حين استسلمت الملكة فى آخر لحظة ، ووعدت بوضع حد لهذا الخلل . وذهب كل أعضاء مجلس العموم ليقدموا لها الشكر ، وجثوا بين يديها حين وجهت إليهم الخطاب . وكان آخر خطاب لها (٣٠ نوفمبر ١٦٠١) ، وهو « خطابها الذهبى » الحزين . قالت :

ليس ثمة جوهرة ، ارتفعت قيمتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، أوثرها على حبكم . . . ان تقديرى له ليفوق تقديرى لأى كنز . . . . ولقد رفعنا الله إلى أعلى عليين ، ولكنى أحسب أن عظمة عرشى هى أنى حكمت بفضـــل حبكم لى[١٢٢] .

وطلبت إليهم أن ينهضوا ثم استطردت فى الحديث قائلة :

لأن يكون الإنسان ملكا ويلبس التاج شىء سار لمن يراه ، أكثر مما هو سار لمن يحمله . . . . ومن ناحيتى أنا ، إذا لم يكن ارضاء لضميرى أن أنهض بالواجب الذى فرضه الله على ، وأن أحافظ على « مجده » وأوفر لكم الأمن والسلامة ، لوددت ، استجابة لطبيعتى ، أن أترك هذا المكان لغيرى ، وسعدت بالتحرر من هذه العظمة التى تقتضى جهودا مضنية ، لأنى لست راغبة فى أن أحيا أو أحكم أطول من عمرى ، وسيكون الحكم من أجل خيركم . وعلى الرغم من أنه قد حكمكم من قبل ، ولسوف يحكمكم من بعد ، ملوك أقوى وأعقل منى . من فوق هذا العرش ، فانكم لم تشهدوا ، ولن تشهدوا من هو أعظم حبا لكم منى[١٢٣] .

وكانت اليزابث تؤجل ما وسعها الجهد موضوع وراثة العرش ، فما دامت مارى ملكة اسكتلنده باقية على قيد الحياة ، ووريثة شرعية لعرش إنجلترا . فان

اليزابث لم يهدأ لها بال ، خشية أن تفسد مارى التسوية التى انتهت هى إليها مع البروتستانت ، أما الآن وقد ماتت مارى ، وكان جيمس السادس ملك اسكتلنده هو صاحب الحق الذى لا ينازع فى وراثة العرش ، فقد اطمأنت اليزابث إلى ذلك ، لعلمها بأن جيمس ، مهما كان مترددا أو مراوغا ، فهو بروتستانتى . ووصل إلى علمها أن روبرت سيسل وآخرين من رجال البلاط كانوا يتفاوضون سرا مع جيمس لتيسير ارتقائه العرش ، وليصيبوا المغانم المرتقبة فى هذه المناسبة ، وأنهم كانوا يعدون الأيام الباقية على موتها .

وانتشرت الاشاعات فى كل أنحاء أوربا أن السرطان سيقضى عليها . ولكنها كانت تموت من امتداد حياتها إلى أكثر مما ينبغى ، وما كان جسمها ليحتمل مزيدا من الأفراح والأتراح ، أو من أعباء وضربات السنين القاسية التى لا ترحم ، وعندما حاول ابنها بالمعمودية سيرجون هارنجتون ، أن يسرى عنها بأشعاره الفكهة الظريفة أخرجته من حضرتها وقالت « إذا أنت أحسست بالوقت يزحف زحفا نحو بابك ، أى بدنو الأجل ، قل ابتهاجك بمثل هــذه الحماقات[١٢٤] » . وفى مارس ١٦٠٣ ، وكانت قد عرضت نفسها فى جرأة لبرد الشتاء ، انتابتها حمى انهكتها لمدة ثلاثة آسابيع ؛ وقضت معظم الوقت جالسة على كرسى أو مستندة إلى الوسائد ، ولم ترتض أن يعودها طبيب ، ولكنها رغبت فى الاستماع إلى الموسيقى ، فجاء بعض العازفين أخيرا . واقتنعت بالتزام الفراش ، وتمنى لها رئيس الأساقفة وتجفت أن تطول حياتها فانتهرته ، وسجد إلى جانب سريرها وصلى ، وظن أنه أدى قدرا كافيا من الصلوات وحاول أن ينهض ، ولكنها أمرته أن يتابع الصلاة . ومرة ثانية « تعبت ركبتا الرجل العجوز » . فأشارت إليه أن يؤدى مزيدا من الصلوات . ولم ينقذه إلا أن غلبها النعاس فى ساعة متأخرة من الليل ، ولم تصح من رقدتها هذه قط ، وفى اليوم التالى (٢٤ مارس) كتب جونماننجهام فى مفكرته : « فى نحو الساعة الثالثة من صباح اليوم فارقت جلالتها الحياة ، فى وداعة مثل الحمل ، ويسر مثل قطف التفاحة الناضجه من شجرة[١٢٥] » . وهكذا كان يبدو .

وأحست إنجلترا بهول المصيبة ، على الرغم من أنها كانت قد طال انتظارها

لموتها . وأيقن الكثيرون أن عهدا عظيما قد انقضى ، وأن يدا جبارة قط سقطت عن دفة السفينة . وخشى بعضهم ، مثل شكسبير ، حدوث الفوضى[١٢٦] . أما بيكون فقد قال إنها ملكة عظيمة إلى حد :

إنه لو كان بلوتارك الآن على قيد الحياة ، ليكتب عن سير الحياة بالتناظر ، فقد يجد مشقة فى أن يجد لها شبيها بين النساء . لقد وهبت هذه السيدة معرفة فريدة بين بنات جنسها ، بل حتى نادرة بين الأمراء والرجال . . . .

أما بالنسبة لحكومتها . . . فان هذا الجزء من الجزر البريطانية لم يشهد قط خمسا وأربعين سنة خيرا من هذه ، لا فى هدوء هذه الفترة فحسب ، بل فى الحكمة التى سادت الحكم . فلو نظرنا ، من ناحية . إلى صدق العقيدة التى رسخت قواعدها ، والسلام والأمن الدائمين ، والإدارة الحسنة للعدالة . والقصد والاعتدال فى استخدام الحقوق الملكية . . . . وازدهار المعرفة . . . . ثم لو نظرنا ، من ناحية أخرى ، إلى الخلافات الدينية ، ومتاعب البلاد المجاورة ، وأطماع أسبانيا ، ومعارضة روما ، ثم إلى أنها — أى الملكة — كانت وحيدة ، بنفسها ، أقول لو نظرنا بعين الاعتبار إلى هذه الأشياء كلها ، لما كان فى مقدورى أن أختار مثالا آخر حديثا ومناسبا إلى مثل هذا الحد ، وكذلك أظن أنه ما كان فى مقدورى أن أختار شيئاً أروع أو أبرز . . . . من اقتران المعرفة لدى الأمير بالسعادة التى عاش فى ظلها الشعب[١٢٧] .

والآن ونحن ننظر إلى الوراء ، نتأمل طبيعة أحداث ذاك الزمان بعد وقوعها ، لا بد لنا من أن نظلل الصورة بعض الشيء ، ذاكرين أخطاء الملكة التى لا تضاهيها ملكة ، غافرين لها هـذه الأخطاء . إنها لم تكن قديسة ، أنها لم تؤت الحكمة ، ولكنها سيدة ذات مزاج وذات هوى مفعمة بحب الحياة . ولم تتركز تماما « حقيقة العقيدة » ، ولم يكن كل رعاياها ، كما زعم شكسبير ، « يأكلون فى ظل كرومهم التى زرعوها بأيديهم ، آمنين مطمئنين . وينشدون أغنيات السلام البهيجة[١٢٨] » وإن شيئاً من رشاد حكمها ليعود إلى حكمة معاونيها . وكان تذبذبها فى الرأى

يقترن فى غالب الأمر بحسن الطالع ، وربما كان ذلك بسبب ما يحدث مصادفة من تغيير ، وأدى هذا التذبذب أحيانا إلى ضعف فى السياسة إلى حد أن المتاعب الداخلية لدى أعدائها هى التى ساعدتها على البقاء بعد النكسة . ولكنها استطاعت البقاء ، بل وحققت نجاحا ، بوسائل مشروعة أو ملتوية ، لقد حررت اسكتلنده من ربقة فرنسا وربطتها بإنجلترا ، ومكنت هنرى نافار من إيجاد التوازن بين قداسه فى باريس وبين مقتضيات مرسوم نانت . ولقد وجدت إنجلترا مفلسة محتقرة ، وخلفتها غنية قوية ، وترعرعت ونمت منابع المعرفة والآداب فى ظل الثروة التى كان يرفل فيها شعبها ، وتابعت الحكم الاستبدادى المطلق على عهد أبيها ، ولكنها لطفت من حدته بالإنسانية والفتنة . لقد حرمت الزوج والولد ، وتبنت إنجلترا وجعلت من نفسها أما لها ، وأحبتها حبا خالصا ، وأفنت نفسها فى خدمتها ، فكانت أعظم حاكم عرفته إنجلترا .

الفصل الثانى

إنجلترا المرحة[١]

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ — فى العمل

أى نوع كانت إنجلترا تلك التى أمدت اليزابث بالقوة وهيأت لها النصر . ووهبت شكسبير اللغة والإلهام ؟ وأى صنف من الناس كان هؤلاء الإنجليز فى عصر اليزابث ، أولئك المغامرون فى تهور ، الصرحاء الممتلئون حيوية ونشاطا ؟ كيف عاشوا وعملوا ولبسوا وفكروا ، وأحبوا وشادوا وغنوا ؟

فى ١٥٨١ بلغ عدد السكان نحو خمسة ملايين ، معظمهم مزارعون ، ومعظم هؤلاء يفلحون الأرض لمصلحة المالك نظير جزء من المحصول ، وبعضهم يستأجر الأرض مقابل إيجار محدد يدفعه ، وكان ثمة عدد متزايد من صغار المزارعين الأحرار الذين يمتلكون الأرض ملكية مطلقة ، وبقيت مساحات من الأرض على المشاع حيث ثبت أن أرض المراعى تدر ربحا أكثر من الأرض المحروثة ، وكاد الرقيق أن ينقرض ، ولكن طرد المستأجرين عن طريق المساحات المشتركة المسورة وعن طريق الضم كان يخلق طبقة بائسة من العمال الذين غامروا ببيع عضلاتهم من مزرعة إلى مزرعة ، ومن حانوت إلى حانوت فى المدن الآخذة فى التوسع (التنقل من أجل الحصول على عمل نظير أجر) .

وباستثناء العاصمة ، كانت المدن لا تزال صغيرة ، على أية حال . وزاد عدد السكان قليلا عن عشرين ألفا فى كل من نورولك Norwich وبرستول ، وهما أكبر مدينتين بعد لندن . وكان لهذه المسألة جانبها المشرق : ذلك أن سكان المدن كانوا متوادين متحابين ينعمون بحسن الجوار . وحتى فى لندن نفسها ، كان لمعظم البيوت

حدائق ؛ أو أنها كانت قريبة من الحقول المكشوفة ، ومن ثم يمكن جمع مختلف أنواع الأزهار التى ترنم بها شكسبير . وحصلت البيوت على التدفئة بإحراق الخشب ، واستخدمت معظم المصانع الفحم لتوليد الطاقة ، ولكن أسعار خشب التدفئة ارتفعت كثيرا فى القرن السادس عشر ، وحدا ازدياد الطلب على الفحم بملاك الأراضى إلى التنقيب عن الرواسب فى أراضيهم . وجىء بالعمال الألمان لتحسين التعدين وعلم المعادن . وحرمت اليزابث استخدام الفحم فى لنـــدن ، ولكن ثبت أن أوامرها كانت أقل حسما من الضرورة الاقتصادية(٢) . وزادت محلات النسيج واتسعت بعد لجوء النساجين والقصارين إلى إنجلترا هربا من جور دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، وجلب الهيجونوت من فرنسا مهاراتهم الحرفية والتجارية ، على أن رجلا إنجليزيا هو الكاهن الموقر « وليم لى » هو الذى اخترع (١٥٨٩) « جهاز الجوارب » شبه الآلى للحياكة . وكان صيد السمك أكثر الصناعات ازدهارا ، لأن الحكومة شجعتها بغية تعويد الناس على ركوب البحر والملاحة ، ومن ثم تهيئ احتياطيا للبحرية . ومن ثم انحنت اليزابث إجلالا للكنيسة الكاثوليكية ، وأمرت رعاياها أن يمتنعوا عن أكل اللحم يومين فى الأسبوع ، وأيام الصوم التقليدية فى الصيام الكبير .

وكانت نقابات التجار والصناع قد سلبتها القوة والفعالية قيود العصور الوسطى وتوجيهاتها ، ومن ثم ظلت النقابات تفقد أسواقها فى عصر النزعة الفردية والتجديد . وجمع المتعهدون المهرة رأس المال ، واشتروا المواد الخام ، ووزعوها على المتاجر والأسرات ، واشتروا الإنتاج ، ثم باعوه ، قدر ما تحتمل ظروف التجارة والمقايضة . وبدأت الرأسمالية فى إنجلترا فى البيت ، بعمل الأب والأم والابنة والابن ، للمقاول أو الملتزم . أما وقد نشأ الآن « هذا النظام المنزلى » فقد سار حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكان كل بيت تقريبا ، بمثابة مصنع مصغر ينسج فيه النســاء ، ويغزلن الكتان والصوف ، ويحكن ويطرزن ، ويقمن بتحضير الأدوية من الأعشاب وتقطير المشروبات ، ونجحن إلى حد كبير فى النهوض بفن الطبخ ، فى إنجلترا .

وسنت حكومة اليزابث القوانين للاقتصاد بمثل ما سنت به للعقيدة ، من غيرة

وحماس . وأدركت أن القيود البلدية على الصناعة والتجارة ، تعوق النشاط التجارى والصناعى ، فاستبدلت بأنظمة الوحدات الإدارية نظاما قوميا واحدا . وقرر تشريع « التلمذة الصناعية » المشهور (١٥٦٣) مجموعة قواعد ومبادئ هامة للرقابة والإلزام الحكوميين ، وقد ظل قانون إنجلترا حتى ١٨١٥ . ومنذ كان القانون يهدف إلى القضاء على الخمول والتعطل ، فانه تطلب من كل شاب قوى الجسم قادر على العمل أن يخدم كتلميذ لمدة سبع سنوات ، لأن الرجل « حتى يبلغ الثالثة والعشرين ، يكون فى أغلب الأحوال ، وليس دائما ، متهورا طائشا لا يحسن التمييز ، لم يؤت من التجربة والخبرة ما يستطيع معه أن يحكم نفسه[٣] » . وكل متعطل عن عمد قبل الثلاثين من العمر ، ليس له دخل سنوى مقداره أربعون شلنا ، يمكن إجباره على العمل ، وفقا لتوجيه السلطات المحلية . وكل الأصحاء الذين لم يبلغوا الستين فى الريف يمكن إلزامهم بالعمل فى جمع المحاصيل . ويجب تأجير العمال بعقود سنوية نظير نوع من أجر سنوى مضمون . وخول قضاة الصلح سلطة تحديد الحد الأقصى والحد الأدنى لمكافأة كل عمل فى المنطقة التى يعمل بها كل منهم . وحدد أجر العامل فى لندن بتسعة بنسات يوميا . وفرضت غرامة قدرها أربعون شلنا على أصحاب العمل الذين يفصلون العمال بشكل تعسفى . أما المستخدمون الذين يتركون أعمالهم بغير سبب مشروع فكان يزج بهم فى السجن . وكان محظورا على أى مستخدم أن يترك مدينته أو أبرشيته دون إذن من رب العمل أو الحاكم المحلى . وحددت ساعات العمل باثنتا عشرة ساعة يوميا فى الصيف ، وبساعات ضوء النهار فى الشتاء . وكان الاضراب أيا كان نوعه محظورا ، وكانت عقوبته السجن أو الغرامة الثقيلة[٤] .

وعموما كان لهذا التشريع مفعوله فى حماية أرباب العمل ضد من يستخدمون من العمال ، والزراعة ضد الصناعة ، والدولة ضد الثورة الاجتماعية . وكتبت نقابة البنائين بالأجر فى مدينة هل فى صدر قانونها المحلى هذه العبارة : « كل الناس متساوون بالطبيعة ، خلقهم خالق واحد من طينة واحدة » . ولكن لم يؤمن بهذا أحد ، وفى أقل القليل سيسل واليزابث ، ويحتمل أن يكون سيسل هو الذى

وجه التشريع الاقتصادى فى ١٥٦٣ ومن نتائجه بالنسبة للطبقات العاملة أنه جعل الفقر أمرا إجباريا . واقترح إعادة تحديد الأجور بصفة دورية وفقا لأسعار المواد الغذائية الأساسية ، ولكن الحكام المكلفين بهذا العمل كانوا ينتسبون إلى طبقة المستخدمين (أرباب العمل) . وارتفعت الأجور ، ولكن بمعدل أبطأ كثيرا من الأسعار . وفيما بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ ارتفعت الأسعار بنسبة ١٠٠ ٪ ، على حين ارتفعت الأجور فى نفس الفترة ٢٠ ٪ فقط[٦] .

وفى خلال القرن من الزمان الذى يمتد من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ كانت أحوال المهنيين والعمال تزداد سوءا يوما بعد يوم[٧] . وامتلأت ضواحى لندن « بطبقة فقيرة نسبيا ، شريرة غالبا ، تقطن فى أحقر المساكن[٨] » ، تعيش فى بعض الأماكن على السرقة والتسول ، وفى جنازة ارل شروزبرى (١٥٩١) جاء نحو عشرين ألفا من المتسولين يلتمسون الصدقات[٩] .

وشنت الحكومة حملات على هذه الرذائل بمجموعة من القوانين الصارمة ضد التسول والاستجداء ، وبمجموعة إنسانية نسبيا من « قوانين الفقراء » (١٥٦٣ — ١٦٠١) التى اعترفت بمسئولية الدولة عن حماية رعاياها من الموت جوعا . وفى كل وحدة إقليمية جمعت ضريبة لرعاية الفقراء غير القادرين على العمل ، وتشغيل القادرين على العمل فى مصانع تديرها الدولة .

وتبين أن ارتفاع الأسعار كان حافزا للصناعة والتجارة قدر ما كان مأساة وكارثة على الفقراء . والأسباب الرئيسية فى هذا هو استخراج الفضة فى أوربا ، واستيراد المعادن النفيسة من أمريكا ، وغش الحكومات للعملة (تخفيض قيمتها بزيادة ما تحتويه من معدن خسيس) وفيما بين سنتى (١٥٠١ — ١٥٤٤ كانت جملة مقادير الفضة المستوردة أو المستخرجة فى أوربا تساوى نحو ١٥٠ مليونا من الدولارات بمعدلات ١٩٥٧ ، وفيما بين عامى ١٥٤٥ — ١٦٠٠ نحو ٩٠٠ مليون[١٠] . وكافحت اليزابث بشرف غش النقد الإنجليزى ، وتقبلت نصيحة مستشارها البعيد النظر ، سيرتوماس جريشام ، الذى حذرها (١٥٦٠) فى عبارة أصبحت « قانون جريشام » ، وهى

أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وأن العملة التى تحتوى على النسبة الصحيحة من المعدن النفيس قد تختزن أو ترسل إلى الخارج ، على حين أن العملة التى لاتحتوى على النسبة المقررة الصحيحة من المعدن النفيس تستعمل لسائر الأغراض الأخرى ، وبخاصة فى تسديد الضرائب أى « أن يدفع للحكومة النقد الذى سكته هى (وغشته) » ، وأصلحت اليزابث وسيسل النقد الذى كان قد غشه أبوها وأخوها ، وأعادت إلى العملة الإنجليزية النسبة الصحيحة من الذهب أو الفضة . وارتفعت الأسعار على الرغم من هذا ، لأن تدفق الذهب والفضة أو إنتاجهما ، وتداول العملة ، فاقا سرعة إنتاج السلع .

وأسهمت الاحتكارات فى رفع الأسعار . ورخصت اليزابث فى احتكار صناعة أو بيع الحديد والزيت والخل والفحم والرصاص ونترات البوتاسيوم أو الصوديوم (الملح الصخرى) والنشا والخيوط والجلد ، والجلود المدبوغة والزجاج ، ولقد مكنت هذه التراخيص ، من جهة لتشجيع رأس المال على تحسين الإنتاج ، وإقامة صناعات جديدة ، ومن جهة أخرى كتعويض أو مكافأة للوظائف والخدمات التى لا تحصل بدونها (أى تراخيص الاحتكار) على أجر كاف . ولما ارتفعت الشكوى من هذه الاحتكارات إلى حد أن البرلمان كاد أن يثور ، وافقت اليزابث على وقفها حتى يتم التحقيق فيها والتصديق عليها (١٦٠١) ، ومن ثم كان الاحتفاظ ببعضها .

ونتيجة لهذا التعويق نمت التجارة الداخلية بخطى أبطأ من تقدم التجارة الخارجية . وفيما عدا أيام المناسبات والأعياد ، لم يكن يسمح لأى إنسان أن يبيع السلع فى أية مدينة لا يكون هو من سكانها ، وكانت هذه المناسبات دورية فى كثير من المراكز ، وبلغت أكثر من مائة يوم فى السنة . وكان أكثرها شيوعا ، « يوم القديس برثلميو » الذى يقام فى شهر أغسطس من كل عام بالقرب من لندن ، مع « سيرك » يجذب الناس إلى السلع ، وكان انتقال البضائع على الماء أكثر منه بالبر ، وكانت الأنهار تعج بالحركة ، وكانت الطرق رديئة ، ولكنها آخذة فى التحسن . ويمكن السير فيها ركوبا لمسافة مائة ميل فى اليوم ، وقطع الرسول الذى حمل إلى ادنبره نبأ وفاة اليزابث

١٦٢ ميلا فى يومه الأول . وكانت الخدمات البريدية التى انشئت فى ١٥١٧ مقصورة على الحكومة وحدها . أما البريد الخاص فكان يرسل مع الأصدقاء أو الرسل أو السعاة أو أى مسافرين آخرين . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، أما المركبات فأدخلت حوالى ١٥٦٤ ، وظلت حتى ١٦٠٠ لونا من الترف لدى قلة من الناس ، وما جاءت سنة ١٦٣٤ حتى كثر عددها إلى حد إصدار بلاغ بتحريم استخدام الأفرد لها استخداما خاصا ، بسبب ازدحام حركة المرور[١١] . وكانت الأنزال (الفنادق) حسنة ، كذلك كانت النادلات فيها ، اللهم إلا عند الدفع . لكن كان ينبغى على عابر السبيل أن يحرص على كيس نقوده ، وأن يخفى وجهته[١٢] . لقد كان على المرء فى إنجلترا على عهد اليزابث أن يكون نشيطا حذرا مستعدا .

ونمت التجارة الخارجية بتقدم الصناعة . وكان تصدير المنتجات الكاملة الصنع هو الوسيلة المفضلة لتسديد ثمن ما يستورد من المواد الخام ومواد الترف الشرقية . وتوسعت السوق من الوحدة الإقليمية إلى الأمة بأسرها ، ثم إلى أوربا ، بل حتى إلى آسيا وأمريكا . واتسعت مجالات الحكومات الوطنية وأهدافها وسلطانها مع اتساع مدى التجارة ومشاكلها ، وقد رغبت إنجلترا — مثلما رغبت أسبانيا وفرنسا — فى تصدير السلع واستيراد الذهب . لأن « النظرية التجارية(*) » التى سادت آنذاك . كانت تقيس ثروة الأمة بمقدار ما لديها من المعادن النفيسة . وواضح أن فرانسس بيكون كان أول من تحدث عن « ميزان تجارى[١٣] » مرض ، قصد به زيادة الصادرات على الواردات ومن ثم امتصاص الفضة أو الذهب ، أو تسربهما إلى داخل البلاد . وأعلن سيسل عن هدفه بقوله : « يجب ، بكل الوسائل ، أن نقصر استخدامنا للسلع الأجنبية على ما هو ضرورى لنا[١٤] » ولقد أدرك أن الفضة والذهب لا يؤكلان ولا يلبسان ، ولكنهما كانا نقدا دوليا ، يمكن أن يشترى به عند الضرورة

(*) **Mercantilism** وهو النظام الاقتصادى الذى نشأ فى أوربا خلال تفسخ الاقطاع لتعزيز ثروة الدولة ن طريق تنظيم حكومى صارم للاقتصاد الوطنى فى جميع نواحيه ، وانتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية . (المترجم نقلا عن قاموس المورد ، بيروت ١٩٧١) .

أى شيء تقريبا ، حتى الأعداء ، وتجب حماية الصناعة الوطنية زمن السلم ، حتى لا تعتمد الأمة على المنتجات الأجنبية زمن الحرب ، ومن ثم عوقت الحكومات الاستيراد عن طريق الرسوم الجمركية ، وشجعت التصدير عن طريق الاعانات ، وتكونت « شركات التجارة » لبيع المنتجات الإنجليزية فى الخارج وهيأ « التجار المغامرون » . الإنجليز منفذا للصادرات فى همبرج . ورأس أنطونى جنكنسون بعثة تجارية إلى روسيا (١٥٥٧) وأخرى إلى إيران (١٥٦٢) ، وذهبت بعثة أخرى إلى الهند (١٥٨٣ — ١٥٩١) . وأنشئت لجنة إنجليزية تركية (١٥٨١) . وأسست الشركة المسكوفية فى ١٥٩٥ ، وشركة الهند الشرقية الشهيرة فى التاريخ فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ، وكان المسرح ممهدا لهستنجز وكليف . وقام عشاق البحر أو المال بمغامرات عبر المحيطات بحثا عن طرق جديدة للتجارة . وكان علم الجغرافيا ـ من بعض النواحى ، نتيجة غير مقصودة لحماستهم . وقامت حركة ضخمة لبناء السفن ، بحثا عن الأسواق والمستعمرات . وتحولت أخشاب غابات إنجلترا إلى سفن وصوار . وشرعت بريطانيا تتحكم فى الأمواج وتحكم البحار . وولدت الامبراطورية البريطانية قولا وعملا .

ولما انتشرت التجارة واتسع مجالها ، تطورت النظم المالية لتيسير عملياتها وتعجيلها . وتضاعف عدد المصارف . وفى ١٥٥٣ أنشأ « التجار المغامرون » شركة مساهمة مشتركة للتجارة مع روسيا ، أصدرت ٢٤٠ سهما قيمة كل منها ٢٥ جنيها ، وكانت الأرباح توزع بعد كل جولة ، ويعاد رأس المال المستثمر(١٥) . ومولت شركة الهند الشرقية رحلاتها بمثل هذه الطريقة . وأدت الأرباح التى بلغت ½ ٨٧ ٪ فى أول رحلة إلى اندفاع المساهمين إلى الاشتراك فى المشروع أو المغامرة الثانية — ومنهم رجال البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين ، والفرسان ، والأرامل ، والعوانس ، والحرفيون . وأحب الرجال والنساء آنذاك المال حبا جما ، كما هو الحال اليوم تماما . وكان البرلمان قد حرم الفوائد على القروض حتى ١٥٥٢ ، بوصفها « رذيلة ما أقبحها(١٦) » ، ولكن القوة المتزايدة لرجال الأعمال فى مجلس العموم ، أدت إلى صدور « قانون الربا » فى ١٥٧١ ، وقد ميز هذا القانون بين الفائدة والربا ،

وأجاز نسبة ١٠ ٪ سعرا للفائدة . ولما ازداد التعامل فى الأسهم أنشئت سوق الأوراق المالية (البورصة) لتبادل ملكية الأسهم والبضائع . وسك مزيد من النقود المتداولة ليتسنى شراء السلع وبيعها . وفى ١٥٦٦ أسس جريشام « البورصة الملكية » لتقوم بمثل هذه العمليات التجارية والمالية . وفى ١٥٨٣ أصدرت أقدم « بوليصة » تأمين على الحياة(١٧) .

ونمت الروح التجارية مذ أصبحت لنـــدن واحدة من أسواق ومراكز العالم المزدهرة . وتألقت الشوارع غير المضاءة بما تكدس فيها من بضائع . وحكم جواب آفاق طاف بأقطار كثيرة ، بأن منشآت الصياغ فى لندن أفخم مثيلاتها فى أى مكان آخر فى العالم(١٨) . وجن جنون أصحاب الأعمال للحصول على دور لهم ، واستعمل بعضهم صحن كاتدرائية سانت بول مقرا مؤقتا لمكاتبهم ، وكلهم ثقة بأن « المسيح » كان قد غير رأيه منذ ظهر كلفن ، وهناك تعامل المحامون مع عملائهم ، وأحصى الناس المـال فوق المقابر ، وفى الفناء باع الباعة المتجولون الخبز واللحم والسمك والفاكهة والجعة والبيرة ، وتدافعت حشود المشاة والباعة المتجولون والمركبات وعربات النقل فى الشوارع الضيقة الموحلة . واستخدم نهر التاميز كطريق رئيسى تمر به مراكب نقل البضائع والمعديات ومراكب النزهة ، وكاد يوجد فى كل نقطة فيه مجدف أو معدّ معه قارب ، مستعد لنقل البضائع أو الركاب عبر النهر ، ضـــد التيار ، أو مع التيار . ومن ثم كانت صيحاتهم العالية (نداءاتهم للركاب) : « شرقا » أو « غربا » ، التى أخذت عنها عنوانات « روايات جاكوب » . وكان النهر ، إذا زالت عنه رائحته — نعمة كبرى للتجارة والنزهة والعشاق ، وخلفية للمشاهد المسرحية الفخمة والمساكن الفاخرة . وكان جسر لندن الذى بنى فى ١٢٠٩ مفخرة المدينة ، والطريق الوحيد بين طرفيها الشمالى والجنوبى . وتخصص الجنوب فى الحانات والمسارح والمواخير والسجون . أما الشمالى فكان المركز الرئيسى للأعمال . وهنا كان التاجر هو السيد ، وكان اللورد صاحب اللقب يدخل بعد السماح له بالدخول . وكانت الشخصيات الملكية والنبلاء يقطن معظمهم فى قصور خارج لنـــدن . وكان حى وستمنستر ، مقر البرلمان آنذاك ، مدينة منفصلة . وهناك أيضا أجبرهم رجل الأعمال

على سماع صوته ،وما وافت سنة ١٦٠٠ حتى بات فى مقدوره أن يزعج المليكة ، وبعد نصف قرن تقريبا (حوالى ١٦٥٠) قطع رأس الملك .

٢ — فى المدارس

لم يكن عصر شكسبير متوفرا على التعليم . فتعلم العصر قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، مع قدر أكبر من الإيطالية والفرنسية ، وقرأ الكتب بنهم ولكن بسرعة ، واندفع يحكم عليها بالتجربة والاختبار ، وتعلم من مدرسة الحياة ، وأجاب معلمه بوقاحة لم يسمع بمثلها .

ولم تكن اللغة التى استعملها هذا العصر هى لغة المدارس ، ولكنها كل لغة الحديث الموروثة عن عهود الكلت والرومان والسكسون والنورمنديين فى إنجلترا ، مزيدة بالغنائم اللغوية من فرنسا وإيطاليا ، كما انتزعت بعض الألفاظ العامية من شوارع لندن ، ومن اللهجات فى المقاطعات ، ولكن لغة العصر لم تقنع بهذا ، فجعلت الكلمات تلد كلمات ، وجعلت الخيال الواسع يتخبط فى الكلام الخلاق . وهل كان ثمة لغة حية قوية مرنة غنية مثلها ؟ ولم تتوقف لتضع لهجائها القواعد ، وقبل ١٥٧٠ لم توجد قواميس للارشاد إلى ضبط الهجاء والإملاء ، ولم يحدد شكسبير يوما كيف يتهجى اسمه . واستخدم الاختزال ، ولكنه لم يهدئ من روع أصحاب الأعمال المهتاجين ، ولم يسعف الشعر .

وقضى هنرى الثامن على تعليم البنات المنظم حين حل أديار الراهبات . أما التعليم الإبتدائى فكان ميسورا مجانا لأى ولد يمكنه الوصول إلى إحدى المدن . وفتحت اليزابث مائة مدرسة متوسطة مجانية Grammar School ، وأضاف إليها جيمس الأول وشارل الأول ٢٨٨ مدرسة أخرى . أما الأولاد (البنين) من ذوى الأصل العريق فقد كانت قد أسست لهم بالفعل مدارس خاصة Public School (مدارس ثانوية داخلية) فى ونشستر ، وايتون ، وسانت بول ، وشروزبرى ، وأضيف إليها الآن رجبى (١٥٦٧) ، وهارو (١٥٧١) ، ومدرسة Merchant Taylor's (١٥٨١) حيث لمع الاسم التربوى العظيم ريتشارد مولكاستر . وكان المنهج تقليديا ،

بالإضافة إلى الضرب ، وكان تعليم المذهب الأنجليكانى إجباريا فى جميع المدارس . وفى وستمنستر كانت الدراسة تبدأ فى السابعة وتنتهى فى السادسة ، مع فترات فيها شيء من الشفقة : لطعام الأفطار فى الثامنة ، ولسنة من النوم والخلوة بعد الظهر . وكان الآباء يصرون على أن تنهض المدرسة على أكمل وجه ، بإحدى مهامها الرئيسية ، ألا وهى تخليصهم من أبنائهم .

وظلت اكسفورد وكمبردج تحتكران التعليم الجامعى . وكانتا قد فقدتا هيبتهما والثقة بهما فى أثناء الاصلاح الدينى وما اقترن به من هياج وشغب ، كما انصرف عنهما آلاف الطلاب ، ولكنهما كانتا تستردان مكانتهما ، وفى ١٥٨٦ كانت كل جامعة منهما تضم نحو ١٥٠٠ طالب . وفى جامعة كمبردج تبرع سير والتر ميلدماى Mildmay بكلية عمانويل فى ١٥٨٤ ، وأسست فرانسس، كونتيسة سسكس وعمة فيليب سدنى ، كلية سيدنى سسكس فى ١٥٨٨ . وفى اكسفورد أسست كلية يسوع بأموال حكومية وغير حكومية ١٥٧١ ، وأضيفت كليتا وادهام (١٦١٠) وبمبروك (١٦٢٤) فى عهد جيمس الأول . وشرفت كمبردج فى ١٥٦٤ بزيارة الملكة التى استمعت فى وقار وتواضع إلى خطاب رسمى باللاتينية فى مدحها ، وفى كلية ترنتى ردت باليونانية على خطاب باليونانية ، وفى الطرقات تبادلت الحديث مع الطلبة باللاتينية ، وفى نهاية الزيارة وجهت خطابا باللاتينية أعربت فيه عن أملها فى أن تفعل شيئا من أجل التعليم . وبعد ذلك بعامين زارت اكسفود مبتهجة مفاخرة بقاعاتها وملاعبها ، وعند مغادرتها الجامعة صاحت فى حماس : « وداعا رعاياى الأفاضل ، وداعا أبنائى الطلبة الأعزاء ، وفقكم الله فى دراستكم[١٩] » . لقد عرفت كيف تكون ملكة .

ونافست نساء إنجليزيات أخريات اليزابث فى مجال العلم والمعرفة . فاشتهرت بنات سير أنطونى كوك بعلمهن . واتخذت مارى سدنى كونتيسة بمبروك من بيتها ، فى ولتن منتدى للشعراء ورجال السياسة والفنانين الذين تبينوا فيها عقلا ناضجا يمكنها من تقدير أحسن ما يملكون أو يقدمون . وتلقى مثل هؤلاء السيدات معظم تعليمهن

على أيدى معلمين خاصين فى البيت . وكانت المدارس المتوسطة مفتوحة للجميع ، أما الثانوية الخاصة والجامعات فكانت قصرا على الذكور فقط .

وكان من أبرز سمات العصر أن أقدر الماليين فى عهد اليزابت أسس فى لنـــدن (١٥٧٩) « كلية جريشام » للقانون والطب والهندسة وعلوم البلاغة وغيرها من الدراسات النافعة لطبقة أصحاب الأعمال ، وحدد أن تكون المحاضرات بالإنجليزية واللاتينية على حد سواء ، طالما أن التجار وغيرهم من المواطنين سيلتحقون بها[٢٠] . وأخيرا كان تعليم طبقة ذوى اليسار أو ذوى الألقاب يكمل بالسياحة والرحلات . وقصد الطلبة إلى إيطاليا لاستكمال تدريبهم الطبي والجنسى ، وللتعرف على آداب الإيطاليين وفنونهم ، وتعلم كثيرون أن يعرجوا على فرنسا فى الطريق . ولم تكن اللغة عائقا آنذاك ، لأن كل متعلم فى غرب أوربا ووسطها كان يعرف اللاتينية . وعلى الرغم من ذلك فان المســافرين العائدين أتوا معهم إلى الوطن بأثارة من الإيطالية والفرنسية ، كما جاءوا بولع شديد بالأخلاقيات الهينة اللينة التى سادت إيطاليا فى عصر النهضة .

٣ — الفضيلة والرذيلة

إن كل تلميذ ليعرف تنديد روجر أسكام فى ١٥٦٣ بالرجل الإنجليزى الذى يتشبه بالإيطاليين ، حيث يقول : —

أنى لأعتقد أن الذهاب إلى هناك « إلى إيطاليا » . . . . خطر ، أى خطر . . . لقد جعلت الفضيلة يوما من هذه البلاد سيدة على العالم . ولكن الرذيلة جعلت منها الآن عبدا لمن كانوا من قبل يلذ لهم أن يخدموها . . . . انى على العكس من ذلك ، أعرف رجالا غادروا إنجلترا ممن عرفوا فيها بالحياة البريئة والمعرفة الواسعة عادوا من إيطاليا وقد رغبت نفوسهم عن الاستقامة فى الحياة وانصرفوا عن العلم ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل سفرهم إلى الخارج . وإذا ذهب بك الظن إلى أننا لا نقرر الحقيقة . فاستمع إلى ما يقوله الإيطاليون . . . « ان الإنجليزى الذى يتشبه بالإيطاليين ليحمل بين جنبيه شيطانا متجسدا فيه » . . . . وكنت أنا نفسى ذات مرة

فى إيطاليا ، وأحمد الله انى لم أمكث فيها إلا تسعة أيام فقط . ومع ذلك رأيت فى هذا الوقت القصير ، فى مدينة واحدة ، من الاباحية والمجون والإثم مالا أكاد أذكره عن مدينتنا الفاضلة لندن فى تسع سنوات[٢١] .

ولم يكن معلم اليزابث هو الوحيد الذى ضرب على هذه النغمة . فقد كتب ستيفن جسون Gosson فى كتابه « مدرسة الفساد » (١٥٧٩) « لقد سلبنا إيطاليا دعارتها ، انك إذا قارنت بين لندن وروما ، وبين إنجلترا وإيطاليا لوجدت أن مسارح الواحدة منهما ومفاسد الأخرى منتشرة انتشارا واسعا بيننا » . ونصح سيسل ابنه ألا يسمح لأولاده أن يعبروا جبال الألب . « لأنهم لن يتعلموا هناك شيئا سوى الغرور وعدم احترام المقدسات والإلحاد[٢٢] » . وفى كتابه « تشريح المفاسد » ، وصم فيليب ستبز Stubbs — وهو بيوريتانى — الإنجليز فى عصر اليزابث — بأنهم أشرار مترفون مزهوون ، يفاخرون بخطاياهم . ونعى الأسقف جول Jewel فى موعظة ألقاها أمام الملكة — نعى على الناس فى لندن أنهم فى سلوكهم وأخلاقهم « يهزأون بكتاب الله المقدس ، الإنجيل ، ومن ثم يصبحون أكثر فسقا وأكثر شهوانية وحبا للدنيا وأكثر دعارة ، مما كانوا عليه فى أى وقت مضى . . . وإذا كانت حياتنا تشهد بعقيدتنا وتنم عن ديننا ، فانها تنادى بأعلى صوت . . . . . ليس هناك إله[٢٣](*) .

إن مثار الضجة والنعى على الأخلاق يرجع فى كثير منه إلى أساتذة الأخلاق

(*) يروى أوبرى قصة تؤيد أسكام ، يقول « كان والتر رالى مدعواً إلى العشاء مع شخصية كبيرة . وكان ابنه يجلس إلى جواره ، محتشما غاية الاحتشام ، على الأقل طيلة نصف فترة العشاء . ثم قال : هذا الصباح ، ولم تكن خشية الله ماثلة أمام عينى ، قصدت إلى واحدة من بنات الهوى كنت شديد الهيام بها ، وأردت أن استمتع بها . ولكنها دفعتنى عنها وأقسمت ألا أقربها ، قائلة إن أباك كان يضاجعنى منذ ساعة فقط » فما كان من والتر ، وقد فوجىء مفاجأة مذهلة ، وخاصة فى مثل هذه المأدبة العظيمة ، إلا أن لطم ابنه لطمة شديدة على وجهه . ولكن الابن ، رغم فظاظته وغلظته ، لم يضرب أباه ، بل لطم الرجل الذى كان يجلس إلى جواره ، وقال : لكمة هنا وهناك ستصيب أبى حالا . . . » (موجز سير الحياة Brief Lives — ص ٢٥٦) .

الذين نددوا أشـــد التنديد بالنساء والرجال الذين لم يعودوا يلقون بالا إلى أهوال الجحيم أو يؤمنون بها . ويحتمل ألا يكون الناس فى مجموعهم شرا أو خيرا عما كانوا عليه من قبل ، ولكن ، كما تشددت الأقلية البيوريتانية فى أخلاقها وقترت فى أموالها واقتصدت فى بنات شفاهها ، كذلك اتفقت أقلية وثنية مع الإيطاليين على أن التمتع بالحياة ، أفضل من إرهاق أنفسنا بالتفكير فى الموت دون جدوى . ويمكن أن تكون الأنبذة الإيطالية ، التى كان الناس يقبلون عليها فى إنجلترا ، قد ساعدت على الإباحية فى الأخلاق ، وبالمثل على توسيع الشرايين ، وكان ذلك أبقى أثرا . وربما جاء من إيطاليا ومن فرنسا ومن الآداب القديمة ، معنى أصرح احساسا بالجمال . ولو أن هذا المعنى جلل بشىء من الحزن نتيجة شعور أقوى بقصر عمر الجمال . وحتى جمال الشاب النضير كان يثير الناس فى عصر اليزابث أشد إثارة . وأجرى مارلو (فى روايته دكتورفاوست) على لسان ميفستوفيلس . امتداحه لفاوست على أنه أجمل من السموات . وتأرجحت قصائد شكسبير (Sonnet تتألف من ١٤ بيتا) بين عشق المرء لأفراد جنسه وعشقه لأفراد الجنس الآخر . ولم يعد جمال المرأة مجرد خيال شعرى ، ولكنه ثمل سرى فى الدم وفى الآداب وفى البلاط ، وحول القراصنة إلى شعراء . وجمع نساء البلاط الظرف وخفـــة الدم إلى التجميل والتطرية فسحرن ألباب الرجال كما أسرن قلوبهم . وكان فى التواضـــع إغراء بالاقتناص ومضاعفة لسلطان الجمال . وضاعت الابتهالات إلى مريم العذراء وسط استنكار العذرية والانتقاص من قدرها . وتفجر الحب الرومانتيكى فى الأغانى مع حرارة الرغبة المتمنعة . وابتهج النساء إذ رأين الرجال يقتتلون من أجلهن ، وأسلمن أنفسهن ، بالزواج أو بغيره ، لمن تكون له الغلبة . وكان من سمات اضمحلال سلطان العقيدة أن موافقة الكنيسة أو مراسمها لم تعد الآن مطلوبة لصحة الزواج ، ولو أن الاعتراف به كان يعتبر إساءة للناموس العام ، تمييزا له عن القانون . وكانت معظم الزيجات تدبر عن طريق الوالدين ، بعد إطراء متبادل لمزايا الطرفين ، ومن ثم تصبح معبودة الساعة المشدوهة ، ربة بيت متحرره من الأوهام ، منصرفة بكليتها إلى أولادها ومهامها الشاقة ، هكذا يعمتر الجنس البشرى .

وثمة انحلال خلقي أسوأ دمغت به الحياة العامة ، فقد تفشى فى الوظائف الرسمية ابتزاز الأموال ، قلت أو كثرت ، وتغاضت عنه اليزابث ، كعذر لها عن عدم زيادة الرواتب[٢٥] . وكان أمين صندوق الحرب يحصل على ١٦٫٠٠٠ جنيه سنويا علاوة على راتبه . وبالاحتيال القديم قدم الأزل ، كانوا يحتفظون بأسماء الجنود الموتى فى قوائم الجيش ويضعون مخصصاتهم فى جيوبهم ويبيعون الملابس المخصصة لهم[٢٦] . وكان الجندى يساوى وهو ميت أكثر منه وهو حى ، وقبض ذوو المناصب الكبيرة مبالغ ضخمة من فيليب الثانى ليوجهوا سياسة إنجلترا نحو أهداف أسبانيا[٢٧] . ومارس أمراء البحر القرصنة وباعوا الرقيق . وباع رجال الدين رواتب الكنيسة[٢٨] ، وكان يمكن إغراء الصيادلة بتسميم الأدوية والأطباء بوصفها للناس . وغش التجار فى البضائع ، ووصل الأمر إلى فضيحة عالمية ، ففى ١٥٨٥ حدث من الغش فى الأقمشة الصوفية وغيرها فى إنجلترا أكثر مما حدث منه فى أوربا بأسرها[٣٠] ، وكانت الأخلاق العسكرية بدائية ساذجة . وكم من مرة حدث الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، فكان جزاؤه إعمال الذبح فى الجنود وفى غير المحاربين على حد سواء . وكان السحرة والعرافون يحرقون . كما كان الجزويت يؤخذون من فوق المشنقة ليقطعوا اربا[٣١] . لقد جرت ينابيع الرحمة الإنسانية مستأنية فى عهد الملكة الفاضلة اليزابث .

٤ — العدالة والقانون

مازالت طبيعة الإنسان تنفر من المدنية ، على رغم القرون العديدة التى سادت فيها الديانات وقامت الحكومات ، وظلت تعبر عن الاستياء والاعتراض فى سلسلة طويلة من الخطايا والجرائم ، لم تفلح القوانين والأساطير والعقوبات فى وقف سيلها . وكان فى قلب مدينة لندن أربع مدارس للقانون هى The Inner Temple, The Middle Temple Gray,s Inn Lincoln,s Inn، تعرف فى جملتها باسم دور القضاء وأقام الطلبة فيها كما كانوا يقيمون فى قاعات كليات أكسفورد وكمبردج . ولم يسمح بالالتحاق بها إلا لذوى المحتد الكريم ، وكان كل المتخرجين فيها يقسمون اليمين على خدمة التاج . وكان البارزون منهم أو الذين يسهل قيادهم يصبحون قضاة فى

محاكم الملكة . وارتدى القضاة والمحامون فى أثناء تأدية عملهم أردية تدل على الهيبة والوقار ، وكأن عظمة القانون وجلاله يكمنان فى خياطة الثياب .

وكانت المحاكم ، بالاجماع ، فاسدة . وعرف أحد أعضاء البرلمان قاضى الصلح بأنه : « حيوان يمكنه أن يستغنى بست دجاجات عن اثنا عشر قانونا[٣٢]» . وطلب فرنسيس بيكون مغريات أكبر . وفى رواية شكسبير قال الملك لير الذى روعه الحزن : « اكسوا الخطيئة بالذهب ، يتكسر سيف العدالة القاطع دون أن يؤذى أحدا[٣٣] » ، ولما كان القضاة يعزلون وفق مشيئة الملكة فانهم حسبوا لهذا حسابه فى أحكامهم ، وقبض ذوو الحظوة لديها الرشوة ليغروها بالتدخل فى قرارات المحاكم[٣٤] ، وظل نظام المحلفين معمولا به ، إلا فى تهمة الخيانة العظمى ، ولكن غالبا ما كان القضاة أو موظفو التاج يخوفون المحلفين ويكرهونهم على قضاء مآربهم بالتهديد[٣٥] ة وكان هناك توسع فى تعريف تهمة الخيانة العظمى لتشمل كل عمل يهدد حياة صاحب العرش أو جلاله . وكان نظر مثل هذه القضايا أمام محكمة قاعة النجم (The Star Chamber) — وهو مجلس شورى الملكة منعقدا على هيئة محكمة ليمارس سلطاته القضائية ، وهناك كان المتهم محروما من تحقيق المحلفين لقضيته أو المعارضة فى أمر حبسه ، أو من محام للدفاع عنه ، بل كان عرضة للاستجواب المرهق أو التعذيب ، وكان يحكم عليه عادة بالسجن أو الإعدام .

وقام قانون العقوبات على العوائق أكثر منه على المراقبة والكشف عن الحقيقة . ولما كانت القوانين ضعيفة فقد باتت العقوبات صارمة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لأية واحدة من مائتى جريمة . منها الابتزاز بالتهديد ، وقطع الأشجار الصغيرة ، وسرقة أكثر من شلن واحد . وبلغ متوسط من شنقوا بسبب الجريمة ، سنويا ، فى إنجلترا المبتهجة ، فى عهد اليزابث ، ٨٠٠ شخص[٣٦] . أما الجرائم الصغرى فكان عقابها التعذيب بالمشهرة والمخلعة والجلد بالسياط ، وإحراق ثقب فى الأذن أو اللسان ، وقطع اللسان أو إحدى الأذنين أو اليدين[٣٧] . ولما كتب جون ستبز ، وهو محام بيوريتانى ، نشرة يستنكر فيها اقتراح زواج اليزابث من ألنسون ،

باعتبار هذا الزواج خضوعا أو استسلاما للكاثوليكية ، قطعت يده اليمنى بأمر القاضى ، فرفع جون الجدعة الدامية ، ورفع بيده اليسرى قبعته ، ثم هتف « لتحى الملكة[٣٨] » وقدم فيليب سدنى إلى الملكة احتجاجا على هذه الوحشية . واستشعر سيسل العار والخجل فعينه فى منصب حكومى ذى راتب كبير وجهد يسير . وكان التعذيب غير مشروع ، ولكن محكمة قاعة النجم استخدمته ، وإنا لنلاحظ أنه برغم أن آداب العصر كانت عميقة قوية ، فإن المستوى العام لمدنية العصر لم يبلغ مستوى المدنية فى إيطاليا أو أفنيون فى عهد بترارك ، وأقل كثيرا منه فى رومه على عهد أغسطس .

٥ — فى البيت

بدأت الحياة الإنجليزية بمحاولة التغلب على مشكلة وفيات الأطفال ، وكانت نسبتها عالية ، وكان سير توماس براون من أعلام الطب ، ومع ذلك مات ستة من أولاده العشرة فى سن الطفولة[٣٩] . ثم كانت الأوبئة ، مثل « مرض العرق » ١٥٥٠ ، والطاعون الذى حل بالبلاد ١٥٦٣ ، ١٥٩٢— ١٥٩٤ ، ١٦٠٣ . ولا بد أن متوسط الأعمار كان منخفضا ، قدرته بعض الاحصاءات بثمان سنوات ونصف سنة[٤٠] . وكبر الناس وأدركهم الهرم بأسرع مما هو حادث الآن . أما الذين عمروا فهم الشجعان ذوو القدرة على الاحتمال الذين صلبت أعوادهم وقويت أعصابهم بمقارعة الموت ، من أجل الخدع الحربية والأسلاب .

وكانت الرعاية الصحية آخذة فى التحسن . وبدأ الصابون يكون ضروريا بعد أن كان ترفا . وحوالى ١٥٩٦ ابتدع سيرجون هارنجتون مرحاضا فيه ماء جار . وكانت الحمامات الخاصة قليلة . واستخدمت معظم الأسرات حوضا خشبيا موضوعا أمام نار مكشوفة . وكان فى كثير من المدن حمامات عامة . وهيأ Bath and Buxton للطبقة العليا منشآت أنيقة للاستحمام . وقدمت « الدفيئات » (Hot Houses) حمام البخار ، وقدمت التسهيلات للأكلات واللقاءات الغرامية غير المشروعة ، وزودت بيوت الموسرين دون غيرهم بموارد مياه خاصة بهم فى منازلهم ، أما معظم الأسرات فكانت تلتمس الماء من قنوات عامة مفتوحة على ينابيع مزخرفة .

وبنيت البيوت فى القرى والمدن من الآجر والجص ، تحت سقوف من القش ، ولا يزال كوخ آن هاثاواى بالقرب من ستراتفورد — أون — أفون ، محتفظا به فى حالة جيدة ، كنموذج لهذه المساكن . أما فى المدن الكبرى فكانت البيوت متلاصقة عادة ، واستخدم فى بنائها قدر أكبر من الآجر والحجر ، وكان لها سقوف من القرميد ، وكانت المشربيات المقسمة بأعمدة من الحجر والأدوار العليا الناتئة تلفت أنظار الذين لم يألفوا رؤيتها . وكانت البيوت من الداخل مزدانة بالنقوش والأعمدة . وكانت المدفأة تضفى على الغرفة الرئيسية أو القاعة الكبرى جلالا وتزودها بالدفء ، كما كان السقف — من الخشب أو الجص — يقسم إلى رسوم متماثلة أو غريبة . وكانت هناك المداخن التى تنفث الدخان إلى الخارج ، وكان من قبل يلتمس له منفذا من ثقب فى السقف . وكانت المواقد تساعد على تدفئة البيت . وكانت النوافذ الزجاجية شائعة آنذاك . ولكن ظلت الاضاءة فى الليل بالمشاعل أو الشموع . وغطيت أرضية البيوت بالأسل والأعشاب ذات الرائحة الزكية عندما تكون طازجة ؛ ولكنها لا تلبث أن تصبح كريهة الرائحة ، وتؤوى الحشرات . وجاء السجاد بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما . وكانت الجدران تزدان بالأقمشة المزركشة بالصور والرسوم ، مما مهد الطريق لرسم اللوحات ، فى عهد شارل الأول . واستخدم معظم الناس المقاعد الطويلة لشخصين أو أكثر والكراسى ذوات الأرجل الثلاث ، أما الكرسى ذو الظهر فكان ترفا اختص به الضيف الكريم أو رب البيت أو ربته ، ومن هنا جاء التعبير « يأخذ الكرسى ذا الظهر » بمعنى « يترأس المجلس » ، وفيما عدا هــذا كان الأثاث متينا رائعا . فكانت ، صواوين المائدة (البوفيه) والمنضدة وخزائن النفائس (دولاب الفضية) والصناديق الثمينة والأسرة ذوات القوائم العالية تصنع وتحفر من خشب الجوز أو البلوط ، لتعمر قرونا طويلة . وكان السرير المزود بحشايا سميكة من الريش ، وبأغطية مطرزة ، وظلة حريرية (ناموسية) ، يتكلف ألفا من الجنيهات ، ويعتبر شيئا ثمينا يزهو به أهل البيت ويتوارثونه جيلا بعد جيل . وخلف البيت أو حوله ، فى كل الطبقات تقريبا ، كانت توجد حديقة زاخرة بالأشجار والشجيرات ، تهيئ لهم الظل ، وتمدهم بالأزهار التى اعتاد النساء أن

يستعملنها فى تزيين بيوتهن وشعورهن ، واعتاد شكسبير أن يعطر بهـا شعره — زهرة الربيع ، الزنبق ، صريمة الجدى (شجيرة أزهارها غنية بالرحيق) وزهر العايق الجميل ، والقرنفل الملتحى ، والادريون (القطيفة) ، وزهرة كيوبيد وزنبقة الوادى ، وغيرها كثير ، بالإضافة إلى الورود البيضاء أو الحمراء .... ويقول بيكون : « ان الله سبحانه وتعالى غرس حديقة ، لولاها لكانت الأبنية والقصور التى شيدها الإنسان فظة غير مقبولة(٤١) » .

وغالبا ما تكلفت زينة المرء أكثر كثيرا من زخرفة بيته ولم يبز أى عصر من العصور عصر اليزابث فى فخامة الثياب . وكان من بين نصائح بولونيوس قوله : « إن ثمن الثياب مرهون بما تستطيع أن تدفع » . وعند الطبقات الموسرة اجتمعت كل الأزياء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، لتعوض الإنسان عما سلبته إياه الشهوة والزمن . وسخرت بورشيا من الشاب فالكنبردج قائلة : « أظنه اشترى صداره من إيطاليا وسرواله القصير من فرنسا ، وقلنسوته من ألمانيا وسلوكه من كل مكان(٤٢) » . وضربت اليزابث مثلا ونموذجا للتزين ، إلى درجة أنه فى عصرها تغيرت الأزياء مرارا وتكرارا ، لأن محاكاة الناس لها بشكل عام ، كادت تمحو الفروق الطبقية . وتبدى شخصية من شخصيات « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا Much ado adout Nothing » « الحزن والأسف على أن » تغير الأزياء يفنى من الثياب أكثر مما يفنيه الإنسان(٤٣) . وحاولت قوانين الانفاق أن تضع حداً لهذا الاضطراب والفوضى فى حياكة الملابس ، نصدر قانون ١٥٧٤ ليعالج « التبذير والضياع عند عدد كبير من الشبان « الذين يلبسون ما يملكون من أرض فوق ظهورهم » . وحرم هذا القانون على غير الأسرة المالكة ، والدوق والمركيز والارل ، لبس اللون الأرجوانى ، أو الحرير أو القماش الموشى بالذهب ، أو فراء السمور ، كما حرم على غير البارونات وذويهم لبس الفراء والمخمل القرمزى . أو الأصواف المستوردة ، والملابس المطرزة بالذهب أو الفضة أو اللؤلؤ(٤٤) ، ولكن سرعان ما أمكن التهرب من هذه القوانين ، لأن البرجوازية الطامعة استنكرتها لا لأنها مثيرة للاستياء والغضب فحسب ، بل لأنها كذلك تعوق التجارة . فألغيت فى ١٦٠٤ .

واتخذت القبعات على أى شكل ومن أى لون ، من القطيفة أو الصوف أو الحرير أو الشعر الناعم الرقيق ، ووضع الناس قبعاتهم على رءوسهم دائما تقريباً ، خارج البيت أو البلاط ، وحتى فى الكنيسة كان الرجال يرفعون قبعاتهم — تمسكا بالمراسم — عند الالتقاء بالسيدات . ولكنهم يلبسونها فورا . واحتفظ الرجال بشعورهم الطويلة قدر ما احتفظت النساء بها . وأرخوا اللحى غزيرة . ووضع الجنسان كلاهما حول الرقبة طوقا مكشكشا وياقة من الكتان و « الكمبريكى Cambric » (قماش من القطن أو الكتان أبيض ناعم) موضوعة على اطار من الورق المقوى والأسلاك ، تيبست فى ثنيات أو طيات عريضة حادة ، « بمادة سائلة سموها النشا[٤٥] » ظهرت فى إنجلترا آنذاك لأول مرة . وكانت كترين دى مديتشى أدخلت هـــذه البدعة إلى فرنسا ١٥٣٣ بوصفها شيئا للتزين والزخرف . ولكن الزى السائد (موضة العصر) توسع فيها حتى جعل منها آلة تعذيب تصل إلى الأذنين .

وجعلت الملابس من النساء لغزاً لا يمكن النفاذ إلى كنهه إلى حين . ولا بد أن نصف يومهم كان يستغرق فى اللبس والخلع . ويتم تجهيز السفينة وتزويدها بكل ما يلزمها بأسرع مما تتزين المرأة[٤٦] . حتى الشعر كان يمكن أن يلبس أو يخلع . لأن اليزابث رسمت لهم نموذجا فى لبس اللامة أو الشعر المستعار المصبوغ بلون خصلاتها الذهبية أيام شبابها . وكان الشعر المستعار شائعا لأن النساء الفقيرات — كما قال شكسبير — كن يبعن خصلات شعرهن « بالميزان [٤٧] » . وبدلا من القبعات آثر معظم النساء قلنسوة بالغة الصغر أو شبكة شفافة تسمح بإبراز فتنة شعرهن . وكانت أدوات التجميل تصبغ الوجوه وتزجج الحواجب ، والأقراط تتدلى من الآذان ، والمجوهرات تتألق فى كل مكان . وكان الطوق المكشكش للنساء ، مثل ما هو للرجال ، ولكن كان صدر المرأة فى بعض الأحيان عاريا إلى حد ما[٤٨] . ولمـا كانت اليزابث ضامرة الصدر مستطيلة البطن ، فقد ابتدعت زيا تطول فيه السترة على شكل مثلث إلى رأس دقيق تحت الخصر المشدود . وكانت التنورة تمتد من الأوراك بواسطة الطوق الموسع . وكانت العباءة المصنوعة من قماش هفهاف بشكل محكم ، تغطى الأرجل ، وابتدعت الملكة الجوارب الحريرية . وكانت التنورات تتدلى

حتى تمس الأرض ، والأكمام منتفخة ، والقفازات مطرزة معطرة . وكانت السيدة تستطيع فى الصيف أن تتحدث بالمروحة المزدانة بالجواهر ، ومن ثم تأتى بأفكار فيها من الرقة مالا تعبر عنه الكلمات .

ولكن الحياة فى البيت نادرا ما كانت بملابس كاملة . وكان تناول الأفطار فى الساعة السابعة والغذاء فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، والعشاء فى الخامسة أو السادسة . وهكذا ينقضى النهار . وكانت الوجبة الرئيسية يتناولونها قرب الظهر ، وكانت وجبة زاخرة بألوان الطعام . وقال أحـــد الفرنسيين « إن الإنجليز يملأون بطونهم(٤٩) » . وظلت الأصابع تقوم مقام الشوكة التى بدأ استعمالها فى عهد جيمس الأول . وكانت الأطباق الفضية تزين البيوت الموسرة . وكان اختزانها بالفعل وقاء ضد التضخم . أما الطبقات الوسطى الدنيا فانها استخدمت أوانى من القصـــدير (البيوتر) . واستخدم الفقراء أطباقا من الخشب وملاعق من مادة قرنية (من القرون) . وكان اللحم والسمك والخبز هى الأطعمة الرئيسية ، وكان كل من يداوم عليها تقريبا يعانى من داء النقرس . وكانت منتجات الألبان شائعة مألوفة فى الريف لأن وسائل التبريد كانت لا تزال غير متوفرة فى المدن . وكان الفقراء فقط يستخدمون الخضروات بكثرة لأنهم كانوا يزرعونها فى أراضى حدائقهم . وكان البطاطس الذى جاء به والتر رالى أثناء رحلاته فى أمريكا ، من إنتاج الحدائق ، لأنه لم يكن قد أصبح من محاصيل الحقول . واشتهر الإنجليز « بالبودنج » (نوع من الحلوى) يستطيبون أكله فوق الفاكهة التى يختمون بها طعامهم . وكان الإنجليز يقبلون على الحلوى ، قدر اقبالهم عليها اليوم . ولهذا كانت أسنان اليزابث سوداء .

وتطلبت هذه الأكلات الشهية بعض السوائل المزلقة : الجعة ، البيرة ، النبيذ أو عصير الفاكهة . ولم يكن الشاى والقهوة قد أصبحتا مشروبات إنجليزية . وشاع شرب الويسكى فى أنحاء أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (وكان يسمى ماء الحياة) . وكان تقطيره من الحبوب فى الشمال ، ومن النبيذ فى الجنوب . وكان شرب الخمر بمثابة احتجاج على المناخ الرطب . وتوحى عبارة « ثمل كأنه لورد » بأن هذ العلاج كان يتمشى مع السلم الاجتماعى . وأدخل التبغ إلى إنجلترا على يد

جون هوكنز (١٥٦٤) ود ريك ، وسير رالف لين ، وجعل رالى من التدخين عادة مألوفة فى البلاط ، وأخذ منه نفثة أو نفثتين قبل ذهابه إلى المشنقة ، وكان التبغ فى أيام اليزابث غالى الثمن إلى درجة حالت دون انتشار التدخين ، وفى بعض التجمعات التى تسودها الألفة والبهجة ، كانوا يعمدون إلى تمرير غليون واحد على كل الضيوف حتى يستمتع كل منهم بنصيبه من التدخين وفى ١٦٠٤ شن الملك جيمس « هجوما عنيفا على التبغ » ، ناعيا ادخاله إلى إنجلترا محذرا من « سم معين » فيه . يقول : —

" أليس من أشد الحمق والقذارة أنه على المائدة ، وهى محل الاحترام والنظافة والتواضع ، لا يخجل الناس من أن يتقاذفوا الغلايين وينفثوا الدخان ، الواحـــد منهم فى وجه الآخر . فينبعث الدخان القذر والرائحة الكريهة على الأطباق . ويلوث الهواء ؟ .

لقد انتشر استعماله فى كل زمان وفى كل مكان بين الناس على اختلافهم . . . لأنهم ، على الأقل ، اضطروا إلى تناوله ، على كره منهم ، خجلا من أن يرموا بالشذوذ . . . وفوق ذلك ، وهذا اثم كبير ، فإن الزوج لا يخجل من أن يكره زوجته الرقيقة الصحيحة الجسم النظيفة البشرة على هذا الخطر العظيم — التدخين — فتفسد بذلك أنفاسها الزكية ، أو توطن النفس على أن تظل دوما فى عذاب الثمل . . . انها عادة ضارة بالعينين ، كريهة للأنف ، مؤذية للمخ ، خطرة على الرئتين . إن هذا الدخان الأسود الكريه أقرب الشبه بنار جهنم التى لا قرار لها[٥٠] ".

وبرغم هذا ، وبرغم الضرائب الباهظة ، كان فى لندن سبعة آلاف حانوت لبيع التبغ . ولم يحل اشعال الغليون ونفث الدخان محل الحديث والمناقشة ، فقد تحدث أفراد الجنسين بصراحة فى موضوعات يقتصر فيها الحديث الآن على قاعات التدخين وملتقى الشوارع ، أو على رجال العلم . وتنافس النساء مع الرجال فى حلف الأيمان التى تقارب الكفر والتجديف على الله . وفى الدراما فى عهـــد اليزابث يلتصق العهرات بالأبطال . وترقش التورية « المأساة » العنيفة . وكانت آداب السلوك

متكلفة أكثر منها مهذبة . وغالبا ما تدرجت الكلمات إلى لطمات . وجاءت آداب كما جاءت الأخلاق ، من إيطاليا وفرنسا ، كما جاءت الكتيبات التي عالجت قواعد السلوك واللياقة ، وحاولت أن تجعل من الأرستقراطيين سادة أفاضل ، ومن الملكات سيدات فضليات . وكانت أساليب التحية مسرفة فى التعبير ، واقترنت بالتقبيل غالبا . وكانت البيوت بما فيها من الأضواء وحفلات الابتهاج الصاخبة ، أكثر مرحا عن ذى قبل ، أيام الارهاب فى العصور الوسطى ، وفيما بعد أيام البيوريتانية وما سادها من كآبة . وكانت الأعياد والمهرجانات كثيرة ، فأى شيء يمكن أن يبرر إقامة احتفال أو عرض ، فالزفاف ، أو الولادة ، بل حتى الجنازة ، قد تهيئ مناسبة للاحتفال ، أو على الأقل للولائم . ومارسوا الألعاب على اختلاف أنواعها فى البيوت والملاعب ، وعلى نهر التاميز . وقد ذكر شكسبير « البلياردو » ، وتحدث فلوريو عن « الكركت » وسخر الناس من القوانين الزرقاء وأيام الأحد الزرقاء (قوانين متشددة سنها البيوريتانز يحرمون بها الرقص والألعاب والمهرجانات يوم الأحد . . .) وإذا كانت الملكة قد خطت الخطوة الحميدة السارة : فلم لا يترسم الناس خطاها ويحذون حذوها ؟ لقد رقص كل الناس تقريبا : بما فيهم كما قال بيرتون « عجائز النساء والرجال الذين كان لهم من أصابع القدمين أكثر مما فى الأفواه من أسنان » . وكان كل الإنجليز يغنون .

٦ — الموسيقى الإنجليزية ١٥٥٨ — ١٦٤٩

إن الذين لا يعرفون من إنجلترا إلا الفترة التى أعقبت البيوريتانية ، لا يمكنهم أن يحسوا بالدور البهيج الذى لعبته الموسيقى أيام اليزابث . فمن البيت والمدرسة والكنيسة والشارع والمسرح ونهر التاميز ارتفعت ألحان الموسيقى المقدسة أو الماجنة — القداسات ، الموسيقى الطباقية المتعددة النغمات ، القصائد الغزلية ، الأغانى الشعبية ، وأغانى الحب الرقيقة القصيرة . مثل تلك التى وجدت لها مجالا فى روايات عهد اليزابث . وكانت الموسيقى برنامجا أساسيا فى مناهج التعليم ، وخصص لها فى مدرسة وستمنستر ساعتان فى الأسبوع ، وكان فى أكسفورد كرسى للموسيقى (١٦٢٧) وكان مفروضا أن يقرأ كل رجل مهذب الموسيقى ويعزف على كل بعض الآلات .

وفى كتاب توماس مورلى : « مقدمة واضحة ميسرة عن الموسيقى العملية » جاء ذكر رجل إنجليزى خيالى ساذج غير مثقف ، يعترف بخجله وعاره ، فيقول :

« بعد العشاء جىء بكتب الموسيقى ، كما كانت العادة ، وقدمت إلى سيدة البيت شيئا منها ، وطلبت فى رفق أن أغنى ، فاعتذرت كثيرا ، وامتنعت ، وقلت وأنا صادق فيما أقول ، انى لا أعرف ، فتعجب كل الحاضرين ، وتهامسوا متسائلين : كيف نشأ هذا الرجل ؟ (٥١)»

وكانت حوانيت الحلاقين تقدم للزبائن المنتظرين آلات موسيقية ليعزفوا عليها .

وكانت الموسيقى فى عهد اليزابث ، فى معظمها ، علمانية ، وبقى بعض الملحنين ، من أمثال طاليس وبيرد وبل ، على مذهبهم الكاثوليكى برغم القوانين ، وألفوا الموسيقى للطقوس الرومانية ، ولو أن تلك التآليف لم تكن تعزف علنا . واعترض كثير من البيوريتانيين على موسيقى الكنيسة باعتبار أنها تشتت أذهان المصلين وتصرفهم عن التقوى . وأنقذت اليزابث والأساقفة موسيقى الكنيسة فى إنجلترا ، كما أنقذها بالسترينا ومجلس ترنت فى إيطاليا . وساندت الملكة بعزيمتها المعهودة رؤساء المنشدين الذين نظموا الفرق الموسيقية الكبيرة والموسيقى الرسمية للكنيسة الملكية والكاتدرائيات . وأصبح كتاب الصلوات العامة ، مرجع النصوص الموسيقية الهائل للملحنين الإنجليز ، وكانت الصلوات الأنجليكانية تنافس الصلوات الكاثوليكية فى القارة فى فخامة فن تعدد الألحان ووقاره . وحتى البيوريتانيون أنفسهم ، منتهجين نهج كلفن ، أقروا انشاد جماعات المصلين للترانيم . وسخرت اليزابث منهم قائلة : « ان جنيف ترقص ، أما هؤلاء فقد ارتقوا إلى مستوى التراتيل والتسابيح الكريمة » .

ولما كانت الملكة تحمل بين جنبيها روحا دنيوية دنسة ، مولعة بالغزل والملق والملاطفة والتودد ، فقد كان من المعقول أن تكون القصيدة الغزلية هى مفخرة الموسيقى فى عهدها — أغنية حب فى طباق موسيقى — وهى جزء من أغنية لا تصاحبها الآلات الموسيقية . ووصلت القصيدة الغزلية من إيطاليا ١٥٥٣ . ففتحت الطريق .

وحاول مورلى أن يسهم فى هذا المجال ، وشرحها فى حواره السهل الرشيق ، ودعا إلى تقليدها ، وثمة قصيدة غزلية لخمسة مغنين ، وضعها جون دلباى ، توحى بالأفكار الرئيسية فى هذه الأغانى .

واحسرتاه . أية حياة تعسة ، وأى موت هذا ،
حيث المحبوب الظلوم يسيطر ويتحكم !
ان نضارة أيامى تذبل وأنا فى ربيع العمر ،
وتلاشت أحلامى الجميلة تماما ، وحياتى تنصرم .
وتولت أفراحى الواحد بعد الآخر
وتركت أغانى سكرات الموت
من أجل تلك التى تحتقر آهاتى وأناتى .
آه ، انها لتهجرنى ، وتسكبت حبى
وهى التى من أجلها ، واحسرتاه ، أموت شاكيا ، وهى متحجرة القلب[٥٢].

وكان وليم بيرد شكسبير الموسيقى فى عهد اليزابث ، اشتهر بالقداسات والقصائد الغزلية الملفوظة أو المعزوفة على الآلات ، والألحان على حد سواء . وكرمه معاصروه على أنه « رجل عظيم جدير بالذكر » . وقال عنه مورلى « انه حظى من الاجلال والاحترام ما يستحق معه أن تخلد اسمه بين الموسيقيين[٥٣] » وكان فى مثل مكانته العالية وتعدد براعاته وجوانبه أورلندوجيبون وجون بل Bull ، وهما عازفان على الأرغن فى الكنيسة الملكية . واشترك هذان مع بيرد ١٦١١ فى وضع أول كتاب عن لوحة المفاتيح للموسيقى فى إنجلترا ، وهو كتاب Parthenia ، أو باكورة أول موسيقى طبعت فى إنجلترا للعذراوية » (وهى آلة موسيقية شبيهة ببيان صغير بدون قوائم .) وفى نفس الوقت أكد الإنجليز شهرتهم فى تلحين الأغنية المنفردة (مع آلة واحدة أو مغن واحد) ، ذات العذوبة الجميلة المعبقة بعبير الريف الإنجليزى ، وحظى جون دولند الذى اشتهر بالعزف على العود ، بالمدح والثناء من أجل أغانيه ، ونافسه توماس كامبيون منافسة شديدة . ومن ذا الذى لا يعرف مقطوعة كامبيون : « الكرز الناضج — Cherry Ripe ؟ [٥٤] »

وكان الموسيقيون ينتظمهم اتحاد قوى ، انفصمت عراه بسبب الصراع الداخلى أيام شارل الأول(٥٥) ، وكادت الآلات تتنوع ، كما هى اليوم : العود ، القيثار ، الأرغن ، العذراوية ، أو البيان الصغير ، موترة المفاتيح (آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح) أو البيـــان القيثارى ، الفلوت (آلة نفخ موسيقية) ، الصافرة ، المزمار ، البوق ، المترددة ، النفير ، الطبول ، وأشكال كثيرة من الفيول ، حل محلها الكمان الحالى . وكان العود مفضلا فى العزف ، وفى مصاحبة الغناء ، أما العذراوية ، وهى الأم المتواضعة للبيان ، فكانت محبوبة شائعة لدى السيدات الصغيرات ، وعلى الأقل قبل الزواج ، وألفت الموسيقى الآلية أساسا للعذراوية والفيول والعود . ولحن نوع من الموسيقى الحجرية (موسيقى الحجرة : يعزفها بضعة موسيقيين أمام نفر قليل من الناس .) للعزف على عدة فيولات تختلف فى الحجم والطبقة . وفى مسرحية تنكرية للملكة آن زوجة جيمس الأول ، استخدم كامبيون فرقة من عازفى العود وموترة المفاتيح والبوق مع تسعة فيولات . (١٦٠٥) وقد انحدر إلينا كثير من الموسيقى الآلية التى وضعها بيرد ومورلى ودولند وغيرهم . وهى مؤسسة إلى حد بعيد على أشكال الرقص ، كما تتبع النماذج الإيطالية ، وتتفوق فى الجمال الرقيق المرهف أكثر منها فى القوة والطبقة . وتطورت الفوجة وفن مزج الألحان ، ولكن دون تنوع فى الأفكار الرئيسية أو الموضوع ، أو براعة فى تغيير طبقة الصوت والانتقال من نغمة إلى أخرى ، أو نشاز مقصود أو تناغم لونى . ومع ذلك فاننا عندما ترهق أعصابنا بمشاق حياتنا الحديثـــة ، نجد فى موسيقى عصر اليزابث ما يخفف عنا ويريح أعصابنا ، فليس فيها كلام طنان منمق ، ولا تنافر مزعج ، ولا خواتيم راعدة ، انك لا تسمع فيها إلا صوت شاب إنجليزى أو شابة إنجليزية تغنى فى حزن أو ابتهاج ، انشودة الحب السرمدى الذى تعترض العوائق سبيله .

٧ — الفن الإنجليزى ١٥٥٨ — ١٦٤٩

لم يكن للفن فى هـــذا العصر شأن يذكر . وأنتج بعض صناع المعادن بعض

المشغولات الفضية الجميلة ، مثل مملحة موشين للمائدة ، والنوافذ المصبعة الفاخرة مثل الموجودة فى كنيسة سان جورج فى وندسور . ودخلت صناعة زجاج الزينة الفنيسى حوالى ١٥٦٠ . وفاقت قيمة الأوانى المصنوعة من هذا الزجاج قيمة مثيلاتها من الذهب أو الفضة . ولم يكن النحت وصناعة الخزف مشهورتين . وافتتح نيقولا هليارد مدرسة لرسم المنمنمات ، ومنحته اليزابث احتكار اخراج رسوم لها بهذا الأساوب . أما رسامو الأشخاص فقد استقدموا من الخارج . فجاء فدريجو زوتشارو من إيطاليا ، ومارکوس جيرار وابنه الذى يحمل نفس الاسم من الأراضى الوطيئة . وخلف لنا الابن صورة مهيبة لوليم سيسل فى ثياب متألقة فضفاضة فخمة ، وهى التى يرتديها الفرسان الذين يحملون وسام ربطة الساق(٥٦) . وفيما عدا هذا لا توجد فى إنجلترا لوحات أو رسوم عظيمة فيما بين هولبين ، وفانديك :

ولكن العمارة كانت فنا عظيما فى إنجلترا فى عهد اليزابث وجيمس . وتكاد تكون علمانية تماما . وبينما كانت أوربا تناضل من أجل المذاهب الدينية ، أهمل الفن الدين كما أهمله السلوك . وفى القرون الوسطى ، حين تأصلت جذور أعمق للشعر والفن فى السماء ، توفرت العمارة على بناء الكنائس ؛ وجعلت من الدور شكلا من أشكال سجون الحياة . وفى إنجلترا على عهد أسرة التيودور ، هجر الدين الحياة إلى السياسة ، وذهبت أموال الكنيسة إلى أيد دنيوية ، وتحولت إلى صروح مدنية وقصور باذخة ، وتبعا لذلك تغير الطراز . وفى ١٥٦٣ عاد جون شوت Shute من إيطاليا وفرنسا مسرعا مع (أفكار) فتروفيوس وبالاديو ، وسرليو . ونشر على الفور « الأسس الأولى والهامة للعمارة » بمجد الطرز الكلاسيكية القديمة . ومن ثم انتقل إلى إنجلترا احتقار إيطاليا للفن القوطى ، وكافحت الأعمدة الرأسية القوطية لتجد لها متنفسا وسط أفقيات النهضة التى تطوقها .

إن هذا العصر يستطيع أن يفاخر ببعض المنجزات الجميلة فى العمارة المدنية : بوابة الشرف فى كلية كايوس ، والساحة الرباعية الزوايا بكلية كلار ، فى كمبردج ، ومكتبة بودليان فى أكسفورد ، وسوق الأوراق المالية فى لندن ، واحدى دور القضاء المسماة Middle Temple . ولما كان المحامون منذ أيام ولزى ؛ قد حلوا

محل الأساقفة فى إدارة البلاد فى إنجلترا ؛ فقد كان من اللائق أن تكون تحفة النهضة المعمارية فى عهد اليزابث هى القاعة الكبرى فى مدرسة الحقوق التى كملت فى الدار سابقة الذكر ١٥٧٢ . ولم يكن فى إنجلترا كلها أشغال خشب أجمل من الحاجز المصنوع من خشب البلوط فى الطرف الداخلى لهذه القاعة . وقد دمرته القنابل فى الحرب العالمية الثانية .

وحالما تهيأت الأسباب لأقطاب عصر اليزابث ، شادوا قصورا نافسوا بها قصور الاقطاع الفرنسى على نهر اللوار . فشاد سيرجون ثين Thynne قصر لونجليت ، واليزابث كونتيسة شروزبرى قاعة Hardwick ، وبنى تومارس ارل سفوك Suffolk قصر Audley End الذى بلغت تكاليفه ١٩٠ ألف جنيه « حصل عليها أساسا من الرشا الأسبانية(٥٧) » . وشيد سير ادوارد فيلبس قصر مونتاكوت على طراز عصر النهضة البسيط غير المبالغ فى زخرفته ، كما بنى سير فرانسيس Willoughby قاعة Wollaton . كما أنفق وليم سيسل بعض ما جمع من مال فى ابتناء قصر ضخم بالقرب من ستامفورد ، وانفق ابنه روبرت ما يقارب هذا القدر على تشييد قصر هاتفيلد ، الذى يعتبر بهوه الطويل القائم على أعمدة ، أضخم الأجزاء الداخلية فى العمارة فى ذاك العصر . ومثل هذه الأبهاء الطويلة المقامة على أعمدة عالية ، حلت فى قصور عهد اليزابث محل القاعة الخشبية العظيمة فى قصر مالك الأرض . ان المداخن الكبيرة والأثاث الضخم المصنوع من خشب الجوز أو خشب البلوط ، والمدرج الفخم والدرابزين المنقوش ، والسقوف الخشبية — نقول إن هذه كلها ، هيأت لغرف هذه القصور من الدفء والعظمة ما كان ينقص الغرف الأكثر تألقا فى القصور الفرنسية ، ومبلغ علمنا أن مصممى هذه القصور كانوا أول من حصلوا على لقب مهندس معمارى . ان اللوحة المنقوشة على ضريح روبرت سميثسون Smythhshon ، الذى أنشأ قاعة وللاتون ، تسميه « البناء البارع » . أما الآن ، وأخيرا ، فقد وجدت المهنة العظيمة اسمها الحديث (الهندسة المعمارية) .

كذلك أصبح الفن الإنجليزى فى تلك الأيام فنا شخصيا ، حيث طبع الرجل عمله بطابع شخصيته وإرادته . ولد انيجو جونز فى سميثفيلد ١٥٧٣ ، وأظهر فى شبابه

ميالا إلى التصميم حدا بأحد النبلاء (ارل) أن يبعث به إلى إيطاليا (١٦٠٠) ليدرس عمارة عصر النهضة . ولما عاد إلى إنجلترا ١٦٠٥ أعد مناظر كثير من المسرحيات التنكرية للملك جيمس الأول وزوجته الدنمركية ، وزار إيطاليا ثانية (١٦١٢ — ١٦١٤) وعاد متحمسا للقواعد المعمارية القديمة التى سبقت له دراستها فى ترجمتها الانجليزية للمهندس المعمارى الرومانى فتروفيوس (القرن الأول قبل الميلاد) ، والتى وجد خير مثال لها فى أبنية بللاديو ، وبيروتزى ، وسان ميشيلى ، وسانسوفينو فى فينيسيا وفيشنزا . ونبذ هذا الخليط الشاذ من الأشكال الجرمانية والفلمنكية والفرنسية والإيطالية التى كانت قد سيطرت على العمارة فى عصر اليزابث . واقترح طرازا خالصا ، يمكن فيه الاحتفاظ بالنظم الدورية والآيونية والكورنثية متفرقة أو مجتمعة فى تتابع ووحدة متجانستين .

وفى ١٦١٥ عهد إليه بكل الإنشاءات الملكية بوصفه مشرفا عاما على الأعمال . ولما احترقت قائمة الولائم فى قصر هويتهول ودمرت ١٦١٩ ، عهد إلى جونز بتشييد قاعة جديدة للملك . فوضع تصميم مجموعة ضخمة من المنشآت — ١١٥٢ × ٨٧٤ قدما فى جملتها — ولو اكتمل بناؤها لهيأت لعاهل بريطانيا قصرا أوسع بكثير من اللوفر أو التويلرى أو الاسكوريال أوفرساى . ولكن جيمس آثر أن يعيش يومه عن أن يبنى للقرون . واقتصر الانفاق على قاعة الولائم الجديدة ، التى لم يتوفر لها ما قصد من أبهة ، فباتت مظهرا كاذبا غير جذاب للخطوط القديمة وخطوط عصر النهضة . ولما طلب رئيس الأساقفة لود من جيمس الأول اصلاح كاتدرائية سانت بول القديمة ، ارتكب المهندس جريمة تغطية صحن الكنيسة القوطى الطراز بمظهر خارجى من طراز عصر النهضة ، ولحسن الحظ دمر الحريق الكبير الذى حدث ١٦٦٦ هذا المبنى . وحلت واجهات جونز المأخوذ تصميمها عن بللاديو . محل الطراز التيودورى . وسادت فى إنجلترا حتى أواسط القرن الثامن عشر .

ولم يخدم جونز الملك شارل الأول بوصفه كبير مهندسيه فحسب ، بل انه تعلم كيف يحب هذا الرجل المنكود ، بشكل واضح ، إلى حد أنه عند ما نشبت الحرب الأهلية دفن مدخراته فى **Lambeth marshes** وهرب إلى هامبشير (١٦٤٣) .

وقبض عليه جنود كرومول هناك ، ولكنهم أبقوا على حياته مقابل ١٠٤٥ جنيها[٥٨]. وفى أثناء تغيبه عن لندن وضع تصميم قصر ريفى فى ولتشير من أجل ارل بمبروك ، كانت واجهته من طراز عصر النهضة البسيط ، أما الداخل فكان آية فى الفخامة والأناقة ، فان القاعة « المزدوجة التكعيب » — ٦٠ × ٣٠ × ٣٠ قدما ، قيل بأنها أجمل قاعة فى إنجلترا[٥٩] . ومذ استنفذت الجيوش الملكية ثروات الأرستقراطية ، فقد جونز الرعاية والحب والألفة ، وانزوى وأفل نجمه ، ومات فقيرا ١٦٥١ . لقد غلب النعاس على الفن ، على حين أعادت الحرب تشكيل الحكومة الجديدة فى إنجلترا .

٨ — الرجل فى عهد اليزابث

كيف نفهم الرجل الإنجليزى على عهد اليزابث من المواطن البريطانى المزعوم أنه رزين صامت ، والذى عهدناه فى شبابنا ، وهل يمكن أن يكون الخلق القومى من صنع الزمان والمكان والتغير ؟ لقد اعترضت البيوريتانية والميثودية (المنهجية — حركة اصلاح الكنيسة الانجليزية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر) بين العصرين والنمطين : قرون سادت فيها مدارس ايتون ، وهارو ، ورجبى ، وعهود الغزاة الطائشين الذين يخمدون أنفاس الناس حين يسيطرون .

لقد كان الرجل الانجليزى فى عهد اليزابث سليل النهضة تماما . وفى ألمانيا قهر الاصلاح الدينى النهضة ، وفى فرنسا نبذت النهضة الاصلاح الدينى . وفى إنجلترا اندمجت الحركتان كلتاهما . فقد انتصر الاصلاح الدينى فى حكم اليزابث ، وانتصرت النهضة فى شخصها هى . وكان ثمة بعض البيوريتانيين من ذوى الحس المتبلد ، ولو لم يكونوا صامتين ، ولكنهم لم يطرقوا الباب . ولكن كان الرجل المهيمن فى ذاك العصر شعلة من نشاط ، متحررا من المبادئ والتعاليم والعوائق العتيقة ، ولو لم يكن مرتبطا بشىء جديد بعد ، ولم يكن ثمة حدود لطموحه وأطماعه ، وكان متطلعا إلى تنمية قدراته ، لا يقعده شىء عن المرح ، يتذوق الآداب إذا كانت تنبض بالحياة ، ميالا إلى العنف فى العمل وفى الحديث ، ولكنه ، وسط

كلامه المنمق الطنان ورذائله وقساوته ، يجاهد ليكون سيدا مهذبا . وتأرجح مثله الأعلى بين صفات الكياسة والمجاملة واللطف المحببـة إلى النفوس والتى ذكرها كاستليونى فى كتابه « رجل البلاط » وبين ما جاء به ماكيافللى فى كتابه « الأمير » من لاأخلاقيات لا تعرف الرحمة إليها سبيلا . لقد أعجب بسدنى ، ولكنه تاق إلى أن يكون مثل دريك .

وشقت الفلسفة طريقها فى شرح العقيدة الدينية المتهاوية . وكانت أحسن العقول فى ذاك الزمان هى أشدها ارتباكا وحيرة . وكانت هناك نفوس محافظة سليمة العقيدة ، ونفوس وديعة مجبولة على الجبن ، وفى وسط هذا التدفق الذى لا يتوقف كان ثمة رجال أفاضل مثل روجر أسكام . ولكن تلاميذهم كانوا فى لجة المغامرة : وإليك ما يقوله جبرابيل هارفى عن كمبردج :

تعلموا الإنجيل ، ولم يعوه أو يحفظوه ، والمبدأ المسيحى فاتر ضعيف ، وليس ثمة شىء حسن إلا بنسبته إلى شخص ما . وباختصار ألغى قانون الطقوس الرسمى ، وأبطل قانون القضاء تماما من الوجهة العملية ، وتخلى الناس عن القانونى الأخلاقى ، وألح الجميع فى طلب الجديد ، من الكتب والأزياء والقوانين ، وألح بعضهم فى طلب سموات جديدة ، وجهنم جديدة أيضا ، وفى كل يوم تظهر آراء جديدة مشكلة حديثا ، فى الهرطقة واللاهوت والفلسفة والإنسانية والسلوك . . ولم يكن الشيطان مكروها قدر كراهية الناس للبابا[٦٠] .

وكان كوبرنيكس قد قلب العالم ، وأطلق الأرض مندفعة هائمة فى الفضاء ، وجاء جيوردانو برونو إلى أكسفورد ١٥٨٣ وتحدث عن الفلك الحديث وعن العوالم اللانهائية ، وعن الشمس التى تفنى بفعل حرارتها ، وعن الكواكب السيارة التى تتلاشى فى ضباب ذرى . وأحس شعراء مثل جون دون ، ان الأرض تنساب من تحت أقدامهم .

وفى ١٥٩٥ شرع فلوريو فى نشر ترجمته لمونتانى . ولم يكن ثمة شىء يقبنى بعد ذلك . وامتلأ الناس بالشك ، وكما أن مارلو هو مكيافللى ، فان شكسبير هو

مونتانى . وعلى حين شلك الرجال العقلاء ، كان الشبان الصغار يخططون . وإذا بدا أن السماء ضاعت فى سحابة فلسفية ، فيمكن الشباب أن يعقدوا العزم على امتصاص الحياة جافة ، ويختبروا كل الحقيقة مهما تكن مميتة . وكل الجمال مهما يكن سريع الزوال ، وكل القوة مهما تكن سامة ، وهكذا رأى مارلو فى فاوست وتامبورلين .

إن انتزاع الأفكار القديمة . وتحرير العقل ليعبران تعبيرا جبارا عن الآمال والأحلام الجديدة ، وهما اللذان خلدا عهد اليزابث فى إنجلترا . وماذا كان يهمنا من أمر منافساتها السياسية ، ونزعاتها الدينية وانتصاراتها الحربية ، إذا انحصر أدب عصرها فى تلك الأشياء العابرة ، ولم يعبر عن تطلعات النفوس المفكرة فى كل عصر . وحيرتها ونياتها . ان كل تأثيرات هذا العصر المثير انتهت إلى نشوة إنجلترا على أيام اليزابث . فان رحلات الغزو والكشف التى وسعت الكرةالأرضية والسوق والعقل ، وثراء الطبقة المتوسطة الذى وسع مجال المشروعات وأهدافها ، والكشف عن الآداب والفنون الوثنية ، وجيشان الإصلاح الدينى ، ونبذ النفوذ البابوى فى إنجلترا . والحوار اللاهوتى ، تلك التى ساقت الناس عن غير عمد ، من العقيدة إلى العقل ، والتعليم ، والاقبال المتزايد على الكتب والمسرحيات ، والسلم الطويل المفيد ، ومن ثم التحدى المثير والنصر الباهر على أسبانيا ، والتصعيد العظيم فى الثقة فى قوة الإنسان وفكره ، تلك كلها كانت الحوافز التى استحقت صعود إنجلترا فى مراقى العظمة والمجد ، وتلك هى الأصول التى نبت منها شكسبير . فالآن ، وبعد انقضاء نحو قرنين من الزمان منذ عهد تشوسر ، اندفعت إنجلترا فى لجة من النثر والشعر والدراما والفلسفة ، وتحدثت جهرا فى شجاعة إلى العالم بأسره .

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ — الكتب

كانت الكتب يتزايد عددها بشكل رهيب ، حتى قال برنابى رتش فى ١٦٠٠ « ان من الأمراض الفظيعة فى هذا العصر هو هذا السيل الضخم من الكتب التى تثقل كاهل العالم غير القادر على هضم هذا القدر الكبير من المادة التافهة التى تخرج إليه كل يوم » كذلك كتب روبرت بيرتون (١٦٢٨) : إننا مهددون بفوضى وتشويش لا حد لهما من الكتب التى ترهقنا ، فتصاب أعيننا بسبب القراءة ، وتتألم أصابعنا بسبب تقليب الصفحات(١) » . وهذان الشاكيان كلاهما من مؤلفى الكتب .

إن النبلاء ، بعد أن تعلموا القراءة ، أجزلوا العطاء وبسطوا رعايتهم على هؤلاء المؤلفين الذين كانوا قد كرموهم وتملقوهم بأهداء مؤلفاتهم إليهم . وكان سيسل ، وليستر ، وسدنى ، ورالى ، واسكس ، وسوثمبتون ، وارل ودوقة بمبروك ، كان هؤلاء جميعا رعاة وحماة أفاضل أقاموا بين النبلاء الإنجليز وبين المؤلفين علاقة استمرت حتى بعد أن انتهر جونسون راعيه لورد تشستر فيلد ، وكان الناشرون ينقدون المؤلفين نحو ٤٠ شلنا عن كل كراسة ، ونحو خمسة جنيهات عن الكتاب ، وسعى بعض المؤلفين إلى أن يعيشوا على أقلامهم . وظهرت فى إنجلترا هذه الصناعة البائسة ألا وهى « صناعة الأدب » وكانت المكتبات الخاصة كثيرة لدى الأغنياء . ولكن المكتبات العامة كانت نادرة . وفى طريق العودة إلى الوطن من قادس ١٥٩٦ ، توقف اسكس فى فارو بالبرتغال ، واستولى على مكتبة الأسقف جيروم أوزوريوس ، وأهداها إلى سيرتوماس بودلى الذى ضمها إلى مكتبة بودلى التى وهبها لجامعة أكسفورد ١٥٩٨ .

وكانت حياة الناشرين أنفسهم قلقة مضطربة ، خاضعة لقوانين الدولة وهوى الجمهور أو نزواته . وكان منهم فى إنجلترا أيام اليزابث ٢٥٠ ، حيث كان النشر وبيع الكتب حرفة واحدة . وقام معظمهم بعملية الطباعة لأنفسهم ، لأن الفصل بين الطباعة والنشر بدأ حوالى نهاية عصر اليزابث . واتحد الناشرون والطابعون وباعة الكتب ١٥٥٧ فى « شركة القرطاسية » ، وأنشأ تسجيل المطبوعات فى هـــذه النقابة « حق الطبع » ، على أن هذا لم يحم المؤلف بل الناشر فقط . وطبيعى أن هذه الشركة لم تسجل من الكتب إلا ما حصل على ترخيص قانونى بطبعه . فقد كان يعتبر جريمة كتابة أو طبع أو بيع أو اقتناء أية مادة تسئ إلى سمعة الملكة أو الحكومة ، كذلك نشر أو استيراد كتب الإلحاد أو المراسيم والرسائل البابوية ، أو اقتناء أية كتب تؤيد سيادة البابا على الكنيسة الإنجليزية[٣] . وكان ثمة جملة معاذير لحرق هذه المراسيم . وفوضت « شركة القرطاسية » هذه فى تفتيش كل دور الطباعة وإحراق أية مطبوعات غير مرخص بها ، وسجن ناشريها[٤] . وكانت الرقابة على المطبوعات فى عهد اليزابث أقسى منها فى أى وقت قبل الاصلاح الدينى . ولكن الأدب ازدهر ، كما شحذت العقول فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، بفضل مخاطر الطباعة .

وكان العلماء قليلين ، وكان عصر خلق وابداع أكثر من أن يكون عصر نقد ، وكان تيار الحركة الإنسانية (التوكيد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل) قد جف معينه فى تلك السنين التى حفلت بالاهتمام باللاهوت . وظل معظم المؤرخين من كتاب الحوليات ، يقسمون مدوناتهم حسب السنين . ولكن ريتشارد نولز Knolles أدهش برجلى ببراعته النسبية فى كتاب « التاريخ العام للأتراك » ١٦٠٣ . وأضفت « حوليات » رافائيل هولنشد على صاحبها مزيدا من الشهرة لم يبذل فيه جهدا ، ذلك أن هذه الحوليات أمدت شكسبير بسير ملوك إنجلترا . واصطبغت « حوليات إنجلترا » (١٥٨٠) لجون ستو Stow « بظلال من الحكمة ، ودعوات إلى الفضيلة وتنفير من الحقائق المرذولة[٥] » ، ولكن طابعها العلمى يرثى له ، وأسلوبها قوى مؤثر . وكان كتابه « استعراض لندن » ١٥٨٠ أدق بحثا وأوسع علما ، ولكنه لم يدر عليه ربحا ، وكان حريا به فى سنى شيخوخته أن يمنح رخصة

للتسول[٦] . وفى لغة لاتينية جيدة سجل وليم كامدن « جغرافية إنجلترا ومناظرها وآثارها » فى كتابه « بريطانيا » ١٥٨٢ . وفى كتابه « حوليات تاريخ إنجلترا فى عهد اليزابث » (١٥ — ١٦٢٧) الذى بنيت قصته على دراسة واعية للوثائق ، مجد كامدن الملكة العظيمة دون حساب ، وامتدح سبنسر وأثنى على روجر أسكام ، ولكنه حزن لموت مثل هذا العالم الجليل فقيرا معدما بسبب حبه للعب النرد ومصارعة الديكة[٧] .

وترك أسكام عند موته ١٥٦٨ بوصف أنه كان سكرتيرا لمارى اللعينة ومعلما خاصا لاليزابث : أشهر الرسائل الانجليزية فى التعليم ، وهى « المعلم » (١٥٧٠) وموضوعها الأصلى تعليم اللاتينية ، ولكنها تضمنت فى لغة إنجليزية قوية بسيطة ، دعوة إلى احلال الرحمة المسيحية محل صرامة كلية ايتون فى التعليم . وروى أسكام كيف أنه كان يتناول الغداء يوما مع بعض عظماء الرجال فى حكومة اليزابث ، وتطرقت المناقشة إلى موضوع التعليم فى نقد لاذع ، وكيف أن سيسل آثر الوسائل الرقيقة ، وكيف أن سير ريتشارد ساكفيل اعترف سرا لأسكام « بأن معلما أحمق صرفه عن حب التعليم بأسره ، خوفا من الضرب[٨] » .

إن أكبر وأنفع مهمة يضطلع بها العلماء الانجليز كانت إخصاب العقل الانجليزى بالفكر الأجنبي . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر اكتسحت البلاد موجة من الترجمة ، من اليونان وروما وإيطاليا وفرنسا . وكان على هوميروس أن ينتظر حتى ١٦١١ لجورج ، تشابمان وربما أسهم عدم وجود الترجمات الانجليزية للروايات اليونانية فى صبغ دراما عصر اليزابث بالرومانتيكية أكثر منه بالشكل التقليدى القديم ، ولكن كانت هناك ترجمات لكتاب تيوكريتس « القصائد الرعوية »، وملحمة موزائيس Hero and Leander وكتاب ابكتيتس Enchiridion ، ولكتابى الأخلاق والسياسة لأرسطو ، وكتابى زينوفون Cyropaedia, Oeconomicus . وخطب ديموستين وايزوقراط ، ومؤلفات هيرودوت وبولبيوس وتيودور الصقلى وجوزيفس وأبيان فى التاريخ ، وقصص هليودوروس ولونجوس ، كما كان هناك ترجمة عن الفرنسية

قام بها سير توماس فورت لكتاب بلوتارك « السير » . وعن اللاتينية نقلت كتب فرجيل وهوراس وأوفيد ومارشال ولوكان ، وروايات بلوتوس وتيرنس وسنكا . ومؤلفات ليفى وسالوست وتاسيتس وسوتونيس فى التاريخ . وعن الإيطالية نقلت قصائد بترارك (Sonnets) و Filocopo and Fiammetta لبوكاشيو (ولكن لم يترجم ديكامرون حتى ١٦٢٠) ، ومؤلفات جوتشياردينى ومكيافللى فى التاريخ . وأشعار بويارد وواريوستو ، وكتاب كاستليونى « آداب السلوك » ، وكتاب تاسو عن تحرير أورشليم ؛ وكتاب جوارينى « Pastor fido » ومجموعة قصص خرافية لباندللو وآخرين دونت فى مجموعات مثل كتاب وليم بينتر Palace of Pleasure (١٥٦٦) ؛ ولم ينقل كتاب مكيافللى « الأمير » حتى ١٦٤٠ ، ولكن مادته كانت معروفة لرجال عصر اليزابث . ويذكر جبرابيل هارفى أن جامعة كمبردج نبذت دونز سكوتس وتومان الأكوينى وغيرهما من رعيل العلماء » واستبدلب بهم مكيافللى وجان بودان(٩) . وترجم عن الاسبانية واحدة من أطول القصص الغرامية الخيالية Amadis de Gaula ، وواحدة من أقدم القصص الأسبانية Lazarillo de Tormes وواحدة من الروايات الرعوية القديمة The Diana of Montemayor . وكان ما أخذ عن الفرنسية قصائد البلياد Pleiades (بنات أطلس السبع اللائى وضعهن زيوس بين النجوم) ومقالات مونتانى التى ترجمها جون فلوريو إلى لغة إنجليزية رائعة (١٦٠٣) .

وكان أثر هذه الترجمات على الأدب فى عصر اليزابث عظيما جدا ، وبدأت التلميحات القديمة — وظلت لمدة قرنين من الزمان — ترهق الشعر والنثر الانجليزيين . وكانت اللغة الفرنسية معروفة لدى معظم المؤلفين الجديرين بالذكر فى عهد اليزابث ، ومن ثم كان يمكن الاستغناء عن الترجمات . ولقد سحرت إيطاليا إنجلترا ، واتجه الشعر الرعوى الانجليزى بأفكاره إلى سانا زارو وتاسو وجوارينى . والقصائد الانجليزية المشهورة بالسونيت إلى بترارك ؛ والأدب القصصى إلى بوكاشيو والقصص ، وهذه الأخيرة هى التى أمدت مارلو وشكسبير وويستر وماسنجر وفورد بالفكر الرئيسية فى رواياتهم . كما زودت الروايات فى عهد اليزابث بمواقع إيطالية . إن

إيطاليا التى نبذت الاصلاح الدينى ، كانت قد ذهبت بعيدا عنه لتحطم اللاهوت القديم ، حتى الأخلاق المسيحية ، وعلى حين أن العقيدة فى عهد اليزابث نازعت الكاثوليكية والبروتستانتية ، نجد أدب ذاك العصر ، وقد تجاهل هذا الصراع ، عاد إلى روح النهضة وحيويتها . ولما أصابت ايطاليا النكسة لبعض الوقت ، بسبب تحول طرق التجارة ، أسلمت مشعل الميلاد الجديد لأسبانيا وفرنسا وإنجلترا .

٢ — حرب الأدباء

وفى وسط هذه الوفرة والحيوية فى عصر اليزابث ، كان ثمة فيضان جارف من الشعر والنثر كليهما . وإنا لنعرف أسماء مائتين من الشعراء فى عهد اليزابث ، ولكن النثر كان هو الذى يجذب انتباه الناس ويطرق أسماعهم بقوة فى هذا العصر فى إنجلترا ، حتى أخرج سبنسر « فيرى كوين **The Faerie Queen**» (١٥٩٠) .

وكان جون ليلى أول من عمد إلى هذا اللون فى قصته الخيالية يوفيس **Eupheus** أو « تشريح الذكاء » فى ١٥٧٩ . وعرض ليلى أن يظهر كيف أن العقل السليم والخلق الكريم يمكن تكوينهما عن طريق التعليم والتجربة والأسفار والنصح الحكيم . ويوفيس (الكلام الطيب) شاب آثينى تقدم مغامراته مسرحا لمحادثات مسهبة عن التعليم والسلوك والصداقة والحب والالحاد — ومما جعل هذا الكتاب أكثر الكتب رواجا فى عصره ، هو أسلوبه — فيض من الجناس والطباق والتشبيه والتورية ، والجمل المتوازنة والاشارات القديمة والأفكار ، مما هاج حاشية اليزابث ، وأصبح الأسلوب السائد لمدة جيل ، مثال ذلك :

إن هذا الشاب الأنيق الذى يتحلى بالذكاء أكثر مما يملك مالا ، بل يملك من المال أكثر ما لديه من الحكمة ، ومذ يرى أنه لا يقل عن غيره من حيث الأفكار الجميلة ، فقد حسب أنه يفوق الجميع فى التصرفات الأمينة . إلى حد حسب معه نفسه صالحا لكل شىء ، ومن ثم لم يتوفر على شىء قط[١٠] .

ولا يعرف على وجه التحديد من أين أصاب ليلى هذا المرض ، من مارينى الإيطالى ، أو من جيفارا الأسبانى أو من « بلاغة » الفلاندرز ، فهذا محل مناقشة ، ورحب ليلى على أية حال بهذه السموم العقلية ونقلها إلى كثير من رجال اليزابث . فأفسدت كوميديات (ملهاوات) شكسبير الأولى ، وتركت مسحة منها على أعمال بيكون ، وأثرت فى اللغة .

لقد كان العصر يعنى باللفظ . وبذل جبرائيل هارفى — من آساتذة كمبردج — كل نفوذه ليحول الشعر الإنجليزى من النبرات والقوافى إلى الأوزان القديمة المبنية على التفاعيل أو المقاطع . وبتحريض منه أسس سدنى وسبنسر فى لندن ناديا أدبيا الآريوباجوس areopagus ، كافح لبعض الوقت ليحول النشاط والطاقة الحيوية فى عصر اليزابث إلى أشكال فرچيل وصيغه . وقلد توماس ناش ، هازئا ، أوزان هارفى السداسية التفاعيل « التى تشبه فى وقعها الوثب على قدم واحدة » ، وسخر منها واعتبرها غير جديرة بالنظر والاهتمام فعلا . ولما جمع هارفى بين الشتائم والسباب والحذلقة فى التنديد بأخلاقيات جرين صديق ناش ، أصبح الهدف الرئيسى لحرب الكتيبات التى جلبت إلى إنجلترا كل ما عرف فى عصر النهضة من تراشق وذم وقدح .

إن حياة روبرت جرين لتمثل ألفا من سير الحياة الأدبية البوهيمية التى لا تقيم وزنا للأعراف والقيم ، إبتداء من فيللون Villon (شاعر فرنسى غنائى فى القرن الخامس عشر) إلى فرلين Verlaine (شاعر رمزى فرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكان رفيق دراسة لهارفى ومارلو فى كمبردج) ، وسط « أوغاد لا يقلون عنه دعارة وفجورا » ، « أفنى معهم زهرة شبابه » :

كان يملؤنى الزهو والتيه والغرور . كانت الدعارة رياضتى اليومية ، وادمان الشراب ملذتى الوحيدة . . . وكنت أبعد ما يكون عن أن أرجع إلى الله ، وقليلا ما كنت أذكره . ولكنى كنت أجد لذة كبيرة فى الحلف والتجديف على الله . وإذا حققت رغبتى وأنا على قيد الحياة ، فانى راض قانع ، فلآخذ طريقى إلى الموت

بأية حال ، انى لم أخش قضاة المحـــكمة أكثر مما أخشى حساب الله[١١] .

وجال جرين فى إيطاليا وأسبانيا ، ويقص علينا أنه هناك « رأى ومارس من أعمال الخسة والجرائم ما يندى الجبين لذكره . » فلما عاد أصبح شصخية بارزة فى حانات لندن ، بشعره الأحمر ولحيته المحددة وجواربه الحريرية وبطانته الخاصة . وتزوج وكتب كتابة رقيقة عن الاخلاص فى الزواج ونعمته . ثم هجر زوجته من أجل سيدة أنفق عليها كل ثروة الزوجة . ومن معرفته الخاصة المباشرة وصف أقانين حيـــاة الرذيلة والاجرام فى كتاب ANotable Discovery of Cozenape (١٥٩١) كشف فيه الغطاء عن الدجالين والمحتالين ، وحذر فيـــه زوار لندن القرويين من أحابيل المخادعين والغشاشين فى ورق اللعب ، والنشالين والقوادين والعاهرات . مما حدا بهؤلاء أن يحاولوا قتله . وإنه لمـــا يبعث على الدهشة أن جرين ، مع انغماسه فى حياة الرذيلة إلى هذا الحد ، وجد وقتا ليكتب فى سرعة صحفية ونشاط وحيوية ، اثنتا عشرة قصة (بأسلوب يوفيس) وخمسة وثلاثين كتيبا ، وكثيرا من الروايات الناجحة . وعندما فتر نشاطه وقل دخله وجد للفضيلة بعض المعنى ، وندم ندما شديدا قدر ما كان يأثم اثما فاحشا ، وعبر عن ندمه واثمه أبلغ تعبير . ونشر فى ١٥٩١ كتابه « وداعا أيتها الحماقة » . وفى ١٥٩٢ نشر كتيبين لهما بعض الأهمية ، أحدهما : « ملحوظة ساخرة لرجل البلاط الناشىء » حمل فيه على جبرابيل هارفى ، أما الثانى « ما يساوى بضعة بنسات من ذكاء جرين يشترى بمليون من التوبة والندم » . وفيه هاجم شكسبير وأهاب برفاقه فى الفسق والفجور — وواضح أنه يقصد مارلو وبيل وناش — أن يقلعوا عن الآثام والخطايا وينصرفوا معه إلى التقوى والندم . وفى ٢ سبتمبر ١٥٩٢ أرسل إلى زوجته التى هجرها يتوسل إليها أن تدفع عشرة جنيهات إلى صانع أحذية لولا صدقته واحسانه « لكنت مت جوعا فى الطرقات » وفى اليوم التالى ، وفى دار صانع الأحذية هذا ، مات جرين — كما يقول هارفى — بسبب « تخمة أصابته من الافراط فى أكل سمك الرنجه المخلل وشرب نبيذ الراين » . وتجاوزت صاحبة الفندق عن ديونه من أجل أشعاره ، وتوجته بأكليل من الغار ، ودفعت نفقات جنازته[١٢] .

وكان توم ناش صديق جرين أشد مؤلفى الكتيبات فى عصر اليزابث سلاطة لسان وأكثرهم قراءً . وكان ابنا لمساعد قسيس ، وضاق ذرعا بالحشمة والوقار ، وما أن تخرج فى أكسفورد حتى أخذ يسرح ويمرح فى لنـــدن ، ويكسب قوته بنفثات قلمه ، وتعلم كيف يكتب بسرعة « قدر ما تسعفه يده » . وألف فى إنجلترا قصص المتشردين بادئا بقصته « السائح المنكود الحظ » — أو حياة جاك ولتون (١٥٩٤) . ولما مات جرين ، وهاجم هارفى بعنف جرين وناش فى كتيبه « أربع رسائل » ثأر ناش بسلسلة من الكتيبات بلغت الذروة فى كتيب « خذ معك إلى سافرن والدن Saffron Walden مسقط رأس هارفى فى ١٥٩٦ :

«ابتهجوا أيها القراء ، فلن أدخر وسعا فى أن أدخل عليكم السرور والبهجة . . . إن هذا لن يكلفنى إلا إنحرافا عن الطريق المستقيم ، ولكنه سيطرد من الجامعة مدحورا . . . قبل أن أكف عنه . . . ماذا تمنحوننى لو أنى أتيت به إلى المسرح فى أهم الكليات فى كمبردج[١٤]» .

وعمر هارفى بعد هذه المحنة ، وعمر بعد هؤلاء البوهيميين ومات فى ١٦٣٠ عن خمسة وثمانين عاما . وأكمل ناش رواية صديقه مارلو « Dido » واشترك مع بن جونسون فى « جزيرة الكلاب » ١٥٩٧ ، واتهم بالتحريض على الفتنة ، وانزوى فى غمرة من الحرص والحذر ، وتوج حياة العجلة بموت مبكر .

٣ — فيليب سدنى ١٥٥٤ — ١٥٨٥

بعيدا عن هذا الحشد المخبول شق سدنى طريقه فى هدوء إلى نهاية أقرب ، وانا لتطالعنا صورته حتى اليوم فى « قاعة الصور الوطنية » فى لندن ، حيث يبـــدو رقيقا أكثر مما ينبغى للرجل أن يكون ، نحيل الوجه ، ذا شعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، وكما يقول لانجيه « ليس فيه شىء من أمارات التمتع بصحة جيدة[١٥] » ، وقال أوبرى « كان آية فى الجمال ، لم تكتمل سمات الرجولة فيه كما ينبغى ، ولكن يتميز بشجاعة عظيمة[١٦] » . وذهب بعض المتذمرين إلى أنه يداخله بعض الغرور[١٧] ، وأنه بالغ فى الكمال والدقة إلى حد التطرف ، ولكن نهايته البطولية هى وحدها التى غفرت له فضائله .

ولكن من ذا الذى لا يتيه عجبا بأن أمه هى ليدى مارى ددلى إبنة دوق نورثمبرلند الذى حكم إنجلترا أيام إدوارد السادس ، وأن أباه هو سير هنرى سدنى رئيس ويلز ، ونائب الملك فى أيرلنده ثلاث مرات ، وأنه أخذ اسمه المسيحى عن فيليب الثانى ملك أسبانيا بوصفه أبا له فى التعميد . وقضى بعضا من عمر الزهر الذى عاشه فى قصر بنزهيرست الرحيب الذى تعد سقوفه المصنوعة من خشب البلوط ، والرسوم على جدرانه ، وثرياته البللورية من أجمل مخلفات ذلك العصر . وعين وهو فى سن التاسعة رئيساً علمانيا لاقطاعة كنسية تدر عليه ستين جنيها فى السنة . والتحق فى سن العاشرة بمدرسة شروزبرى التى لم تبعد كثيراً عن حصن لدلو Ludlow مقر والده بوصفه رئيسا لويلز . وكتب سير هنرى لولده وهو فى الحادية عشرة من عمره كلمات حب وإعزاز تشع منها الحكمة (١٨).

ووعى فيليب هذه الدروس جيداً . وأصبح أثيرا لدى خاله ليستر ، وصديق والده وليم سيسل . وبعد سنوات ثلاث قضاها فى أكسفورد أرسل إلى باريس فى منصب ثانوى فى بعثة إنجليزية . واستقبل فى بلاط شارل التاسع وشهد مذبحة سانت برثلميو . وجال على مهل فى فرنسا والأراضى الوطيئة وألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر والنمسا وإيطاليا . وفى فرنكفورت نشأت بينه وبين هيوبرت لانجيه صداقة العمر ، وهو أحد قادة الفكر لدى الهيجونوت . وفى فينسيا رسم له باولو فيرونيز صورته ، وفى بادوا رضع تقاليد قصائد بترارك من نوع السونيت . فلما عاد إلى إنجلترا رحب به البلاط ، وظل لمدة عامين تقريباً فى معية الملكة . ولكنه خسر عطفها لبعض الوقت . لمعارضته مشروع زواجها من دوق ألنسون . وكان يتحلى بكل صفات الفروسية — الاعتداد بقدرته على الاحتمال ، المهارة والبسالة فى المبارزة ، آداب اللياقة والسلوك فى البلاط ، الشرف فى كل المعاملات والفصاحة فى الحب ودرس كتاب كستليونى " رجل البلاط " وحاول أن يضبط سلوكه على المثل الأعلى للرجل المهذب الذى وضعه الفيلسوف الأديب ، وحاول آخرون أن يحاكوا سدنى . وأطلق عليه سبنسر اسم " ملك النبل والفروسية " .

وكان من مميزات هذا العصر أن الأرستقراطية التى كانت يوما تحتقر معرفة

القراءة والكتابة ، نظمت الآن الشعر ، وأذنت للشعراء فى الردد عليهم . وأصبح سدنى ، ولو لم يكن ثريا ، أعظم حماة لأدب فى جيله . ومد يد المساعدة إلى كمدن وهاكلوت وناش وهارفى ودون ، ودانيل وجونسون ، وفوق كل شئ سبنسر الذى أزجى إليه آيات الشكر بوصفه " أمل العلماء جميعهم ، وحامى عروس الشعر الصغيره عندى " (١٩) . ولم يكن يتفق مع طبيعة الأشياء أن يكون إهداء كتاب ستيفن جوسون " مدرسة الهجاء " موجها إلى سدنى (١٥٧٩) ، وقد ورد فى تقديم هذا الكتاب أنه " هجوم لطيف على الشعراء والزمارين والمغامرين والمهرجين ، وأمثالهم من توافه الرجال السلابين فى البلاد " . وقبل سدنى التحدى وكتب أول الروائع الأدبية فى عهد أليزابيث " دفاع عن الشعر " واقتداء بأرسطو والنقاد الإيطاليين ، عرف سدنى الشعر بأنه " فن المحاكاه " فهو يمثل أو يزيف أو يجسد صورة ناطقة . " قصد بها أن تعلم وتدخل البهجة (٢٠) " . وسما بالأخلاق كثيرا فوق الفن ، فبرر الفن على أنه معلم للأخلاق عن طريق النماذج المصورة يقول :

"إن الفيلسوف ... والمؤرخ ... قد يصلان إلى الهدف ، أولهما بالتعليم الأخلاقى ، والثانى بضرب المثل ، ولكن كلاهما لايملكهما معا . ومن ثم يتعثر كلاهما . فإن الفيلسوف ، وهو يقرر الحقيقة المجردة للأخلاق ، عن طريق الحجج الشائكة ، قد يصعب عليه التعبير ، ويغلب عليه الغموض فيدق على المرء فهمه إلى حد أن الإنسان الذى لايتيسر له مرشد غيره يخوض معه حتى يدركه الهرم قبل أن يجد مبررا كافيا لأن يكون أمينا . ذلك أن علمه يقوم على التجريد والتعميم ، حتى ليكون سعيدا من يستطيع أن يفهمه . أما المؤرخ من جهة أخرى ، فإنه ، وهو يعوزه القاعدة أو المبدأ الأخلاقى ، مرتبط ، لابما يجب أن يكون ، بل بما هو كائن ... ومن ثم فإن المثل الذى ضربه يستتبع نتائج غير ضرورية ، ولذلك يكون نظرية أقل جدوى .

أما الشاعر الفذ فانه يؤدى الاثنين معاً ، لأنه يرسم صورة دقيقة لمن يظن أنه قام بما قال الفيلسوف بوجوب عمله . وهو بذلك يكمل الفكرة العامة بالمثال المحدد . وأقول بأنها صورة كاملة متقنة لأنه لايقدم إلى قوى العقل صورة لم يقدم عنها

الفيلسوف إلا وصفا كلاميا لايستوقف النظر ولا ينفذ إلى الأعماق ولايتسم بالرؤية الروحية قدر ما للصورة من هذا كله[٢١] .

وعلى هذا فان الشعر ، فى نظر سدنى ، يشمل كل الأدب التخيلى التصويرى : الدراما ، النظم ، النثر التصويرى . « ليست القوافى والأوزان هى التى تصنع الشعر . وقد يكون ثمة شاعر بلا أوزان ، وقد يكون ثمة ناظم دون أن يكون شاعراً » .

لقد جمع سدنى بين التعليم الأخلاقى والنموذج . وفى نفس العام الذى أخرج فيه « الدفاع عن الشعر » شرع فى كتابه « جنة كونتيس بمبروك » . وكانت أخته هذه من أكثر سيدات هذا القرن جمالا وجاذبية . ولدت ١٥٦١ ، أى أنها تصغر فيليب بنحو سبع سنوات . وتلقت من التعليم قدر ما احتملت ، بما فى ذلك اللاتينية واليونانية والعبرية ، ولكن فتنتها لم تذبل . وأصبحت عضوا فى آل بيت اليزابث ورافقتها فى رحلتها الملكية . وأسهم خالها ليستر فى المهر الذى مكنها من الزواج من هنرى ارل بمبروك . وكما يقول أوبرى « كانت داعرة شديدة الشهوة للرجال فاتخذت بعضا من الخلان أو العشاق لتكمل زوجها » ، ولكن هذا لم يمنع فيليب من تقديسها ، وكتابة « الجنة » بناء على طلبها .

واتخذ فيليب من « جنة » سانازارو (١٥٠٤) مثلا يحتذيه ، فتخيل فى تفصيل شديد وفى يسر ، عالما من الأمراء الشجعان والأميرات الرفيعات التهذيب ، ومعارك الفروسية والأقنعة المحيرة والمناظر الطبيعية الساحرة . « إن جمال افروديت (يورانيا) هو أعظم شىء يمكن أن يعرضه العالم ، ولكنه أقل ما يمتدح فيها[٢٢] » وكان بللاديوس يتمتع ببصيرة نافذة مجردة من التباهى والتفاخر ، وأفكار عالية تتسم باللياقة وحسن الأدب ، وكانت الكلمات تخرج من فيه فى فصاحة عذبة ولكنها لاتسعفه فى التعبير . كما كان يتحلى بسلوك نبيل إلى حد أنه أضفى جلالا على المحبة[٢٣] .

” ومن الواضح أن سدنى قرأ يوفيس ، فالقصة متاهة غزلية ، لقد تنكر بيروكليز فى زى امرأة ليكون قريبا من فياوكايا الجميلة ، ولكنها تخيب أمله بحبها إياه على أنه أخت لها ، ويقع أبوها فى غرامه حين حسب أنه سيدة ، وتقع أمها أيضا فى غرامه حين أدركت أنه رجل ، ومهما يكن من أمر فان كل شىء ينتهى طبقا لما

أمرت به الوصايا العشر . ولم يأخذ سدنى الحكاية مأخذ الجد كثيرا . ولم يصحح قط الأوراق التى سلمها لأخته . وأمر باحراقها وهو على فراش الموت ، ولكن احتفظ بها وطبعت ونشرت (١٥٩٠) وظلت لعقد من السنين أعظم ما يعجب به الناس من النثر فى عهد اليزابث .

وبينما كان سدنى يكتب هذه القصة الرومانتيكية و " الدفاع عن الشعر "،ووسط حياته الدبلوماسية و العسكرية نظم مجموعة قصائد من السونيت (١٤ بيتا) مهدت الطريق أمام قصائد شكسبير التى من هذا النوع . وكان فى حاجة إلى شىء من الحب الفاشل ، فعثر عليه فى بنلوب دفريه **Penelope Devereu** ابنة ارل اسكس الأول ، ورحبت بآهاته وأشعاره على أنها لهو مشروع ، ولكنها تزوجت من بارون رتش (١٥٨١) . واستمر سدنى يوجه قصائده إليها ، حتى بعد زواجه هو من فرانس ولسنهام . ولم يصعق من رجال عصر اليزابث لهذا الفجور الشعرى إلا نفر قليل ، ولم يتوقع أحد أن يكتب رجل شعرا حتى لزوجته هو ، التى أخمد كرمها شاعريته ، ونشرت المجموعة ١٥٩١ ، بعد وفاة سدنى ، تحت عنوان **Astrophel and Stella** — (عاشق النجم والنجم) وقد نهجت نهج بترارك الذى استيقت محبوبته لورا بشكل عجيب عينى يلوب وشعرها وحاجبيها وخديها وبشرتها وشفتيها . وكان سدنى يدرك تماما أن هواه ليس إلا تمنية أو عماية شعرية . وكان هو نفسه قد كتب : " لو كنت أنا نفسى محظيه لما استطاع الشعراء كتاب السونيت أن يقنعونى بأنهم يحبوننى (٢٤)" وما أن قبلت قصائد السونيت على أنها لهو برىء حتى باتت أحسن شىء من نوعها قبل سونيتات شكسبير . وحتى القمر كان مريضا بالحب :

بأية خطى حزينة تصعد إلى السموات أيها القمر ، وفى
أى صمت ، وبأى وجه شاحب ؟
ماذا ، هل حتى فى السموات .
يحاول رامى السهام النشيط أن يجرب سهامه الحادة .
حقا ، لو أن هذه العيون التى خبرت الحب طويلا

تستطيع أن تحكم على الحب . أشعرت بغضبة حبيب ،
لتمد قرأتها فى نظراتك وفى جمالك الذى يذبل .
إن حالاتك لتكشف لى عن بعد ، أنا الذى أحس بمثل
ما تحس به.إذن ، حتى بحق الزمالة أيها القمر خبرنى .
أيعتبر الحب الدائم هناك نقصا فى العقل ، وهل
ذوات الجمال هناك مزهوات كما هن هنا ، هل
يحظين بما هو فوق الحب ، ومع ذلك يحتقرن المحبين
الذين يأسرهم الحب .
وهل يسمون الفضيلة هناك ضربا من الجحود[٢٥] ؟

وفى ١٥٨٥ أرسلت اليزابث فيليب سدنى لمساعدة ثوار الأراضى الوطيئة ضد أسبانيا ، وعين حاكما على فلاشنج ، ولو لم يبلغ الحادية والثلاثين من العمر ، وأغضب الملكة المقترة يطلب مزيد من المؤن والأجور لجنوده الذين كانوا يتقاضونها عملة مزيفة مخفضة القيمة[٢٦] . وقاد جنوده إلى الاستيلاء على آكسل بالقرب من فلشنج (٦ يوليه ١٥٨٦) ، وحارب فى المقدمة . ولكنه فى معركة زوتفين (٢٢ سبتمبر) أتى من ضروب البسالة أكثر مما ينبغى ، فقد قتل جواده فى الهجوم ، وقفز سدنى إلى جواد آخر ، وشق طريقه فى صفوف العدو ، فنفذت طلقة بندقية إلى فخذه ، وهرب جواده جافلا إلى معسكر ليستر(*) . ومن ثم أخذ سدنى إلى دار خاصة فى آرنهيم ، ولمدة خمسة وعشرين يوما عانى من عجز الجراحين وجهلهم وسرى التسمم ، وفى ١٧ اكتوبر استقبل عجيبة زماننا الموت بصدر رحب (كما رثاه سبنسر) وقال فى يومه الأخير " لن استبدل بابتهاجى امبراطورية العالم[٢٨]" ونقل جثمانه إلى لندن ، وأودع مقره الأخير فى جنازة لم تشهد لها انجلترا مثيلا قبل وفاة نلسون .

(*) تروى قصة لم تتأكد صحتها ، أنه عندما قدم إلى سدنى الجريح زجاجة من الماء ، ناولها إلى جندى كان يعانى سكرات الموت بالقرب منه قائلا : إن حاجتك إليها أشد من حاجتى (Fulke Greville حياة مشاهير الرجال — سير فيليب سدنى) (٢٧)

٤ — إدموند سبنسر ١٥٥٢ ١٥٩٩

وكتب سبنسر « مات سدنى ، مات صديقى بهجة الدنيا وزينتها[٢٩] » إن سيدنى هو الذى أمد سبنسر بالشجاعة لينظم القريض. نشأ إدموند ابناً لايبشر بحسن المستقبل لصانع ملابس باليومية ، وكان ينتمى من بعيد لآل سبنسر الاستقراطيين ، مما لم يتح للصبى أية فرصة للظهور . ومكنته أموال البر والصدقات من الالتحاق بمدرسة Merchant Taylors ثم كلية بمبروك فى كمبردج حيث عمل ليكسب أجر إقامته بالقسم الداخلى بها . وما أن بلغ سن السابعة عشرة حتى كان يكتب ، بل حتى ينشر ، شعراً . وحاول هارفى أن يوجهه إلى القوالب والموضوعات الكلاسيكية القديمة . وحاول سبنسر فى تواضع أن يرضيه ، ولكن سرعان ما تمرد على القيود التى فرضتها الأوزان البغيضة على عروس الشعر عنده . وفى ١٥٧٩ عرض على هارفى القسم الأول من ملحمته « الفيرى كوين » ، ولم يتذوق هارفى محتواها المجازى الذى يشبه أسلوب العصور الوسطى ، ولم يقدر وزنها الشعرى الرقيق ، ونصح للشاعر أن يتخلى عن مشروعه ، ولكن سبنسر تابع العمل .

إن هارفى ، النكد المتجهم المشاكس ، هو الذى هيأ لسبنسر مكانا فى خدمة إرل ليستر . وهناك التقى الشاعر بسدنى وأحبه وأهدى إليه « تقويم الراعى » (١٥٧٩) قلد فيها من حيث الشكل تيوكريتس ، ولكنه اتبع فيها خطة التقاويم الشعبية المألوفة التى تحدد أعمال الرعاة تبعاً لفصول لسنة . وقامت فكرتها الرئيسية على حب غير مرغوب فيه من جانب الراعى كولين كلوت لروزيلاند القاسية . وليست مما يوصى أحد بقراءتها ، ولكن أطراء سدنى لها أكسب سبنسر شيئاً من الإقبال عليها أو التهليل لها . وارتضى الشاعر ، رغبة منه فى كسب العيش ، منصب سكرتير آرثر لورد جراى نائب الملكة الجديد فى إيرلنده (١٥٧٩) ، ورافقه إلى ساحة القتال . وشهد وأقر ما عمد إليه آرثر من ذبح من استسلموا من الإيرلنديين فى سمروك . وبعد سبع سنوات من الخدمة الكتابية للحكومة الأنجليزية فى إيرلنده ، منح من الأملاك المصادرة من الثوار الإيرلنديين ، قصر كالكولمان Kilcolman على الطريق بين مالو وليمرك ، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ فدان .

وهناك أخلد سبنسر إلى حياة الزراعة الهادئة وانصرف إلى الشعر الرقيق . وخلد ذكرى موت سدنى بمرثية بليغة ولكنها مطولة عنوانها « أسترو فيل » (١٥٨٦) ، ثم صقل وطول فى ملحمته « فيرى كوين » وعبر البحر ، وهو ممتلىء حماسة إلى انجلترا ، وقدمه رالى إلى الملكة ، فكتب لها إهداء "الأجزاء" الثلاثة الأولى ، "لتبقى فى ظل خلود شهرتها . " وليضمن الترحيب بالقصيدة صدرها ببضعة أبيات فى المديح موجهة إلى كونتيس بمبروك ، وليدى كارو ، وسير كرستوفر هاتون ، ورالى ، وبرجلى ، ووالسنهام ، واللوردات هنزدن وبكهيرست وجراى وهوارد افنجهام ، وارل إسكس ونورثمبرلند وأكسفورد وأورمند وكمبرلند . ولما كان بيرجلى يناصب ليستر العداء ويحمل له الاضغان ، فانه قال عن سبنسر إنه شاعر خامل ، ولكن كثيرا من الناس هللوا له بوصفه أعظم شاعر منذ عهد تشوسر . وتلطفت الملكة فمنحته معاشا سنوياً قدره خمسون جنيها ، وتلكأ بيرجلى ، بوصفه وزير الخزانة ، فى دفعه . وكان سبنسر يأمل فى شئ أكثر سخاء . فلما خاب أمله عاد أدراجه إلى قصره فى إيرلنده ليتابع ملحمته المثالية ، وسط الهمجية والكراهية والخوف .

وكانت خطته أن تكون القصيدة فى إثنى عشر جزءاً ، نشر الثلاثة الأولى منها فى ١٥٩٠ ، وثلاثة أجزاء أخر فى ١٥٩٦ . ولم يذهب إلى أبعد من هذا . ومع هذا فإن الفيرى كوين ضعف الإلياذة وثلاثة أمثال " الفردوس المفقود " . وقدم كل جزء على أنه قصة رمزية ــ للقداسة والاعتدال وضبط النفس والعفة والصداقة والعدالة واللياقة والكياسة ، وقصد الأجزاء جميعها " أن تصوغ أو تشكل سيدا ماجدا " أو إنسانا نبيلا ذا خلق فاضل وديع (٣٠) ، بتزويده بالأمثلة التى تعين على تشكيله ، وكل هذا يتفق مع فكرة سدنى فى أن الشعر عبارة عن تعاليم أخلاقية تنقلها نماذج متخيلة . وإذ التزم سبنسر جانب الحشمة والوقار ، فانه لم يجز لنفسه إلا بضع قطع قليلة شهوانية أو حسية . فهو يلقى نظرة عجلى على " صدر عاجى عار للانقضاض عليه غنيمة باردة (٣١) " ، ولكنه لايذهب إلى أبعد من هذا . وإنه فى ستة من الأقسام الرئيسية فى قصيدته ليشدو بأعلى أنغام حب الفروسية والشهامة ، باعتباره خدمة خالية من الأثرة للسيدات الجميلات .

أما نحن الذين نسينا الفروسية والشهامة ، فإننا نضيق ذرعاً بالفرسان وتربكنا المجازات

والاستعارات والقصص الرمزية ، فان ملحمة الفيرى كوين ، تكون لنا فى أول الأمر بهيجة سارة بشكل غريب ، ولكنها أخيرا شئ لايحتمل . إن تلميحاتها السياسية التى فرح بها أواستاء لها المعاصرون، فقدت قيمتها لدينا، وإن المعارك اللاهوتية التى تشير إليها لهى الارهاصات الراسبة فى صبانا ، وإن قصصها لهو فى أحسن الأحوال ، أصداء شجية لفرجيل وآريستو وتاسو ، وليس ثمة قصيدة فى الأدب العالمى تفوق " الفيرى كوين " فى أفكارها المتكلفة ، وتغييراتها الكثيبة فى الأوضاع السوية للكلمات والاسلوب ، وألفاظها المهجورة وتعبيراتها الجديدة الطنانة ، ومبالغتها الرومانتيكية الحمقاء التى لم تلطفها ابتسامة آريستو . ومع ذلك فان كيتس وشللى أحبا سبنسر وجعلاه " شاعر الشعراء " فلماذا ؟ ألان شيئاً من الجمال الحسى للشكل عوض عن سخف العصور الوسطى وأسلوبها ، أم لأن فخامة الوصف زركشت شيئاً زائفاً غير واقعى ؟ وكان المقطع الجديد ذو الأبيات التسعة صعبا من ناحية التعبير الفنى ، وكثيراً ما يروعنا سبنسر باتقانه الكامل وسهولته الدافقة . ولكنه ، كم من مرة أفسد منطقه من أجل قافية !

وانقطع عن ملحمة " فيرى كوين " لينظم قصائد موجزة ربما كانت تبرر شهرته ؛ من ذلك قصيدته " حبي الصغير " ، على شكل السونيت ، التى كانت تشبه هوى بترارك ونزواته وخيالاته . أوأنها ربما كانت تعكس أيام خطبته التى دامت عاما لاليزابيث بويل . وقد تزوجها فى ١٥٩٤ ، وشدا بأفراح الزفاف فى أرق قصائده Epithalamium . وإنه ليقتسم معنا مفاتن العروس ، دون أثرة أو أنانية . يقول :

أنبئونى يا بنات التجار هل رأيتم
مخلوقا جميلا مثل هذا فى بلدكم من قبل
بمثل هذه الملاحة والوسامة والرقة مثلها .
تزينها نعمة الجمال وكنز الفضائل
وعيناها الواسعتان وكأنهما لؤلؤتان تشعان نورا ،
وجبهتها الناصعة البياض كالعاج

ووجنتاها وكأنهما تفاحتان كستهما الشمس بحمرة الورد ،
وشفتاها كثمرتين من الكرز تسحران الرجال ليقضموهما .
وصدرها الذى يشبه وعاء من قشدة لم تتخثر بعد ،
وثدياها أشبه بزنبقتين تفتحتا
وعنقها الناصع البياض مثل عمود من المرمر ،
وجسمها بأسره وكأنه قصر جميل ...
ولما انتهى الحفل والولائم أمر مدعويه أن ينصرفوا دون إبطاء ، قائلا
هيا ، الآن اكففن أيتها الآنسات ، لقد انتهت مسراتكن ،
كفى ، ان النهار كله كان لكن
والآن ولى النهار ، والليل يرخى سدوله .
فأحضرن العروس إلى منزل العريس . . .
وضعنها فى مخدعها
وأحطنها بالزنبق والبنفسج
وضعن الأستار الحريرية فوقها ،
مع الملاءات المعطرة والأغطية المزركشة .
وليكن الليل هادئا ساكنا
دون زوابع عاصفة أو شجارات صاخبة محزنة .
كما رقد جوبيتر مع ألكمينا . . .
ولتكف الآنسات والشبان عن الغناء ؛
ولا تدعن الغابات يجبنهم أو يرجعن أصداءهم .
فهل ثمة عذراء زفت بمثل هذه العذوبة والحلاوة ؟

ودعم سبنسر هذا التحليق ، وهذه الانطلاقة « بأربع ترانيم » (١٥٩٦) يمجد فيها الحب الدنيوى والجمال الدنيوى : والحب الإلهى والجمال الإلهى . ونهج نهج أفلاطون وفيسينو ، وكاستايونى ، ومهد الطريق للشاعر كيتس ، فأقر بما اقترف من « أعمال شريرة كثيرة » ، فقرر فى نفسه أن ينفذ إلى أعماق الجمال الطبيعى

ليجد ويشعر بالجمال الإلهى الذى يكمن بدرجات متفاوتة فى كل ماهو على الأرض.

ولما كان سبنسر يعيش على بركان من الشقاء فى إيرلنده ، فانه كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ، فى كل يوم . وقبل أن ينفجر بركان الثورة ثانية ، كتب فى نثر رقيق (لأن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يكتب نثرا جيدا) « رأيه فى الحالة الراهنة فى إيرلنده » يدافع فيها عن طريقة أفضل لاستخدام الأموال وترتيب الجنود الانجليز لإخضاع الجزيرة . وفى اكتوبر ١٥٩٨ قام الايرلنديون الذين جردوا من أملاكهم فى مونستر بثورة وحشية ، وطردوا المستوطنين الانجليز وأحرقوا حصن كلكلمان . ونجا سبنسر وزوجته بحياتهما وهربا إلى انجلترا . وبعد شهور ثلاثة ، وقد انتهى رصيد الهوى والمال ، قضى الشاعر نحبه (١٥٩٩) ، ودفع ارل اسكس الأصغر — الذى قدر له أن يلحق بسبنسر بعد فترة وجيزة ، دفع نفقات الجنازة ، التى سار فيها النبلاء والشعراء الذين نثروا الأزهار ، وألقوا المراثى على قبره فى كنيسة وستمنستر .

وسادت انجلترا الآن لهفة جنونية على نظم " السونيت " ، نافست اللهفة على الدراما ، وكلها تقريبا غاية فى براعة الشكل ، ذات قالب واحد من حيث الموضوع الرئيسى والعبارة ، وكلها تقريبا موجهة إلى العذارى أو الحماة ، تنعى عليهم أنهم يغلون أيديهم إلى أعناقهم أولا يبسطونها إلى الشعراء ، وكانوا يستحثون الجمال على أن يأذن بقطف ثماره قبل أن تذبل على سوقها . وقد تقتحم القصيدة فى بعض الأحيان نغمة مبتكرة ويبشر العاشق سيدته بمولود مكافأة لها على الاقتران السريع . وينقب كل شاعر فيجد فتاة أحلامه — دانيل : دليا ، لودج : فيليس ، كونستابل : ديانا ، فولك جريفيل : ساليا . وكان أشهر ناظمى السونيت هؤلاء ، هو صمويل دانيل ، على أن بن جونسون — الذى كان " قاسيا " أكثر منه " ماذا " — قال عنه إنه " رجل أمين وليس شاعراً(٣٢) " وحومت قصيدة ميشيل درايتون " Pegasus " حول كل أشكال الشعر ، بما كان له من قــدم فى النثر . ولكن إحدى قصائده ضربت على نغمة جديدة ، ونخزت الفتاة ونبهتها إلى مغبة صدودها ، بأن آذنها بالوداع — " إذا لم يكن ثمة رجاء أو عون ، تعالى ، نتبادل القبل ثم نفترق " .

وكان الأدب الإنجليزى فى جملته فى عهد اليزابث — فيما خلا الدراما — متخلفاً جيلا عن الأدب الفرنسى . كان النثر قوياً مرناً ، وفى الغالب معقداً مطنباً إلى حد الضجر ، خيالياً ، ولكنه أحياناً يحرك المشاعر بجلاله الملكى أو ايقاعه الفخم . ولم ينتج النثر الإنجليزى أحداً مثل رابليه أو مونتانى ، وقلد الشعر الأشكال الأجنبية فى حرص وحذر ، باستثناء The Faerie Queen, Epithalamium ولم يجد سبنسر قراء له فى القارة قط ، كما لم يجد رونسار (شاعر فرنسى فى القرن السادس عشر) قراء له فى انجلترا . فان الشعر يخلق من اللغة والعاطفة موسيقى لا يمكن الاستماع إليها خارج حدود الكلام ، لقد اتصلت الأغانى الشعبية البسيطة بالناس ووصلت إليهم ، بشكل أشد وثاقاً مما فعل شعر القصور والبلاط ، فان الأغانى كانت معلقة على جدران البيوت والحانات ، وكانت تغنى وتباع فى الشوارع ، وما زالت أغنية « لورد راندال » تهز مشاعرنا بلحنها الحزين(٣٣) . وربما كان هذا الشعر الشعبى — لا المحسنات البارعة اللطيفة — فى قصائد السونيت ، هى التى مهدت عقول الناس فى عصر اليزابث ليقدروا شكسبير .

٥ — المسرح

كيف إذن ، صعد الأدب الإنجليزى التافه إلى هذا الحد فى فترة الجفاف الطويل بين تشوسر وسبنسر ، نقول إذن كيف صعد هذا الأدب إلى شكسبير ؟ لعله بسبب نمو الثروة وانتشارها ، والسلام الطويل المثمر ، وبسبب الحرب المثيرة الظافرة ، والآداب الأجنبية والأسفار التى وسعت عقول الإنجليز . وكان بلوتس وترنس Terence يعلمان انجلترا فن الملهاة كما يعلمها سنكا أساوب معالجة المأساة . ومثل الممثلون الإيطاليون فى انجلترا (١٥٧٧ وما بعدها) وأجريت آلاف التجارب . وفيما بين عامى ١٥٩٠ و ١٦٤٢ شاهدت انجلترا ٤٣٥ ملهاة تمثل . وتطورت الهزليات والفصول الإضافية إلى الملهاة . وتخلت الأسرار الدينية والتعاليم الأخلاقية عن مكانها للمسرحيات المأساوية الدنيوية ، كما فقدت الأساطير المقدسة سلطانها على القصيدة . وفى ١٥٥٣ أخرج نيقولا يودال فى Ralph Roister Doister أول ملهاة

إنجليزية فى شكل كلاسيكى قديم . وفى ١٥٦٢ مثل المحامون فى The Inner Temp e مسرحية Gorboduc وهى أول مأساة فى شكل كلاسيكى .

وبدا لبعض الوقت أن ذلك الشكل ، المنحدر من رومه ، كان محتوما عليه أن يصوغ المسرحية الإنجليزية فى قالبها ، فى عصر اليزابث . ودافع الجامعيون مثل هارفى ؛ والمحامون الشعراء مثل جورج جاسكوين ، والذين تلقوا تعليما كلاسيكيا مثل سدنى — دافعوا عن ضرورة ملاحظة ثلاث « وحدات » فى الرواية ، أى أنه لابد أن يكون هناك " عمل " (موضوع) ، وأن هذا لابد أن يجرى فى " مكان " واحد ، ويتمثل فى " يوم " واحد لا أكثر . ومبلغ علمنا أن هذه الوحدات صاغها لأول مرة لودوفيكو كاستلفترو (١٥٧٠) فى تعليق على " شعريات " أرسطو . إن أرسطو نفسه لا يتطلب إلا وحدة العمل ، ويوصى بأن تجرى هذا العمل " خلال دورة واحدة للشمس " ويضيف ما يمكن أن نسميه وحدة الحالة النفسية بمعنى أن الملهاة " التى تمثل الطبقة الدنيا من الناس " لا يجوز أن تختلط بالمأساة " وهى تمثل العمل البطولى(٢٤) " . وأخذ سدنى فى كتابه " دفاع عن الشعر " ، نظرية وحدات المسرحية عن كاستلفترو ، وطبقها بدقة ، ولكن فى مرح لطيف ، على الروايات فى عصر اليزابث ، تلك التى كانت الجغرافية طاغية فيها :

فترى فيها آسيا فى ناحية ، وأفريقية فى الناحية الأخرى ، وكذلك ممالك سفلى كثيرة ، حتى أن الممثل حين يدخل ، لابد أن يبدأ بأن يخبرك أين هو . . . . أما عن الزمن فانهم أكثر تحرراً ، وانه لأمر عادى أن يقع أميران شابان فى شرك الغرام ، وبعد عوائق جمة تحمل العشيقة فى طفل من شاب وسيم . . . ثم ينمو حتى يصبح رجلا يقع فى شراك الغرام ، مستعداً لأن ينجب طفلا آخر . وكل هذا على مدى ساعتين(٢٥) .

واتبعت فرنسا القواعد الكلاسيكية وأنجبت راسين . أما انجلترا فنبذتها وهيأت لمسرحيتها المأساوية حرية رومانتيكية ومجالا يغلب عليه المذهب الطبيعى ، وأنجبت شكسبير . وكان المثل الأعلى لعصر النهضة فى انجلترا فكان الحرية والإرادة

والمرح والحياة . وكان جمهور النظارة فى عصر اليزابث يتألف من صغار اللوردات ومن متوسطى الحال ومن محتلى مقاعد الدرجة الثالثة ، وكان ينبغى أن يقدم لهذا الجمهور غذاء دسم متنوع ، حيث كان له قدرة على الضحك ملء أشداقه ، ولم يكن يعبأ بحفارى قبور يتجاذبون أطراف الحديث فى المذاهب الفلسفية مع أمير ،وكان لهذا الجمهور خيال لم يروض بعد ، يمكن أن يقفز من مكان إلى مكان ويعبر قارة بأسرها ، لأية إشارة أو تلميح . وكانت المسرحيــة فى عهد اليزابث تمثل الإنجليز فى أيامها ، لا الإغريق فى عهد بريكليز ، ولا الفرنسيين فى عهد البوربون ، ومن ثم أصبحت الفن القومى ، على حين أن الفنون التى اتبعت نماذج أجنبيةلم تتغلغل جذورها فى انجلترا .

وكان على المسرحية الإنجليزية أن تخوض معركة أخرى قبل أن تخطو إلى مارلو وشكسبير ، فقد نبذت الحركة البيوريتانية الناشئة مسرح اليزابث على أنه وكر للوثنية والتجديف الدنس ، واستنكرت وجود النساء والبغايا بين الجمهور ، واقتراب المواخير من المسارح . وفى ١٥٧٧ نشر نورثبروك نقداً لاذعاً عنيفاً ضد "لعب النرد والرقص والروايات . والفصول الضاحكة ":

> إنى مقتنع بأن الشيطان ليس لديه وسيلة أسرع ولا مدرسة أصلح ، لينفذ رغبته ، ويلقنها ، ويوقع الرجال والنساء فى شراك الغواية والفسق والشهوات الدنيئة لمدى .ات الهوى الداعرات الشريدات ، من هذه الروايات والمسارح . ومن ثم فانه من الضرورى أن تحظر هذه الأماكن ويمنع هؤلاء الممثلون ، وأن يقضى عليهم ، وأن تهدم المسارح بأمر السلطات ، كما هو الحال بالنسبة للمواخير وبيوت الدعارة[٣٦] .

وكان كتاب ستيفن جوسون " مدرسة لهجاء " معتدلا نسبيا . واعترف بأن ثمة روايات وممثلين ، " لاغبار عليهم " . ولكنه عندما رد عليه لودج ، أقلع جوسون عن أى تمييز . وفى كتابه "Players Confuted in Five Actions" ، وصف الروايات بأنها " غذاء للخطيئة وللشغب وللزنى " ، والممثلين بأنهم "أساتذة

الرذيلة ومعلم الخلاعة والفجور[٣٧] . " ورأى النقاد فى الملهاة صورا للرذيلة تفسد الأخلاق ، وفى المأساة أمثلة مثيرة للقتل والخيانة[٣٨] والتمرد . وفى السنوات الأولى من حكم اليزابث كان يوم الأحد هو اليوم المخصص للتمثيليات . وكانت الأبواق تعلن عنها ، كما تدعو أجراس الكنائس الناس إلى صلوات المساء . وكم فزع رجال الدين من تسلل جمهور الكنيسة خلسة من صلواتهم ليزحموا المسرح . وتساءل أحد الوعاظ : أليست رواية قذرة تستحث بنفخة من بوق ألفا من الناس للحضور بأسرع مما تحضر دقات الناقوس لمدة ساعة مائة منهم لسماع موعظة[٣٩] ؟ » وذهب نورثبروك إلى أبعد من ذلك فقال : « إذا كنتن تعرفن كيف تخدعن أزواجكن ، أو خداع الأزواج لزوجاتهم ، وكيف تمثلن دور بنات الهوى ، وكيف يكون الملق والمداهنة والكذب والقتل والتجديف على الله ، وترديد لأغانى القذرة ... فهلا تتعلمن كيف تمارسن كل هذا فى مثل هذه الفصول الماجنة ؟[٤٠] »

ورد الكتاب المسرحيون على هذا بنشرات أصدروها ، وبالسخرية من البيوريتانيين فى مسرحياتهم . من ذلك ما أورده مالفوليو فى رواية « الليلة الثانية عشرة » ، حيث يسأل سير توبى بلش المهرج فى تلك الرواية : " هل تظن أنه لن يكون هناك كعك وجعة لأنك رجل متمسك بأهداب الفضيلة ؟ " فيجيب المهرج " نعم ، وبحق سانت آن ، وسيكون الزنجبيل كذلك ساخنا فى الفم[٤١] . " واستمر هؤلاء الكتاب ، حتى شكسبير نفسه ، يملحون رواياتهم بشىء من أعمال العنف والغضب وسفاح ذوى القربى والزنى والدعارة . وهناك فى رواية شكسبير " بريكليز " مشهد يعرض حجرة فى ماخور يشكو مديره العام من أن : " العاملات عنده بتن من العمل المتواصل ، فى أسوأ حال[٤٢] "

وذهبت سلطات مدينة لندن — وكان بعضهم من البيوريتانيين — إلى أن البيوريتانيين ألزموا معارضيهم الحجة . وفى ١٥٧٤ حرم « المجلس العام » تمثيل الروايات إلا بعد فحصها وإجازتها ، ومن هنا جاء بيت شكسبير " لقد كممت السلطات أفواه الفن[٤٣] . ولكن ، لحسن الحظ ، كانت اليزابث ومجلس شورى الملكة مغرمين بالمسرحيات : وكان لبعض اللوردات فرق من الممثلين ، وفى ظل

رقابة متراخية على المصنفات ، أجيزت ست فرق لإخراج الروايات فى المدينة .

وقبل ١٥٧٦ كانت الأعمال المسرحية تجرى أساسا على منصات مؤقتة فى أفنية الفنادق . ولكن فى تلك السنة بنى جيمس بوربدج أول مسرح دائم فى إنجلترا ، وأطلق عليه ببساطة اسم " المسرح " . وللافلات من سلطان الجهات المسئولة فى لندن أقيم المسرح خارج حدود المدينة نفسها ، فى ضاحية شوردتش ، وسرعان ما أقيمت مسارح أخرى : The Curtain(١٥٧٧؟) The Black Friars ,(١٥٩٦) The Fortune (١٥٩٩) . وفى تلك السنة الأخيرة هدم ريتشارد وكوثبرت بوربدج مسرح والدهما ، وأقاما المسرح المشهور Globe فى سوثوارك على نهر التاميز تماماً . وكان مثمن الأضلاع فى شكله الخارجى ، ولكن ربما كان مستديرا فى الداخل ، ومن ثم أطلق عليه شكسبير "هذه الدائرة الخشبية " This Wooden O (٤٤) وكانت كل مسارح لندن من الخشب قبل ١٦٢٣ ، وكان معظمها عبارة عن مدرجات كبيرة تتسع لنحو ألفين من المتفرجين جالسين فى صفوف من شرفات محيطة . ويمكن لألف آخرين أن يشاهدوا الرواية وقوفا فى الساحة التى حول المنصة أو خشبة المسرح . وهؤلاء " الألف " هم " جمهور الدرجة الثالثة " الذين وجهم هملت بأنهم « المشهد الصامت والضجيج(٤٥) » وكان المشاهد الواقف يدفع بنسا واحداً ، أما الجالس فى الشرفات فيدفع بنسين أو ثلاثة ، أما المقعد على المنصة فكان يكلف أكثر من ذلك قليلا . وكانت هذه المنصة عبارة عن منبسط يخرج من أحد الجدران إلى وسط الساحة . وفى المؤخرة كانت غرفة الملابس ، وفيها يرتدى الممثلون ملابسهم ، ويتولى " خازن المسرح " أمر أدوات التمثيل والإخراج المسرحى ، وكانت تشمل قبوراً وجماجم وصناديق أشجار ، وشجيرات الورد ، وعلب مجوهرات وستائر ومراجل ، وسلالم وأسلحة ، وأدوات ، وقوارير دم وبعض رؤوس مفصولة وكان يمكن بواسطة الآلات إنزال الآلهة والالهات من السماء ، أو رفع العفاريت والسحرة من الأرض ، كما يمكن إسقاط المطر بشد حبل ، وتعليق الشمس فى السماء " بحزام مزدوج(٤٦) " . وكان على هذه الأدوات أن تعوض عن جهاز المسرح . وعوقت المنصة المكشوفة غير المحجوبة سرعة تغيير الوضع . وعوضاً عن ذلك كان

التمثيل وسط الجمهور تماماً ، حتى ليكاد يحس بأنه جزء من الحدث .

ولم يكن النظارة يشكلون جزءاً صغيراً من المسرح . وكان متعهدو الحفلات يبيعون التين والتفاح والبندق والكتيبات للمتفرجين . وفيما بعد ذلك — إذا صدقنا وليم برين البيوريتانى ، — كانت الغلايين تقدم للنساء(٤٧) . وجاءت النساء إلى الروايات أفواجاً ، لايعوقهن عن ذلك تحذيرات المنابر بأن مثل هذا الاختلاط يحرض على الغواية . وفى بعض الأحيان — حين كان الصراع الطبقى يعترض المسرحية ، كان جمهور الدرجة الثالثة يقذفون بمخلفات طعامهم على المتأنقين الجالسين على المنصة ، ويجدر بنا ، لكى نفهم الرواية فى عصر اليزابث ، أن نذكر هذا الجمهور : العاطفة التى تهلل لقصة حب ، والمرح القلبى الحماسى الذى تلهف على رؤية المهرجين مع الملوك ، والخيلاء التى استساغت البلاغة ، والحيوية الفظة التى استمتعت بمشاهد العنف — كذا نتذكر قرب المنصـــة المثلثة الجوانب التى تغرى بالمناجاة والكلام على انفراد .

وكثرالممثلون ، وكاد الممثلون جوابو الآفاق أن يظهروا فى أية مدينة تقريباً فى أيام الأعيادو الاحتفالات ، يمثلون فى ميدان القرية ، أو فى فناء الحانة ، أو فى حظيرة للماشية أو فى قصر من القصور ، وفى أيام شكسبير لم يكن هناك ممثلات ، وكان الأولاد يمثلون الأدوار النسائية ، فكان يمكن للمشاهدين فى أيام اليزابث أن يروا ولداً يمثل امرأة متنكرة فى زى فتى أو رجل . وفى المدارس الخاصة الاستقراطية قدم الطلبة مسرحيات كجزء من تدريبهم أو دراستهم . ونافست فرق الممثلين الأولاد هذه فرق الممثلين الكبار ، عن طريق عرض الروايات فى مسارح خاصة للجمهور والمتفرجين الذين يدفعون أجوراً ، وشكا شكسبير من هذه المنافسة(٤٨) ، وتوقفت بعد ١٦٢٦ .

وحتى يتفادى الممثلون البالغون إدراجهم فى مصاف المتشردين ، نظموا أنفسهم فى فرق تحت رعاية وحماية النبلاء الأثرياء — ليستر ، سسكس ، أكسفورد ، اسكس وكان للورد أمير البحر فرقة ، وكذلك للورد كبير الأمناء ، وكان هؤلاء الرعاة والحماة يدفعون أجور الممثلين عن العروض التى يقدمونها فى قاعات البارونات والنبلاء . وفيما عدا هذا عاش الممثلون مزعزعين غير مستقرين على أنصبتهم فى فرقهم .

ولم تكن الأنصبة توزع توزيعا عادلا ، فكان للمدير الثلث ، واستولى نجوم الممثلين على نصيب الأسد من الباقى . وترك ريتشارد بوريدج — وهو أشهر هؤلاء النجوم — أملاكاً تدر ٣٠٠ جنيه سنوياً ، أما منافسه إدوارد اللين Alleyn فقد شاد وتبرع بكلية دلوتش فى لندن . وكوفىء مشاهير رجال المسرح باعجاب الجمهور الأعمى بهم ، ويتهافت السيدات عليهم يخطبن ودهم .

ويروى لنا جون مانتجهام فى مذكراته عن مارس ١٦٠٢ قصة مشهورة :

ذات مرة ، حين مثل بوريدج " ريتشارد الثالث " ، كانت هناك مواطنة قريبة الشبه به إلى حد بعيد : لدرجة أنها قبل أن تنصرف من الرواية حددت له موعداً ليحضر إليها تلك الليلة باسم ريتشارد الثالث . وكان شكسبير يسترق السمع إلى الحديث ، فسبقه إليها ، ولقى ترحيباً ونفذ خطته قبل حضور بوريدج . ثم جاء رسول يقول إن ريتشـــارد الثالث بالباب ، فرد شكسبير الرسول ليقـــول إن وليم الفاتح سبق ريتشارد الثالث(٤٩) .

٦ — كرستوفر مارلو ١٥٦٤ — ١٥٩٣

لم يجن كتاب المسرح من الربح قدر ما جنى الممثلون . ذلك أنهم باعوا رواياتهم دون تحفظ إلى الفرق المسرحية لقاء مبلغ يتراوح بين ٤ و ٨ جنيهات ، ولم يحتفظوا بحقهم فى المخطوطة أى فى أصل الرواية ، وحظرت الفرقة عادة نشر النص لئلا تستخدمه فرقة منافسة . وسجل كاتب الاختزال الرواية أحياناً فى الوقت الذى تمثل فيه . وربما أصدر صاحب المطبعة من هذا التسجيل طبعة مسروقة محرفة لا يصيب المؤلف منها إلا ضغط الدم الشديد . ولم تحمل مثل هذه الطبعات دوما اسم المؤلف ومن ثم ، فان الروايات مثل Arden of Faversham (١٥٩٢) عمرت عدة قرون دون أن تحمل اسم مؤلفها .

وبعد ١٥٩٠ عاش المسرح الإنجليزى على روايات لها بعض القيمة ، ولو أن عددا قليلا منها فقط هو الذى عمر لأكثر من يوم . وزخرف جون ليلى ملهياته بأغان شعبية ساحرة فقد مهد السحر الرقيق فى روايته Endymion لرواية « حلم منتصف ليلة صيف » .

وربما تبادلت رواية روبرت جرين« Friar Bacon and Friar Bungay »(١٥٨٩) التي عالجت عجائب السحر ، نقول ربما تبادلت الفكرة مع رواية مارلو « دكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟ ـــ ١٥٩٢ ؟) . وروت « المأساة الأسبانية » لتوماس كد (١٨٥٩ ؟) قصة قتل دامية كادت لا تبقى على أحد فى النهاية ، وأوحى نجاحها إلى كتاب الرواية فى عصر اليزابث ودفعهم إلى منافسة القواد والأطباء فى سفك الدماء . وهنا ، كما هو الحال فى هملت نجد « شبحا » يطالب بالثأر ، كما نجد رواية داخل رواية .

وعمد كريستوفر مارلو قبل تعميد شكسبير بشهرين اثنين ، وهو ابن صانع أحذية فى كنتربرى ، ومن ثم فانه ما كان ليحظى بالتعليم الجامعى لولا أن رئيس الأساقفة باركر قدم له منحـــة دراسية . وطوال سنى دراسته بالكلية استخدمه سير فرانسيس ولسنهام جاسوسا للتحرى عن أية مؤامرات ضــــد الملكة . ولقد زعزعت دراسته لآداب الإغريق والرومان من عقيدته الدينية ، كما أضفى اطلاعه على آراء مكيافللى على تشككه اتجاها إلى المذهب الكلبى (السخرية) . وانتقل إلى لندن بعد الحصول على درجة الأستاذية (١٥٨٧) ، وأقام فى غرفة مع توماس كد ، وانضم إلى حلقة المفكرين الأحرار التى تزعمها رالى وهاريوت . ورفع ريتشارد بارنز ـــ أحد عمال الحكومة ـــ إلى الملكة فى ٣ يونية ١٥٨٩ تقريرا جاء فيه أن مارلو كان قد أعلن أن أول أصل فى الدين لم يكن إلا إبقاء الناس فى رعب وفزع .. وأن المسيح كان ابن زنى . . . وأنه إذا كان ثمة ديانة حقة فهى الكاثوليكية ، لأن عبادة الله عندهم تقوم على مزيد من الطقوس ، وأن جميع البروتستانت حمير مراءون منافقون . . . وأن العهد الجديد (الإنجيل) كله مكتوب بشكل قذر بذىء . ويضيف بارنز « ثم أن مارلو هذا . . . فى كل اجتماع يحضره تقريبا . . . يحرض الناس على الإلحاد ، ويريدهم ألا يخشوا « البع بع » والغيلان ، مزدريا كل الازدراء الرب ورسله[٥٠] . » كما أن بارنز (الذى أعدم شنقا فى ١٥٩٤ لفعلة شائنة) أضاف ـــ ليحكم التدبير ـــ أن مارلو دافع عن اللواط[٥١] . ووصف روبرت جرين فى دعوته أصدقاءه إلى الاصلاح ، وهو على فراش الموت ، نقول « وصف مارلو

بأنه ميــال إلى التجديف والإلحــاد(٥٢) وقرر توماس كذ — وقد قبض عليه فى ١٢ مايو ١٥٩٣ — تحت تأثير التعذيب، أن مارلوكان مارقا مدمنا للخمر، قاسى القلب »، معتــادا على « السخرية من الكتب المقدسة » و « الاستهزاء بالصلوات(٥٣) ».

وقبل أن تصل هذه التقارير إلى الحكومة بوقت طويل ، كان مارلو قد كتب وأخرج للمسرح روايات تشير إلى كفره وشكوكه فى الكتب الدينية . ومن الواضح أنه ألف Tamburlaine The Great فى الكلية وأنه أخرجها فى عام تخرجه ، وإن تمجيدها للمعرفة والعلم والجمال والقوة ليكشف عن مزاج الشاعر المصطبغ بمبادىء فاوست (فيلسوف يبيع نفسه للشيطان مقابل حصوله على العلم والمعرفة).

إن نفوسنا التى تستطيع بما أوتيت من مواهب
أن تدرك عجيب صنع العالم ،
وتقيس مدار كل كوكب سيار ،
ولا تزال تصعد وراء المعرفة اللانهائية ،
وتنتقل دائما مثل الأجرام التى لا يقر لها قرار
تريدنا أن نفنى أنفسنا ، وألا نهدأ ،
حتى نصل إلى أنضج الثمار فى كل شىء(٥٤) .

وكانت الروايتان اللتان كتبهما عن تيمور تنمان عن فجاجتهما ، وكان تصوير الشخصيات مبسطا أكثر مما ينبغى التبسيط — فكل شخص يمثل صفة واحدة ، فتامبورلين هو الزهو بالقوة ، ويكاد الزهو أن يكون غرور طالب جامعى منتفخ الأوداج ببدع وأشياء جديدة لم يتمثلها جيدا فى عقله ، لا أن يكون ثقة هادئة بالنفس لدى ملك ظافر . وتجرى القصة على أنهار من الدماء تعترضها السدود أو الاحتمالات البعيدة . والأسلوب ينزع إلى الكلام المنمق الرنان . ماذا إذن أكسب هذه الرواية أعظم النجاح ، إلى هذا الحد ، فى عصر اليزابث ؟ يحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى مافيها من عنف وسفك دماء وتنميق ، ولكنا أيضا قد نؤمن بأنه يرجع إلى ما فيها من زندقة وهرطقة وفصاحة ، ففيها أفكار تدوى بجرأة أكثر ،

وصور يحس بها المرء إحساساً أعمق . وعبارات استخدمت بذكاء أكثر مما سمع أو عرف فى المسرح الاليزابيثى من قبل . وهنا كانت عشرات من « الأبيات العظيمة » مما حدا بجونسون أن يمتدحها ، وقطع تتسم بجمال شجى ، حتى لقد ذهب سوينبرن إلى أنها فريدة فى نوعها .

وأعجل التهليل والهتاف مارلو ، فأسرع الخطى ، وكتب بكل ما أوتى من قوة الروح أعظم أعماله : « التاريخ الفاجع لدكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟). إن أخلاق العصور الوسطى التى ربما أقرت « أن بهجة المعرفة بهجة يعروها الحزن والأسى[٥٥]، وأن فى المزيد من الحكمة مزيدا من البلية[٥٦] » كانت قد دمغت اللهفة الجامحة على المعرفة بأنها إثم عظيم ، بيد أن طموح العصور الوسطى تحدى هذا الحظر : حتى إلى حد مناشدة السحر والشيطان بغية الوقوف على أسرار الطبيعة وقواها . وإن مارلو ليمثل فاوست على أنه طبيب ويتبرج العالم الشهير الذى يتميز غيظا من الحدود الضيقة لمعرفته وعلمه ، ويحلم بوسائل سحرية تجعله يحيط بكل شيء علما .

إن كل شيء يتحرك بين القطبين الساكنين
سوف يكون تحت أمرى . . .
وهل أجعل الأرواح تأتينى بكل ما أريد ،
وتبدد كل غموض والتباس .
وتقوم بكل مغامرة يائسة أبتغيها ؟
سأجعلها تطير إلى الهند من أجل الذهب
وتنقب فى المحيطات وراء لآلىء الشرق
وتفتش فى كل أركان الدنيا المكتشفة حديثا
من أجل الفاكهة الشهية وكل ألوان النعيم والترف ،
وسأجعلها تتلو على غرائب الفلسفة .
وتقص على أنباء الملوك الأجانب[٥٧] .

وبناء على نداء منه ، يظهر مفستوفيلس ، ويعرض عليه أربعا وعشرين سنة من السعادة والقوة ، شريطة أن يبيع نفسه إلى لوسيفر ويوافق فاوست ويوقع

العقد بدم ذراعه المقطوعة . وكان أول مطلب له هو أن يأتيه بأجمل فتاة فى ألمانيا لتكون زوجة له ، " لأنني شهوانى لعوب داعر " ، ولكن مفستوفيلس يثنيه عن الزواج ، ويقترح بدلا منه مجموعة متعاقبة من الخليلات والمحظيات . ويطالب فاوست بهيلين غادة تروادة ، فتأتى إليه ويغرق هو فى غمرة النشوة والابتهاج :

هل هذا هو الوجه الوحيد الذى هاجم ألف سفينة
وأحرق أبراج تروادة الشاهقة ؟
أيتها الجميلة هيلين امنحينى الخلود بقبلة منك . . .
آه . . . إنك أحلى من نسيم المساء
مكسوة بجمال ألف من النجوم

وعولج المشهد الأخير فى قوة هائلة : التوسل الأخير إلى الله فى شيء من الرحمة، أو على الأقل فى فترة من اللعنة والعذاب — « فليعش فاوست ألف سنة بل مائة ألف سنة فى الجحيم ، لينجو فى النهاية » — ثم اختفاء فاوست عندما آذنت الساعة بحلول منتصف الليل ، وسط ضجة هائلة من السحب المعتمة المصطدمة بعضها ببعض . وتنشد الفرقة الموسيقية كلمات تخليد ذكراه — وذكرى مارلو :

انقطع الغصن الذى نما وترعرع مستقيما عاليا ،
واحترق فرع الغار الذى يكلل أبوللو

ربما استطاع مارلو ، فى هذه الروايات ، أن يظهر ميوله الخاصة نحو المعرفة والجمال والقوة ، ولكن تطهير العواطف ، أو أثر التنقية والتنظيف — ذلك الذى عزاه أرسطو إلى المسرحية المأساوية ، كان يظهر فى المؤلف أكثر منه فى جمهور المشاهدين . وفى مسرحية « يهودى مالطه » (١٥٨٩ ؟) تأخذ الرغبة فى القوة شكلا متوسطا من جشع المال والثروة ، وتدافع عن نفسها فى الخطبة التى ألقاها مكيافلى :

إنى لأعجب لأولئك الذين يبغضوننى كل البغض .
وعلى الرغم من أن بعضهم يندد علانية بكتبى
فإنهم ، سيقرأونها ، ومن ثم يصلون

إلى كرسى بطرس ، وعندما يتخلصون منى
سيكون أعدائى الصاعدون خطراً عليهم
وإنى لأعتبر الدين لعبة أطفال ،
وأعتقد أنه ليس ثمة خطيئة غير الجهل .

ومرة أخرى نجد أن بارباس مقرض النقود صفة واحدة مجسدة ، هى الجشع إلى حد الكراهية لكل من يعوق سبيل مكاسبه فى صورة ساخرة بغيضة عولجت برذائل مهيبة .

لقد تعلمت فى فلورنسة كيف أقبل يدى
وأرفع ذراعى عندما ينادوننى يا كلب ،
وأتوارى ذليلا مثل أى أخ عارى القدمين
أملا فى أن أراهم يموتون جوعاً فى حظيرة[٥٨] .

وإنه ، وهو يدقق التأمل فى مجوهراته ، يهتز طرباً " لثروتهم التى لا حد لها ، فى غرفة صغيرة[٥٩] "وعندما تستعيد ابنته حقائب أمواله المفقودة ، يصيح فى خليط من المشاعر ، سبق بها شيلوك ، " آه يا ابنتى ، ذهبى ، ثروتى ، بهجتى[٦٠] " . وفى هذه الرواية قوة تكاد تكون ضراوة ، وفيها وخز بالألقاب وقوة فى العبارة ، أدت بمارلو ، بين الحين والحين ، إلى الاقتراب كثيراً من شكسبير .

وكان أشد اقتراباً منه فى رواية إدوارد الثانى (١٥٩٢) : فلما أن توج الملك الصغير أرسل إلى صديقه الأغريقى " جافستون ، وأغدق عليه بسخاء القبلات والمناصب والأموال ، فثار النبلاء الذين أهملهم وخلعوا إدوارد الذى اتجه إلى الفلسفة ، فنادى رفاقه الباقين :

تعال يا سبنسر ، تعال يا بالدوك ، اجلسا إلى جوارى
جربا الآن تلك الفلسفة ،
التى فى بيوت حضانتنا المشهورة للفنون
كنتم ترضعونها من أفلاطون وأرسطو .

إن هذه الرواية (إدوارد الثانى) — بهذا البنيان المحكم ، وبالشعر المفعم بالحساسية والخيال والقوة ، وبهذه الشخصيات التى رسمت فى وضوح وتماسك ، وبهذا الملك الممزوج من اللواط والزهو ، ومع ذلك يمكن الصفح عنه فى بساطة صباه وجماله الغض — نقول إن هذه الرواية بكل ماذكرنا ، كانت قيد خطوة من رواية شكسبير « ريتشارد الثانى » التى أعقبتها بسنة واحدة .

وماذا كان عســاه ينجز هذا الكاتب المسرحى الذى بلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة ، إذا اكتمل نموه . فى مثل تلك السن كان شكسبير يكتب توافه مثل:
Two Gentlemen of Verona, Acomedy of Errors Love,s Labour's Lost
وفى « يهودى مالطة » كان مارلو يعرف كيف يجعل كل منطر يدفع أمامه مكيدة مرتبة ، وفى « إدوارد الثانى » تعلم كيف يعرف الشخصية الواحدة على أنها أكثر من صفة واحدة مجسدة ، وربما تيسر له فى عام أو عامين تطهير رواياته من الكلام المنمق الطنان والأحداث المثيرة ، ولربما سما إلى فلسفة أرحب أفقا ، وإلى تعاطف أعظم مع أساطير بنى الإنسان ونقاط الضعف فيهم . وربما كانت نقيصته المعيبة هى الحاجة إلى الفكاهة ، فليس ثمة ضحك لطيف فى رواياته ، فاللهو العارض — كما هو الحال فى روايات شكسبير ، لا يؤدى مهمته الصحيحة فى المأساة — ألا وهى تهدئة روح المستمع قبل الارتفاع به إلى ذروة المأساة . وكان يستطيع أن يقدر الجمال الحسى أو المادى فى النساء ، ولا يقدر ضعفهن وقلقهن وكياستهن . وليس فى رواياته شخصية نسوية قوية نشيطة ، حتى فى الروايتين اللتين لم يكملهما « ديدو » و « ملكة قرطاجة » .

ولم يبق أمامنا إلا الشعر . وأحيانا تغلب الخطيب على الشاعر ، فصاح الخطيب « بخطبة عظيمة مدوية[٦١] . ولكن كم من مشهد كان الشعر المشرق ينساب فيه بصور حية وألفاظ متناغمة إلى حد أن الإنسان قد يخطئ بعض السطور فيظنها من فيض خيال شكسبير . وأثبت الشعر المرسل عند مارلو أنه الأداة الصحيحة المسرحية الإنجليزية ، وقد يكون أحيانا مملا على وتيرة واحدة ، ولكنه عادة متنوع فى أوزانه ، محقق لاتصال وترابط يبدوان طبيعيين .

وأسدل الستار الآن فجأة على « تاريخه الفاجع » الخاص ، ففى ٣٠ مايو ١٥٩٣ ، اجتمع ثلاثة من جواسيس الحكومة — انجرام فريزر ، نيقولا سكيرز ، روبرت بولى — بشاعرنا مارلو — وربما كان هو الآخر لايزال جاسوسا — اجتمع الأربعة للعشاء فى منزل أو حانة فى دتفورد ، على بعد أميال من لندن . وطبقاً لما جاء فى تقرير وليم دانبى — المحقق فى أسباب الوفيات المشتبه فيها — « تراشق فريزر ومارلو بألفاظ نابية قبيحة فى تبيان السبب الذى من أجله لم يتفقا . . على دفع نفقات العشاء . فما كان من مارلو إلا أن استل خنجرا من حزام فريزر وطعنه به فأصابه ببعض جروح سطحية . فأمسك فريزر بيد مارلو وسدد الخنجر إليه فورا ، وأصابه بجرح قاتل عمقه بوصتان فى عينه اليمنى . . . مات المدعو كرستوفر مورلى متأثرا به فى الحال » ، حيث وصل النصل إلى المخ . وقبض على فريزر فترافع بأنه كان فى حالة دفاع عن النفس ، وأفرج عنه بعد شهر . أما مارلو فقد ووری التراب فى أول يونية فى قبر غير معروف الآن[٦٣] . وقد بلغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً .

وبالإضافة إلى Dido ترك مارلو شذرتين غاية فى السمو . أما Hero and Leander فهى قصيدة رومانتيكية ، من المقاطع ذوات البيتين من نوع الملحمة ، عن قصة موزائيس التى حكت فى القرن الخامس عن شاب قطع الدردنيل سبحا ليوفى بموعد لقاء . وإن أنشودة « الراعى المشبوب العاطفة فى الطريق إلى حبيبته » . لهى واحدة من أعظم الأغانى الشعبية فى عهد أليزابث . واعترف شكسبير اعترافاً جميلا بفضل مارلو ، فأجرى فقرات من هذه القصيدة على لسان سير هيو أيفانز فى رواية « الزوجات المرحات فى وندسور » ، كما أشار إليها إشارة رقيقة فى رواية « على هواك As You Like It » :

أيها الراعى الذى قضى نحبه ، إنى أرى الآن قولك المأثور فى القوة
« من ذا الذى أحب ، إذا لم يكن أحب لأول نظرة ؟ »

وهذا هو البيت رقم ٧٦ من رواية مارلو Hero and Leander

لقد أنجز مارلو الشئ الكثير فى العمر القصير . ولقد جعل من الشعر المرسل كلاما مرناً قوياً . وأنقذ المسرح على أيام البزابث من دعاة القديم ومن البيوريتانيين وأضفى أشكالهم المحددة الواضحة على مسرحيات الأفكار ومسرحيات التاريخ الإنجليزى . وترك بصماته على شكسبير فى روايتى تاجر البندقية وريتشارد الثانى ، وفى شعر الغزل ، وفى الاسلوب البليغ الفخم . وبظهور مارلو ، وكد Kid ؛ ولودج ، وجرين : وبيل Peele ، كانت الطرق قد فتحت ، وكان شكل المسرحية وبنيانها وأسلوبها ومادتها قد هيئت كلها . فلم يكن شكسبير معجزة ، بل كان منفذا ومنجزا لما بدأ به هؤلاء جميعهم .

الفصل الثامن

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

---

١ — أيام الشباب ١٥٦٤ — ١٥٨٥

فلنلخص الآن ، استكمالا للبحث ، مايعرفه نصف العالم عن شكسبير . واليوم وقد عكف الباحثون المخلصون على فحص مخلفاته ودراستها لثلاثة قرون . فإنه يهمنا أن نقيس مانعرف عنه — وهناك شيء كثير يطرح جانبا لأنه غير جدير بالمناقشة ، وهناك الشكوك التي تثار حول تأليفه لكل الروايات التي نسبت إليه تقريباً .

ومهما يكن من أمر فإننا لسنا على يقين من اسمه . فقد أباحت اليزابث من الحرية في هجاء الكلمات أكثر مما أباحت في حرية العقيدة ، ولربما حملت نفس الوثيقة الواحدة عدة طرق لهجاء كلمة واحدة بعينها ، ولربما وقع رجل بعينه اسمه بأشكال مختلفة تبعا لمزاجه وسرعته في الكتابة . وهكذا كتب المعاصرون مارلو ، مارلين ، مورلي وغيرها ، أما توقيعات شكسبير الستة الباقية فهي كما تقرأ : Willm Shaksp ، Willjam Shakspeare — Willm Shakspere — Wm Shakspe - William Shakespe وهو الهجاء السائد الآن ، وليس له مايؤيده في مخطوطاته ، والتوقيعات الثلاثه الأخيرة تنبع من نفس الفكرة .

وكانت أمه مارى آردن ، من أسرة قديمة في ووروكشير . وقد قدمت إلى جون شكسبير ، ابن مستأجر أرض والدها ، صداقا ضخما نقداً وأرضاً ، وأنجبت له ثمانية أطفال كان ثالثهم وليم . وأصبح جون من رجال الأعمال الأثرياء الناجحين في ستراتفورد على نهر الآفون ؛ واشترى دارين ، وخدم بلده ذائقاً للجعة . ومسئولا عن الأمن ، وعضوا في مجلس المدينة ؛ ومساعدا للمأمور التنفيذ ، وأحسن إلى الفقراء

بسخاء . وبعد ١٥٧٢ انحطت موارده. وأقيمت عليه دعوى من أجل ثلاثين جنيهاً ، وأخفق في دفع التهمة عنه ، وصدر أمر بالقبض عليه . وفي ١٥٨٠ ، ولأسباب مجهولة ، مثل أمام المحكمة ليقدم ضمانا بعدم الإخلال بالأمن . وفي ١٥٩٢ سجل اسمه ضمن الذين « لايحضرون إلى الكنيسة شهريا طبقاً لما نصت عليه قوانين صاحبة الجلالة » . واستنتج بعضهم من هذا أنه كان كاثوليكيا « عاصيا » ، وآخرون أنه كان بيوريتانيا ، كما استنتج غيرهم أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة دائنيه. واستعاد وليم فيما بعد مالية أبيه ، ولما قضى الوالد نحبه (١٦٠١) بقي في شارع هنلي منزلان باسم شكسبير .

وسجلت كنيسة الأبرشيه في ستراتفورد تعميد وليم في ٢٦ أبريل ١٥٦٤. ودون نيقولا رو — وهو أول من كتب سيرة حياته — في ١٧٠٩ ، أسطورة ستراتفورد التي يصدقها الجميع الآن ، وهي أن الوالد ربى ابنه . . . لبعض الوقت في مدرسة مجانية . . . ولكن سوء ظروفه وحاجته إلى مساعدة ابنه له في موطنه . . . أجبرتاه على سحب ابنه من المدرسة [1] . وفي المرثية التي ظهرت في مقدمة طبعة فوليو الأولى لروايات شكسبير ، قال بن جونسون يخاطب منافسه الذي مات « لقد تعلمت قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية » . . ومن الواضح أن الكتاب المسرحيين اليونانيين ظلوا على حالهم يونانيين بالنسبة لشكسبير (لم يطلع عليهم .) ولكنه تعلم من اللاتينية مايكفي لملء رواياته الصغيرة بشذرات لاتينية وتوريات ثنائية اللغة ، ولو أنه تعلم المزيد منها فلربما كان يصبح عالماً آخر ، مجداً نشيطا ، مجهولا ، وتصبح لندن مدرسته .

وثمة أسطورة أخرى سجلها ريتشارد ديفيز حوالي ١٦٨١ وصفت وليم الصغير بأنه « كثيرا ما كان سيء الحظ في سرقة الغزلان والأرانب ، وبخاصة من سير توماس لوسي الذي كان غالبا مايجلده بالسوط ، وأحيانا يسجنه[2] » . وفي ٢٧ نوفمبر ١٥٨٢ عندما كان هذا الوغد المزعوم في سن الثامنة عشرة ، حصل هو وآن هاثاواي ، وكانت هي في نحو الخامسة والعشرين ، على إذن بالزواج . وتشير الظروف إلى أن أصدقاء آن أرغموا شكسبير على الزواج منها [3] . وفي مايو ١٥٨٣ — أي بعد زواجهما بستة أشهر ، ولدت لهما طفلة أسمياها سوزانا ، وأنجبت آن فيما بعد للشاعر

توأمين عمدا تحت اسم هامنت وجوديث فى ٢ فبراير ١٥٨٥ . ويحتمل أنه حوالى نهاية هذا العام هجر شكسبير زوجته وأولاده . وليس لدينا أية معلومات عنه فيما بين عامى ١٥٨٥ — ١٥٩٢ . حين نعثر عليه ممثلا فى لندن .

٢ — تطور الشاعر ١٥٩٢ — ١٥٩٥

أن أول إشارة لشكسبير هنا تحط من قدره . وفى ٣ سبتمبر ١٥٩٢ أصدر روبرت جرين وهو على فراش الموت تحذيراً إلى أصدقائه ، بأنه يزحزحهم عن مكانهم فى مسرح لندن " غراب ناشىء يزدان بريشنا نحن ، وأنه فى جرأة وحشية (له قلب نمر) يرتدى جلد الممثلين ؛ (وفى هذا تهجم لاذع على بيت فى مسرحية هنرى السادس) ، ويظن بذلك أنه قادر على أن يطنطن بالشعر المرسل كأحسن فرد فيكم أنتم . وبما أنه مستخدم يؤدى كل المهام ، ففى تصوره أنه أحسن ممثل فى أى بلد(٤) " . وأعد هذه القطعة للطبع باعتبارها جزءاً من كتاب جرين « مايساوى بضعة بنسات» من ذكاء جرين —أعدها هنرى شاتل ، الذى قدم فى رسالة لاحقة ، اعتذاراً إلى أحد الرجلين (ويحتمل أن يكونا مارلو وشكسبير) اللذين هاجمهما جرين .

إننى لم تكن لى صلة بأى من هذين الرجلين المعتديين ، ولا أعبأ قط بأننى لن تكون لى صلة بأحدهما . أما الآخر ، فانى آسف لأنى رأيت بنفسى أن سلوكه لم يكن أقل لطفاً ، كما لم يكن هو أقل امتيازاً فى المهنة التى يدعيها ، وفوق ذلك فان مختلف العادات تؤكد استقامة تصرفاته ، التى تنم على أمانته وكياسته فى الكتابة التى تؤيد فنه(٥) .

ويبدو أنه ليس ثمة شك فى أن هجوم جرين واعتذار شاتل كانا يشيران إلى شكسبير . وما أن جاءت سنة ١٥٩٢ حتى كان سارق الصيد فى ستراتفورد ممثلا وكاتباً مسرحياً فى العاصمة . ويروى دودال (١٦٩٣) ورو (١٧٠٩) أنه « استقبل فى المسرح كخادم فى مرتبة وضيعة جداً(٦) » ، وهذا أمر محتمل . ولكن صدره كان يجيش بأشد الطموح " يتلهف على فن هذا ومقدرة ذاك ، دون أن ينصرف تفكيره إلى شىء سوى الجلال والعظمة(٧) " وسرعان ما كان يمثل أدواراً صغيرة ، جاعلا من نفسه متعة وبهجة للنظر(٨) . ثم مثل دور " آدم الشفوق " فى رواية

" على هواك " والشبح فى هملت وربما صعد إلى مرتبة أعلى لأن اسمه تصدر قائمة الممثلين فى رواية جونسون Everyman in His Humour أو فى رواية جونسون Sejanus (١٦٠٤) هو ويوريدج بأنهما " الممثلان المأساويان الرئيسيان(٩) " . وفى أواخر ١٥٩٤ أصبح مساهماً فى فرقة تشمبرلين للممثلين . ولم يكسب ثروته من كونه كاتباً مسرحياً ، بل لكونه ممثلا ومساهماً فى فرقة مسرحية .

ومهما يكن من أمر فانه فى ١٥٩١ كان يكتب الروايات . ويبدو أنه بدأ " طبيباً للرواية " (يعالجها ويفحصها) فحرر المخطوطات ونقحها وكيفها للفرقة . وانتقل من مثل هذا العمل إلى الاشتراك فى التأليف . وإن الأجزاء الثلاثة من " هنرى السادس " (١٥٩٢) لتبدو أنها من مثل هذا الإنتاج المشترك . وبعد ذلك كتب روايات بمعدل اثنتين كل عام ، حتى بلغت جملتها ستا وثلاثين أو ثمانى وثلاثين رواية . وإن عدة من رواياته الأولى مثل Two Gentlemen of Venoma, Acomedy of Errors(١٥٩٤) ، Loves Labours Lost (١٥٩٤) — توافه هزلية مليئة بالمزاح المرهق لنا الان . وإنه لمن الدروس المفيدة أن نعلم أن شكسبير صعد سلم المجد بالعمل الشاق والجهد المضنى . ولكن الصعود كان سريعاً . وأوحت إليه رواية مارلو " إدوارد الثانى " أن يلتمس فى التاريخ الإنجليزى أفكاراً لموضوعات مسرحية كثيرة وضارعت رواية " ريتشارد الثانى " (١٥٩٥) رواية مارلو . أما رواية " ريتشارد الثالث " (١٥٩٢) فكانت بالفعل قد بزتها . ووقع إلى حد ما فى خطأ خلق شخص واحد من صفة واحدة — الملك الأحدب من الطموح الموصوم بالخيانة والقتل ، ولكنه بين الحين والحين ارتفع بالرواية عن مستوى مارلو بعمق التحليل وقوة الإحساس وومضات من العبارة المشرقة . وسرعان ما أصبحت عبارة " جواد! جواد! مملكتى مقابل جواد! " . ذائعة على كل الألسنة فى لندن .

ثم فترت العبقرية فى Titus Andronicus (١٥٩٣) . وغلب التقليد ، وعرض رقصة الموت البغيضة ، فان تيتس يقتل ابنه ، وآخرين صهره أو زوج ابنته ، على المسرح ، وتغتصب عروس وراء الكواليس فتأتى إلى خشبة المسرح ، وقد قطعت يداها ، وقطع لسانها ، والدم ينزف من فمها . ثم يقطع أحد الخونة يد

تيتس بفأس أمام جمهور الدرجة الثالثة الذين تكاد عيونهم تلتهم المشهد . وتعرض رأسا ابنى تيتس المفصولان ، وتقتل إحدى المرضعات على المسرح . وجهد النقاد الذين يجلون شكسبير ليحملوا المشتركين فى التأليف جزءاً من مسئولية هذه المذبحة ، طبقاً للنظرية الخاطئة القائلة بأن شكسبير لايكتب هراء ، ولكنه كتب بالفعل قدرا كبيرا منه .

وألف شكسبير حوالى هذه المرحلة من مراحل تطوره ، شعره القصصى وقصائد السونيت ، وربما كان الطاعون الذى تسبب فى إغلاق كل مسارح لندن بين ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، هو الذى تركه فى فراغ أليم بائس ، ورأى أنه من صواب الرأى أن يوجه شيئا من الشعر المؤمل إلى أحد رعاة الشعر. وفى (١٥٩٣) أهدى فينوس وأدونيس إلى هنرى ريوتسلى أرل سوثمبتون الثالث . وكان لودج قد اقتبسها من قصة أوفيد Metamorphoses ، واقتبسها شكسبير عن لودج . وكان الارل شابا وسيما منغمسا فى الملذات الجنسية والصيد والقنص ، وربما زادت أوكيفت لتلائم ذوقه . ويبدو كثير منها غذاء تافها عديم القيمة فى هذه السنوات العجاف ، ولكن فى غمرة هذا الإغراء الشديد هناك قطع ذات جمال حسى مثل الأبيات من (٦٧٩ — ٧٠٨) مما قل أن قرأت إنجلترا مثله من قبل . وتشجع شكسبير بما لقيت القصيدة من استحسان عام ، وهدية من سوثمبتون فأصدر فى ١٥٩٤ The Ravyshement of Lucrece حيث تم الإغراء باقتصاد أكبر فى الشعر. وكانت هذه آخر ما أصدره بمحض اختياره .

وحوالى ١٥٩٣ بدأ يكتب ولكنه حجز عن المطبعة قصائد السونيت التى كانت أول ماثبت مكانته الرفيعة بين شعراء عصره . وهى من الناحية الفنية أدق أعمال شكسبير تقريبا ، وقد نهلت كثيرا من معين بترارك من قصائد السونيت — الجمال العابر للمحبوبة وترددآتها وتقلباتها القاسية ، وتثاقل خطوات الزمن الذى يضيع سدى وغيرة الحبيب وظمؤه القاتل . وتفاخر الشاعر بأن قريضه سوف يخلد جمال الحبيبة وشهرتها إلى الأبد . بل إن هناك عبارات وألقابا ونعوتاً منتحلة من كونستابل ودانيل ، وواطسون — وغيرهم من شعراء السونيت الذين كانوا هم أنفسهم حلقات

فى سلسلة السرقات الأدبية . ولم يفلح أحد فى ترتيب قصائد السونيت فى نظام قصصى ثابت ، وكانت كلها عملا طارئا فى أيام متباعدة . ويجدر بنا ألا نأخذ بكثير من الجد حبكتها الغامضة — حب الشاعر لشاب يافع ، وميله إلى « سيدة سمراء » فى البلاط. وصدودها عنه ، وترحيبها بصديق له ، وظفر شاعر منافس بذاك الصديق ، وسهاد شكسبير اليائس وتفكيره فى التخلص من الحياة . ومن الجائز أن شكسبير ، وهو يمثل فى البلاط ، اختلس النظرات فى لهف بعيد إلى الوصيفات المحيطات بالملكة ، واللائى تضمخن بعطور ذات رائحة مثملة ، وارتدين ثيابا تبهر الأنظار ، ولكن ليس من المرجع أنه تحدث إليهن أو حاول اقتناصهن قط . ولقد أصبحت واحدة منهن ، وهى مارى فتون Fitton خليلة أرل بمبروك ، ويبدو أنها كانت شقراء ، أو أن هذا كان مجرد أصباغ زائلة ، ومهما يكن من أمر فقد كانت غير متزوجة ، فى الوقت الذى خانت فيه زوجة شكسبير « عهد الزوجية » بحب الشاعر و « محبوبه »(١٠) .

وفى ١٦٠٩ نشر توماس ثورب قصائد السونيت ، وواضح أن هذا كان بدون موافقة شكسبير ، لأن المؤلف لم يكتب فيها إهداء ، ولكن ثورب نفسه صدرها بإهداء حير الأجيال : « إلى الوحيد الذى يقدر القصائد التالية ، السيد و . ه . مع كل مابشر به شاعرنا الخالد من سعادة وخلود ، مع أطيب التمنيات للمغامر الذى يبغى الخير ، فيما يعتزم من ترحال . « ويحتمل أن التوقيع ا ت : ث . « توماس ثورب » . ولكن من هو « و . ه . » ؟ ربما كان هذان هما الحرفان الأولان من وليم هربرت أرل بمبروك الثالث الذى أغوى مارى فتون ، والذى قدر له هو وأخوه فيليب أن يتلقيا إهداء الكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه ، على أنه أعظم راع لرجال العلم والأدب من أى نبيل فى عصره أومنذ ذلك العصر » . وكان هربرت فى عامه الثالث عشر فقط حين بدأت قصائد السونيت ١٥٩٣ ، ولكن تأليفها امتد حتى ١٥٩٨ ، حين كان بمبروك قد اشتد عوده ونضج للحب ورعاية الأدب والأدباء . ويتحدث الشاعر بحرارة عن حبه « للمحبوب الفتى » . وغالباً ما استخدمت كلمة الحب بمعنى الصداقة . ولكن القصيدة رقم ٢٠ تطلق على الفتى

« سيد — سيدة هيامى وهواى » وتنتهى بتورية تصور الحب الجنسى . والقصيدة ١٢٨ (والظاهر أنها موجهة « للفتى الوسيم » الوارد ذكره فى القصيدة ١٢٦) تتحدث عن نشوة العشق والغرام . وكان بعض الشعراء فى عصر اليزابث أدباء لوطيين قادرين على تهيئة أنفسهم للحب الطروب المبهج ، لأى رجل من ذوى اليسار .

إن أهمية قصائد السونيت لا تكمن فى قصصها بل فى جمالها . فكثير (مثل القصائد التى تحمل أرقام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٧) زاخرة بسطور يتجلى فيها عمق التفكير وحرارة الأحاسيس وروعة التصوير وجزالة العبارة ، مما جعل صداها يرن لعدة قرون عبر العالم الذى يتحدث باللغة الانجليزية .

٣ — تفوق الشاعر : ١٥٩٥ — ١٦٠٨

ولكن نظم السونيت وما تطلبه من صنعة وفرضه من قيود ، قصقص أجنحة الخيال ، ولابد أن شكسبير ابتهج بما هيأ له الشعر المرسل من حرية واسعة ، حين أطلق لنفسه العنان ، وهو بعد يافع متحمس . فى إحدى قصائد الحب العظيمة الباقية على مر الزمان ، لقد جاءت قصة « روميو وجوليت إلى إنجلترا من قصص مازوتشيو وباندللو . وأعاد آرثر بروك صياغتها (١٥٦٢) فى شعر قصصى . ونقلا عن بروك ، وربما عن رواية أخرى أسبق فى نفس الموضوع ، أخرج شكسبير للمسرح روايته « روميو وجوليت » حوالى ١٥٩٥ . وأسلوبها محشو بأخيلة وأوهام ربما علقت بقلمه من نظم قصائد السونيت ، فجاءت المجازات جافة شاذة ، ورسمت شخصية روميو بشكل ضعيف إلى جانب مركوشيو المنفعل المهتاج . وحل العقدة عبارة عن سلسلة متصلة من السخافات . ولكن من ذا الذى يذكر الشباب ، أو يرسب فى أعماقه حلم ، يستطيع أن يستمع إلى هذه الموسيقى العاطفية الرومانسية الحلوة ، دون أن ينبذ كل معايير الثقة والتصديق ، وينهض لاهثا أو حابسا أنفاسه نحو الشاعر وهو يشق طريقه إلى هذا العالم بما فيه من غيرة جامحة وقلق مرتجف ، وفناء حزين ؟

والآن يسير شكسبير من نصر إلى نصر فى عالم المسرح ، فى كل عام تقريبا : ففى ٧ يونية ١٥٩٤ أعدم ردريجو لوبيز ، طبيب الملكة اليهودى ، بتهمة قبول رشوة ليدس السم للملكة . ولم يكن الدليل قاطعا ، وترددت اليزابث طويلا فى التصديق على حكم الاعدام ، ولكن العامة فى لندن أخذوا جريمته قضية مسلما بها. واستعرت روح العداء للسامية فى الحانات[١١] . ويمكن أن يكون شكسبير قد تأثر إلى حد أن يضرب على هذا الوتر الحساس ، أو أنه كلف بذلك ، فكتب « تاجر البندقية » (١٥٩٦ ؟) ، وشارك إلى حد ما مستمعيه فى مشاعرهم ، فأجاز أن يمثل شيلوك فى شخصية هزلية فى ثياب رثة مع أنف عريض مصطنع ، ونافس مارلو فى إبراز كراهية مقرض النقود وجشعه . ولكنه أضفى على شيلوك بعض الصفات المحببة التى لا بد أنها جعلت الحمقى يحزنون ، ثم أنه أورد على لسانه عرضا للقضية من أجل اليهود ، بلغ من الوضوح والجرأة حدا جعل كبار النقاد لايزالون يجادلون فيما إذا كان شيلوك قد صور مفترى عليه أكثر منه آثما مذنبا[١٢] ؟ وهنا ، فوق كل شىء ، أظهر شكسبير براعته فى أن يؤلف صورة متناسقة الأجزاء من خيوط مختلفة من قصص جاءت من الشرق ومن إيطاليا ، كما جعل جسيكا المرتدة متلقية مثلى هذا الشعر العاطفى الرومانتيكى ، كما لا يمكن أن تتصوره إلا روح ذات حساسية عالية .

وانصرف شكسبير طيلة أعوام خمسة إلى الملهاة بصفة أساسية . وربما أدرك أن الجنس البشرى المنهوك يختص بأسخى جوائزه أولئك الذين يستطيعون إلهاءه بالضحك والخيال . إن رواية « حلم منتصف ليلة صيف » هراء قوى عوض عنه مندلسون . ولم تنقـذ هيلينا رواية « Allls Well That Ends Well » . أما رواية « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » فهى تتفق مع اسمها . ورواية « الليلة الثانية عشرة » محتملة فقط لأن فيولا تمثل فتى وسيما جدا . ورواية « ترويض النمرة » زاخرة بمرح صاخب بشكل لا يصدق، ومن المستحيل ترويض النساء ذوات الألسنة السليطة .

---

(١) قارن Two Gentlemen of Verona : ـ ٢ ـ ٣ ـ ٦٠ ، و Merry Widows of Windsor ١ ـ ٢ .

هذه الروايات كلها كانت إنتاجاً لمجرد كسب المال ، وإرضاء جمهور الدرجة الثالثة، ووسائل لإبقاء القطيع داخل الحظيرة ، وإبقاء الذئب بعيداً عن الباب .

ولكن بجزئى " هنرى الرابع " (١٥٩٧/١٥٩٨) صعد الساحر العظيم ثانية إلى القمة ، وجمع بين المهرجين والأمراء — فولستاف وبستول . هتسبير والأمير هال — فى نجاح كان يمكن أن يجعل سدنى يتردد . واستساغت لندن استخدام تاريخ الملوك على هذا النحو ، مزخرفاً بالأوغاد ، والمومسات . وتابع شكسبير العمل فأخرج " هنرى الخامس " (١٥٩٩) ، يهز بها مشاعر المشاهدين ويسليهم فى وقت معاً ، ثرثرة فولستاف الذى يعانى سكرات الموت : " أيتها المروج الخضر " ، ويثيرهم بجعجعة أجنكورت ، ويبهجهم بمغازلة الملك الذى لا يقهر للأميرة كيت Kate بلغتين . وإذا اعتقدنا فى صحة كلام رو ، فإن الملكة لم تكن ترتضى الراحة لفولستاف وأمرت منشئه (مؤلف الرواية) أن يحييه ويعرضه فى مشهد عشق وغرام[١٣] . ويضيف جون دنيس (١٨٠٢) وهو يروى نفس القصة ، أن اليزابث رغبت فى أن تتم المعجزة فى مدى أسبوعين . وإذا كان كل هذا صحيحاً ، فإن رواية " الزوجات المرحات فى وندسور " كانت عملا مدهشاً من أعمال البراعة والقوة ، لأنها برغم كونها صاخبة لأنها حافلة بالخشونة والعنف متخمة بالتوريات . ففيها فولستاف فى ذروة نشاطه وحيويته ، حتى ألقى به إلى النهر فى سلة غسيل . وقيل لنا إن الملكة كانت مسرورة .

وأنه لشيء مروع أن نجد كاتباً مسرحياً ينتج فى موسم واحد (١٥٩٩ — ١٦٠٠ ؟) مثل هذا الهراء التافه ، ثم ينتج بعده هذه المقطوعة القصصية الرومانتيكية البالغة الرقة " على هواك " وربما كان سبب هذا هو أنها استرشدت بمقطوعة لودج " روزاليند" (١٥٩٠) ، وموسيقى الرواية صافية نقية — لا تزال معوقة بالمزاح والهزل الجاف غير الممتع ، ولكنها ناعمة رقيقة من حيث الإحساس ، مرحة رشيقة من حيث الكلام . فأية صداقة كريمة هنا بين سليا وروزاليند ، وهذا أورلندو يحفر اسم روزاليند فى لحاء الشجر ، معلقاً القصائد الغنائية على أشجار الزعرور البرى ، والمراثى على الأشجار كثيرة الشوك ، وأى رصيد سديد من الفصاحة ينثر عبارات خالدة

على كل صحيفة — وأية أغان رجبت بها ملايين الشفاه : " تحت الشجرة الخضراء هب ، هب يا نسيم الشتاء ، " " فهناك كان عشيق وفتاته " . إن التدفق أو الإنتاج بأسره كان حماقة وعاطفة لذيذتين محببتين ، لا يمكن مباراته فى أى أدب .

ولكن وسط هذه الوفرة من الحلوى يضع مسيو ميلانكولى جاك شيئاً من الفاكهة المرة . معلنا أن " مسرح الحياة الواسع العالمى يعرض مهرجانات وأبهة فارغة أفجع أو أشد حزناً مما يقدم المشهد الذى نمثله " على خشبة المسرح ، وليس ثمة شىء محقق يقينى إلا الموت ، ولكنه عادة يأتى بعد مرحلة من الشيخوخة لا طعم لها ، يفقد المرء فيها أسنانه وبصره :

وهكذا من ساعة إلى ساعة ننمو وننضج ، وبعد ذلك ، من ساعة إلى ساعة نذبل ونذوى ، حتى نصبح حديثاً بعدنا(١٤) .

وهكذا أنذرنا شاعر آفون أن رواية " على هواك " كانت آخر روائع المرح والبهجة ، ومن بعدها ، حتى إشعار آخر ، عرض أن يسبر غور الحياة ليظهرنا على حقيقتها الدامية ، وهو الان يريد أن يفيض علينا من معين " الرويات المأسوية " ، ويجمع بين المرارة وطيب المذاق .

فى ١٥٧٩ عرض كتـاب توماس نورث عن بلوتارك ذخيرة نفيسة من المسرحيات ، أخذمنها شكسبير ثلاثاً من " سير الحياة " وصاغها فى مسرحية " يوليوس قيصر " (١٥٩٩ ؟) . ووجد أن ترجمة نورث مفعمة بالحيوية إلى حد أنه أخذ منها عدة قطع بأكملها كلمة كلمة بالنص ، وكل ماعمله هو أنه حول النثر إلى شعر مرسل ، ومهما يكن من أمر فإن خطبة أنتونى أمام جثمان قيصر كانت من ابتداع الشـاعر نفسه ، جاءت تحفة رائعة فى فن الخطابة والرقة والدقة ، ثم الدفاع الوحيد الذى أجازه لقيصر . وربما أثر فيه إعجابه بدوق سوثمبتون وإرل بمبروك ، وارل إسكس الشاب ، فرأى القتل من وجهة نظر النبلاء الأرستقراطيين المتآمرين المهددين بالخطر . ومن ثم يصبح بروتس محور الرواية . ولكنا ، نحن الذى حصلنا على تفاصيل مومسن عن الفساد ذى الرائحة الكريهة فى " الديمقراطية " التى أطاح بها قيصر ، أشد ميلا إلى التعاطف مع قيصر . كما فوجئنا بموت بطل الرواية فى مستهل الفصل الثالث .

وإن الماضى ليقف عاجزا بين يدى الحاضر الذى كثيرا مايعيد تشكيله ليصبح من نزوات الساعة .

وفى كتابة هملت استعان شكسبير برواية سابقة فى نفس الموضوع وتحداها . وكانت هملت قد أخرجت فى لندن قبله بست سنوات فقط . ولسنا ندرى كم أخذ من هذه « المأســـاة » المفقـــودة ، أو من كتاب بلفورست « التواريخ الفاجعة » (١٥٧٦) ، أو من « تاريخ الدنمرك » (١٥١٤) للمؤرخ الدنمركى ساكسو جراماتيكوس ، كما أننا لا نستطيع القول بأن شكسبير قرأ « أمراض الاكتئاب والحزن » ، وهى ترجمة إنجليزية حديثة لكتاب طبى فرنسى ألفه دى لورنس . وإنا ، ونحن نشك فى غير انفعال أو تذمر ، فى كل محاولة لتحويل الروايات إلى سيرة حياة ذاتية ، ليباح لنا أن نتساءل عما إذا كان شيء من الحزن الشخصى — بالاضافة إلى تأديب الليل والنهار — قد انضم إلى التشاؤم الذى شاع فى هملت ، واشتدت مرارته فيما أعقبها من روايات . وكان يمكن أن يكون هذا تحررا جديدا من وهم الحب ، وهل كان القبض للمرة الأولى على اسكس (٥ يونية ١٦٠٠) ، أو إخفاق ثورة اسكس ، أو اعتقال اسكس وسوثمبتون ، أو إعدام اسكس (٢٥ فبراير ١٦٠١) ؟ ويفترض أن هذه الأحداث كلها هزت مشاعر شاعرنا المرهف الحس ، الذى كان قد امتدح ، فى حرارة بالغة ، اسكس فى مقدمة الفصل الأخير من « هنرى الخامس » ، كما كان فى إهداء « لوكريس » إلى سوثمبتون ، قد عاهده على الولاء له إلى الأبد . ومهما يكن من أمر ، فان أعظم روايات شكسبير كتبت أثناء هذه النكبات أو فيما بعدها . فهى أدق فى حبكة الرواية ، وأعمق فى التفكير ، وأروع فى اللغة من سابقاتها ، ولكنها تعبر كذلك عن أمر اللوم والعتاب للحياة فى الأدب بأسره . إن إرادة هملت المذبذبة ، بل « عقله الملكى الممتاز » على ألاغلب قد أصابهما بالاعتدال والاضطراب اكتشاف الحقيقة واقتراب الشر . وتشبعه بفكرة الانتقام ، حتى تملكته هو نفسه قساوة لا ترحم ولا تهدأ ، فأرسل أوفليا ، لا إلى دير للراهبات ، بل إلى الجنون والموت . وفى النهاية تجيء مذبحة عامة . لم يفلت منها إلا هوراشيو ، وقد قارب أن يصاب بلوثة .

وفى الوقت نفسه وجدت اليزابث ، هى الأخرى ، البلسم الأخير . وأصبح جيمس السادس ملك اسكتلنده ، ملكا على إنجلترا تحت اسم جيمس الأول . وما أن جلس على العرش حتى ثبت وتوسع فى إمتيازات فرقة شكسبير التى أصبحت « رجل الملك » . ومثلت روايات شكسبير أمام الملك بانتظام ولقيت تشجيعاً ملكيا كبيرا . وصعدت المواسم الثلاثة بين ١٦٠٤ — ١٦٠٧ بالشاعر إلى ذروة عبقريته وأقصى مرارته ، فرواية « عطيل » (١٦٠٤ ؟) قوية بقدر ماهى بعيدة عن التصديق . فقد أثار إخلاص ديدمونا وموتها شفقة المشاهدين ، كما افتتنوا بخبث ياجو الدال على ذكائه ؛ ولكن فى تصوير مثل هذا الشر المحض الذى لا باعث عليه فى الانسان ؛ وقع شكسبير فى خطأ مارلو ؛ ألا وهو الشخصيات القائمة على وحدة كاملة . وحتى عطيل نفسه ، على الرغم من أنه جمع بين البراعة العسكرية والغباء ؛ كان ينقصه هذا المزيج الفى من العناصر التى تضفى الروح الإنسانية على هملت ولير وبروتس وأنطونى .

ولا تزال « ماكبث » (١٦٠٥ ؟) تأملا أشد رهبة فى الشر الذى لا تخف حدته . وكان شكسبير يستشهد بهولنشد فى الحقائق المطلقة ، ولكنه زاد فى عتامة القصة وكآبتها بتحرره من الوهم بشكل انفعالى غاضب وانحطت هذه الحالة النفسية إلى الحضيض ، كما بلغ الفن ذروته فى رواية « الملك لير » (١٦٠٦ ؟) وكان جوفرى أوف مموث قد طور القصة ؛ ثم نقلها هولنشد ، وأخرجها للمسرح مؤخراً كاتب مسرحى مجهول الآن تحت عنوان « التاريخ الصحيح للملك لير » (١٦٠٥) وكانت حبكات الرواية ملكا مشاعا . ونهجت المسرحية القديمة نهج هولنشد فى أنها هيأت للملك لير خاتمة سعيدة ، عن طريق احتمائه بابنتها كورديليا واستعادة العرش ، وواضح أن شكسبير آثم فى جنون الملك وموته بخلعه من العرش كما أنه أضاف الإعماء الدامى الفظيع الذى أصاب جلوستر على المسرح . إن المرارة هى النغمة الأساسية السائدة فى الرواية ، وإن لير ليأمر الفسوق أن ينتشر والزنى أن يزداد « لأنى يعوزنى الجنود (١٥) » وكل الفضيلة ، فى نظرته القاتمة ، ما هى إلا واجهة للفسق والفجور ، وكل الحكومة رشوة ، وكل التاريخ عبارة عن الإنسانية تفترس نفسها أو بنى البشر

يأكل بعضهم بعضا . وهو يصاب بالجنون وهو يرى عمق الشر وانتصاره الواضح .
وهو يضع كل إيمانه وثقته « بالعناية الإلهية » التي تشد من أزره وتأخذ بيده .

وتصل رواية « أنطونى وكليوبطره » إلى آفاق وأعماق أقل . وثمة شيء أنبل فى هزيمة أنطونى منه فى سورة غضب لير ، شيء أكثر تصديقاً واحتمالا فى افتتان الرومان بالملكة المصرية منه فى قساوة البريتون البغيضة مع ابنة صريحة صراحة حمقاء ؛ وفى جبن كليوبطره فى الحرب ، وروعتها فى الانتحار . وهنا كانت لدى شكسبير روايات سابقة يعمل على أساس منها ، فتناولها أيضا بالتحسين ، وجدد فى القصة التى طال ترديدها ، وزادها إشراقا وتألقا ، بتحليل أدق للخلق ، وبسحر بيانها المتلألىء الذى لا يعرف الكلل . أما التشاؤم فى رواية « تيمون الأثينى » (١٦٠٨؟) فهو تشاؤم تهكمى ، لم يتخلص منه . ويصوب لير سهامه إلى النساء ، ولكنه يحس ببعض الرثاء المتأخر للبشر ، ويحتقر بطل «كوريولانس» الناس على أنهم النتاج المتقلب الذليل الأبله للإهمال والطيش ، ولكن تيمون يذم الجميع رفيعهم ووضيعهم ، ويصب اللعنة على المدنية نفسها على أنها أفسدت أخلاق البشر . وكان بلوتارك فى سيرة أنطونى قد ذكر تيمون على أنه مبغض للبشر مشهور ، وكان لوشيان قد أورده فى حوار ، كما كانت رواية إنجليزية قد ألفت عنه قبل أن يأخذ شكسبير الفكرة مع مساعد مجهول بثمانى سنوات . وكان تيمون ثريا (مليونير) أثينيا يحيط به أصدقاء متملقون متفتحون يسارعون إلى تقبل أفكاره ، وعندما يفقد ماله ، ويرى أصدقاءه يختفون بين عشية وضحاها ، ينفض غبار المدنية عن قدميه ويأوى — جادا صارما — إلى العزلة فى غابة ، حيث يأمل أن « يجد أشد الحيوانات وحشية أكثر رفقا وشفقة من بنى الإنسان [16] » وهو يتمنى لو « أن السبيادسن » كان كلبا « حتى أكن لك شيئاً من الحب [17] » ويعيش على جذور الشجر ، وينقب فيجد ذهبا ، وهنا يظهر الأصدقاء من جديد فيطردهم ويحتقرهم ويهجوهم ألذع هجاء . ولكن عندما تأتى العاهرات وبنات الهوى ينفحهن بالذهب ، شريطة أن ينقلن الأمراض التناسلية إلى أكبر عدد ممكن من الرجال :

انشرن الأمراض والعلل .

لتنخر فى عظام الرجال الجوفاء ، واضربن على طنابيبهم

وأفسدن عليهم زيجاتهم ، وأخرسن
صوت المحامى
حتى لا يعود يترافع عن اللقب الزائف
وتدوى مرافعاته عالية رنانة ، وجللن بالمشيب
ذاك الكاهن
الذى يسلق الناس بألسنة حداد من أجل طبيعتهم الشهوانية
وهو لا يصدق نفسه ، حطمن الأنف
حطمنها ، وأكسرن قصبتها تماما ،
ولتدعن دعاة الحرب المتبجحين الذين ليس فيهم أثر لجراح
ينقلوا عنكن الأمراض الموجعة . اصببن العذاب على الجميع
حتى يقهر ويقمع نشاطكن
مصدر كل بناء وتعمير — ثمة مزيد من الذهب .
هل تردن إدانة آخرين ، فلتنصب اللعنة عليكن (١٨)

وفى سورة الكراهية يأمر تيمون الطبيعة أن تكف عن النسل ، ويأمل أن تتكاثر الوحوش الضارية لتستأصل الجنس البشرى ، إن هذا الاسراف فى بغض البشر يجعله يبدو غير حقيقى ، ولا يمكن أن نصدق أن شكسبير قد أحس بهذا التشامخ السخيف على الخطائين ، وبأنه غير مؤهل بمثل هذا الجبن لمتاع الحياة الدنيا . إن مثل هذه المبالغة فى تقدير توافه الأمور لتوحى بأن الداء قد عالج نفسه بنفسه ، وأن شكسبير لابد ستعود إليه الابتسامة سريعاً .

٤ — براعة شكسبير الفنية

كيف تسنى لأمرئ لم يتلق من العلم إلا أقله أن يخرج على الناس بروايات تعددت وتنوعت فيها ألوان المعرفة المكتسبة بالاطلاع والدرس ؟ ولكنها لم تكن إحقا معرفة على هذا النحو . ولم تكن شاملة أو واسعة فى أى من حقولها اللهم إلا فى لم النفس ؛ ولم يكن شكسبير يعرف من الكتاب المقدس إلا ما أتاحت له دراسته فى صباه أن يطالعه ، وكانت مراجعاته واشاراته إلى الكتاب المقدس عادية . وجاء علمه بالآداب القديمة اليونانية واللاتينية

مصادفة عن غير قصد ، ودون اتقان أو تعمق[*] ، وواضح أنه كان مقصورا على المترجمات . وعرف معظم المعبودات الوثنية ، حتى أقلها شأنا وأكثرها خلاعة ، وربما استقى هذه المعرفة من الترجمة الانجليزية لكتاب أوفيد Metamorphoses ووقع فى أخطاء صغيرة ، ما كان بيكون مثلا ليقع فيها ، من ذلك أنه قال عن تيسيوس بأنه « دوق » وجعل هكتور من القرن الحادى عشر قبل الميلاد يشير إلى أرسطو فى القرن الثالث ق . م .[19] وأجاز لأحد أشخاص رواية كوريولانوس[20] (القرن القرن الخامس ق . م . أن يقتبس من كاتو (من القرن الأول) .

وكان على المام يسير بالفرنسية ، وأقل منه بالإيطالية ، وله بعض المام بالجغرافية ، فزود رواياته ببعض أماكن ومواقع دخيلة من اسكتلنده إلى إفسس ، ولكنه خلع على بوهيميا شاطئا على البحر[*] . وأرسل الناس من فيرونا إلى ميلان بحرا[23] . وبروسبيرو من ميلان فى قارب عابر المحيط[24] . وأخذ معظم ما عرف من التاريخ الرومانى عن بلوتارك ، ومعظم ما عرف من التاريخ الانجليزى عن هولنشد وعن روايات قديمة ، ولم يقدر للزلات التاريخية أية أهمية للكاتب المسرحى ، فوضع ساعة الحائط فى رومه على عهد قيصر ، والبليارد فى مصر على عهد كليوبطره . وكتب « الملك جون » دون ذكر للعهد الأعظم (ماجنا كارتا) ، و « هنرى الثامن » دون التعرض للاصلاح الدينى ، ومن ثم نرى من جديد أن الماضى يتغير مع كل حاضر . ومن ناحية الايجاز والعرض العام نجد أن مسرحياته التاريخية الانجليزية صحيحة من وجهة نظرنا السائدة ، أما من حيث التفصيل فهى غير جديرة بالثقة ، وهى تصطبغ ، من وجهة نظرنا ، بصبغة الوطنية — فان جان دارك فى رأى شكسبير ساحرة داعرة . وعلى الرغم من هذا كله ، اعترف بعض الانجليز مثل القائد مارلبورو بأنه استقى معظم معلوماته عن التاريخ الانجليزى من روايات شكسبير .

واستخدم شكسبير — مثل غيره من كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، كثيرا

(*) انقض بن جونسون على هذا فى أحاديثه مع دروموند فى هوثورندل(٢١) ، ونقله شكسبير عن قصة لروبرت جرين ؛ وهو متخرج فى الجامعة ؛ فتحت حكم أوتوكار الثانى (١٢٥٣ — ٧٨) مدت بوهيميا سلطانها إلى شواطىء الأدرياتيك(٢٢) .

من المصطلحات القانونية استخداما غير صحيح أحيانا : وربما كان قد التقطها من دور القضاء — مدارس الحقوق التى أخرجت فيها ثلاث من رواياته — أو من القضايا التى انشغل بها هو ووالده . وكانت لديه ذخيرة كبيرة من المصطلحات الموسيقية ، وواضح جدا أنه كان يتمتع بحس موسيقى مرهف — « أليس غريبا أن أحشاء الغنم تذهب بالأرواح لتحلق بعيدا عن أجسامها[٢٥] » ؟ وإنه ليذكر فى رقة وحنان أزهار انجلترا ، وينظمها فى عقد فى رواية « قصة الشتاء » ، ويكسو بها أوفيليا عندما انتابتها الحمى وأخذت تهذى . وهو يلمح إلى مائة وثمانين نوعا مختلفا من النبات ، وكان ملما بالألعاب الميدانية وبسباق الخيل ، ولكنه لم يهتم إلا قليلا بالعلوم ، التى سرعان ما افتتن بها بيكون . وكما فعل بيكون ، حفظ شكسبير فلك بطلميوس[٢٦] . وبدا فى بعض الأحيان (سونيت ١٥) أنه يؤمن بالتنجيم ، فتحدث عن روميو وجوليت بأنهما « عاشقان منحوسان[٢٧] » ؛ ولكن ادموند فى « الملك لير » وكاسياس فى « يوليوس قيصر » يرفضان التنجيم بشدة . « إن الخطأ ، ياعزيزى بروتس ، ليس فى نجومنا (فى طالعنا) بل فى أنفسنا ، ذلك أننا أتباع أذلاء[٢٨] » .

وجملة القول ، إن كل الدلائل تشير إلى أن شكسبير حصل على المعرفة العارضة التى يتسنى الحصول عليها لرجل الأعمال المشغول أعظم الشغل بالتمثيل والادارة ، الذى عاش لينكب على الكتب . وعرف أفظع آراء مكيافللى ، وأشار إلى رابيليه ، واقتبس من مونتانى. ولكن ليس من المرجح أنه قرأ مؤلفتهم . ووصف جونزالو للدولة الديمقراطية[٢٩] مأخوذ من بحث مونتانى « أكلة لحوم البشر » . وربما أراد شكسبير بشخصيته كاليبان (العبد الرقيق الذى كان يمتلكه برسبيرو فى رواية العاصفة) — أراد أن يهجو مونتانى لأنه أضفى الصفات المثالية على هنود أمريكا . أما التشكك عند هملت ، وهل ينسب شيء منه إلى شكوك مونتانى اللطيفة ، فهو مسألة لم تحل بعد . فقد نشرت المسرحية فى ١٦٠٢ ، أى قبل طبع ترجمة فلوريو بعام واحد ، ولكن شكسبير عرف فلوريو ، وربما اطلع على المخطوطة وربما ساعد نقد مونتانى الدقيق على تعميق فكر شكسبير ، ولكن ليس فى كتاب الرجل الفرنسى

ما يماثل مفاجأة هملت ، أو الذم الشديد للحياة فى الملك لير ، كريولانوس ، تيمون ، ماكبث ، . إن شكسبير هو شكسبير يسرق الموضوعات والقطع والعبارات والأبيات ، من كل مكان ، ومع ذلك فهو أعظم الكتاب فى كل الأزمان أصالة وامتيازا وخلقا وإبداعا .

وتكمن الأصالة فى اللغة والأسلوب والخيال والفن المسرحى والدعابة وأشخاص الرواية والفلسفة . فلغته أغنى اللغات فى كل الأدب : فهناك خمسة عشر ألف لفظ ، بما فيها المصطلحات الفنية وشعارات النبلاء ورموزهم ، والموسيقى والألعاب والمهن ، ولهجات المقاطعات : ولهجات رواد الأرصفة فى الشوارع، بالإضافة إلى ألف من الابتكارات المتعجلة أو البطيئة — Occulted, unkenneled, Fumitory, Burner, Spurring . . . لقد استساغ ألفاظا ، ونقب فى مختلف أركان اللغة وجوانبها ، وأحب الألفاظ عامة ، فانسابت منه فى حيوية دافقة ، مرحة ، فاذا ذكر اسم زهرة ، فانه لابد يتابع حتى يسمى اثنى عشرة زهرة ، وإن الألفاظ نفسها ليفوح منها عبير الزهر . وأجرى على ألسنة الأشخاص فى رواياته كلمات متعددة المقاطع يتشدقون بها ويدورون بها حول المعنى . وكان يخرب فى النحو والصرف تخريبا لطيفا ، فيحول الأسماء والصفات ، بل حتى الظروف إلى أفعال ، ويقلب الأفعال إلى صفات ، كذلك الضمائر إلى أسماء ، ويضع فعل الجمع للفاعل المفرد ، أو الفعل المفرد للفاعل الجمع ، ولكن لم يكن هناك حتى ذاك الوقت استخدام للنحو ولا الصرف فى الانجليزية ولا قواعد لها . ولقد كتب شكسبير على عجل ، ولم يتيسر له وقت فراغ للندم .

وللأسلوب الرائع « الأنيق المتميز الباروكى(٣٠) » (يتسم بالزخرفة والتعقيد والصور الغريبة) نقول إن لهذا الأسلوب أخطاء ثروته غير الخاضعة لقانون: فى عبارات متكلفة أو ملتوية بشكل غريب ، وصور بعيدة الغور ، وتلاعب باللفظ معقد بشكل مرهق ، وتورية وسط المأساة ، ومجازات واستعارات يهبط بعضها فوق بعض فى فوضى وتناقض ، وتكرارات لا حصر لها ، وتفاهات مبتذلة حافلة بالحكم ، وهنا وهناك كلام منمق مملوء بالمرح الصاخب والهراء تتشدق به أبغض الأفواه غير

المرغوب فيها . ولاشك أن التعليم الكلاسيكى ربما هذب وبسط الأسلوب ، وقضى على التورية والغموض ، لكن تدبر ، ماذا عسانا كنا نفقد حينئذ ؟ ولعله كان يفكر فى نفسه حين أورد وصف أوريانو باعتباره رجلا على لسان فرديناند :

إن لديه فى مخه داراً لسك العبارات ،
وإن عباراته لتسلب الألباب
وكأنها الإيقاع الساحر .
ولكنى أحتج ، أحب أن أسمعه يكذب(٣١)

ومن هذه الدار صدرت عملة من العبارات تكاد تكون عالمية : شتاء استيائنا(٣٢)، تضييع وقت السلم سدى(٣٣) ، أريد أباً للفكر(٣٤) ، قل الحق وأخجل الشيطان(٣٥) ، يسكن الريح فى هذا الركن(٣٦) ؟ لا يستقر قرار للرأس الذى يحمل التاج(٣٧) . يطلى الزنبق(٣٨) ، لمسة واحدة من الطبيعة تجعل العالم كله أسرة واحدة(٣٩) ، أى حمقى هؤلاء البشر المعرضون للفناء(٤٠) . إن الشيطان ليستطيع أن يقتبس من الأسفار المقدسة ما يخدم غرضه(٤١) ، جنون منتصف الصيف(٤٢) طريق الحب الصادق ممتلىء بالأشواك(٤٣) ، ألبس قلبي على كمى (أحمل رأسى فوق كفى)(٤٤) ، فى كل بوصة ملك(٤٥) ، قدر الطاقة(٤٦) ، الإيجاز روح الفطنة(٤٧) ، . . وربما كان هذا تلميحاً لنا للاكتفاء بهذا القدر . هذا إلى جانب ألف مجاز واستعارة قد نفيد منها « قد نرى الأشرعة تحمل وينتفخ بطنها بالريح الفاجرة(٤٨) » . كما أن هناك قطعاً بأكملها تكاد تكون مألوفة بنفس القدر ، مثل العبارات : آنية أزهار أوفيليا المضطربة ، أنطونى أمام جثة قيصر ، كليوباترا تحتضر ، لورنزو على موسيقى الكون ، كما أن هناك ذخيرة من الأغانى : « من هى سيلفيا(٤٩) » ؟ ، « هارك ! القبرة تغرد على باب السماء(٥٠) » ، أبعدوا ، أبعدوا هذه الشفاه عنى(٥١) » ، وربما حضر جمهور نظارة شكسبير من أجل هذه الزخارف ، ومن أجل القصص معاً .

" إن الخيال ليتمثل المجنون والعاشق والشاعر منضمين فى صورة واحدة(٥٢) » ، واجتمع فى شكسبير اثنان من هؤلاء ، وربما مس الثالث مساً . إنه ليخلق فى كل رواية عالما ، ولا يقنع بهذا ، فيملأ الامبرطورايات والغابات والمروج المتخيلة بسحر

صبيانى ، وجن سريع العدو ، وسحرة مرعبين وأشباح . وإن خياله ليجعل أسلوبه الذى يفكر با صور ، يحول كل الأفكار إلى صور ، وكل التجريدات إلى أشياء محسوسة أو مرئية : فمن غير شكسبير (وبترارك) كان يمكنه أن يجعل روميو ، وقد نفى من فيرونا ، يتميز غيظاً وحقداً ، لأن قططها وكلابها قد تحدق النظر إلى جولييت ، على حين لا يباح له هذا ؟ ومن غير شكسبير (اللهم إلا بليك) كان يستطيع أن يجعل الدوق المطرود فى رواية " على هواك " ، يأسف لأنه لابد أن يعيش على صيد حيوانات هى فى الغالب أجمل من الإنسان ؟ لا عجب أن روحاً قوية بكل معانى الكلمة ، لابد أن تكون قد انفعلت انفعالا شديداً بالقبح والكآبة والجشع والقسوة والشهوة والألم والحزن ، مما بدا فى بعض الأحيان أنه يشيع فى النظرة الشاملة إلى العالم .

ولم يؤت شكسبير من الأصالة فى الفن المسرحى إلا أقلها ، لقد عرف ، بوصفه رجل المسرح ، أفانين مهنته . فبدأ رواياته بمشاهد أو ألفاظ تشد انتباه جمهور المشاهدين الذين يقضمون البندق ويلعبون الورق ويحتسون الجعة ويتبادلون النظرات الغرامية مع النساء . وأفاد أكبر فائدة من " أدوات " المسرح فى عهد اليزابث وآلاته . ودرس رفاقه فى التمثيل وخلق الأدوار الملائمة لخصائصهم الجسمية والذهنية . واستخدم كل حيل التنكر والتعرف ، وكل تغييرات المناظر ، وكل تعقيدات رواية داخل رواية . ولكنه ، مع مهارته الفنية ، لم يتفاد آثار العجلة والتسرع . فإن الحبكة داخل الحبكة قد تشطر القصة إلى اثنتين أحيانا ، فماذا كان شأن كارثة جلوستر بكارثة لير ؟ فكل القصص تقريباً تنقلب إلى مصادفات بعيدة الاحتمال ، وهويات خفية ، ورؤى ملائمة إلى حد بعيد ، وقد يطلب منا بحق أن نؤمن بالمسرحية كما نؤمن بالأوبرا ، من أجل القصة أو الأغنية ، ولكن يجدر بالفنان أن يحصر فى أقل الحدود " البناء القائم على غير أساس " لحلمه ، أو اختلاقه دون مبرر . وأقل من هذا أهمية تناقضات الزمن والخلق(٥٣) ، ويحتمل أن شكسبير الذى فكر فى سرعة الإنتاج . لا فى النشر الدقيق ، قدر أن هذه العيوب والأخطاء قد تمر دون أن يلحظها أحد من الجمهور المتأثر ، وإن المعايير القديمة والذوق الحديث لتنكر العنف الذى يصطبغ

به مسرح شكسبير ، وهذا امتياز آخر منح لشاغلى المقاعد الرخيصة ، ومحاولة لمواجهة مدرسة " القتل والذبح " عند المسرحيين فى عهد اليزابث وجيمس الأول .

ولما أخذ شكسبير بأسباب النمو والتطور ، عوض عن العنف بالدعابة والمرح ، وتعلم الفن الشاق ، فن تكثيف المأساة بالترويح الفكاهى . وكانت الروايات الهزلية (الملهيات) القديمة ذكاء وبراعة ودعابة غير مجسمة ، والروايات التاريخية القديمة ثقيلة مملة حيث كان يعوزها المرح والدعابة ، وفى مسرحية هنرى الرابع تعاقبت المأساة والملهاة على التوالى ، ولكنهما لم تتكاملا تكاملا تاما . ولكن التكامل تحقق فى هملت ، وتبدو الدعابة فى بعض الأحيان بذيئة أكثر مما ينبغى ، ولا بد أن سوفوكليس وراسين كانا يشمئزان من النكات التى تدور حول غازات بطن الانسان(٥٤) أو تبول الخيل(٥٥) . وإن نكتة جنسية لهى أكثر استساغة لدى الذوق الحديث . ودعابة شكسبير ، بصفة عامة ، بهيجة ودية ، بعكس البغض الوحشى للجنس البشرى عند سويفت ، فقد أحس شكسبير بأن العالم يكون أفضل بوجود مهرج أو اثنين ، واحتمل المهرجين فى صبر وأناة ، وشارك الرب رأيه فى أنه ليس ثمة فرق كبير بينهم وبين الفلاسفة الذين يفسرون العالم .

وإن أعظم مهرجيه لينافس هملت ، وهو أسمى وأروع ما أنجزه شكسبير ، فى خلق أشخاص الرواية — وهذا أشق اختبار يواجهه المؤلف المسرحى . إن ريتشارد الثانى وريتشارد الثالث ، وهوتسبير ، رولزى وجونت وجلوستر وبروتس وأنطونى ليبعثون من زوايا النسيان فى التاريخ إلى حياة ثانية . وليس هناك فى المسرحية اليونانية ، ولا حتى فى بلزاك ، أشخاص خياليون أسبغ عليهم مثل هذه الشخصية المتماسكة والقوة والحيوية . وكانت أصدق الشخصيات التى خلقها هى تلك التى تبدو فقط متناقضة ، بسبب تعقيدها — فالملك لير قاس ثم رقيق رؤوف ، وهملت دائم التفكير متهور ، شجاع . والشخصيات فى بعض الأحيان بسيطة إلى حد كبير — ريتشارد الثالث مجرد خسة ونذالة ، وتيمون مجرد شك وسخرية وتهكم ، وياجو مجرد كراهية . وتبدو بعض النساء فى مسرحيات شكسبير ، وكأنهن اقتطعن من نفس العجينة — بياتريس روزالند ، كورديليا وديدمونة ، ميراندا وهرميون —

ولهن يفقدن الحقيقة والواقع . ثم فى بعض الفترات ، تبعثهن بضع كلمات قليلة إلى الحياة ، من ذلك أن أوفيليا ، حين يبلغها هملت أنه لم يكن يحبها فى يوم من الأيام . تجيبه دون اتهام مضاد ، ولكن فى بساطة حزينة مؤثرة : «كنت أنا المخدوعة أكثر» . إن الملاحظة والإحساس والتشخيص وتفتح الحواس المدهش ، ونفاذ البصيرة والانتقاء الرشيق للتفاصيل الهامة المميزة ، والذاكرة المتماسكة — كل هذه تأتى جميعها معاً لتعمر المدينة الحية بالأموات أو الأنفس الخيالية . أو فى مسرحية بعد أخرى تنمو هذه الشخصيات إلى الحقيقة والواقع والتعقيد والعمق ، حتى ينضج الشاعر فى هملت ولير إلى فيلسوف . وتصبح مسرحياته أدوات متألقة للفكر .

٥ — فلسفة شكسبير

«ألك أية فلسفة ، أيها الراعى[٥٦] ؟» هكذا يسأل تتشستون Toutchstone الراعى كورين (فى رواية «على هواك») ونحن بدورنا نوجه هذا السؤال إلى شكسبير . ويجيب أحد منافسيه المعترف بهم على السؤال بالنفى[٥٧] . وإنا لنقبل هذا الحكم . كما قصده برنارد شو — ليس لدى شكسبير ميتاً فيزيقاً (فيما وراء الطبيعة) ولا فكرة عن الطبيعة النهائية للحقيقة ، ولا نظرية عن الإله . وكان شكسبير أعقل من أن يذهب إلى أن أى مخلوق يستطيع تحليل خالقه ، أو أنه حتى عقله المرتكز على قطعة لحم ، يمكنه أن يدرك الكل . أى هوراشيو ، إن فى السماء والأرض لأشياء أكثر مما تحلم به فى فلسفتك[٥٨] . وإذا راوده خاطر احتفظ به لنفسه ، ومن ثم أثبت به أنه فيلسوف . وهو يتحدث دون اكتراث أو إجلال للفلاسفة المشهود لهم . ويشك فى أن واحداً منهم احتمل يوماً ألما فى أسنانه صابراً متجلداً[٥٩] . وهو يسخر من المنطق ، ويؤثر عليه نور الخيال ، وهو لا يعرض أن يفك طلاسم الحياة أو العقل . ولكنه يشعر بها ويبصر بها بقوة تزرى بافتراضاتنا أو تعمقها . وإنه ليقف بعيداً ، ويرقب أصحاب النظريات يدمر بعضهم بعضاً ، أو يتفسخون ويتحللون فى غمرات الزمان . وإنه ليخفى نفسه فى شخصياته ، وليس من اليسير أن تعثر عليه . ويجدر بنا أن نحذر نسبة أى رأى إليه ، إلا إذا عبر عنه فى شيء من التوكيد اثنان على الأقل من مخلوقاته (شخوص مسرحياته) .

وإنه ، لأول وهلة ، عالم نفسانى ، أكثر منه فيلسوف ، ولكنه كذلك ليس نظريا ، بل على الأرجح ، مصور فكرى عقلى ، يضع يده على الأفكار الخفية والأفعال العرضية التى تكشف عن طبيعة الانسان . ومهما يكن من أمر ، فانه ليس واقعيا سطحيا ، فان الأشياء لاتقع ، والناس لا يتكلمون ، فى الحياة ، كما يحدث فى رواياته ، ولكننا فى النهاية نحس من خلال هذه الأشياء البعيدة الاحتمال وهذه المغالاة . أننا نقترب من لب الفطرة الانسانية والفكر الانسانى ، وإن شكسبير ليعلم جيدا ، مثل شوبنهور « أن العقل يقود الارادة[٦٠] وأنه ليعتنق مذهب فرويد اعتناقا كاملا ، حين يورد قصائد الجنس على اللسان العــذرى ، لسان أوفيليا المخبولة التى تتضور جوعا ، ويذهب فيما وراء فرويد إلى دوستوفسكى فى دراسة ماكبث ونصفه « الردىء » (زوجته) .

وإذا فسرنا الفلسفة ، لاعلى أنها علم ما وراء الطبيعة — الميتافيزيقا ، بل على أنها رسم متطور لأحوال الانسان ، أو نظرة تعميمية ، لا للكون والعقل وحدهما ، بل للأخلاق والسياسة والتاريخ والعقيدة كذلك — نقول إذا فسرنا الفلسفة على هذا الأساس ، لكان شكسبير فيلسوفا أعمق من بيكون ، مثلما أن مونتانى أعمق من ديكارت ، فليس الشكل هو الذى يصنع الفلسفة . إنه ليقر النسبية فى الأخلاق « ليس ثمة شىء حسن أو ردىء ، ولكن التفكير هو الذى يجعله كذلك[٦١] » . « وإن فضائلنا لتخضع لتفسير الزمن[٦٢] . وأنه ليحس بلغز مذهب الجبرية (القضاء والقدر) المحير فى أن بعض الناس أشرار بالوراثة « على حين أنهم غير مذنبين ، طالما أن الأخلاق لاتستطيع أن تختار أصلها أو منشأها[٦٣] » . وإنه ليعرف نظرية ثراسياخوس (فيلسوف سفسطائى أغريقى فى القرن الخامس ق . م) فى الأخلاق : فيعتقد ريتشارد الثالث أن « الضمير ليس إلا كلمة يستخدمها ، الجبناء ابتكرت ، أول ما ابتكرت ، لتلقى الرعب فى قلوب الأقوياء ، فلتكن سواعدنا المفتــولة هى ضميرنا ، ولتكن أسيافنا قانوننا[٦٤] » . أما ريتشارد الثانى فيقرر « أن أجدر الناس بالتملك هم أولئك الذين يعرفون أقوى السبل وأكثرها ضمانا للكسب[٦٥] » . ولكن هذين الشخصين اللذين اتبعا مذهب نتيشه باءا بخاتمة محزنة . ويلحظ شكسبير ،

أيضا خلق الارستقراطية الاقطاعية الذى يتمسك بالشرف ، ويصفه بعبارات عظيمة، ولكنه يستنكر (كما ورد على لسان المهرج هتسبير) نزوعه إلى الزهو والعنف ، و« سوء السلوك والحاجة إلى ضبط النفس[٦٦] » . أما الأخلاق عنده هو ، فتقوم فى النهاية على اعتدال ارسطو وضبط النفس عند الرواقيين . وكان الاعتدال والتعقل الموضوع الرئيسى فى حديث يوليسيز الذى أنب فيه أجاكس وأشيللس[٦٧] ، ومهما يكن من أمر ، فان العقل وحده لايكفى ، ولا بد أن يدعمه خيط من توجيه الرواقيين :

على المرء أن يحتمل
ذهابه هناك قدر احتماله قدومه هنا
والنضج هو كل شىء[٦٨] .

والموت أمر يمكن التجاوز عنه مادمنا قد حققنا أنفسنا . وشكسبير يؤيد ابيقور كذلك ، ولايسلم بتناقضات فاصلة بين اللذة والحكمة ، ويرد على البيوريتانيين بشدة فيورد على لسان الخادمة ماريا قولها لمالفولبو : " اذهب وهز أذنيك[٦٩] " أى " أنت جحش " . وهو يتسامح ، مثل البابا ، فى خطايا الجسد ، ويجرى على لسان لير المجنون أنشودة مرحة صاخبة للاتصال الجنسى[٧٠] .

أما فلسفته السياسية فتتسم بروح المحافظة . وأدرك آلام الفقراء ، وجعل لير يرددها فى إحساس عميق . ولحظ صياد سمك فى " بركليز " (١٦٠٩ ؟) أن الأسماك تعيش فى البحر :

مثلما يعيش الناس على الأرض — تأكل كبارها صغارها ، ولا يمكن أن أقارن أغنياءنا البخلاء ، مقارنة سليمة ، إلا بالحوت ، يلعب ويلهو ويسوق صغار السمك المسكين أمامه ، وفى النهاية يلتهمه دفعة واحدة ، ولقد سمعت عن مثل هؤلاء الحيتان على الأرض ، لايفتأون يفغرون أفواههم حتى يبتلعوا الأبرشية بأسرها والكنيسة ، والبرج ، والأجراس ، وكل شىء[٧١] » .

ويحلم جنزالو فى " العاصفة " بشيوعية فوضوية " يكون فيها كل ما تنتجه الطبيعة ملكا مشاعا " ، ولايكون فيها قوانين ولاقضاة أو حكام ولا عمال

ولاحرب[٧٢] . ولكن شكسبير يهزأ بهذه « المدينة الفاضلة » — يوتوبيا — لأن طبيعة الانسان تجعل من المستحيل قيامها . ولابد ، فى ظل أى دستور ، من أن تأكل الحيتان السمك .

وماذا كانت ديانة شكسبير ؟ . إن البحث عن فلسفته فى هذا المجال ، بوجه خاص ، شاق عسير . فهو من خلال أشخاص مسرحياته يعبر عن كل المعتقدات ، فى تسامح لابد أنه كان يحمل البيوريتانيين على القول بأنه كافر . وكثيرا ما استشهد بالكتاب المقدس فى إجلال وتقديس ، وجعل هملت ، المفروض أنه متشكك ، يتحدث ، عن إيمان ، عن الله والصلاة والسماء والجحيم[٧٣] . ولقد عمد شكسبير وأبناؤه وفقا للطقوس الانجليكانية[٧٤] . وبعض أبياته تنم على بروتستانتية قوية ويتحدث الملك جون عن « الغفران البابوى » على أنه « شعوذة وسحر » . وكأنه يستبق هنرى الثامن :

. . . لن يفرض قسيس إيطالى
دفع العشور أو يقرع الناقوس فى أرضنا ،
ولكن ، كما أننا نرفع الرأس عاليا تحت السماء ،
فستكون لنا السيادة العظمى فى وجود الله العلى العظيم ،
حيث نملك ونحكم ، ونثبت الملك وحدنا ،
هكذا أنبئوا البابا ، مع كل الاحترام
له ولسلطانه المغتصب[٧٥] .

على أن جون ، بطبيعة الحال ، يكفر عن خطيئته ، آخر الأمر . وثمة رواية بعد هذه ، هى « هنرى الثامن » ، اشترك شكسبير فى جزء منها فقط ، تزودنا بصور مؤيدة لهنرى وكرانمر (أسقف كنتربرى) ، وتنتهى بمديح اليزابث — وكلهم كبار مهندسى الاصلاح الدينى فى انجلترا . وثمة مسحة انحياز للكاثوليكية ، مثلما جاء فى تصوير كترين أراجوان والراهب لورنس ، بشكل فيه تعاطف[٧٦] ، ولكن الشخصية الإخيرة كانت قد جاءت إلى شكسبير ، كما شكلت فى أخبار الكاثوليك الإيطاليين .

وهناك بعض إيمان باق فى الروايات المأساوية . ويظن الملك لير ، من فرط ما يشعر به من مرارة :

إننا بالنسبة للآلهة ، مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء
يقتلونه من أجل اللهو واللعب(٧٧) .

ولكن إدجار الطيب يرد على ذلك بقوله « ولكن الآلهة عـــدول ، وإنهم ليتخذون من رذائلنا السارة أدوات لتعذيبنا(٧٨) » ، كما يؤكد هملت إيمانه « باله يشكل نهاياتنا ويقطعها دون صقل كيفما نشاء (٧٩) .. » وعلى الرغم من الايمان الذى يصطرع فى النفوس ، بعناية إلهية تتصرف معنا تصرفا عادلا ، هناك فى أعظم روايات شكسبير سحابة من عدم الايمان بالحياة نفسها ، فان جاك (أحد أتباع الدوق المطرود فى رواية على هواك .) لايرى فى « العصور السابقة » للانسان شيئا إلا كان بطىء النمو سريع العطب . ونسمع مثل هذه « اللازمة » فى رواية الملك جون :

الحياة مملة مثل حكاية تروى مرتين
فترهق الأذن الثقيلة لرجل نعسان(٨٠) .

وفى ذم هملت للدنيا .

تبا لها آه ، تبا لها ، إنها حديقة ملأى بالأعشاب الضارة .
التى تنمو وتتكاثر ، وكل شىء يحدث ويكبر فى الطبيعة ،
تمتلكه فحسب (٨١) .

وفى ماكيث :

انطفئى ، انطفئى أيتها الذبالة القصيرة !
ليست الحياة إلا خيالا عابرا ، أو هى أشبه بممثل مسكين يختال ويضيع وقته فوق المسرح ، ثم لايعـــود يسمع له صوت ، إنهـــا حكاية يرويها معتوه ، تعج بالضجيج والعنف ،
ولكنها لاتعنى شيئا(٨٢) .

وهل ثمة شىء من فكرة الخلود يخفف من حدة هذا التشاؤم ؟ إن لورنزو — بعد أن وصف لجسيكا موسيقى النجوم ، يضيف أن « مثل هذا التناغم أو الانسجام

موجود فى الأنفس الخالدة .(٨٣). وتخيل كلوديو فى رواية **Measure For Measure** حياة آخرة ، ولكن بالشكل القائم فى جحيم دانتى أو فى مثوى الأموات :

آه ولكنا نموت ، ونذهب إلى حيث لاندرى ،
ونرقد فى حفرة باردة بعيدين عن الأنظار ، ونتعفن ،
وتتحول الحركة الدائبة المحسوسة إلى كتلة من طين معجون ،
وتستحم الروح المرحة فى بحار من نار ، أو تسكن
فى صقع متماوج من جليد متراكم تراكما كثيفا
أو تسجن فى الرياح غير المنظورة
التى تهب فى عنف لايهدأ حول
العالم المتدلى . . . . أن هذا شىء بالغ الرهبة(٨٤) .

وتحدث هملت عرضا عن النفس ، على أنها خالدة(٨٥) . ولكن مناجاته لاتؤكد أية عقيدة أو إيمان . وكلماته على فراش الموت فى النسخة القديمة « فلتستقبل السماء نفسى » ، غيرها شكسبير إلى أن الراحة هى السكون (الموت) .

ولسنا نستطيع أن نقول ، على وجه التحقيق ، كم من هذا التشاؤم ، جاء نتيجة لمتطلبات المسرحية المأساوية . وكم منه كان يعبر عن حالة شكسبير النفسية ، ولكن تكراره وتوكيده يوحيان بأنه — أى التشاؤم — عبر عن أحلك مراحل فلسفته . وإنما كان التخفيف الوحيد الذى جاء فى الروايات التى توجت أعماله ، كان اعترافا حائرا مترددا بأنه يوجد هناك وسط رذائل هذه الدنيا نعم وبركات ومباهج ، كما يوجد وسط الأشرار الأوغاد كثير من الأبطال وبعض القديسين ، فهناك إلى جانب ياجو وجدت ديدمونه ، وإلى جانب جونريل وجدت كورديليا ، وإلى جانب ادموند وجد ادجار أوكنت ، وحتى فى هملت ، يهب نسيم عليل من وفاء هوراشيو ، ومن رقة أوفيليا وحنانها الموسومين بالحزن والكآبة . وبعد أن يغادر الممثل والكاتب المسرحى المنهوك لندن بما فيها من فوضى ووحشية برغم الازدحام ، إلى المروج الخضر والسلوى الأبوية فى بيته فى ستراتفورد ، فلسوف يستعيد الحب الشديد للحياة لدى الانسان .

٦ ــ الرضا والقناعة

ومهما يكن من أمر ، فليس ثمة سبب واضح يدعو شكسبير إلى الشكوى من لندن ، فقد هيأت له النجاح والهتاف باسمه والثروة . وثمة أكثر من مائتى إشارة ومرجع له ، وكلها مؤيدة له وتشيد بذكره ، فى الأدب الباقى من عصره . وفى ١٥٩٩ أورد كتاب فرانسيس ميرز « خزانة المفكرين الموهوبين » ،سدنى ،سبنسر ، دانيل ، درايتون ، وارنر ، شكسبير ، مارلو ، تشابمان ، بهذا الترتيب ، على أنهم أقطاب المؤلفين فى إنجلترا ، ووضع شكسبير على رأس الكتاب المسرحيين[٨٦]. وفى نفس العام أعلن ريتشار بارنفيلد ــ وهو شاعر منافس ــ أن أعمال شكسبير (التى لم يكن أفضلها قد ظهر بعد)قد وضعت اسمه فى « سجل الشهرة الخالد[٨٧]» وكان محبوبا مألوفا حتى عند منافسيه . وكان درايتون وجونسون وبوريدج من بين أصدقائه الحميمين . وعلى الرغم من أن جونسون انتقد أسلوبه الطنان ، وتساهله الطائش فى التأليف ، وإغفاله الشنيع للقواعد الكلاسيكية (القديمة) ، فان جونسون نفسه ، فى المقدمة رفع شكسبير فوق كل الكتاب المسرحيين قديمهم وحديثهم ، وقرر أنه « ليس فريدا فى عصر بعينه ، بل فى كل العصور » وفى الأوراق التى خلفها جونسون عند موته ، كتب يقول « لقد أحببت الرجل . . . الشبيه بالصنم الذى يحبه الانسان حبا أعمى[٨٨] » .

وتحدثنا الأخبار بأن جونسون وشكسبير التقيا فى اجتماعات رجال الأدب فى حانة مرميد فى شارع « Bread Street » ، فتعجب فرانسيس بومونت الذى كان يعرف الرجلين كليهما :

ما هذا الذى رأيناه؟
فى مرميد ! سمعنا كلاما يفيض
رقة ، ويتقد حرارة
وكأنما جاء كل إنسان من حيث أتى
قاصدا أن يفرغ كل ذكائه وتفكيره فى نكتة ،

معتزماً أن يقضى ، مهرجاً ، بقية
حياته البليدة[٨٩] .

وقال توماس فولر فى كتابه « الشخصيات البارزة فى انجلترا (١٦٦٢) :

كم كانت الحرب الفكرية سجالا بين شكسبير وجونسون . وإنى لأنظر إليهما ، وكأنهما سفينة شراعية أسبانية ضخمة وبارجة إنجليزية ، ومستر جونسون (وهو كالأولى) ، علا كعبه فى العلم والمعرفة ، وهوراسخ وطيد الأركان ، ولكنه يطىء فى أداء عمله . أما شكسبير . . . فهو أقل فى البنيان ولكنه أخف حين يمخر عباب الماء ، يستطيع أن يتجه حيث يتجه الموج ، ويغير اتجاهه حيث شاء ، ويستفيد من كل ريح ، بفضل سرعة بديهته وابتكاره[٩٠] .

وتابع أو برى حوالى ١٦٨٠ الأخبار المتواترة التى يسهل تصديقها عن شكسبير و « بديهته الحاضرة اللطيفة المتدفقة » وأضاف أنه كان « رجلا رشيقاً وسيما لطيف المعشر[٩١] » ، والشبيه الوحيد الموجود له الآن هو التمثال النصفى الموضوع على مقبرته فى كنيسة ستراتفورد ، والصورة الموجودة فى « الكتاب الأول » ، وهما يتفقان إلى حد كبير فى إبراز رجل نصف أصلع ، ذى شارب ، و (فى التمثال) ذى لحية ، وأنف حاد ، وعينين متأملتين ، ولكنهما لا تبديان أية إشارة إلى الشرر الذى يتقد فى الروايات . وربما ضللتناالروايات فيما يتعلق بأخلاقه ، فإنها توحى برجل ذى طاقة عصبية ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ، يتذبذب بين قمتى الفكر والشعر ، وشفيرى الكآبة واليأس ، على حين يصفه معاصروه بأنه مهذب أمين لا تأخذه العزة بالإثم ، ذو طبيعة صريحة منطلقة[٩٢] » ، يستمتع بالحياة ولا يأبه بالنسل ، تبدو عليه مسحة من الروح العملية التى لا تلائم الشاعر . وسواء كان عن طريق الاقتصاد فى الانفاق أو عن طريق المنح والهبات ، فإنه كان بالفعل فى ١٥٩٨ ثريا إلى حد يسمح له بالمشاركة فى تمويل « مسرح جلوب » . وفى ١٦٠٨ شيد هو وستة آخرون مسرح The Black Friars وزادت أنصبته فى مثل هذه المشروعات من عائداته بوصفه ممثلا وكاتباً مسرحياً ، وعادت عليه بدخل كبير ، اختلف تقديره بين ٢٠٠[٩٣] و ٦٠٠[٩٤] جنيه سنوياً . ويبدو أن الرقم الأخير أصلح لأنه يفسر لنا شراءه للعقارات فى ستراتفورد .

ويقول أوبرى إن شكسبير « تعود أن يزور مسقط رأسه مرة كل عام (٩٥) » . وتوقف أحيانا على الطريق فى أكسفورد ، حيث كان جون دافنانت يدير نزلا ، وكان سير وليم دافنانت (شاعر البلاط ١٦٢٧) يحب أن يوحى بأنه نتيجة غير مقصودة لتخلف شكسبير فى هذا النزل (٩٦) . وفى ١٥٩٧ اشترى الكاتب المسرحى « البيت الجديد » New Place بستين جنيها ، وكان ثانى أكبر بيت فى ستراتفورد ، ومع ذلك ظل يقطن لندن . ومات أبوه فى ١٦٠١ تاركا له منزلين فى شارع هملى فى ستراتفورد ، وبعد ذلك بعام واحد ، اشترى ١٢٧ فدانا من الأرض بالقرب من المدينة ، بثمن قدره ٣٢٠ جنيها ، ويحتمل أنه أجر هذه الأرض لمستأجرين مزارعين وفى ١٦٠٥ اشترى بمبلغ ٤٤٠ جنيها أسهما فى العشور الكنسية المرتقبة فى ستراتفورد وثلاث دوائر أخرى . وفى إثناء انشغاله بكتابة أعظم رواياته فى لندن ، كان معروفا فى ستراتفورد بأنه رجل أعمال ناجح ، أساسا ، مشغول فى الغالب بالتقاضى من أجل ممتلكاته واستثماراته .

وكان ابنه هامنت قد توفى فى ١٥٩٧ . وفى ١٦٠٧ تزوجت ابنته سوزانا من جون هول . وهو طبيب مشهور فى ستراتفورد ، وبعد عام واحد جعلت من الشاعر جداً ، ومن ثم كانت روابط جديدة تشده إلى مسقط رأسه . وحوالى ١٦١٠ هجر لندن واعتزل المسرح ، وآوى إلى « البيت الجديد » . ومن الواضح أنه كتب هناك «Cymberline» (١٦٠٩ ؟) و« قصة الشتاء (١٦١٠ ؟) و« العاصفة» (١٦١١ ؟) . ولم يكن لاثنتين من هذه الروايات كبير قيمة . ولكن « العاصفة » تظهر أن شكسبير كان لايزال يحتفظ بكل قواه . فهنا ميراندا التى تكشف منذ البدايه عن طبيعتها ، حين تشاهد من الشاطئ غرق سفينة فتصرخ « أوه لقد تألمت مع هؤلاء الذين رأيتهم يتألمون (٩٧) » . وهنا كاليبان الذى يرد به شكسبير على روسو . وفيها أيضاً بروسبيرو الساحر الرقيق الفؤاد الذى يتخلى عن صولجان فنه ويودع دنياه المرحة وداعاً حنونا ، وهناك صدى لاكتئاب الشاعر ، فى الفصاحة التى لم يعتورها أى وهن فى أبيات بروسبيرو :

انتهى الآن مرحنا وصخبنا . إن ممثلينا هؤلاء

كما تنبأت لكم ، كانوا أرواحا ،
ذابت فى الهواء ، فى الهواء الرقيق ،
ومثل كيان هذه الرؤيا الواهن القائم على غير أساس
تكون الأبراج التى يتوجها السحاب والقصور الشامخة
والمعابد الرهيبة ، والأرض الواسعة نفسها ،
نعم ، وكل مانرثه سوف يذوب ويفنى ،
كما ذبلت هذه الأبهة الفارغة المتهافتة ،
لاتتركوا مصدرا للألم وراءكم ، إننا مصنوعون
من نفس المادة التى تصنع منها الأحلام ، وحياتنا القصيرة
يحف بها النوم (٩٨).

ولكن ليست هذه هى الحالة النفسية الغالبة الآن ، بل على النقيض من ذلك فالرواية هى شكسبير يسترخى ويستجم ، ويتحدث عن الغدران والأزهار ، ويشدو بأغنيات عذبة ، « Where the Bee sucks there Suckl., Full fathom five » — وعلى الرغم من كل المعترضين واعتراضاتهم ، فان الشاعر الذى تقدمت به السن هو الذى يتحدث على لسان بروسبيرو وهو يودع الحياة :

. . . إن الأجداث ، بأمر منى
أيقظت النيام ، فيها ، وفتحت أبوابها وأطلقتهم
بفضل فنى الفعال . ولكن هذا السحر الشاق
أعد بأن أتخلى عنه هنا . . . ولسوف أحطم عصاى
وأدفنها بضع أقدام تحت الأرض ،
وفى مكان أعمق من أن يرن فيه رصاصة الفادن(*)
سوف أغرق كتابى (٩٩) .

وربما كان شكسبير أيضا ، الذى ابتهج ببناته وحفيده هو الذى صاح على لسان ميراندا :

(*) الفادن — أداة مؤلفة من خيط فى طرفه قطعة رصاص . يسبر بها غور المياه .

عجباً !

كم من المخلوقات الوسيمة أرى هنا !

ما أجمل بنى الإنسان ! أيتها الدنيا الجديدة الرائعة

التى يعيش فيها مثل هؤلاء الناس(١٠٠) !

وفى ١٠ فبراير ١٦١٦ تزوجت جوديت من توماس كوينى . وفى ٢٥ مارس كتب شكسبير وصيته . فترك ممتلكاته لسوزانا ، و ٣٠٠ جنيه لجوديت ، وأوصى بمبالغ لرفاق التمثيل ، و «بسريره الثانى» لزوجته التى كان قد هجرها ، وربما كان قد رتب مع سوزانا أن ترعى أمها . وعاشت آن هاثاواى سبع سنوات بعده . وذكر جون وارد قسيس كنيسة ستراتفورد (١٦٦٢ — ١٦٨١) ، أن « شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا فى جلسة مرحة ، ويبدو أنهم أسرفوا فى الشراب ، لأن شكسبير مات إثر حمى أصابته بعد ذلك(١٠١)* » . وحم القضاء فى ٢٣ أبريل ١٦١٦ ، ووورى جثمانه التراب تحت الهيكل فى كنيسة ستراتفورد ، وهناك بالقرب من هذا المكان توجد بلاطة الضريح التى لا تحمل اسما ، وقد نقش عليها عبارة تخليد الذكرى ، تنسبها أقوال متواترة محلية إلى شكسبير نفسه :

أيها الصديق الكريم ، بحق يسوع المسيح ، تحمل

أن تحفر التراب الذى يحيط بهذا المكان ،

وليبارك الله الرجل الذى يحافظ على هذه الأحجار ،

ولعنة الله على من ينقل عظامى .

٧ — بعد موت الشاعر

ومبلغ علمنا ، أن شكسبير كان قد اتخذ خطوات لنشر رواياته . وطبعت الروايات الست عشرة التى كثيراً ما ظهرت فى حياته ، وواضح أن هذا دون تعاون منه ، فى قطع الربع عادة ، وعلى درجات متفاوتة من حيث التحريف فى النص .

(*) ليس هناك ما يدعو إلى نبذ هذه الرواية — سير إ . ك . تشيمبرز فى كتابه " وليم شكسبير " الجزء الأول ص ٨٩ .

وأثارت هذه القرصنةوالانتحالات اثنين من زملائه السابقين : جون همنج وهنرى كوندل ، فأصدرا فى ١٦٢٣ « الكتاب الأول » ، وهو مجلد من القطع الكبير به نحو ٩٠٠ صحيفة على نهرين ، يضم النص الموثوق لست وثلاثين رواية . وجاء فى تصدير الكتاب « إننا لم نفعل إلا أن أدينا خدمة للراقد تحت التراب ، ولم نبغ من وراء ذلك ربحا لنا أو شهرة ، بل نهدف إلى تخليد ذكرى صديق عظيم ماثل بيننا . . . شكسبير » وكان يمكن شراء المجلد آنذاك بجنيه واحد . أما النسخ الباقية حتى الآن ؛ وعددها مائتان تقريبا ، فتقدر قيمة الواحدة منها بسبعة عشر ألفا من الجنيهات ، أى أغلى قيمة من أى كتاب آخر ، باستثناء انجيل جوتنبرج .

وتأرجحت شهرة شكسبير بشكل عجيب من حين لآخر . ففى ١٦٣٠ امتدحه ملتون وقال « شكسبير الأعز ، ثمرة الذوق والفن » . ولكن على عهد البيوريتانيين ، حين أغلقت المسارح ١٦٤٢ — ١٦٦٠ ، خبت شهرة الشاعر ، وعادت بعودة الملكية . وفى الصورة التى رسمها فان ديك لسيرجون سكلنج (والمحفوظة بقاعة فريك فى نيويورك) ، ترى سكلنج يمسك « بالكتاب الأول » مفتوحا على رواية هملت . ويمتدح دريدن ، معجزة أواخر القرن السابع عشر ، شكسبير على أنه « من بين الشعراء الحديثين ، وربما القدامى أيضا ، أعظم نفس وأوسعها إدراكا . . وكان دوما عظيما إذا عرضت له مناسبة عظيمة » ولكن «كثيرا ما انحط فنه الهزلى (الملهاة) التافه الفاتر إلى فن مرهق قيل تضيق النفوس به ذرعا ، كما انحط تمثيله الجاد إلى مجرد كلام منمق طنان[١٠٢] . . . » وذكر جون افلين فى مفكرته (١٦٦١) « أن الروايت القديمة تثير اشمئزاز هذا العهد المهذب ، حيث أن صاحب الجلالة عاش طويلا فى الخارج » ويقصد بهذا أن شارل الثانى والملكيين العائدين جلبوا معهم إلى انجلترا المعايير المسرحية من فرنسا ، وسرعان ما أخرج المسرح بعد عودة الملكية أشد الروايات دعارة وفجورا فى الأدب الحديث ، وظلت روايات شكسبير تمثل ، ولكن عادة ، بعد تعديلها بمعرفة دريدن أو أتواى Otway أو غيرهما ممن يمثلون ذوق « عودة الملكية » .

وأعاد القرن الثامن عشر روايات شكسبير إليه . فنشر نيقولا رو (١٧٠٩) أول طبعة انتقادية وأول سيرة حياة للشاعر . وأصدر بوب وجونسون طبعات وتعليقات . أما بترتون وجاريك وكمبل، والممثلة ساره سيدونز فقد جعلوا شكسبير معروفا مألوفا محبوبا بشكل لم يسبق مثيل على المسرح . وفى ١٧٧٨ خلد توماس بودلر Bowdler اسمه هو نفسه بنشر . نسخة مهذبة حذف منها « كل ما ينافى الحشمة والفضيلة ، مما لا يمكن قراءته جهرا فى الأسرة » . وفى أوائل القرن التاسع عشر احتضنت الحركة الرومانتيكية شكسبير ، وحولته مبالغات كولردج وهازلت ودى كوينسى وتشارلز لام إلى معبود قبلى :

واعترضت فرنسا — فما جاءت سنة ١٧٠٠ حتى كان رونسار وماليرب وبوالو قد شكلوا معاييرها الأدبية وفق التقاليد اللاتينية ، من حيث الترتيب والشكل المنطقى والذوق المهذب والتحكم العقلانى . وكانت فرنسا قد أقرت ، فى أعمال راسين القواعد الكلاسيكية فى المسرحية . وقد أزعجها وعكر صفوها شكسبير بتلاعبه الفارغ بالألفاظ ، والسيل الجارف من العبارات ، وعواصفه العاطفية ، ومهرجيه الأفظاظ ، وجمعه بين الملهاة والمأساة . وعندما عاد فولتير من انجلترا (١٧٢٩) أتى معه ببعض التقدير لشكسبير ، فهو يقول « أظهرت الفرنسيين لأول مرة على بعض اللآلىء التى عثرت عليها بين الأكداس الهائلة[١٠٣] » . ولكن إذا وضع أحدهم شكسبير فى مرتبة أعلى من راسين ، انبرى فولتير للدفاع عن فرنسا بقوله « إن شكسبير همجى محبوب »[١٠٤] . وفى القاموس الفلسفى (١٧٦٥) أجرى فولتير بعض التعديل « إن لهذا الرجل نفسه قطعا تلهب الخيال وتنفذ إلى القلب . . . . . لقد أدرك هذه المنزلة من الرفعة والسمو دون أن يسعى إليها[١٠٥] » وساعدت مدام دى ستاى (١٨٠٤) وجيزو (١٨٢١) وفيلمين (١٨٢٧) — ساعدوا فرنسا على الاصغاء لشكسبير فى أناة وصبر . وأخيراً فان ترجمة الروايات إلى نثر فرنسى جيد ، تلك الترجمة التى قام بها فرنسوا بن فيكتور هيجو أكسبت شكسبير احترام فرنسا له ، ولو أنه لم يصل إلى مستوى

الاعجاب القلبي المخلص الذى أسبغتـه على راسـين .

وكان حظ الشاعر من الطباعة أسعد فى ألمانيا ، حيث لم ينافسه كاتب مسرحى محلى . فإن الكاتب المسرحى الألمـانى العظيم الأول جوتهلد لسنج ، هو الذى أنبأ مواطنيه (١٧٥٩) بأن شكسبير يسمو على كل الشعراء القدامى والمحدثين ، وأيده فى هـذا هردر . ورفع أوجست فون سكلجل ولودفيج تيك وغيرهما من زعماء المدرسة الرومانتيكية راية شكسبير ، وأسهم جيته بمناقشة حماسية عن هملت فى « قاعة ولهلم » (١٧٩٦)(١٠٦) . وأصبح شكسبير معروفا محبوبا على المسرح الألمانى ، وانتزع العلماء الإلمان من انجلترا مقام الصدارة ، فى دراسة حياة شكسبير ورواياته وتوضيحها .

ويتعذر التقدير الموضوعى أو المقـارنة الموضوعية على هؤلاء الذين شبـوا وترعرعوا وهم ينشقون عبير شكسبير . فان الذى يعرف لغة الإغريق على عهد بريكليز وعقيدتهم وفنهم وفلسفتهم ، هو وحده الذى يحس بالمسرحية المأساوية الديونيسية وسموها الذى لا مثيـل له ، وبساطتها الواضحة ، وبالمنطق القوى فى بنيانها ، وبضبط النفس الباعث على الفخر فى القول والفعـل ، وبالشرح الذى يهز النفوس فى ترانيم مجموعة المغنين فيها ، وبالمغامرة النبيلة فى مشـاهدة الانسان من زاوية مكانه وقدره فى الكون . كما أن الذى يعرف اللغة الفرنسية والخلق الفرنسى ، وخلفية « القرن الأعظم » (السابع عشر) يمـكنه وحده أن يحس ، فى روايات كورنى وراسـين — لا مجرد عظمـة الشعر وموسيقاه فحسب — بل يحس كذلك بالجهد البطولى للعقل فى إثارة العاطفة وبعث الانفعال ، والتمسك الحكيم الرزين بالمعايير الكلاسيكية العسيرة ، وتركيز المسرحية فى بضع ساعات تشـد فيها الأعصاب ، لتلخيص حيـاة الانسان والفصل فيها ، كذلك فان الذى يعرف اللغـة الانجليزية ، فى كمالهـا أيام اليزابث ، ويتعمق ويجد لذة واستمتاعا فى البلاغة والأغانى والتراشق فى عهد اليزابث ، ولا يغل المسرح عن أن يعكس صورة الطبعة ويحرر الخيال ، نقول إن هذا وحده هو

الذى يستطيع أن يهيىء لروايات شكسبير ما تستحقه من تقدير وترحيب قلبا وقالبا : ولكن مثل هذا الرجل لا بد أن يرقص طربا لروعة لغتها ، ويهتز من الأعماق وهو يتابع ويسبر غور الفكر فيها ، تلك هى الفترات الثلاث التى نعمت بموهبة المسرحية فى العالم . ويجدر بنا ، على الرغم من عجزنا ، أن نرحب بها جميعا من أعماقنا ، شاكرين لتراثنا من الحكمة الاغريقية ، ومن الجمال الفرنسى ، ومن الحياة فى عصر اليزابث .

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

الملكة الجنية

وسط المسرحية المتشابكة ، مسرحية الإصلاح الدينى فى اسكتلنده مع السياسة فى عصر اليزابث ، جرت مأساه مارى ستيوارت ، بكل مافيها من سحر الجمال والحب المشبوب والصراع الدينى والسياسى ، والقتل والثورة والموت البطولى ، وكاد أسلافها ، أن يؤكدوا لها خاتمة عنيفة. وكانت ابنة ستيوارت الخامس ملك اسكتلنده ومارى أميرة جيز واللورين وفرنسا . وحفيدة مرجريت تيودور ابنة هنرى السابع ملك إنجلترا ، ومن ثم كانت بنت أخت ومن باب التساهل — بنت عمة ، « مارى اللعينة » واليزابث ، وكانت باجماع الآراء الوريثة الشرعيه للتاج الإنجليزى . إذا توفيت اليزابث دون عقب ، وفى رأى هؤلاء الذين اعتبروا اليزابث ابنة زنى ، ومن ثم غير مؤهلة للملك — مثل الكاثوليك (وهنرى الثامن فى وقت ما) ، أنه كان لا بد أن ترتقى عرش إنجلترا ١٥٥٨ ، مارى ستيوارت لا اليزابث . ولتصبح المأساه يقينا ، أباحت مارى ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) — نقول أباحت لأتباعها ولوثائق الدولة أن يلقبوها ملكة إنجلترا . فثمة ادعاء فارغ ساد منذ أمد طويل بأن يكون ملوك فرنسا ملوكاً على إنجلترا أيضا ، كما يكون ملوك إنجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا ، ولكن الادعاء فى هذه الحالة قارب حقاً معترفا به بصفة عامة . وما كان لأليزابث أن تطمئن على تاجها طالما بقيت مارى على قيد الحياه . وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة أو النظرة الصائبة للأمور ، ولكن الملوك قل أن يطأطئوا رءوسهم إلى هذا الحد .

وعرضت الممالك على مارى ، فى مدة سنة من ولادتها . فقد جعلها موت أبيها فى بحر أسبوع من مولدها ، ملكة إسكتلنده ، واقترح هنرى الثامن ، أملا منه فى ضم اسكتلنده كمقاطعة ملحقة بانجلترا — اقترح أن تخطب الطفلة إلى ابنه إدوارد وترسل إلى إنجلترا ، وتتربى فيها ، مع افتراض أن تكون بروتستانتية ، لتكون ملكة مع ابنه إدوارد . ولكن بدلا من هذا ، قبلت أمها الكاثوليكية عرض هنرى الثانى ملك فرنسا (١٥٤٨) أن تزوجها لأكبر أبنائه (الدوفين) . وحماية لمارى من ختطافها إلى إنجلترا . أسرعوا بها وهى فى سن السادسة إلى فرنسا ، حيث بقيت هناك ثلاثة عشر عاما ، وتلقت العلم مع أولاد الأسرة المالكة ، وتأصلت فيها الروح الفرنسية تماما . حيث كانت نصف فرنسية بحكم الدم . ولما نضجت واكتمل شبابها ، تجلت كل مفاتن الأنوثة فى جمال القسمات والقوام ، وحدة الذهن . والكياسة المرحة فى السلوك والحديث ، وغنت غناء عذبا ، وعزفت على العود عزفا جيداً . وتحدثت باللاتينية ، وكتبت شعرا تكافى الشعراء إطراءه ، وخفقت قلوب الحاشية « لرؤية وجهها النقى الناصع البياض كالثلج » (برانتوم [1]) « وشعرها المقصوص المضفر » (رونسار [2]) ، ورشاقة يديها النحيلتين ، وصدرها الممتلىء . وحتى أن لوبيتال الوقور الرزين ذهب إلى أن مثل هذا الجمال لا يمكن إلا أن يكون لأحد الآلهة .[3] وأصبحت أكثر الشخصيات جاذبية وأعظمها كياسة فى أكثر بلاط أوربا تهذيبا وصقلا . ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت ولى عهد فرنسا (الدوفين) فى ٢٤ أبريل ١٥٥٨ . وما أن بلغت السابعة عشرة ، حتى أصبحت ، بارتقائه العرش ، ملكة على فرنسا . ويبدو أن كل آمال حلم خيالى قد أصبحت حقيقة .

ولكن فى ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرنسوا الثانى (زوجها) بعد حكم دام سنتين . وفكرت مارى التى باتت أرملة وهى فى سن الثامنة عشرة ، فى أن تأوى إلى ضيعة فى تورين ، لأنها أحبت فرنسا . ولكن اسكتلنده فى تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها من فرنسا بوصفها حليفة . ورأت الحكومة الفرنسية أن من واجب مارى أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصلى إلى التحالف مع فرنسا . وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد . وارتضت مارى كارهة أن تترك

مباهج المدنية الفرنسية ورفاهيتها ، لتعيش فى اسكتلنده التى تصورتها أرض الهمجية والبرودة . وكتبت إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلندة ، ولكنها لم تذكر لهم أنها فى عقد زواجها ، حولت ملك اسكتلندة إلى ملوك فرنسا إذا توفيت دون عقب . وافتتن بها النبلاء ، البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء ، ودعاها برلمان اسكتلندة لتتبوأ عرشها . وطلبت إلى اليزابث امتياز المرور بأمان عبر انجلترا ، فرفض طلبها ، فأبحرت مارى من كاليه فى ١٤ أغسطس ١٥٦١ ، مودعة فرنسا بالدموع ، محدقة فى الشاطىء الذى يتراجع من خلفها ، حتى لم يبق أمامها شىء إلا البحر .

وبعد خمسة إيام ألقت السفينة مراسيها فى « ليث » ثغر ادنبره واكتشفت مارى اسكتلندة .

٢ — اسكتلندة ١٥٦٠ — ١٥٦١

كانت أمة ذات أصول عريقة وأساليب عتيقة ، قيدتها الأراضى الجبلية الوعرة فى الشمال بنظام إقطاعى ، يتحكم فيه أمراء مستقلون تقريباً ، يحيون حياة نصف بدائية قوامها الصيد والرعى ، واستئجار الأرض القابلة للزراعة . أما الجنوب فقد تميز بأرض منبسطة خصبة بفضل ماء المطر ، ولكنها مظلمة معتمة بسبب شتائها الطويل والبرد القارس الذى يشل الحركة . فهنا شعب يكافح ليخلق نظاماً أخلاقياً وحضارياً ، من حمأة الأمية واختلاط الأنساب والفساد والتمرد على القانون والعنف ، شعب أعمته الخرافات ، وإرسال السحرة إلى الإعدام حرقاً ، يفتش فى عقيدة دينية متشددة عن حياة أقل قساوة ومشقة . ورغبة فى موازنة قوة البارونات التى مزقت أوصال البلاد ، كان الملوك ساندوا وشجعوا رجال الدين الكاثوليك وأغدقوا عليهم الثروات ، مما جرهم إلى الفساد وقبول الرشوة وعدم المبالاة ومعاشرة الخليلات(٤) . وتحرق النبلاء لهفاً على ثروة الكنيسة ، فانتقصوا من قدر رجال الدين ، بملء الوظائف الكنيسة بأبنائهم الخبراء بشئون الدنيا ، ونادوا بالإصلاح الدينى ، وجعلوا البرلمان الاسكتلندى الذى تحكموا فيه سيداً للكنيسة والدولة على حد سواء .

وكان الخطر الخارجى أقوى حافز على الوحدة الداخلية . ولم تحس انجلترا

بالطمأنينة فى جزيرة يشاركها فيها الإسكتلنديون الذين لم يروضوا بعد . وسعت من حين لآخر ، بالطرق الدبلوماسية أو الزواج أو الحرب ، إلى إخضاع إسكتلنده للحكم البريطانى . وأشار سيسل على اليزابث بمساندة النبلاء البروتستانت ضد مليكتهم الكاثوليكية ، ومن ثم تصبح إسكتلندة ممزقة ، ولا تعود تشكل خطراً على انجلترا أو دعامة لفرنسا . وفوق ذلك يمكن لزعماء البروتستانت ، إذا حالفهم التوفيق ، أن يخلعوا مارى ، ويتوجوا نبيلا بروتستانتيا ، ويحولوا إسكتلنده كلها إلى البروتستانتية . وراود سيسل بصفة خاصة حلم توحيد إسكتلندة على هذه الصورة مع انجلترا بإغراء اليزابث بالزواج من مثل هذا الملك[٥] . فلما أرسلت فرنسا إلى إسكتلندة قوة لإخماد البروتستانت سارعت اليزابث بإرسال جيش لحمايتهم وطرد الفرنسيين . ولما حاقت الهزيمة بفرنسا فى ميدان القتال ، وقع ممثلوها فى إسكتلندة فى أدنبره (٦ يولية ١٥٦٠) معاهدة مشؤومة لا تنص على خروج الفرنسيين من إسكتلندة فحسب ، بل على عدم مطالبة مارى بأى حق فى عرش انجلترا . كذلك ، ورفضت مارى ، بناء على مشورة زوجها فرنسوا الثانى ، التصديق على المعاهدة . وعلمت اليزابث بذلك .

وكان الوضع الدينى مضطرباً ، بنفس القدر . ذلك أن « برلمان الإصلاح الدينى » الإسكتلندى الذى التأم ١٥٥٠ ، ألغى الكاثوليكية رسمياً ، وقرر أن تكون البروتستانتية الكلفنية دين الدولة ، ولكن مارى لم تصدق على هذه القرارات البرلمانية حتى تصبح قوانين نافذة المفعول فى البلاد . وظل القساوسة الكاثوليك يشغلون معظم الوظائف الكنسية ذوات الدخول فى إسكتلندة . وكان نصف النبلاء « بابويين » ، وظل جون هاملتون الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، يذهب إلى البرلمان بوصفه زعيم الكاثوليك فى إسكتلندة . ومهما يكن من أمر فإن نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة فى أدنبره وسانت أندروز وبرث وسترلنج وأبردين ، انحازت إلى الكلفنية ، بفضل الوعاظ المخلصين المتحمسين ، بزعامة جون نوكس Knox .

وفى العام الذى سبق مجىء مارى أخرج نوكس ومعاونوه كتاباً فى قواعد السلوك والانضباط « Discipline » يحدد مذهبهم وأغراضهم ، فالديانة لا تعنى

إلا البروتستانتية ، و « الربانيون والأتقياء » لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما « الوثنية » فإنها تشمل « القداس ، والتضرع إلى القديسين وعبادة الصور . . . والاحتفاظ بها » ، أما « المتمسكون بهذه الأشياء البغيضة والداعون إليها ، فلا ينبغى أن يفلتوا من عقاب القضاة والحكام المدنيين . « وكل مذهب أو نظرية » تتنافى " مع الإنجيل ، يجب " القضاة عليها قضاءاً تماماً ، على أنها لعينة تحول دون خلاص الإنسان(٦) " . أما القساوسة فينبغى أن ينتخبوا فى المجامع ، وعليهم أن ينشئوا المدارس ويفتحوها لكل أبناء الرب ، مع خضوعها لرقابة الجامعات الإسكتلندية — سانت أندروز ، جلاسجو ، أبردين . ويجب أن تخصص أموال الكنيسة الكاثوليكية والعشور الكنسية المستمرة لحاجيات القساوسة البروتستانت وتعليم الشعب ومعونة الفقراء . وعلى " الكنيسة الإسكتلندية الوطنية " ، الجديدة — لا السلطة المدنية — أن تصدر تشريعات الأخلاق ، وتفرض العقوبات على مخالفاتها — السكر والجشع والتجديف والإسراف فى الثياب ، ظلم الفقراء والفحش والفسق والزنى ، وكل من يعارض المذهب الجديد ، أو يتغيب عمداً عن طقوسه ؛ يحال إلى السلطة المدنية ، مع توصية من الكنيسة الإسكلندية الوطنية بإعدامه(٧) .

على أن اللوردات الذين سيطروا على البرلمان أبوا أن يقروا " قواعد السلوك والانضباط " (يناير ١٥٦١) . ولم يستسيغوا قيام كنيسة وطنية قوية مستقلة . وكانت لهم خططهم الخاصة فى استخدام أموال الكنيسة المنحلة . وظل " كتاب قواعد السلوك " هدفاً ونبراساً يهتدى به فى تطوير الكنيسة الإسكتلندية الوطنية وتنميتها .

ولما أخفق نوكس فى إقامة حكومة لاهوتية يتولاها قساوسة يدعون أن لهم حق الكلام نيابة عن الرب ، بذل جهداً جباراً فى إصرار بالغ ، فى تنظيم الكهنوت الجديد ، وإيجاد الاعتمادات اللازمة لتدعيمهم ، وانتشارهم فى كل أرجاء إسكتلندة ، لمواجهة رجال الدين الكاثوليك الذين ظلوا يؤدون وظائفهم ، وخلقت قوة العقيدة فى مواعظه التى كان يلقيها وحماسة طائفته — نقول خلقت منه قوة فى أدنبره وفى الحكومة . وكان لزاماً على الملكة الكاثوليكية ، مارى ، أن تصفى حسابها معه . حتى تستطيع تثبيت دعائم ملكها .

٣ — مارى ونوكس ١٥٦١ — ١٥٦٥

اتخذت مارى الترتيبات لتصل إلى إسكتلندة . قبل الموعد المضروب بأسبوعين ، حيث خشيت بعض المقاومة فى دخولها إلى البلاد ، ولكن ما أن انتشر فى العاصمة خبر وصولها إلى ليث حتى اكتظت الشوارع بالأهالى ، الذين عرتهم الدهشة ليروا ملكتهم غادة جميلة مرحة مفعمة بالحيوية ، لم تبلغ بعد التسعة عشر ربيعاً . وحياها معظمهم وهتفوا لها وهى على ظهر جوادها الصغير إلى قصر هوليرود . Holyrood وهناك رحب بها اللوردات : بروتستانت وكاثوليك فخورين بأن يكون لإسكتلندة ملكة فاتنة إلى هذا الحد ، يمكن يوماً ما ، بشخصها أو بشخص ابن لها ، أن تخضع إنجلترا الحكم ملك إسكتلندى .

وإن صورتيها(٨) اللتين وصلتا إلينا لتؤكدان اشتهارها بأنها من أجمل نساء عصرها . ولسنا ندرى إلى أى حد استطاع الرسامان اللذان نجهل الآن اسميهما ، أن يمثلاها ، ولكنا نلحظ فى اللوحتين كلتيهما ، القسمات الوسيمة واليدين الناعمتين والشعر الكستنائى الغزير الذى سلب ألباب البارونات وكتاب السير . ومع ذلك فإن هاتين الصورتين لا تكادان تكشفان لنا عن الجاذبية الحقيقية للملكة الصغيرة — روحها المرحة ، وثغرها الباسم ، وحديثها العذب البارع ، وحماسها المتدفق ، وروح الألفة والحنان والمودة فيها ، وتلهفها على الحب . وإعجابها المتهور بالأقوياء من الرجال ، وكانت طامتها الكبرى أنها أرادت أن تكون امرأة وملكة معاً — أى أن تحس بدفء العاطفة ، دون أن تنقص من امتيازات الملك . لقد فكرت فى ذاتها بلغة قصص الفروسية — حسناوات مزهوات ولكنهن وديعات رقيقات ، عفيفات شهوانيات فى وقت معاً ، وأهل للهفة المتقدة والألم الحسى : والإشفاق الرقيق ، والولاء الذى لا تفسده الرشوة ، والشجاعة التى تظهر عند الشدة . وكانت بارعة فى ركوب الخيل ، تقفز بجوارها فوق الأسوار ، وتتخطى الخنادق فى اندفاع وتهور ، وتستطيع احتمال مشاق الحملات دون كلل ولا شكوى . ولكنها لم تكن من الناحية الجسمية أو العقلية صالحة لأن تكون ملكة . فقد منيت بالاعتلال والضعف فى كل شىء اللهم إلا قوة الأعصاب ، وكانت عرضة لنوبات من الإغماء

تبدو وكأنها صرع . مصابة بعلة لم يتيسر تشخيصها . غالباً ما شلت حركتها وجعلتها تتلوى من شدة الألم[٩]. ولم يكن لها ذكاء الرجال الذى تميزت به اليزابث ،وكانت فى الغالب بارعة حاذقة . ولكن قل أن اتسمت بالحكمة ، وكثيراً ما أطلقت العنان للهوى والعاطفة فأفسدتا الدبلوماسية ، وأظهرت فى بعض الأحيان قدراً كبيراً من ضبط النفس والجلد واللباقة ، ثم عادت فأودت بهذا كله ، نتيجة الانفعال السريع واللسان السليط . لقد كان جمالها نقمة عليها ، ولم توهب المقدرة العقلية . وكان فى أخلاقها قضاء عليها .

وبذلت مارى جهداً مضنياً لتواجه الأخطار المتشعبة فى موقفها ، متأرجحة بين اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكى المتفسخ الذى لم يرع حرمة عقيدتها التى تدعو إلى الثقة فيهم . واختارت لزعامة مجلس شورى المملكة اثنين من البروتستانت : أخاها غير الشقيق،الابن غير الشرعى ، لورد جيمس ستيوارت (لورد مورى فيما بعد) . وكان فى سن السادسة والعشرين ، ووليم ميتلند لثنجتون ، وكان فى سن السادسة والثلاثين ، وكان فيه من الذكاء أكثر مما تحتمله خلقه ، وقد تحول من جانب إلى جانب . مؤثراً تسوية الأمور والحلول الوسط بين الأطراف المتنازعة ، حتى وفاته . وكان هدف سياسة لثنجتون رائعاً ممتازاً — وهو توحيد انجلترا واسكتلنده لأنه البديل الوحيد للعداء الذى يودى بالبلدين كليهما ، وفى مايو ١٥٦٢ أوفدته مارى إلى انجلترا ليرتب لقاء بينها وبين اليزابث : ووافقت اليزابث ، ولكن مجلس الشورى اعترض ، خشية أن أى تسليم مهما كان غـير مباشر بحق مارى فى عرش انجلترا ، قد يشجع الكاثوليك على محاولة قتل اليزابث . وتبادلت الملكتان الرسائل فى مودة دبلوماسية ، على حين كانت كل منهما تحاور وتداور وتتحين الفرصة للانقضاض على زميلتها ، أو كانتا تلعبان معاً لعبة القط الفأر .

وفى الأعوام الثلاثة الأولى حالف التوفيق حكم مارى فى كل ناحية ، فيما عدا الدين . وعلى الرغم من أنها لم تستطع قط أن تطيب نفساً بمناخ إسكتلندة أو ثقافتها ، فإنها سعت . بحفلات الرقص والتمثيليات الممتعة والجمال ، أن تجعل من قصر هوليرود " باريس » صغيرة فى منطقة مجاورة للمنطقة المتجمدة الشمالية . وتحرر

معظم اللوردات وأطلقوا لأنفسهم العنان فى ظل مرحها وبهجتها . وتذمر نوكس وزمجر بأنهم سحروا . وفوضت الملكة مورى ولثنجتون فى تدبير شئون المملكة ، فقاما بالمهمة خير قيام . وبدا ، لبعض الوقت ، أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلا بفضل تنازلات الملكة . ولما حثها مندوبو البابا على إعادة الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل فى الوقت الراهن ، وإلا تدخلت البزابث بالقوة . ورغبة فى تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت مارى فى ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات فى الديانة القائمة ، ولكنها طلبت أن يرخص لها هى نفسها فى ممارسة الشعائر سراً ، وأن يقام لها القداس فى الكنيسة الملكية الخاصة(١٠) . ويوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك . وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها وطالبوا « بإعدام القسيس الذى يعبد الأصنام (١١) » ، ولكن مورى حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن . . وفى يوم الأحد التالى استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين فى كنيسته أن قداسا واحداً كان أكثر إساءة إليه من عشرة آلاف عدو مسلحين(١٢) .

وأرسلت الملكة فى طلبه ؛ تستعطفه وتناشده التسامح . وفى قصرها ، فى ٤ سبتمبر ، ألتقت العقيدتان لقاء تاريخياً ، لم تصل إلينا تفاصيل ما جرى فيه إلا من تقرير نوكس نفسه(١٣) . وانتهرته مارى لإثارته الفتنة ضد سلطة أمها الشرعية ؛ ولكتابته « هجومه العنيف » ضد " جماعة النسوة الخاطئات " ، الذى أساء إلى كل السيدات اللائى تولين الملك . فأجاب " بأنه إذا كان استنكار الوثنية معناه إثارة الرعايا ضد حكامهم ، فهلا يمكن التماس العذر فيه والصفح عنه ، فإن الله قد ارتضى . . . أن أكون واحداً (من بين الكثيرين) ممن أوصدوا أبواب هذه المملكة ضد باطل العقائد البابوية وضد خداع هذا الرومانى عدو المسيح ، البابا ، وغروره وظلمه . أما الهجوم العنيف . فإنه يا سيدتى قد كتب بصفة أخص ضد المرأة الفاسقة فى انجلترا مارى تيودور . ويستطرد تقرير نوكس :

قالت الملكة : هل تظن أن الرعايا قد يقومون فى وجه حكامهم ؟

فأجاب نوكس : إذا تجاوز الحكام حدودهم ، فلا ريب فى أنهم يلقون المقاومة ، حتى ولو بالقوة .

ونهضت الملكة من مقعدها ، وقد تولتها الدهشة .. ثم قالت فى النهاية : حسنا ، إذن ، أرى أن رعاياى سوف يمتثلون لك وليس لى .

فقال نوكس : إن الله يحرم على أن آخذ على عاتقى أن آمر أحدا بطاعتى ، أو أن أترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاءون . ولكن رسالتى أن يلتزم الأمراء والرعايا جميعهم بطاعة الله . وهذا الخضوع لله وللكنيسة المجيدة — ياسيدتى — هو اسمى منزلة يمكن أن يحظى بها الانسان على هذه الأرض .

فقالت : ولكنكم لستم الكنيسة التى سوف أرعاها وآخذ بيدها ، سوف أدافع عن كنيسة رومه ، لأنى أعتقد أنها كنيسة الله الحقة .

فقال نوكس : لن تشكل مشيئتك سببا ياسيدتى ، ولن يجعل مجرد تفكيرك أنت من هذه الفاجرة الداعرة الرومانية القرينة الحقة الطاهرة التى تحمل بلا دنس، ليسوع المسيح . . . ولا تعجبى ياسيدتى لأنى أطلق على رومه ، المومس الفاجرة ، لأن هذه الكنيسة ملوثة تلوثا تاما بكل ألوان الفجور الروحى .

فقالت : لا يحدثنى قلبى بهذا .

ولو كان هذا الحديث منقولا نقلا أمينا لكان مواجهة محزنة بين الملكية والديمقراطية اللاهوتية ، وبين الكاثوليكية والكلفنية . ولو كان لنا أن نصدق نوكس ، فإن الملكة تلقت توبيخات دون أن تقابل الأذى بمثله ، ولم ترد على أن قالت :

« لقد جاوزت الحد فى إيلامى » وانصرفت إلى العشاء ، وذهب نوكس إلى كنيسته . وناشد لثنجتون نوكس أن يعامل الملكة برفق أكثر ، لأنها أميرة يافعة لم تخضع لأى تحريض أو إغراء[14] .

ولم يشعر أتباعه بأنه كان قاسيا عليها . ولما ظهرت فى المحافل العامة قال بعضهم بأنها وثنية ، وصاح فيها الأطفال بأن الاستماع إلى القداس خطيئة . وأصدر حكام

ادنبره قرارا بنفى الأشخاص الأقذار (كذا) « الرهبـــان ، أعضاء الأخوات الدينية ، القساوسة الراهبات ، الزناة[١٥] » . فعزلت مارى هؤلاء الحكام وأمرت بإجراء انتخابات جديدة . وفى سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس والدم ينزف من رءوسهم ، « على حين انفجرت هى باكية ، حيرة وعجزا[١٦] » . واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية وطالبت بمنعها من حضور أى قداس فى أى مكان ، ولكن اوردات مجلس الشورى أبوا أن يستجيبوا لهذا . وفى ديسمبر ١٥٦١ قام خلاف حاد بين المجلس والكنيسة حول توزيع إيرادات الكنيسة . فخصص للقساوسة البروتستانت السدس ، وللملكة سدس آخر ، واختص رجال الدين الكاثوليك (ولا يزالون يشكلون الغالبية) بثلثى الايراد . فأوجز نوكس هذه القسمة فى قوله : أعطى للشيطان ثلثان ، وقسم الثلث الأخير بين الشيطان والرب[١٧] . وقبض الكهنة البروتستانت فى المتوسط مائة مارك (٣٣٣ر٣ شلنات ؟) سنويا[١٨].

واستمر رجال الكنيسة الوطنية ، طوال العام التالى ، يندددون بالملكة ، وقد روعتهم التمثيليات والعربدة والصخب وحفلات الرقص والمغازلات التى تجرى فى بلاط مارى ، واقتصدت الملكة فى ملاهيها ومباذلها استجابة للاحتجاجات ، ولكن القساوسة أحسوا بأن عليها أن تفعل شيئا أكثر من هذا ، لأنها ما زالت تشهد القداس . وكتب أحد المعاصرين : « أ. جون نوكس يرغى ويزيد ويدوى كالرعد من فوق المنبر ، إلى حد أنى لا أخشى شيئا أكثر من أنه يوما ما سيفسد علينا كل شيء ، إنه يسود ويتحكم ، ويخشاه الناس جميعا[١٩] » . وهنا أيضا اشتبك الاصلاح الدينى مع النهضة .

وفى ٥٥ ديسمبر ١٥٦٢ استدعت مارى نوكس ، واتهمته ، فى حضرة مورى ولثنجتون وغيرهما ، ببذر بذور الكراهية لها فى نفوس أتباعه . ويقول هو بأنه رد عليها بقوله : « إن الأمراء والحكام درجوا على اللعو واللهو وتضييع الوقت سدى أكثر منهم فى قراءة أعظم كلمات الله والاستماع إليها ، وأن العابثين واللاهين أعظم قيمة فى أعينهم من الحكماء والرجال الجادين الوقورين ، الذين قد يستطيعون

بشئ من النصح الكريم أن يستأصلوا بعض الغرور الباطل والزهو الكامن فى نفوس الناس جميعاً . ولكنها صفات تتأصل وتقوى فى نفوس الأمراء والملوك بفعل التعليم السيئ » فما كان جواب الملكة — على حد قول نوكس نفسه ، إلا أن قالت (فى حلم غير معهود فيها) : « إذا سمعت عنى مايغضبك تعال وأبلغنى إياه ولسوف أصغى إليك . » فرد عليها : « أنا ياسيدتى ، مكلف برسالة عامة فى كنيسة الرب ، وعينت من قبله لأحاسب على خطايا ورذائل الناس جميعاً . ولست مكلفا بأن آتى لكل فرد على حدة لأظهره على إثمه. فهذا عمل لاينتهى . وإذا تفضلت جلالتك بحضور المواعظ العامة ، فلا يخامرنى أى شك فى أنك ستعرفين تماما ما أريد وما أبغض . »

وتركته ينصرف فى سلام ، ولكن استمر الصراع بين العقائد . وفى عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، كانوا قد خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لوثنيتهم [٢١] . وسجن بعضهم، وهرب آخرون واختفوا فى الغابات فأرسلت مارى فى طلب نوكس مرة أخرى ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون ، فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم ، وإلا فإنه يعتقد أن هؤلاء البابويين كانوا جديرين بتلقينهم درسا . « فقالت : إنى أعد بتحقيق رغبتك » . ودامت صداقتهما لبعض الوقت . ويأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون قسيساً آخرون لإقامتهم القداس . وحكم عليهم بالسجن . وابتهج الكهنة البروتستانت بهذا . ولكن بعد أسبوع ، (٢٦ مايو ١٥٦٣) عندما شهدت مارى ووصيفاتها البرلمان فى أبهى حلة ، وهتف بعض الناس « بارك الله ذاك الوجة الجميل » ندد هؤلاء الكهنة البروتستانت بتبرجهن وأذيال ثيابهن وماتدلى منها من حواش . وكتب نوكس : لم تشهد اسكتلنده مثيلا لهذه الأبهة البغيضة فى السيدات من قبل [٢٢] .

وترامى إلى سمع نوكس بعد ذلك بقليل أن لثنجتون كان يحاول عقد زواج بين مارى ودون كارلوس ابن فيليب الثانى ملك أسبانيا . وإحساسا منه بأن مثل هذا الزواج سيكون ضربة قاضية على البروتستانتية فى أسكتلنده ، أعلن نوكس عن رأيه بصراحة فى موعظة ألقاها على النبلاء الذين شهدوا البرلمان :

والآن أيها اللوردات ، وللقضاء على كل شيء ، أسمع عن زواج الملكة . . . واسمحوا لى أن أقول أيها اللوردات إنه حينما يعترف نبلاء اسكتلنده للسيد المسيح برضاهم عن أن يكون أحد الكفار (وكل أتباع البابا كفار) على رأس مملكتكم ، فانكم بذلك تبذلون أقصى مافى وسعكم لإبعاد يسوع المسيح عنها(٢٣) .

وفقدت الملكة صوابها ، فاستدعته ، وسألته ـــ كما يقرر هو نفسه : « ماشأنك بزواجى ؟ ومن أنت فى هذه الدولة ؟ » فأجاب جوابه المشهور « فرد ولد فى هذه البلاد نفسها ياسيدتى . ومع أننى لا إرل ولا لورد ولا بارون ، فى هذه الدولة ، فقد اختارنى الله (مهما كنت حقيراً فى عينيك) عضوا نافعا فيها(٢٤) » فانفجرت مارى باكية ، وأمرته بالانصراف .

وبلغت جرأة نوكس ذروتها فى اكتوبر (١٥٦٣) ذلك أنه أحاط مرة أخرى بالكنيسة الملكية الخاصة جمع من الناس احتجاجا على القداس الذى كان على وشك أن يقام . ودخـــل أندرو آرمسترونج وباتريك كرانزتون إلى الكنيسة وأرهبا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة التى لم تكن فى الكنيسة آنذاك ، بمحاكمة هذين الرجلين الكلفنيين بتهمة اقتحام حرمها الخاص . وفى اكتوبر أرسل نوكس كتابا يأمر فيه « الاخوة من كل الطبقات ، الذين آثروا طريق الحق » بأن يشهدوا المحاكمة . وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظمى ، ودعا نوكس للمثول للمحاكمة أمامها . وحضر نوكس (٢١ ديسمبر ١٥٦٣) ولكن حشدا هائلا من مؤيديه تجمع فى الفناء ، وعلى الدرجات « حتى وصل إلى باب القاعة التى جلست فيها الملكة ومجلسها » ودافع هو عن نفسه دفاعا مجيدا إلى حد أن المحكمة برأته ، وقالت الملكة « تستطيع يامستر نوكس أن تعود إلى دارك الليـــلة . » فأجاب هو « أدعو الله أن يطهر قلبك من رجس البابوية(٢٥) » .

وفى يوم أحد السعف ١٥٦٤ تزوج « الرسول » الذى لا يقهر ، وهو فى سن التاسعة والخمسين ، زوجته الثـــانية ، مرجريت ستيوارت ، التى تربطها

بالملكة ، صلة قرابة بعيدة ، وهى فى سن السابعة عشرة : وبعد سنة واحدة ، تزوجت الملكة للمرة الثانية .

٤ — الملكة تقع فى شراك الغرام ١٥٦٥ — ١٥٦٨

من ذا الذى تستطيع الملكة أن تختـاره زوجا لها ، دون أن تقع فى ورطة دبلوماسية ؟ أميرا أسبانيا ؟ . ولـكن لابد أن تحتج فرنسـا وانجلترا ويغضب البروتستانت فى اسكتلنده . « فرنسيا » ؟ ولـكن انجلترا لابد أن تقاوم ، حتى بحد السيف ، تجدد التحالف الفرنسى الاسكتلندى ، « أميرا نمسويا ، الأرشيدوق شارل » ؟ ولـكن نوكس أنذر وحذر من فوق المنبر ، من الاتحاد مع « كافر » كاثوليكى ، كما أن اليزابث أخطرتها بأن الزواج من آل هبسبرج — الأعداء القدامى لآل تيودور — يعتبر عملا عدائيا .

وفى لحظ من الانفعال قطعت مارى العقدة الدبلوماسية . ففى اكتوبر ١٥٦٤ رأى ماتيو ستيوارت أنه قد آن الأوان العودة إلى اسكتلندة — وكان ماتيو ، إرل لنوكس يعتقد أنه المرشح التالى لعرش اسكتلنده بعد مارى ، وكان قد فقد كل أراضيه بمساندته هنرى الثامن ضد اسكتلندة ، وهرب إلى انجلترا تفاديا لانتقام الاسكتلنديين آنذاك . ولحق به فى اسكتلنده بعد قليل ابنه ، هنرى ستيوارت لورد دارنلى البالغ من العمر تسع عشر عاما ، والذى هو ، عن طريق والدته ، من نسـل هنرى السابع ملك انجلترا ، مثل الملكة مارى . وفتنت مارى بالشاب الأمرد وأعجبت بمهارته فى لعب التنس والعزف على العود ، وتجاوزت عن غروره ، بوصفه أمرا يلتئم مع طلعته الجميلة ، واندفعت فى الغرام قبل أن تستطيع أن تتبين فيه الغباء والحمق . وفى ٢٩ يولية ١٥٦٥ ، وعلى الرغم من احتجاج اليزابث ونصف أعضاء مجلسها الخاص ، اتخذت مارى من هـذا الفتى زوجا ، وأسمته ملكا . واستقال مورى من المجلس وانضم إلى أعداء الملكة العنيدة الجامحة .

ونعمت ، لشهور قلائل ، بالسعادة المشوبة بالمتاعب . لقد استبد بها توقها الشديد إلى الحب طيلة السنوات الأربع التى قضتها أرملة . وقد أثلج صدرها أن تجد من يرغب فيها. لقد منحت زوجها حبها بلا قيد ولا شرط ، وأغدقت عليه كل

شيء بلا حدود ، قال توماس راندولف سفير اليزابث : « لقد أولته كل ألوان الجلال والرفعة وألقاب الشرف ، ولا ينشرح صدرها لأى رجل لا يرضى عنه الملك الفتى ، وتنازلت عن إرادتها من أجله هو (٢٦) . . » ولكن الحظ السعيد أفسد عقل الفتى . فأصبح دكتاتوراً مستبداً وقحاً وطالب بأن يشارك الملكة سلطانها : وفى نفس الوقت أقام الحفلات الصاخبة وأسرف فى الشراب ، وأبعد المجلس ، وأصابته نوبات من الحقد ، وارتاب فى أن مارى ترتكب الزنى مع دافيد رتشيو .

ومن يكون رتشيو هذا ؟ أنه موسيقار إيطالى كان قد قدم إلى إسكتلندة ١٥٦١ ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، فى معية السفير (من سافوى) . ولما كانت مارى مولعة بالموسيقى ، فقد ألحقته بخدمتها كمنظم للمهرجانات الموسيقية ، ولقد سعدت بنشاطه وسرعة بديهته ، وتنوع ثقافته التى اكتسبها من القارة (أوربا) ؛ ولما كان يعرف الفرنسية واللاتينية معرفة جيدة ، ويكتب بلغة إيطالية جميلة ، فقد اتخذته كذلك سكرتيراً لها ، وسرعان ما عهدت إليه بإعداد مراسلاتها الأجنبية وكتابتها . وأصبح مستشاراً لها ، وبات قوة لا يستهان بها ، وأسهم فى توجيه السياسة . وجلس إلى مائدة الملكة يشاركها غذاءها ، وخلا بها أحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل . ومذ رأى النبلاء الإسكتلنديون أن رتشيو قد نحاهم عن مكانتهم وحل محلهم ، وارتابوا فى أنه يناصر الكاثوليك ، فإنهم تآمروا على تدميره .

وكان الايطالى الداهية فى بداية الأمر قد سحر لب دارنلى نفسه ، فكانا يسرحان ويمرحان معاً وينامان معاً ، ولكن على حين أن المهام المنوطة برتشيو وامتيازاته وتكريمه والحفاوة به زادت ، فإن حماقة دارنلى هبطت به إلى مستوى العجز السياسى ، فانقلب حب الملك للخادم الذى أصبح وزيراً إلى مقت وبغض . ولما حملت الملكة مارى ذهبت الظنون بالملك إلى أنها حملت بولد رتشيو . واعتقد روندولف فى صحة هذا بل إنه فى الجيل التالى أبدى هنرى كواتر ملاحظة ساخرة فقال إن جيمس الأول ملك انجلترا لا بد أن يكون « سليمان الحديث » طالما أن أباه هو دافيد العازف على القيثارة (٢٧) . وإذ لعب الويسكى يوماً برأس دارنلى ، وألهب جرأته ، انضم إلى

إرل مورتورن ، والبارون روثفن وغيرهما من النبلاء فى تدبير قتل رتشيو ، ووقعوا « عهداً » تعاهدوا فيه على تدعيم البروتستانتيه فى إسكتلندة ، وعلى منح دارنلى « تاج الزواج » — أى كل حقوقه وسلطاته بوصفه ملكاً على إسكتلندة — وأن يكون له الحق فى العرش عند وفاة مارى . ووعد دارنلى بحماية الموقعين على " العهد " من نتائج "أية جريمة " قد ترتكب ؛ وبإعادة مورى وسائر اللوردات المنفيين[٢٨] .

وفى ٦ مارس ١٥٦١ كشف راندولف للورد سيسل النقاب عن المؤامرة[٢٩] . وفى ٩ مارس نفذت : واقتحم دارنلى حجرة الملكة حيث كانت تتناول العشاء مع رتشيو وليدى آرجيل ، وأمسك بالملكة واحتجزها ، واندفع مورتون وروثفن وآخرون إلى الحجرة ، واقتادوا رتشيو خارجها ، رغم احتجاجات واعتراضات لا غناء فيها من مارى ، وعلى السلم كالوا له الطعنات حتى الموت — ستا وخمسين طعنة ، إحكاماً للتدبير وضماناً للقضاء عليه ودق أحدهم ناقوس الخطر فى المدينة ، فسار حشد كبير من المواطنين المسلحين إلى القصر ، واقترحوا تمزيق مارى « إربا[٣٠]» ولكن دارنلى أقنعهم بالتفرق ، وبقيت مارى طوال الليل وطيلة اليوم التالى سجينة السفاحين فى قصر هوليرود . وفى نفس الوقت لعبت على فزع دارنلى وحبه لها ؛ فساعدها وصحبها ، عندما هربت فى الليلة التالية ولجأت إلى دنبار Dunbar وهناك أقسمت أن تنتقم ، فأصدرت نداء إلى مؤيديها المخلصين ، ليهبوا لنجدتها والدفاع عنها . وأعادت مورى إلى المجلس ، وربما فعلت هذا رغبة فى إشاعة الفرقة بين أعدائها .

وكان أكثر من عرضوا مساعدتها وحمايتها فعالية وأثراً جيمس هيبرن Hepburn ، إرل بوثول Bothwell الرابع . وكان شخصية غريبة سيئة الطالع ، ولم يكن وسيما ، ولكن قوى الجسم والعاطفة والإرادة . مغامراً فى البر والبحر ، يحذق الضرب بالسيف والمغول (سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين) . يرهب الرجال بجرأته الهادئة ، ويفتن النساء بحديثه وتهوره واشتهاره بالقدرة على إغوائهن ، ولكنه كان كذلك على درجة عالية من التعليم ، ومحباً للكتب ، ومؤلفاً ، فى وقت لم يكن فيه كثير من النبلاء الإسكتلنديين يعرفون كتابة أسمائهم . وكرهته الملكة أول الأمر ،

لأنه أساء إليها فى أحاديثه ، ولكن هذه طريقة فى كسب اهتمام المرأة . ولما عرفت صفاته العسكرية عينته قائداً للحدود ، ولما سمعت بدرايته بالسفن والملاحة عينته أمير الأسطول ، ولما علمت برغبته فى الزواج من ليدى جين جوردون عجلت بإتمام الزواج .

وكانت الآن تخشى قتلة رتشيو وترتاب فى اشتراك زوجها فى جريمتهم . ومن ثم ولت شطر بوثول تسأله الحماية والنصح . ولم تندفع مارى إلى هذا الرجل على عجل ، بل إن صفات الرجولة فيه : الشجاعة والحيوية والقوة والثقة بالنفس ، كانت هى الصفات التى تصبو إليها طبيعتها الأنثوية ، ولم تجدها فى فرنسوا الثانى أو دارنلى . وقد لحظت كيف أن الاحترام لسيفه ولجنوده أدى بالمتآمرين إلى الاختفاء أو الخضوع ، وسرعان ما أحست بالأمان والاطمئنان إلى حد العودة إلى قصر هوليرود ، وعلى الرغم من أن نوكس كان قد أقر قتل رتشيو ، فإن مارى هدأت من روع القساوسة البروتستانت لبعض الوقت بوضع شروط أفضل لأرزاقهم والإبقاء عليهم . أما عامة الاسكتلنديين الذين لم يكونوا فى يوم من الأيام يكنون ذرة من الحب للوردات ، فإنهم تعاطفوا معها ، وتمتعت الملكة لعدة أشهر بعد ذلك بشعبية عامة : وكتب السفير الفرنسى يقول : « لم أر الملكة قط تحظى بمثل هذا الحب والتقدير والتكريم ، أو بمثل هذه الألفة بين رعاياها[31] . » على أنها عندما اقترب موعد الوضع ، انتابتها الهواجس واستبدت بها فكرة أنها لا بد أن تقتل أو تخلع ، وهى راقدة لا حول لها ولا قوة ولا عون[32] . ولما وضعت ، فى سلام وأمان ، طفلا ذكراً فى ١٩ يونيـــة ١٥٦٦ ابتهجت إسكتلندة بأسرها ، وكأنها تنبأت بأن هذا الصبى سيكون ملكاً على إسكتلندة وانجلترا معاً . وكانت مارى فى أوجها .

ولكنها كانت تعسة بدارنلى الذى استاء من تجديد ثقتها بمورى ، ومن إعجابها المتزايد ببوثول . وتناثرت الإشاعات بأنه قد يخطف الطفل الملكى ويحكم باسمه[33] . واتهم دارنلى النبلاء بقتل رتشيو ، وطالب ببراءته هو . فما كان منهم ، انتقاماً منه ، إلا أن بعثوا إلى الملكة بدليل اشتراكه فى الجريمة[34] . واقترح آرجيل ولثنجتون وبوثول على الملكة أن تطلقه ، فاعترضت بأن هذا قد يعرض العرش للخطر ،

فأجاب لثنجتون على هذا بأنه من الميسور إيجاد طريقة لتخليصها من دارنلى دون الإضرار بابنها فلم توافق وعرضت أنهـا تفضل الخروج من إسكتلندة ، وترك الحكم لدارنلى ، وأنهت الحديث بقولها : محذرة ، أريد منكم ألا تفعلوا شيئاً يلوث شرفى أو ضميرى ، ولذلك أتوسل إليكم أن تتركوا الأمور كما هى ، وأن نحتمل حتى يقضى الله فيها برحمتـه[٣٥] » . وكم من مرة تحدثت آنذاك عن الانتحار[٣٦] .

وفى أكتوبر ١٥٦٦ ، أو نحو ذلك . وقع آجريل وسير جيمس بلفور وبوثول ، وربما كان معهم لثنجتون ، على ميثاق بالتخلص من دارنلى . وترامى إلى مسامع إرل لينوكس نبأ هذه المؤامرة ، وحذر ابنه دارنلى الذى كان يعيش بعيداً عن مارى ، مع والده فى جلاسجو (ديسمبر ١٥٦٦) . وهناك مرض دارنلى ، وكان من الواضح أنه مريض بالجدرى ، رغم انتشار إشاعة بأنه مسموم . وفى الوقت نفسه حامت الشبهات حول مارى وعلاقتها الآثمة مع بوثول ، نتيجة لنمو المودة والألفة بينهما . ونعتها نوكس صراحة بأنها بغى عاهرة[٣٧] . ويبدو أنها اتصلت برئيس الأساقفة هملتون لاتخاذ الترتيبات لطلاق بوثول من زوجته . وعرضت على دارنلى أن تزوره ، ولكنه بعث إليها برد ملؤه التقريع والإهانة . وعلى الرغم من هذا ذهبت إليه (١٢ يناير ١٥٦٧) وأكدت إخلاصها له ، وأيقظت فيه من جديد حبه لها ، وتوسلت إليه أن يعود إلى إدنبره ، حيث وعدت أن ترعاه وتعيد إليه موفور الصحة والسعادة .

وهنا تدخل الرسائل المعروفـة باسم « رسائل الصندوق الفضى » إلى مسرح الحوادث لتكمل المشهد . وتتوقف بقية القصة إلى حد ما على صحة تلك الرسائل ، وهذه قضية لا تزال بعد مضى أربعمائة سنة مثار خلاف ومناقشة . وزعموا أن تلك الرسائل وجدت فى صندوق صغير من الفضة كانت مارى قد أهدته إلى بوثول ، ثم استولى عليه ، فى ٢٠ يونية ١٥٦٧ ، من أحد خدم بوثول ، بعض وكلاء النبلاء الذين كانوا يسعون آنذاك إلى خلع الملكة . وفتح الصندوق فى اليوم التالى بمعرفة مورتون ولثنجتون وغيرهم من أعضاء المجلس الخاص : وسرعان ما عرضت

بعد ذلك على برلمان إسكتلندة ، ثم أخيراً على اللجنة الإنجليزية التى تولت محاكمة مارى فى ١٥٦٨ . وكانت عبارة عن ثمانية خطابات وبعض شذرات متناثرة من قصائد شعرية ؛ وكلها بالفرنسية ، غير موجهة لأحد ، ولا تحمل تاريخاً ، ولكنهم زعموا أنها من مارى إلى بوثول . وأقسم اللوردات أعضاء المجلس أمام البرلمان أن الرسائل صحيحة ، ولم يحدث فيها أى تلاعب ، ولكن مارى ادعت أنها مزيفة . والظاهر أن ابنها اعتبرها «حقيقة ، لأنه أتلفها(٣٨) ، ولم يبق إلا صور منها» . ولما أطلع ملوك القارة على هذه الصور تصرفوا وكأنما وثقوا من صحتها(٣٩) . وارتابت اليزابث أول الأمر فى صحتها ، ثم عادت فسلمت بها فى شىء من التردد ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الرسائل ، هو الارتياب فى أن امرأة تتوسط فى قتل زوجها ثم تفصح فى طيش وإسهاب بالغين عن مقاصدها فى رسائل تعهد بها إلى رسل يمكن أن يعترض أحد سبيلهم أو يرشوهم ، ثم أنه يبدو من المستحيل أن يحتفظ بوثول بمثل هذه الرسائل التى تدينه وتورطه فى جريمة . ثم من غير المحتمل بنفس القدر أن يوجد فى اسكتلندة أحد حتى الداهية لثنجتون نفسه (المشتبه فيه بصفة خاصة) كان فى مقدوره أن يزيف أى جزء هام من هذه الرسائل فى سحابة اليوم الذى مضى بين الاستيلاء على الصندوق وعرض الرسائل على المجلس أو البرلمان . والرسالة الثانية التى تحمل أكبر إدانة ، مطولة بشكل غريب . وتقع فى عشر صفحات بالمطبعة . ولو كانت مزيفة ، لكانت أكبر عملية تزييف غير عادية ، لأن محتواها العاطفى يبدو متطابقاً مع طبيعة مارى ، قدر تطابق الكتابة مع خط مارى . وإنها لتمثل مارى شريكة ضالعة فى قتل دارنلى ، مترددة تملؤها الحسرة والأسى ، وتشعر بالعار والخجل من أجل ذلك(*) .

وسمح الملك العليل المتخوف الواثق بأن ينتقل عبر اسكتلنده فى محفة ليقيم فى بيت

(*) يميل النقاد إلى القول بأن الرسائل حقيقية فى معظمها مع بعض التحريف . وذهب لورد أكتون وهو رجل خبير كاثوليكى أمين : إلى أن أوبما من هذه الرسائل حقيقية (٤٠) ؛ وأن الرسالة الثانية مزيفة ويمكن قراءة هذه الرسائل فى كتاب أندرو لانج **Mystery of Mary Stuart** ؛ ص ٢٩١ - ٤١٤ .

قسيس «كيرك أو فيلد» القديم في ضواحي أدنبره، وفسرت ماري عدم نقله فوراً إلى قصر هوليرود بأنها خشيت انتقال العدوى إلى طفلهما . وهناك رقد لمدة أسبوعين ، حيث كانت ماري تزوره يومياً . وثابرت على تمريضه والعناية به حتى استرد صحته ، وكتب إلى والده (٧ فبراير ١٥٦٧) « . . . . إن صحتي الجيدة هي . . . . النتيجة السريعة لحسن رعاية . . . . الملكة التي أؤكد لكم أنها كانت طيبة طيلة هذه المدة ، ولا تزال ، تسهر على العناية بي ، على أنها الزوجة الطبيعية المحبة . ومع ذلك لا زلت آمل أن يمن الله علينا بما يدخل الفرح على قلوبنا التي أضنتها المتاعب طويلا[٤١] » . ولماذا كانت تقوم على تمريضه والعناية به طيلة أسابيع مملة إذا كانت تعلم أنه كان سيقتل حتما ؟ « إن هذا جزء من السر الكامن وراء ماري استيوارت . وفي مساء ٩ فبراير تركته لتشهد حفل زفاف إحدى وصيفاتها في هوليرود ، وفي تلك الليلة حدث انفجار في بيت كيرك أو فيلد ، وفي الصباح وجد دارنلي ميتاً في الحديقة .

وسلكت ماري في أول الأمر مسلك المرأة البريئة . فحزنت وولولت وأقسمت أن تثأر . وأمرت أن تجلل غرفتها بالسواد وأن يحجب عنها الضوء ، وبقيت تعاني الظلام والوحدة . وأمرت بالتحقيق القضائي في الحادث ، وأعلنت عن جائزة من المال والأرض لمن يدلي بأية معلومات تؤدي إلى القبض على الجناة . ولما ظهرت الإعلانات على الجدران في المدينة تتهم بوثول بالقتل ، وكان بعضها يورط الملكة في الحادث ، صدر بيان يهيب بموجهي الاتهام أن يتقدموا بأدلتهم ، ويعد بحماية المبلغين ومكافأتهم ، ورفض واضعو الإعلانات أن يظهروا ، ولكن إرل لنوكس حث الملكة على تقديم بوثول للمحاكمة على الفور . وأيد بوثول هذا المطلب ، وفي ١٢ أبريل مثل أمام المحققين . ولكن لنوكس لم يبرح جلاسجو ، لأنه كان يعوزه دليل الاتهام ، أو أنه كان يخشى جنود بوثول في العاصمة . وانتهى التحقيق إلى تبرئة بوثول ، وأعلن البرلمان براءته رسمياً . وفي ١٩ أبريل أقنع آرجيل وهنتلي ومورتون واثني عشر نبيلا آخرين بتوقيع « عهد آنسلي » يثبتون فيه ثقتهم ببراءته ، ويتعهدون بالدفاع عنه ، ويوافقون على زواجه من ماري التي أولت بوثول آنذاك عطفها وحبها علانية ، وزادت على ما كانت قد أغدقت عليه من هدايا ثمينة .

وفى ٢٣ أبريل زارت ابنها فى سترلنج ، وقد قدر لها ألا تراه بعد اليوم أبداً . وفى طريق عودتها إلى دبلن مع لثنجتون كمن لها بوثول وجنوده وهاجموها وحملوها بالقوة إلى دنبار (٤ أبريل) . واحتج لثنجتون وهدده بوثول بالقتل . ولكن مارى أنقذته وأطلق سراحه ، وانضم بعد ذلك إلى أعداء الملكة . وفى دنبار استؤنفت المفاوضات لطلاق بوثول . وفى ٣ مايو عادت مارى وبوثول إلى أدنبره ، وأعلنت أنها طليقة من كل قيد ، وفى ٧ مايو منح بوثول الطلاق . وفى ١٥ مايو ، حين رفض قسيسها الكاثوليكى تزويجهما (هى وبوثول) ، تزوجا وفق الطقوس البروتستانتية ، أمام أسقف أوركنى الذى كان فيما مضى كاثوليكياً . وانقلبت ضدها ، بوصفها نفساً هالكة ، أوربا الكاثوليكية التى كانت يوماً تناصرها . ونأى عنها رجال الدين الكاثوليك ، ونادى القساوسة البروتستانت بخلعها . ووقف الأهالى منها موقفاً عدائياً . أما الأقلية التى تعاطفت معها فقد عزت غرامها الطائش إلى جرعة حب أعطاها إياها بوثول .

وفى ١٠ يونية أحاطت عصابة مسلحة بقصر بورثوك Borthwick حيث كانت تقيم مارى وبوثول ، فهرب الاثنان ، وكانت مارى فى ثياب رجل . وفى دنبار جمع بوثول ألف رجل ، سعت مارى وبوثول بهم أن يشقوا طريقهم عائدين عنوة إلى أدنبره ، فاعترضهما فى كاريرى هل (١٥ يونية) قوة مماثلة ترفع راية نقش عليها صورة دارنلى الميت وصورة الطفل جيمس السادس . وعرض بوثول تسوية الموضوع بالنزال الفردى ، ولكن مارى رفضت أن تسمح له بذلك . وارتضت أن تستسلم إذا سمح لبوثول بالهرب . وادعت فيما بعد أن زعماء الثوار كانوا قد وعدوها بالولاء لها إذا لحقت بهم دون قتال[41] . ولاذ بوثول بالفرار إلى الشاطىء واتخذ طريقه إلى الدنمرك . وهناك بعد عشر سنوات قضاها فى السجن بأمر ملك الدنمرك قضى بوثول نحبه وهو فى سن الثانية والأربعين (١٥٧٨) .

ورافقت مارى معتقليها إلى أدنبره وسط صيحات الجنود والأهالى . « أحرقوا العاهرة اقتلوها أغرقوها[42] » واحتجزت تحت الحراسة فى دار رئيس البلدية وهناك ، تحت نافذتها التى ظهرت منها شعثاء الشعر نصف عارية ، استمرت

الجموع تهددها بأقذع العبارات . وفى ١٧ يونية ، رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة نقلت إلى سجن سحيق وأكثر أمناً ، فى جزيرة فى بحيرة لوك ليفن ، على بعد نحو ثلاثين ميلا إلى الشمال من العاصمة . وهناك طبقاً لما رواه سكرتيرها كلود وضعت توأمين قبل الأوان(٤٤) . وأرسلت ملتمساً إلى الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت التدخل ، وأصدرت اليزابث تعليمات إلى مبعوثها بالوعد بحماية مارى ، وتهديد النبلاء بأشد العقاب إذا مسوا الملكة بأى أذى ، ودعا نوكس إلى إعدام مارى ، وأنذر بأن الله سوف يرسل إلى إسكتلندة بطاعون فظيع إذا أبقت على حياة مارى(٤٥) . وفى يونية أعاد اللوردات « رسائل الصندوق الفضى » ، وتوسلت مارى إلى البرلمان أن يستمع إليها ، (إلى مارى) ، ولكنه رفض على أساس أن الرسائل أوضحت قضيتها بما فيه الكفاية . وفى ٢٤ يولية وقعت وثيقة تخليها عن العرش ، وعين مورى وصياً على ابنها .

وبقيت لنحو أحد عشر شهراً أسيرة فى قصر لوك ليفن ، وخففت قيود السجن تدريجياً فتناولت الطعام مع أسرة وليم دوجلاس صاحب القصر ، ووقع أخوه الأصغر جورج فى غرامها ، وساعدها على الهرب (٢٥ مارس ١٥٦٨) واعتقلت ، ولكنها فى ٢ مايو عاودت المحاولة وأفلحت . ووصلت تحت حماية دوجلاس الصغير ، إلى داخل البلاد حيث التقت بجماعة من الكاثوليك ، وركبت فى ظلام الليل إلى لسان فورث ، وعبرته ، وآوت إلى بيت آل هملتون ، وهناك فى بحر خمسة أيام ، تجمع ستة آلاف رجل ، وأقسموا أن يعيدوهـــا إلى العرش ، ولكن مورى دعا البروتستانت فى إسكتلندة إلى حمل السلاح . والتقى الجمعان فى لانجسيد بالقرب من جلاسجو (١٣ مايو) ، ودحر جيش مارى السيء التنظيم . وهربت مرة أخرى ، وجدت السير على ظهر جوادها فى تهور ، ثلاث ليال سوياً ، إلى دندرينان أبى على خليج سولواى . وآنذاك أعادت إلى مانحها ، الماسة التى كانت اليزابث يوماً قد أهدتها إلى « أختها العزيزة » ، مع رسالة تقول « إنى أعيد تلك الجوهرة إلى ملكتها ، وكانت رمزاً لصداقة ومعونة موعودتين(٤٦) » . وفى ١٦ مايو ١٥٦٨ عبرت خليج

سولواى فى قارب مكشوف لصيد السمك ، ودخلت إنجلترا ، ووضعت مصيرها بين يدى غريمتها .

٥ — التكفير ١٥٦٨ — ١٥٨٧

ومن مدينة كارليل Carlisle (فى شمال غرب إنجلترا) أرسلت مارى رسالة ثانية إلى اليزابث تطلب مقابلتها لتشرح لها موقفها وسلوكها . وكانت اليزابث من حيث المبدأ تناهض مساعدة الثوار ضد أى حاكم شرعى . ومن ثم مالت إلى دعوة مارى لمقابلتها . ولكن مجلس شورى الملكة أوقعها فى حيرة وارتباك بما ساق لها من تحذيرات : فلو أن مارى سمح لها بالذهاب إلى فرنسا ، لأغريت الحكومة الفرنسية بارسال جيش إلى اسكتلنده لإعادة مارى إلى العرش . ولإعادة اسكتلنده حليفة كاثوليكية لفرنسا وشوكة فى ظهر انجلترا ، وعند ذاك تساند فرنسا دعوى مارى فى عرش انجلترا بقوة السلاح . كما يساندها الكاثوليك الانجليز . ولو بقيت مارى حرة طليقة فى انجلترا فمن الممكن أن تكون مصدر بؤرة مهددة الثورة الكاثوليك ، وانجلترا لاتزال فى أعماق قلبها كاثوليكية فى الكثير الغالب . وإذا أرغمت انجلترا النبلاء الاسكتلنديين على إعادة مليكتهم إلى عرشها فإن حياة هؤلاء النبلاء تتعرض للخطر . كما تفقد انجلترا حلفاءها البروتستانت فى اسكتلنده : وربما اتفق سيسل مع هللام فى الرأى القائل بأن احتجاز ملكة الاسكتلنديين أو تقييد حريتها قسرا ، إنما هو خرق لكل قانون ، طبيعى أو عام أو محلى[٤٧] » . ولكنه أحس بأن مسئوليته التى تطغى على كل ماعداها ، هى حماية انجلترا .

ولما كان من إحدى مهام الدبلوماسية أن تخلع على الواقعية ثوب الأخلاقية ، فقد أبلغت مارى أنه ينبغى عليها قبل الاستجابة إلى طلبها فى اللقاء مع الملكة اليزابث ، أن تبرىء نفسها من عدة اتهامات أمام لجنة تحقيق . فأجابت مارى بأنها ملكة ، ولا يمكن أن تحاكم أمام مندوبين عاديين ، وبخاصة من بلد آخر . وطلبت أن تكون لها حرية العودة إلى اسكتلنده أو الذهاب إلى فرنسا . كما طلبت أن تلتقى بمورتون ولشنجتون فى حضرة اليزابث . ووعدت باثبات إدانتهما فى قتل دارنلى . وفى ١٣ يولية ١٥٦٨ أمر المجلس الانجليزى بنقلها من كارليل (لقربها الشديد من

الحدود) إلى قصر بولتون بالقرب من يورك . وهناك خضعت ماري للسجن البسيط بناء على وعد اليزابث : « ضعي نفسك بين يدي دون تحفظ ، ولن ألقي بالا إلى أي شيء يسيء إليك . وسيكون شرفك في مأمن من أي خدش . ولسوف تعادين إلى عرشك(٤٨) » . ولما هدأت اليزابث من روع ماري بهذا الشكل ، وافقت الأخيرة على تعيين ممثلين لها في لجنة للتحقيق ، وحاولت أن ترضي اليزابث بادعائها قبول المذهب الانجليكاني ، ولكنها أكدت لفيليب ملك أسبانيا أنها لن تتخلى عن قضية الكاثوليك(٤٩) . ومن ذلك الوقت باتت ماري واليزابث فرسي رهان في سباق للنفاق ، الأولى تلتمس لنفسها العذر بأنها سجين ملكي خانوه وغدروا به ، والثانية بأنها ملكة تكتنفها المخاطر .

واجتمعت لجنة التحقيق في يورك في اكتوبر ١٥٦٨ . ومثل ماري فيها سبعة أشخاص أهمهم جون ازلي أسقف روس الكاثوليكي ، ولورد هريز Herries من إقليم المستنقعات الغربية في اسكتلنده ، وهو كاثوليكي أيضا ، وعينت اليزابث ثلاثة من البروتستانت . هم دوق نورفولك ، وارل سسكس ، وسير رالف سادلر . ومثل أمام اللجنة موري ومورتون ولثنجتون الذين عرضوا « رسائل الصندوق الفضي » على الأعضاء الانجليز سرا . وقالوا إنه إذا أقرت ماري أن يكون موري وصيا على العرش ، وقبلت أن تعيش في انجلترا على راتب تقاعد كبير تدفعه لها اسكتلنده ، فلن تذاع الرسائل . ولكن نورفولك — الذي كان يحلم بالزواج من ماري ، ومن ثم يصبح ملكا على انجلترا بعد وفاة اليزابث ، رفض هذا العرض . أما سسكس فقد كتب إلى اليزابث بأنه يبدو من المرجح أن تكسب ماري قضيتها(٥٠) .

وأمرت اليزابث بأن تنتقل المحاكمة إلى وستمنستر . وهناك وضع موري الرسائل أمام المجلس ، وانقسم الرأي حول حجية الوثائق ، ولكن اليزابث قضت بأنها لن تستقبل ماري قبل أن تثبت عدم صحتها . وطلبت ماري أن تطلع على الرسائل الأصلية أو صورتها ولكن اللجنة رفضت هذا الطلب : ولم تطلع ماري قط على أصل الرسائل أو صورها(٥١) . وفي ١١ يناير ١٥٦٩ انفضت اللجنة دون أن تصدر قرارا . واستقبلت اليزابث موري ثم أعيد إلى اسكتلنده ومعه الرسائل . ونقلت

ماري — وهي غاضبة متحدية إلى سجن أشـــد قيودا فى تتبرى Tutbury على نهر ترنت ، واحتجت الحكومات الأجنبية ، ولكن اليزابث أجابت بأنهم لو اطلعوا على الأدلة التى قدمت إلى اللجنة لاعتبروا معاملتها لمارى لينة هينة . لا قاسية[٥٢] . وأشار السفير الأسبانى على فيليب بغـــزو انجلترا ووعده بمعاونة شمال انجلترا الكاثوليكى له ، ولكن فيليب تشكك فى مثل هذه المعاونة ، كما أنذره دوق ألفا بأن اليزابث قد تأمر بقتل مارى عند أول بادرة للغزو أو الثورة .

وقامت الثورة . ففى ١٤ نوفمبر ١٥٦٩ قاد ارل نورثمبرلند وارل وستمورلند جيشا قوامه ٥٫٧٠٠ من الثوار إلى درهام ، وأطاحوا بمكتب الطائفة الانجليكانية وأحرقوا كتاب الصلوات العامة ، واستردوا المذبح الكاثوليكى ، واستمعوا إلى القداس ، ودبروا هجوما على تتبرى لاطلاق سراح مارى ، ولكن اليزابث فوتت عليهم الفرصة بنقـــل مارى إلى كوفنترى فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٩ . وعجل ارل سسكس على رأس جيش معظمه من الكاثوليك ، باخماد الثورة . وأمرت اليزابث « بشنق المقبوض عليهم من المتمردين وأتباعهم المتواطئين معهم ، وألا تنقل جثثهم بل تظل فى أماكنها حتى تتساقط اربا[٥٣] » . وبهذا أمكن التخلص من نحو ستمائة رجل وصودرت أملاكهم للتاج ، وفر نورثمبرلند ووستمورلند إلى اسكتلنده . وفى فبراير ١٥٧٠ قاد ليونارد داكريس ثورة أخرى من الكاثوليك . ولكنه هزم أيضا ، وهرب عبر الحدود .

وفى يناير ١٥٧٠ كتب نوكس إلى سيسل يشير عليه باصدار أمره بقتل مارى فورا ، « فانك إذا لم تستأصل الجذور عادت الأغصان التى تبدو ذابلة متكسرة إلى النمو والازدهار[٥٤] ، وكان قد فرغ آنذاك من كتابه « تاريخ الاصلاح الدينى فى مملكة اسكتلنده » — وهو كتاب لا يدعى عدم التحيز : قصصى غير دقيق ، ولكنه مفعم بالحيوية زاخر بالمعلومات عن سير الأفراد ، ذو أسلوب طريف فردى لاذع لأنه صادر عن واعظ لا يخشى فى الحق لومة لائم ، يصارح كلا بما فيه دون مواربة . وهو رجل موجع قاس ولكنه عظيم ، حقق حلمه فى القوة والسيطرة أكثر مما فعل كلفن ،

وكان يبغض من كل قلبه ، ويناضل فى بسالة وجرأة ، ويستنفد آخر خفقة من الطاقة الجبارة إلى حد لايصدق لارادته الحديدية . وما جاء عام ١٥٧٢ حتى كان قد استنزف قوته ، فلم يعد يستطيع المشى — إلا إذا أعانه عليه أحد . ولكنه كان يلوذ بمن يأخذ بيده يوم الأحد حتى يصل إلى المنبر فى كنيسة سانت جيلز St. Giles وألقى آخر موعظة له فى ٩ نوفمبر ١٥٧٢ ، ورافقه كل شعب الكنيسة إلى مسكنه ، ووافاه الأجل فى ٢٤ نوفمبر ، وهو فى السابعة والستين من العمر ، فقيرا كيوم ولدته أمه . « انه لم يتجر بكلمة الرب » وترك للأعقاب أن تحكم عليه . لن يدرك هذا العهد الجحود ماذا كان بالنسبة لبلدى ، ومع ذلك فإن الأجيال القادمة سوف تضطر أن تكون شواهد عدل على الحقيقة . [٥٥] إن قلة من الناس هى التى أثرت تأثيرا حاسما فى معتقدات الشعب ، وإن قلة من أهل عصره ضارعته فى تشجيعه للتعليم وفى التعصب وفى ضبط النفس . ولقد اقتسم نوكس وماري روح اسكتلنده ، وكان هو يمثل الاصلاح الدينى . وهى تمثل عصر النهضة ، واندحرت مارى لأنها — شأنها شأن البزابث — لم تعرف كيف تزاوج بينهما :

وحاولت مارى — مثل نمر قلق هائج حبيس — كل إمكانات الهرب ووسائله . وفى ١٥٧١ قام روبرتودى ريدولفى ، وهو فلورنسى من أصحاب المصارف ذوى النشاط فى لندن — قام بدور الوساطة بين مارى والسفير الأسبانى ، وأسقف روسى ، ودوق ألفا ، وفيليب ملك أسبانيا ، والبابا بيوس الخامس . واقترح أن يرسل ألفا على انجلترا قوات أسبانية من الأراضى الوطيئة ، وأن تغزو انجترا فى نفس الوقت قوة كاثوليكية من اسكتلنده ، وأن تخلع البزابث عن العرش ، وتنصب مارى ملكة على انجلترا واسكتلنده ، وأن يتزوجها نورفولك بهذه الخطة ، فلم يوافق عليها موافقة صريحة ، ولم يكشف عنها لأحد . وأقرتها مارى بصفة مؤقتة . [٥٦] ودفع البابا لريدولفى بعض المال على ذمة المشروع ، ووعد بأن يوصى فيليب بقبوله ، ولكن فيليب علق رأيه على موافقة ألفا الذى دمغ المشروع بالسخافة والحمق ، على أنه مشروع خيالى ، وأنه لن ينتهى الا بكارثة على أصدقاء مارى . وضبطت رسائل ريدولفى ونورفولك لدى من قبض عليهم من خدم مارى والدوق . وأودع السجن

نورفولك وروس وعدد من النبلاء الكاثوليك . وحوكم نورفولك بتهمة الخيانة ، وصدر الحكم عليه . وترددت أليزابث فى التصديق على حكم الإعدام على مثل هذا النبيل البارز العظيم . ولكن سيسل والبرلمان الانجليزى وأقطاب الكنيسة الانجليكانية ، طالبوا بإعدام نورفولك ومارى كليهما . واتخذت اليزابث حلا وسطا فأرسلت نورفولك إلى السجن (٢ يونية ١٥٧٢) . ولما تراءت إلى انجلترا أنباء مذبحة سانت برثلميو (٢٢ أغسطس) تعالت الصيحات من جديد ، للمطالبة بإعدام مارى [٥٨] . ولكن اليزابث أصرت على الرفض .

ولن نستطيع أن ندرك مدى يأس مارى ومدى شعورها بفداحة الذنب ألا إذا تذكرنا أنها قضت فى الأسر قرابة تسعة عشر عاما . وكان مكان احتجازها يتغير ، باستمرار ، مخافة أن العطف الذى يشعر به نحوها أهالى البلاد المجاورة أو سجانوها ، يأتى بمؤامرات أخرى أو يغرى بها ، وكانت شروط احتجازها تتسم بالروح الانسانية ، حيث سمح لها بتسلم معاشها — الفرنسى — ١٢٠٠ جنيه سنويا — وأعطتها الحكومة الانجليزية مبلغاً محترما للطعام والعلاج الطبى والخدم ووسائل الترفيه وسمح لها بحضور القداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية ، وحاولت أن تشغل الساعات الطوال بالتطريز والقراءة ، وفلاحة البستان واللعب مع كلابها المدللة ولما تلاشت آمالها فى الحرية ، فقدت حرصها على العناية بنفسها ، ولم تتريض إلا قليلا ، وأصبحت مترهلة بدينة ، وأصيبت بالروماتيزم ، وتورمت رجلاها فى بعض الأحيان إلى حد لا تستطيع معه المشى . وفى ١٥٧٧ ، وهى بنت الخمسة والثلاثين عاما فقط ، ابيض شعرها فغطته بشعر مستعار .

وعرضت ، فى يونية ١٥٨٣ ، أن تنزل عن أى حق لها فى تاج إنجلترا ، إذا أطلق سراحها ، وألا تتصل بمتآمرين قط ، وأن تعيش فى أى مكان فى إنجلترا تختاره اليزابث ، وألا تبتعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال . وأن تخضع لرقابة جيرانها واشرافهم . ولكن أشير على اليزابث بألا تثق فيها .

واستأنفت مارى مشروعات الهرب ، وبعدة وسائل يائسة متنوعة سعت إلى الاتصال

بسفيرى فرنسا وأسبانيا وحكومتيهما . وبأنصارها فى اسكتلنده وبممثلى البابا . وكانت الرسائل تهرب منها وإليها فى ثياب الغسيل وفى الكتب ، وفى العصى ، وفى الشعر المستعار ، وفى بطانة الأحذية . ولكن جواسيس سيسل وولسنهام كشفوا عن كل مؤامرة فى حينها . وحتى بين الطلبة والقساوسة فى كلية الجزويت فى ريمس ، كان لولسنهام عملاء ووكلاء يبلغونه بكل شىء .

ولكن الحالة الرومانسية التى أحاطت بمارى الأسيرة حركت الشفقة والعطف فى قلوب كثير من الشبان الانجليز ، كما ألهبت حماسة الشبان الكاثوليك . وفى ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروكمورتون ، وهو كاثوليكى ، وابن أخت المغفور له سفير اليزابث لدى فرنسا ، دبر مؤامرة أخرى لإطلاق سراح مارى ، ولكن سرعان ما كشف أمره وعذب حتى اعترف . وصرخ مولولا : « لقد كتمت كل أسرارها ، تلك التى كانت أعز ما لدى فى هذه الدنيا بأسرها[٥٩] » . ومات بضربة من فأس الجلاد وهو فى سن الثلاثين .

وبعد ذلك بعام واحد ، أقنع وليم بارى parry ، وهو أحد الجواسيس الذين يعملون فى خدمة سيسل ، أقنع القاصد الرسولى فى باريس ، بأن يقدم إلى جريجورى الثالث عشر طلبا بالغفران التام ، على أساس أنه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح مارى ستيوارت وإعادة انجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية . ورد وزير البابا (٣٠ يناير ١٥٨٤) بأن قداسته اطلع على التماس بارى ، وابتهج لما اعتزم القيام به ، وأنه سيرسل إليه الغفران المطلوب ، ويكافئه على جهوده[٦٠] . وحمل بارى هذا الرد إلى سيسل . واتهم جاسوس انجليزى آخر — يدعى ادموند نفيل — اتهم بارى بتحريضه على قتل اليزابث ، وقبض على بارى ، واعترف ، فشنق ، ومزقت أوصاله[٦١] ، وهو لايزال ينبض بالحياة .

ولما اشتد غضب مجلس الملكة اليزابث بهذه السلسلة الطويلة من المؤامرات وجزع وفزع لمقتل وليم أورانج ، صاغ « التعهد بالتكاتف والترابط » ، يتعهد الموقعون عليه بألا يرتضوا قط خلفا لمليكتهم ، أى شخص جرت لمصلحته أية محاولة للقضاء على اليزابث ، وأن يعذبوا حتى الموت أى فرد اشترك فى مثل هذه

المحاولة . ووقع هذا التعهد كل أعضاء المجلس ومعظم أعضاء البرلمان ، كما وقعه ذوو المكانة فى طول انجلترا وعرضها ؛ وبعد سنة أسبغ البرلمان على هذه الوثيقة صفة القانون النافذ المفعول أو المعمول به .

ولكن هذا لم يحل دون مزيد من المؤامرات . ففى ١٥٨٦ أغرى جون بلارد وهو قسيس كاثوليكى رومانى ، أنتونى بابنجتون ، وهو شاب ثرى كاثوليكى ، أغراه بتدبير مؤامرة لقتل اليزابث وغزو انجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضى المنخفضة ، وتنصيب مارى على العرش . وكتب بابنجتون إلى مارى بهذا ، وأبلغها أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من مغتصبة العرش ، وسألها إقرارا للخطة . وفى خطاب مؤرخ فى ١٧ يولية ١٥٨٦ قبلت مارى مقترحات بابنتجتون ، ولم توافق موافقة صريحة على قتل اليزابث ، ولكنها وعدت بالمكافأة عند نجاح المشروع (٦٢) . وكان الرسول الذى عهد إليه سكرتيرها بحمل هذا الرد عميلا سريا لولسنهام . فأخذ صورة من الرسالة وأرسلها إلى ولسنهام ، وأرسل أصل الرسالة إلى بابنجتون . وفى ١٤ أغسطس قبض على بابنتجتون وبلارد ، وبعد ذلك بقليل أودع السجن نحو ثلثمائة من أبرز الكاثوليك ؛ واعترف الزعيمان ، وأغرى سكرتير مارى بالاعتراف بصحة خطابها (٦٣) . وأعدم ثلاثة عشر من المتآمرين ، وأطلقت الصواريخ النارية فى سماء لندن ، ودقت النواقيس . وأنشد الأطفال التسابيح شكرا لله على نجاة الملكة اليزابث . ودوت الصيحات فى انجلترا البروتستانتية تطالب بموت لمارى :

وفتشت حجرات مارى ، وجمعت كل أوراقها ، وفى أكتوبر نقلت إلى قلعة فوذرنجاى Fotheringay . وهناك جرت محاكمتها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة وأربعين من النبلاء . ولم يسمح لها بانتداب من يدافع عنها ، ولكنها دافعت عن نفسها فى عزم وإصرار . وأقرت باشتراكها فى مؤامرة بابنجتون ؛ ولكنها أنكرت إقرارها للقتل ، واحتجت بأنها ، كانسان سجن ظلما وعدوانا لمدة تسعة عشر عاما ، لها كل الحق فى تخليص نفسها بأية وسيلة كانت . وأدانتها اللجنة بالاجماع . وطلب البرلمان إلى اليزابث أن تصدر أمرها باعدامها . ولكن هنرى الثالث ملك فرنسا قدم طلبا مهذبا

للرأفة . ولكن اليزابث قالت إن مثل هذا الطلب جاء بسند ضعيف من حكومة ذبحت آلافاً من البروتستانت دون محاكمة . ودافع معظم إسكتلنده الآن عن مليكتهم ، ولكن ابنها قام بوساطة تعوزها الحماسة ، حيث ارتاب فى أنها أنكرته وتبرأت منه فى وصيتها لأنه بروتستانتى . وأوعز ممثله فى لندن إلى ولسنجهام إلى أنه — ابنها ، جيمس السادس — ولو أنه حريص على ألا تقتل أمه ، سوف يعتبر الموضوع منتهياً ، ويقنع بأن يثبت البرلمان الانجليزى حقه فى أن يخلف اليزابث على العرش ، وتزيد اليزابث من مبلغ المعاش الذى ترسله إليه . وضيع الإسكتلندى المحاذر الحريص — الوقت سدى ، بدافع من الطمع شديد ، إلى حد أن أهالى إدنبره كانوا يطلقون عليه صيحات الاستهزاء والاستهجان ، وينعبون كالبوم فى الشوارع(٦٤) . ولم يبق بين مارى وبين الموت إلا تردد اليزابث .

وانقضت قرابة أشهر ثلاثة تجرر الأيام فيها أذيالها متثاقلة ، قبل أن تحزم اليزابث المنهوكة المنزعجة أمرها ، ثم لم تفعل شيئاً . كانت قادرة على السماحة والرحمة : ولكنها سئمت حياة الفزع من أن يعاجلها بالقتل فى أية لحظة أنصار امرأة تدعى حقاً فى عرشها ، كما وضعت فى اعتبارها خطر غزو انجلترا من جانب فرنسا وأسبانيا وإسكتلنده احتجاجاً على إعدام ملكة ، كما فكرت فى إمكان موتها هى ، ميتة طبيعية أو بيد أثيمة ، وفى وقت يتيسر فيه لمارى وللكاثوليكية أن ترثا انجلترا : وحثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام ، ووعد بأن يتحمل هو كل مسئولية نتائجه ، وفكرت فى أن تتفادى هى الحسم فى الموضوع بالإلماع إلى سير أمياس بولت Amias Paulet . المعين لحراسة مارى ، بأنه يمكنه أن يضع حداً لهذا الارتباك . بأن يأمر بإعدام مارى ، بناء على مجرد فهم شفوى بأن الملكة أو مجلسها يرغبان فى ذلك . ولكن بولت أبى أن يتصرف دون أمر كتابى من اليزابث ، وأخيراً وقعت التصديق على الحكم ، وحمله سكرتيرها وليم دافيسون إلى المجلس الذى أرسله فى الحال إلى بولت قبل أن تغير اليزابث رأيها .

أما مارى التى كانت طيلة هذا الإمهال الطويل ، قد عاودها الأمل ، فإنها لم تصدق النبأ فى بداية الأمر ، ثم واجهته بشجاعة . وكتبت إلى اليزابث رسالة مؤثرة ،

سألتهافيها أن تسمح « لخدمى البؤساء الذين باتوا بلا صديق أو معين ... أن ينقلوا رفاتى ليدفنوها فى أرض مقدسة ، مع سائر ملكات فرنسا » : وقيل إنها فى صباح اليوم الذى أعدمت فيه ، نظمت باللاتينية قصيدة قصيرة ، تشيع فيها كل الحماسة والرشاقة اللتين تتسم بهما ترانيم العصور الوسطى :

يا إلهى لقد وضعت كل أملى فيك
أنقذنى الآن يا يسوع العظيم ،
إنى أرسف فى الأغلال وأعانى أشد الآلام ، إنى أضرع إليك
متلهفة باكية راكعة ، أسبح بحمدك ، وأتوسل إليك
أن تخلصنى .

وطلبت أن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الخاص الكاثوليكى ، فلم تجب إلى طلبها ، وأحضر لها سجانوها بدلا منه قسيساً أنجليكانياً ، فرفضته : وارتدت الملابس الملكية لتقابل بها الموت ، وصففت شعرها المستعار بعناية ، وغطت وجهها بخمار أبيض، وتدلى من عنقها صليب ذهبى ، كما كان فى معصمها صليب من العاج : وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من شهود إعدامها ، فقيل لها إنهن قد يحدثن اضطراباً ، فوعدت بأنهن لن يفعلن شيئاً . فرخص لها أن تصحب اثنتين منهن وأربعة رجال : وسمح لنحو ثلثمائة من الإنجليز بأن يشهدوا تنفيذ الإعدام ، فى القاعة الكبرى فى حصن فوذرنجاى (٨ فبراير ١٥٨٧) وسألها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها ، وتلقياها منها . ولما بدأت وصيفتاها فى الصراخ والعويل منعتهما قائلة « لقد تعهدت بالنيابة عنكما » ، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها فى المقصلة ، وسقط الشعر المستعار عن رأسها المفصول عن جسدها ، وكشف عن شعرها الأشيب : وكانت فى سن الرابعة والأربعين .

الصفح والمغفرة للجميع ، والعفو والمغفرة لمارى التى بذلت الجهد بشجاعة لتكون ملكة عادلة بهيجة على حد سواء : ولسنا نعتقد أنها ، وهى التى سهرت طويلا على العناية بزوجها حتى استرد صحته وعافيته ، كانت قد رضيت عن قتله ، ويمكن أن نصفح عن المرأة الشابة التى تخلت عن كل شىء مقابل حب مهماً كان

طائشاً ، وينبغى أن نرثى للمرأة البائسة التى تخلى عنها أصدقاؤها ، والتى قدمت إلى انجلترا تلتمس ملجأ وملاذاً ، فلاقت بدلا منه تسعة عشر عاماً فى غيابة السجن ، ويمكننا أن ندرك محاولاتها الجبارة لاسترداد حريتها . كما يمكن كذلك أن نغفر للملكة العظيمة (اليزابث) التى أصر مستشاروها على أن احتجاز مارى بين جدران السجن ، أمر حيوى بالنسبة لأمن انجلترا وسلامتها ، والتى رأت أن حياتها وسياستها مهددتان دوماً بالمؤامرات من أجل إطلاق سراح منافستها ، مارى ، وإعادتها إلى العرش ، والتى أطالت مدة هذا الأسر البغيض القاسى ، والتى لم تقنع نفسها بإنهائه بالتصديق على إعدام مارى . وكانتا امرأتين نبيلتين ، الواحدة منهما نبيلة سريعة الانفعال ، والأخرى نبيلة وحكيمة عاقلة مع شىء من التردد . وترقد كلتاهما الآن فى انسجام ، الواحدة قرب الأخرى ، فى كنيسة وستمنستر وقد سويت الخلافات بينهما ، فى ظل الموت والسلام :

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٥٦٧ — ١٦٠٣

توج جيمس السادس ملكا على اسكتلنده (٢٩ يولية ١٥٦٧) حين كان عمره ثلاثة عشر شهرا ، حين كانت أمه سجينة فى لوكليفن . وكان عمره ثمانية أشهر حين قتل دارنلى الذى يفترض أنه والده ، كما كان يبلغ من العمر عشرة أشهر حين رأى أمه للمرة الأخيرة ، ولم تعد له إلا اسماوخيالا تغشيه وتلطخه مأساة بعيدة مزرية . وتربى على أيدى لوردات نهازين باحثين عن مصلحتهم ومعلمين معادين لأمه : وتلقى قدرا كبيرا من العلوم الانسانية ، وقدرا أكبر مما ينبغى فى اللاهوت ، وقدرا ضئيلا جدا فى الأخلاقيات ، حتى أصبح أعظم العلماء المسرفين فى الشراب فى أوربا .

وتولى الحكم باسمه أربعة أوصياء على العرش على التوالى — مورى ، لنوكس ، مار ، ثم مورتون ، وكلهم عدا واحدا ، ماتوا ميتة غير طبيعية : ودافعت جماعات النبلاء المتنافسة عن شخص الملك حصن سلطانهم وقوتهم : وفى ١٥٨٢ احتجزه بعض اللوردات البروتستانت تساندهم الكنيسة الاسكتلندية الوطنية ، فى قلعة رثفن Ruthven خشية أن يخضع لنفوذ قريبه الكاثوليكى ازمى ستيوارت ، فلما أطلق سراحه وعد بالدفاع عن العقيدة البروتستانتية ، ووقع تحالفا مع انجلترا البروتستانتية ، ولما بلغ السابعة عشرة من العمر ، نهض بالمهام الفعلية للملك .

وكان شاذا بين الملوك : وكان سلوكه خشنا غير مهذب ، وكانت مشيته بشعة ، وصوته عاليا ، وكان حديثه محنة يبتلى بها سامعه لما فيه من الغلظة والحذلقة المفتقرة

إلى الحكمة . وقال أحد المراقبين الذين لا يكنون له كثيرا من الحب : « كانت معرفته باللغات والعلوم وشئون الحكم أكثر من أى فرد فى اسكتلنده[1] » ولكن نفس المراقب أضاف : « أنه كان مغرورا بشكل غير عادى » . وربما كانت هذه السمة أو الميزة ضرورية للمحافظة على الحياة فى خضم من المتاعب ، بقدر ما هى المظهر المضلل لرجل لايستطيع أن يسترجع فى ذاكرته يوما لم يكن فيه ملكا . ولابد أن يتحلى بشىء من الذكاء المتقد ليحتفظ بتاجه على رأسه فى اسكتلنده ، ويلبس تاجا أعظم فى انجلترا حتى يموت ميتة طبيعية . وكان متقلبا إلى حد ما بالنسبة للجنس ، فتزوج من الأميرة الدنمركية الكاثوليكية ، آن ، ولكن لم يكن به ميل شديد إلى النساء ، وانغمس فى التودد إلى المحظيات إلى حد ساعد على القيل والقال .

وكان عليه أن يشق طريقه بالحيلة والدهاء وسط الأفكار العنيفة المتصارعة فى أيامه . فان أسرة جيز فى فرنسا ، والملك فيليب فى أسبانيا ، والبابا فى رومه ، تعاهدوا معه على استعادة اسكتلندة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكنيسة الاسكتلندية الوطنية كانت تحسب عليه أنفاسه خشية أن ينحرف عن مذهب كلفن . ولكنه لم يحرق الجسور من خلفه ، فتبادل الرسائل المهذبة مع الدول الكاثوليكية ، وكان به ميل إلى تخفيف القوانين المفروضة على العبادة الكاثوليكية فأطلق خفية سراح أحد الجزويت ، وتواطأ فى تهريب آخر[2] . ولكن المؤامرات الكاثوليكية أغضبته ، وأثرت فيه البروتستانتية الظافرة فى انجلترا . وتنبأ بما قدر له مع الكنيسة الوطنية الاسكتلندية .

ولم تكن هذه الكنيسة رفيقا مشجعا مريحا ، وما حلت سنة ١٥٨٣ حتى كان قساوستها يشكلون الأغلبية العظمى من رجال الدين الاسكتلنديين ، وكانت مواردهم ضعيفة وحظهم من علوم الدنيا ضئيلا ، ومن ثم انصرفوا إلى العبادة والورع والتقوى ، وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، وكدوا وجدوا فى إعادة الكنائس المهملة ، ونظموا المدارس ، وتولوا أمر الصدقات ، وحموا الفلاحين من ظلم اللوردات ، وألقوا المواعظ المسهبة التى استوعبها ووعاها مستمعوهم ، بدلا من الكتب والمادة

المطبوعة . وفى جلسات الكنيسة وفى المجامع الإقليمية وفى الجمعية العامة ، حظى الاكليروس الجديد بقوة تنافس تلك القوة التى كانت هيئة الكنيسة الكاثوليكية قد استخدمتها ضدهم ببراعة . ولما كانوا يزعمون أنهم يتلقون الوحى من عند الله، ومن ثم فانهم معصومون من الخطأ فى ناحية العقيدة أو فى الناحية الأخلاقية ، فانهم فرضوا على السلوك العام والخاص رقابة أقسى بكثير منها على عهد حراس أو حماة المذهب القديم المتراخين . وفى كثير من المدن فرضوا غرامات على الاسكتلنديين الذين لم يحضروا الصلوات البروتستانتية ، وفرضوا توبة علنية ، وفى بعض الأحيان عقوبات بدنيـة ، على مايضبط من خطايا[٣] . ورروعوا بانتشار الفجور والزنى ففوضوا رؤساء الكنائس ، فى أن يتنبهوا بتشديد خاص إلى أية انحرافات جنسية ، وأن يبعثوا بتقارير عنها إلى المجامع الكنسية البروتستانتية عند انعقادها ، وصعقوا بالفحش والفجور فى المسرح الإنجليزى فسعوا إلى تحريم التمثيل المسرحى فى سكتلنده ، فلما عجزوا عن ذلك ، حظروا على أتباعهم أن يشهدوه ، وفعلوا مافعله أسلافهم من اعتبار الهرطقة جريمة عقوبتها الاعدام . وتعقبوا السحرة فى حماسة بالغة وأقروا إعدامهم حرقا[٤] . وأقنعوا البرلمان بأن يصدر قانونا يفرض عقوبة الإعدام على أى قسيس يقرأ القداس ثلاث مرات ، ولكن هذا المرسوم لم يطبق على أية حال ، وعندما ترامت إليهم أنباء مذبحة سانت برتلميو ، دعت الكنسية الاسكتلندية البروتستانتية إلى تدبير مذبحة مماثلة للكاثوليك فى اسكتلندة ، ولكن الحكومة أغفلت هذا النداء[٥] .

وباستثناء ادعاء نزول الوحى على القساوسة وعصمتهم من الخطأ ، كانت الكنيسة الوطنية الاسكتلندية (البروتستانتية) أكثر النظم ديمقراطية فى عصرها . وكان قسيسو الدوائر أو الأقسام يختارون رؤساء الكنائس شريطة موافقة شعب الكنيسة ، وكان جمهور المؤمنين يشهدون الجلسات والمجامع والجمعية العامة . وأهاجت وأغضبت هذه الإجراءات الديمقراطية البرلمان الارستقراطى والملك الممسوح بالزيت . ولما كان جيمس يفكر ويجادل — وربما يعتقد ويؤمن — فى أنه يحكم بمقتضى الحق الإلهى ، فانه شكا من أن « جماعة من القساوسة الملتهبين حماسة وغيرة

فى الكنيسة البروتستانتية ، ملكوا قيادة الشعب على هذا النحو ، وأنهم عندما استساغوا طعم الحكم وتلذذوا بحلاوته ، بدأوا يفكرون فى شكل ديموقراطى ... لقد شوهوا سمعتى وافتروا على فى مواعظهم ، لا لأية رذيلة فى شخصى ، بل لأنى ملك اعتبروه أكبر رذيلة(٦) » . وبذلك استؤنف نزاع العصور بين الكنيسة والدولة .

واتخذ النزاع آنذاك شكل هجوم أو حملة من القساوسة على الأساقفة . وكان هؤلاء — وهذا تراث كاثوليكى للكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية — يختارون شكلا بواسطة القساوسة ولكن كانوا فعلا يعينون ، وغالبا ما يفرضون على الاكليروس بواسطة الوصى أو الملك . وكانوا يسلمون قدرا كبيرا من إيرادات الكنيسة إلى الحكومة . ولم يجد القساوسة فى الكتب المقدسة سندا أو أساسا للنظام الأسقفى ، ومن ثم عقدوا العزم على التخلص منه فى اسكتلنده ، على أنه لا يلتئم مع التنظيم الشعبى السائد فى الكنيسة الاسكتلندية الوطنية الجديدة .

وكان زعيمهم أندرو ملفيل ، اسكتلنديا عنيفا متحمسا هيأته الطبيعة ليرث عباءة جون نوكس . وبعد أن أنهى تعليمه الجامعى فى سانت أندروز ، تابع دراسته فى باريس ، ورضع لبان مذهب كلفن على يد بيز Béze فى جنيف . ولدى عودته إلى اسكتلنده (١٥٧٤) عين ، وهو فى التاسعة والعشرين من العمر ، رئيسا لجامعة جلاسجو ، فأظهر مقدرة وكفاية فى إعادة تنظيم المناهج . وقواعد الضبط والسلوك فيها . وفى ١٥٧٨ أسهم فى جمع « الكتاب الثانى لقواعد الانضباط والسلوك » الذى ندد بالنظام الأسقفى باسم المساواة الكهنوتية . ودافع عن الفصل النهائى بين مجالات كل من الكنيسة والدولة . وكان لهذا أثره فى الفصل بينهما فى الولايات المتحدة ، ولكنه طالب بحق القساوسة فى تدريب الحكام المدنيين على ممارسة سلطاتهم « على أساس كلمة الله(٧) » . على أن جيمس ، على أية حال ، أراد أن يكون حاكما مطلقا مثل هنرى الثامن واليزابث ، وآمن بأن نظام الأساقفة ضرورى للادارة الكنسية ، كما أنهم وسطاء مريحون بين الكنيسة والدولة ؛

وفى ١٥٨٠ « لعنت » الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الإسكتلندية (البروتستانتية) وظيفة الأسقف ودمغتها بأنها «حماقة من ابتداع الإنسان » . وصدر الأمر إلى جميع الأساقفة — تحت التهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة ، بأن يكفوا عن مباشرة أعمالهم ، والتقدم إلى الجمعية العامة بطلب الترخيص لهم بأن يكونوا مجرد كهنة عاديين: ونبذت الحكومة « الكتاب الثانى لقواعد السلوك والانضباط » ، وتمسكت بأن الحرمان من الكنيسة لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا صدقت عليه الدولة . وفى ١٥٨١ رشح لنوكس ، وكان آنذاك وصياً على العرش ، روبرت مونتجمرى رئيساً لأساقفة جلاسجو . ولكن قساوسة جلاسجو البروتستانت أبوا أن ينتخبوه ، ولكنه على الرغم من هذا أصر على أن يتولى مهام منصبه ، فقررت الجمعية العامة بزعامة ملفيل حرمانه من الكنيسة (١٥٨٢) ، ورضخ مونتجمرى وانسحب . واتهم ملفيل بالتحريض على (الفتنة) ، فرفض المحاكمة المدنية ، وطالب بأن يحاكم أمام محكمة كنسية . ولما أدين بتهمة احتقار المحكمة ، هرب إلى انجلترا (١٥٨٤) . وأقنع جيمس البرلمان بأن يعلن أنه يعتبر خيانة : رفض الخضوع للقضاء المدنى ، وتدخل القساوسة فى شئون الدولة ، ومقاومة حكومة الأساقفة ، وأية اجتماعات كنسية لا يرخص الملك بعقدها : فآثر كثير من القساوسة أن يلحقوا بملفيل فى منفاه ، على الامتثال لهذه الأوامر . فما كان من جيمس ، تمسكاً بسيادته العليا واستمتاعاً بها ، إلا أن أمعن فى حكم الإرهاب : فعوقب الكهنة لأنهم صلوا من أجل إخوتهم المنفيين ، وأعدم اثنان آخران بتهمة التآمر .

وقاوم رجال الدين والمترددون على كنائسهم ، بما عهد فى الاسكتلنديين من عناد وصلابة ، وشوهت النشرات التى لم يعرف مصدرها سمعة الملك . ونددت الأغانى بطغيانه والعار الذى لحق به من أجله ، وحتى النساء كن له نقداً ساخراً لاذعاً ينذرنه فيه بالجحيم وسوء المصير . وتناقص شيئاً فشيئاً ما كان يحصل عليه أساقفته من الأموال ، وسلموا الدولة منها الأقل فالأقل ، ووجد جيمس أنه بات صفر اليدين ، بلا مال — وهو مصدر قوة إرادته ، واشتد ضعفه سنة بعد أخرى ، وأقر برلمان ١٥٢٩ ، بموافقته التامة ، مرسوماً يحتفظ للكنيسة الإسكتلندية الوطنية (البروتستانتية)

بحريتها ، ويعيد إليها سلطاتها فى الشئون القضائية والضبط ، ويلغى نظام الأساقفة : وعاد المنقيون .

وإذ اشتدت جرأة ملفيل عن ذى قبل ، واجه جيمس بقوله : « خادم الرب الأبله » ، وألقى عليه الحقيقة اللاهوتية التى لا ريب فيها ، فى ١٥٩٦ ، بمثل الثبات ورباطة الجأش اللتين واجه بهما جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك بخمسمائة عام (١٠٧٧) فقال : « إن فى إسكتلندة ملكين ومملكتين . فهناك يسوع المسيح ومملكته ، وهى فى الكنيسة ، وأحد رعاياها الملك جيمس . . . وما هو بملك ولا رئيس ولا لورد ، ولكن مجرد عضو[٨] » . وقال — دافيد بلاك — وهو قسيس كنيسة سانت أندروز ، لجماعة المصلين (١٥٩٦) إن جميع الملوك أبناء للشيطان ، وأن اليزابث كافرة ملحدة . وأن جيمس هو الشيطان بعينه[٩] . واحتج السفير الإنجليزى ، واستدعى مجلس الشورى القس بلاك للتحقيق ، فأبى أن يذهب قائلا إن الجرم الذى يرتكب من فوق المنبر لا يخضع إلا لمحكمة الكنيسة ، هذا فضلا عن أنه تلقى رسالته من عند الله . وأمر جيمس بمحاكمته غيابياً . فذهبت إليه لجنة من القساوسة ، ولكن الملك لم يعالج الأمر بنجاح ، بل على العكس ، طالب بأن تخضع لتصديقه كل قرارات الجمعية الكنسية والبرلمان . ودعا القساوسة إلى صوم عام ، وأعلنوا منذرين متشائمين ، أنه مهما حدث من شىء « فإنهم أبرياء من دم جلالته[١٠] » .

وتجمع حشد من المشاغبين حول المبنى الذى كان يقيم فيه جيمس (١٧ ديسمبر ١٥٩٦) فهرب إلى قصر هوليرود . وفى صباح اليوم التالى غادر إدنبره مع كل حاشيته . وأعلن إلى سكانها ، عن طريق مناد ينطق باسمه ، أنها لم تعد تصلح لتكون عاصمة ، وأنه لن يعـود إليها إلا لتنفيذ الحكم على الثوار والعصاة ، وأمر كل الاكليروس وغير المتوطنين بمغادرة المدينة . ولما لم يجد المشاغبون أحداً ليقتلوه ، تفرقوا . وحزن التجار على فقدانهم ما كان يعود عليهم من ربح فى التعامل مع الحاشية . وتساءل المواطنـون فى دهشة : هل كان النزاع يستحق الاستشهاد الاقتصادى ، وعاد جيمس إلى المدينة فى ظفر مشوب بالغضب (١ يناير ١٥٩٧) ،

وعرضت الجمعية العامة المنعقدة فى برث ، خضوع الكنيسة الوطنية الإسكتلندية ، ووافقت على ألايعين أى قسيس فى المدن الرئيسية دون موافقة الملك وشعب الكنيسة ، وألا يتعرض القساوسة فى خطبهم لقرارات البرلمان أو مجلس الشورى ، وألا يهاجموا شخص أى إنسان من فوق المنبر . وسمح للقساوسة البروتستانت بعد ذلك بالعودة إلى العاصمة (١٥٩٧) . ولكن أعيد نظام الأساقفة . وغطت هدنة كئيبة منكودة على الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة .

وبرزت فى الأدب الإسكتلندى تلك فى الحقبة شخصيتان عظيمتان : الملك نفسه ، وأشهر معلميه . وكانت سيرة حياة جورج بوكانان مدهشة ، فقد ولد فى سترلنجشير فى ١٥٠٦ ، ودرس فى باريس ، وخدم العلم فى فرنسا واسكتلندة ، ونهل الحماسة الفلسفية والسياسية من محاضرات جون ميجور ، وعاد من أجل الحب والعلم إلى باريس : ورجع أدراجه إلى اسكتلندة هرطيقاً هجاء لاذعاً ، وأودعه السجن الكاردينال بيتون ، فهرب إلى بوردو ، وقام هناك بتدريس اللاتينية ، وكتب قصائد ومسرحيات بلغة لاتينية جيدة إلى حد كبير ، وشاهد تلميذه مونتانى يمثل فى إحدى هذه الروايات ، ورأس إحدى الكليات فى كوامبرا ، وسجنته محكمة التفتيش الأسبانية لسخريته من الأخوة (فى فرقة دينية) ، وعاد إلى إسكتلندة وفرنسا ، ثم اسكتلندة حيث تولى تعليم مارى ملكة إسكتلندة (١٥٦٢) ، وعين رئيساً للجمعية العامة (١٥٦٧) وأعلن صحة « رسائل الصندوق الفضى » واتهم بتزييف قسم منها[1] . وأدان — مارى بلا هوادة ولا رحمة فى كتابه « كشف النقاب عن حكم مارى » (١٥٧١) وتولى التدريس لابنها على الرغم من اعتراضها على ذلك ، وتخلى عن هذه المهمة (١٥٨٢) . وجد وجاهد فى كتابه « تاريخ إسكتلندة » (١٥٧٩) لتخليص تاريخ بلاده من « القيود الإنجليزية والغرور الإسكتلندى » : وأكد من جديد فى رسالته « الحكم الشرعى فى إسكتلنده » — على الرغم من تلميذه الذى سيصبح عما قريب ملكاً مستبداً — أكد نظرية العصور الوسطى القائلة بأن المصدر الوحيد للسلطة السياسية ، بعد الله ، هو الشعب ، وأن كل مجتمع يرتكز على عقد اجتماعى ضمنى يقوم على التزامات وقيود متبادلة بين المحكومين والحكام ،

وأن لإرادة الأغلبية ، بحق ، أن تحكم الكل ، وأن الملك يجب أن يخضع للقوانين التي يقرها ممثلو الشعب ، وأنه يمكن بحق أيضا مقاومة الطاغية أو عزله أو قتله[١٢] ؛ فأنت ترى أن أسطورة العقد الاجتماعى ظهرت هنا قبل هوبز بقرن من الزمان ، وقبل مجيء روسو بقرنين . وشجب البرلمان الاسكتلندى كتاب بوكانان ، وأحرقته جامعة أكسفورد ، ولكن كان له أثر شديد . وذهب صمويل جونسون إلى القول بأن بوكانان هو العبقرى الوحيد الذى أنجبته اسكتلنده[١٣] . وأسبغ هيوم ، فى تواضع ، هذا الامتياز على نابيير (عالم رياضيات اسكتلندى ١٥٥٠ — ١٦١٧ ، مخترع اللوغاريتمات) ، أما المؤرخ الاسكتلندى كارليل فقد خص به نوكس ، حيث كان من أشد المعجبين به . أمـــا جيمس السادس فقد كان له آراؤه الخاصة فى هذه المسألة .

وكان الملك مزهواً فخوراً بكتبه قدر زهوه وفخره بحقوقه وامتيازاته . وفى ١٦١٦ نشر مجلدا ضخما « أعمال الأمير الأعظم والأقوى جيمس » ، وهو مهدى إلى يسوع المسيح . وكتب قصائد ، ونصائح إلى الشعراء ، وترجمة « للمزامير » ، ودراسة لسفر الرؤيا ، ورسالة عن « الشياطين » وكتابين من (قطع الثمن) دفاعا من الملكية المطلقة ، أحدهما وهو « الهبة الملكية » (١٥٩٨) كان كتاب نصائح لابنه هنرى فى فن الحكم وواجباته ، أكد حكم الكنيسة على أنه « ليس بالجزء اليسير من مهمة الملك » . أما الثانى وهو « القانون الحقيقى للملكيات الحرة » فقد شرح فيه الحكم المطلق ودافع عنه فى فصاحة هائلة : إن الملوك مختارون من عند الله ، مادامت الأحداث الهامة تفرضها العناية الإلهية ، وأن تعيينهم ومسحهم بالزيت يشكلان سرا مقدسا لا يجوز النطق به ، مثلهما فى ذلك مثل أى سر مقدس آخر . ومن ثم كان لهم كل الحق فى أن يكون حكمهم مطلقا ، وأن معارضتهم تعتبر حماقة وجريمة ، وإثما من شأنه أن يفضى إلى الضرر أكثر من أى طغيان . إن هذا الذى كان بالنسبة لاليزابث أسطورة نافعة ، أصبح بالنسبة لجيمس مبدأ عاطفيا ، ولد لأم ملكة . وورث عنه ابنه شارل النظرية ، ودفع الثمن أو تلقى القصاص .

ومهما يكن من أمر فان انجلترا لم تتنبأ فى ١٥٩٨ بما حدث فى ١٦٤٩ ، وبعد

أن شوب جيمس نخب البروتستانتية وتعهد بالتزامها ، اعترف مجلس شورى المملكة اليزابث به وريثا للتاج الانجليزى ، عن طريق أمه مارى . وبعد مضى أربعة أيام على وفاة اليزابث ، بدأ جيمس (٥ أبريل ١٦٠٣) رحلة بهيجة مرحة من ادنبرة إلى لندن ، وتوقف ، متمهلا ، فى الطريق ، ليحتفى به النبلاء الانجليز ، وفى ٦ مايو وصل إلى المدن التى أخذت زخرفها وأزينت للترحيب به — انحنت الجماهير له ، وقبل اللوردات يديه . وبعد ألف سنة من صراع عقيم لا غناء فيه اتحدت الأمتان (ولم يتحد البرلمانان قبل ١٧٠٧) وهكذا كان عقم اليزابث نافعا مثمرا :

٢ — جيمس الأول ملك انجلترا : ١٦٠٣ — ١٦١٤

أى صنف من الرجال كان قد أصبح جيمس فى سبع وثلاثين سنة ؟ كان متوسط القامة ، ذا رجلين ضعيفتين ، وكرش صغير ، يرتدى سترة ضيقة وبنطلونا محشوين أو مبطنين حتى يمنعا وصــول نصال السفاحين إلى جسمه ، وكان شعره ذا لون أسمر بنى ، وخداه متوردين ، وأنفه مكور ، تشع من عينيه الزرقاوين نظرات الارتياب والحزن ، وكأنما كان الرب خجلا من جسمه . وكان كسولا نوعا ما ، فآثر الراحة من عناء العمل ، اعتمادا منه على اليزابث ، وكانت لغته فظة ، يتميز لهوه وتسليته بالخشونة ، وكان يتمتم ويتلعثم كثيرا ، وكثيرا ما كان لسانه الخشن يفلت بغير حساب . وكان مزهوا كريما ، جبانا مخادعا ، لأنه كثيرا ما تعرض للخطر ، وخدع وغرر به ، مستعدا لتبادل الإساءة ، وليصفح ويلتمس الصفح ، من ذلك أنه عندما أنكر جون جب أنه ضيع بعض الوثائق الهامة ، فقد جيمس صوابه ، وركله بقدمه ، فلما عثر على الأوراق ، جثا أمام معاونه الذى أخزاه وأذله ، وأبى أن ينهض حتى يصفح عنه جب . وكان متسامحا وسط جو من التعصب وعدم التسامح . وكان فى بعض الأحيان صلبا قاسيا ، ولو أنه عادة حنون عطوف . وكان يرتاب فى ابنه هنرى لشعبيته البالغة ، ويحب ابنه شارل إلى حد الحمق . ولم تشب علاقته بالنساء أية شائبة ، ولكنه كان ميالا إلى ملاطفة الشبان الوسيمين . وكان يؤمن بالخرافات ، كما كان عالما . وكان سخيفا لاذعا ، يؤمن بالعفاريت والسحرة فى الوقت الذى يعطف فيه على بيكون وجونسون . نحسد العلمــاء ،

ويولع بالكتب ، وإن من أول قراراته بوصفه ملكا أنه منح جامعتى أكسفورد وكمبردج حق إرسال ممثلين لهما إلى البرلمان . ولما رأى مكتبة بودلى صاح قائلا : « لو لم أكن ملكا لآثرت أن أكان جامعيا ، ولو قدر لى أن أسجن ، وكانت لى الخيرة من أمرى ، لما آثرت مكانا أسجن فيه غير هذه المكتبة ، ملازما لهؤلاء المؤلفين الأفاضل والأساتذة الذين قضوا نحبهم[١٤] . وصفوة القول انه كان رجلا يعوزه الاتزان والحزم ، إلى حد ما ، ولو أنه كان فى قرارة نفسه سمحا ودودا ، يسخر منه الأذكياء ، ولكن يغفر له قومه ، لأنه حتى اقتربت نهايته المحزنة ، وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام .

ولم يكن جيمس يحب الماء كثيرا إلى حد أنه كره استخدامه لأغراض الغسل : وكان يدمن على الشراب ، وأباح فى بعض حفلات حاشيته أن تسرف النساء والرجال فى الشراب حتى تلعب الخمر برءوس الجميع وينتهى الأمر إلى ثمل عاطفى. ودرجت الحاشية على الاسراف فى الملابس وفى الحفلات ، إسرافا لم يسبق له مثيل فى بلاط البرابث . وكانت البرابث تميل إلى التمثيليات التنكرية ، ولكن أما وقد كتب بن جونسون الرواية ، وصمم إنيجو جونز الملابس والمناظر ، وقام بالأدوار فيها اللوردات العظام والسيدات الفاتنات ، وكأنما ارتدى الجميع ، من شدة البذخ ، أموال المملكة ، فإن الفن الخرافى الغريب غير الواقعى بلغ الآن ذروته . وبلغ الاستهتار والخلاعة. والفساد فى البلاط مبلغاً لم يسبق له مثيل . حتى جاء على لسان سيدة فى إحدى روايات جونسون قولها . « أعتقد أننى إذا لم أجد من يحبنى غير زوجى المسكين ، فلسوف أشنق نفسى[١٥] » . وقبل أفراد الحاشية « هدايا » قيمة مقابل استغلال نفوذهم فى الحصول على المراسيم والتراخيص والاحتكارات والمناصب لمن يطلبها . من ذلك أن البارون مونتاجو دفع عشرين ألفاً من الجنيهات مقابل تنصيبه وزيراً للخزانة[١٦] . وروى بسند ضعيف ، أن رجلا حساساً رقيقاً مرض وفاضت روحه عند ما سمع كم دفع أصدقاؤه مقابل تعيينه قاضياً محلياً[١٧] .

ولم يول جيمس مثل هذه المسائل كلها اهتماماً كبيراً : ولم يجهد نفسه كثيراً فى شئون الحكومة : وترك إدارة البلاد لمجلس الشورى الذى يتألف من ستة من

الإنجليز ومثلهم من الإسكتلنديين ، والذى يرأسه روبرت سيسل الذى عينه إرل سالسبورى (١٦٠٥) : وورث سيسل كل شىء إلا الصحة . فقد أقعده عن الحركة ظهره الأحدب ، حتى بات منظره يبعث على الحزن والأسى . ولكنه تحلى بكل ما كان لأبيه من فطنة فى اختيار الرجال وتوجيههم ، وتشبث صامت وكياسة ماكرة ، تفوق بها جميعاً على منافسيه المحليين وعلى أفراد أى بلاط أجنبى . ولما مات « كلب الصيد الصغير » وقع جيمس تحت سيطرة شاب وسيم هو روبرت كار ، وعينه إرل سومرست ، فهيأ له أن يخلف فى مجال السياسة والإدارة ، من هم أكبر منه سناً ، وأكثر صقلا وعلما ، مثل فرانسيس بيكون وإدوارد كوك .

وكان كوك تجسيداً للقانون ، وحارساً أميناً عليه ، اشتهرته محاكمته للورد إسكس فى ١٦٠٠ ، ورالى فى ١٦٠٣ ، والمشتركين فى مؤامرة البارود فى ١٦٠٥ ؛ وخرج على الناس فى ١٦١٠ برأى تاريخى :

> يبدو فى كتبنا أنه فى حالات كثيرة ، يطغى القانون العام
> على قرارات البرلمان ، وفى بعض الأحيان يعتبرها باطلة ؛
> لأنه إذا كان قرار البرلمان مخالفاً للحق العام أو العقل . . . .
> أو يستحيل تطبيقه ، فإن القانون العام لا بد أن يلغيه أو
> يقضى عليه بالبطلان(18) .

وربما كان البرلمان لا يسيغ مثل هذا الرأى ، ولكن جيمس عين كوك رئيساً للمحكمة العليا (١٦١٣) وعضواً فى مجلس الشورى ؛ وانقلب من كونه رجل الملك ، إلى رجل يزعج الملك ويقض مضجعه ، يستنكر البحث أو التحقيق فى الآراء الخاصة ، ويؤيد حرية أعضاء البرلمان فى الكلام ، وتناول بالتجريح سلطة الملك المطلقة فى مذكرات لاذعة تؤكد أن الملوك ليسوا إلا خدماً للقانون . وفى ١٦١٦ اتهمه منافسه بيكون بارتكاب أعمال محظورة ، وعزل كوك ، ثم أعيد إلى البرلمان ليستمر فى تزعم حركة المقاومة ضد الملك ؛ وأودع سجن لندن ١٦٢١ ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه ؛ ومات غير نادم (١٦٣٤) ، مخلصاً أشد الإخلاص لنصوص القانون

وصرامته ، وترك لنا أربعة مجلدات من « مجموعة القوانين » لا تزال تشكل مرجعاً هاماً فى القضاء الإنجليزى(*) .

وفى نفس الوقت كان جيمس يتابع مع البرلمان مناقشته التى كان لا بد أن تتمخض فى عهد ابنه عن الحرب الأهلية وقتل الملك . إنه لم يكتف بممارسة كل السلطات التى كان هنرى الثامن واليزابث قد سيطرتا بها على مشرعيهما المتذمرين أو الذين روعهم التهديد ، إنه صاغ دعاواه على أنها أوامر إلهية : فأعلن إلى برلمان ١٦٠٩ :

> إن مقام الملكية هو أسمى شىء على الأرض ؛ لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله ، فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً . . . إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض . فانكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة فى شخص الملك : إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . . وللملوك نفس القدرة أو القوة : إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفى كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده . ولهم السلطة فى أن يجعلوا . . . من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاءوا — فالبيدق يطيح

(*) يروى [illegible] أن زوجة كوك الثانية – وهى أرملة سيروليم هاتون كانت حاملا عندما بنى بها كوك ، وعندما آوى إلى الفراش وضع يده على بطنها فلحظ جنيناً يتحرك ، فسألها : « ما هذا ؟ لحم فى الوعاء [illegible] ، والا لما تزوجت طباخا (هذا تلاعب بالالفاظ فى الانجليزية Cook - Coke) ويمكن أن نضيف أنها كانت قد رفضت الزواج من منافسه بيكون .

> بأسقف أو بفارس — فيرفعون أياً من رعاياهم إلى عنان السماء
> أو يخسفون به الأرض ، وكأنما يتصرفون في أموالهم[٢٠] .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء ، لأن النظرية السياسة فى العصور الوسطى ، كانت قد جعلت الملك دوما . نائباً عن الشعب صاحب السيادة . والبابوات فقط هم الذين أعلنوا أنهم نواب الله على الأرض ؛ ولكى نضفى على هذه الدعوى أفضل واجهة فلسفية ، يجدر بنا أن نفترض أن البابوات — بوصفهم الرؤوس العليا للسيادة والسلطان فى العصور الوسطى ، كانوا قد آمنوا بأن الدوافع الفردية فى الإنسان قوية إلى حد أن الإبقاء على النظام الاجتماعى لا يتأتى إلا بأن يغرس فى نفوس الناس ، إجلال تقليدى للسلطة الدينية ، وللبابوات بوصفهم صوت الله وممثليه . ولكن إضعاف الإصلاح الدينى للسلطة البابوية أو هدمها . كان قد ترك السلطات السياسية مسئولة فى المقام الأول ، أو فى النهاية ، عن النظام الاجتماعى . وحكم هؤلاء أيضاً بأن السلطة البشرية الخالصة عرضة للتحدى ، إلى درجة أنها لاتقوى على كبح جماح النزعات غير الاجتماعية فى الإنسان ، بطريقة فعالة أو من الناحيه الاقتصادية. ومن ثم نمت نظرية حق الملوك الالهى ، جنبا إلى جنب ، مع تطور القومية والانتقاص من سلطة البابوات . وبعد أن تولى الأمراء اللوثريون فى ألمانيا ، السلطات الروحية التى كانت للكنيسة القديمة فى بلادهم ، أحسوا بأنهم محقون فى أن يحيطوا أنفسهم بالهالة الالهية التى اعتقد معظم الحكام والملوك قبل ١٧٨٩ أنها أساسية لا يستغنى عنها للسلطة الأدبية والسلام الاجتماعى . وأخطأ جيمس فى التعبير عن هذا الافتراض بوضوح أكثر مما ينبغى ، وفى أشد صيغة تطرفا .

وكان من الجائز أن يتقبل البرلمان ، قبولا نظريا (مع ابتسامات خاصة) هذه الاستبدادية الملكية ، إذا كان أعضاؤه ، كما كان الحال مع البزابث وهى فى أوج عظمتها ، من كبار ملاك الأراضى — الذين كانوا مدينين للملوك التيودور بأعمال جليلة بطولية .ولكن مجلس العموم الآن كان يضم بين أعضائه البالغ عددهم ٤٦٧ عضوا ، كثيرا من ممثلى الطبقات التجارية الناشئة الذين لايستسيغون سيطرة ملكية بلا حدود على أموالهم — إلى جانب كثير من البيوريتانيين الذين ينكرون على الملك

دعواه فى أن يحكم ديانتهم . وحدد المجلس حقوقه فى إغفال جرئ لألوهية جيمس، أو حقوقه الإلهية . وأعلن أنه له القول الفصل فى صحة انتخاب أعضائه . وطالب بحرية الكلام ، وحصانة أعضائه ضد القبض عليهم فى أثناء انعقاده ، وأثبت أنه بغير هذا لا يكون للبرلمان أى معنى أو قيمة : واقترح أن يتولى التشريع فى المسائل الدينية ، وأنكر سلطة الملك فى الفصل فى مثل هذه المسائل دون موافقة البرلمان . على أن الأساقفة الأنجليكانيين على أية حال طالبوا بحق المجمع الكنسى الأنجليكانى فى الفصل فى الأمور الكنسية ، على أن تخضع قرارته لموافقة الملك . وأبلغ رئيس مجلس العموم جيمس أنه ليس للملك أن يسن قانونا ، ولكن يستطيع فقط أن يعتمد أو يرفض أى قانون يجيزه البرلمان : وأعلن المجلس فى يونية ١٦٠٤ : « أن امتيازاتنا وحرياتنا هى حقوقنا وتراثناالقانونى : : : وليست بحال من الأحوال أقل شأنا من أراضينا ومتاعنا . . . ولا يمكن انتزاعها منا ، دون أن يكون فى ذلك إساءة صارخة إلى المملكة بأسرها[٢١] » :

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك و « امتيازات » البرلمان ، هذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديموقراطية انجلترا ، بعد مائة من السنين توالت فيها الانتصارات والهزائم :

٣ — مؤامرة البارود : ١٦٠٥

وفوق الصراع الاقتصادى والسياسى استعرت نار الحرب الدينية ، ضاربة فيه بجذور عميقة . وكانت معظم النشرات التى سممت الجو ، عبارة عن حملات عنيفة شنها البيوريتانيون على الأساقفة والطقوس الانجليكانية ، أو الانجليكانيون على صرامة البيوريتانيين وعنادهم ، أو شنها هؤلاء وهؤلاء على مؤامرات الكاثوليك لإعادة انجلترا إلى حظيرة البابوية . ولم يقدر جيمس فظاعة هذه البغضاء ، وكان يحلم « بوفاق شبه ودى » بين البيوريتانيين والأنجليكانيين ، ولهذا الغرض دعا زعماء الفريقين إلى مؤتمر فى « هامبتون كورت » (١٤ ينـاير ١٦٠٤) : ورأس هو الاجتماع ، وكأنه « قسطنطين آخر » ، وأدهش الطرفين كليهما بعلمه اللاهوتى

وبراعته فى الجدل والمناقشة ، ولكنه أصر على « مذهب واحد ، ونظام واحد ، وديانة واحدة شكلا وموضوعا[٢٢] » ، وأعلن أن النظـام الأسقفى أمر لا معدى عنه . وذهب أسقف لندن إلى أن الملك ملهم من عند الله ، « وأنه لم ير له مثيل منذ عهد المسيح[٢٣] » . ولكن البيوريتانيين شكوا من أن الملك تصرف وكأنه طرف فى الدعوى ، أكثر منه حكما أو قاضيا فيها ، ولم يتمخض المؤتمر عن شيء اللهم إلا القرار التاريخى الذى لم يكن يتوقعه أحد ، إلا وهو إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس . وأصدر المجمع الكنسى الانجليكانى فى ١٦٠٤ بعض القوانين التى تطلب من كل رجال الدين اتباع قواعد الكنيسة الانجليكانية : وفصـل الذين رفضوا الامتثال ، وسجن آخرون ، واستقال كثيرون ، وهاجر فريق آخر إلى هولنده وأمريكا .

وجلب جيمس على نفسه الخزى والعار باحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك فى ألوهية المسيح ، برغم البراهين التى قدمها الملك إليهم (١٦١٢) . ولكنه أحسن صنعا فى أنه لم يجز بعـد ذلك الاعدام بسبب الخلاف الدينى ، فكان هذان الاثنان آخر من أتى حتفه بتهمة الكفر فى انجلترا . وباطراد التحسن فى الحكومة الدنيوية ، أخذت تسود ، فى بطء ، الفكرة القائلة بأن التسامح الدينى ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية ، وتغزو ما كان راسخا فى الأذهان ، بطريقة تكاد تكون شاملة ، من أن النظام الاجتماعى يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد . وحاول ليونارد بوشر فى كتابه « السلام الدينى » (١٦١٤) أن يدلل على أن الاضطهاد الدينى يوسع هوة الخلاف ويؤدى حتما إلى النفاق ، ويضر بالتجارة ، وذكر جيمس بأن « اليهود والمسيحيين والأتراك المسلمين متسامحون فى القسطنطينية ، ومع ذلك فهم جميعا مسالمون ، ويعيشون فى سلام[٢٤] » على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم شائبة الخيانة — ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك — ينبغى أن يحرم عليهم عقـد الاجتماعات ، أو الاقامة فى أبعد من عشرة أميال من مدينة لندن .

كان جيمس فى أغلب الأحوال دوجماتيا متسامحا (الجزمية ، الدوجماتية : توكيد الرأى أو القطع به ، بفطرته ودون مبرر كاف ، أو دون أن يكون مبنيا على مقدمات سليمة موثوقة) . لقد أغضب البيوريتانيين بتشجيعه الألعاب الرياضية فى أيام الآحاد ، شريطة حضور الصلوات الأنجليكانية أولا .وكان ميالا إلى إرخاءقبضة القانون على الكاثوليك . وبرغم معارضة روبرت سيسل والمجلس ، أوقف قوانين العصيان ، وأباح للقساوسة دخول الريف وإقامة القداس فى الدور الخاصة . وعلى طريقته الفلسفيةغير المحكمة ، راوده حلم التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى العالم المسيحى[٢٥] . ولكن عندما تكاثر عدد الكاثوليك بفضل هذه البارقة من النور والأمل ، وندد البيوريتانون بتساهله ، أجاز تجديد قوانين اليزابث المعادية للكاثوليك ، والتوسع فيها وتطبيقها (١٦٠٤) . من ذلك أن ارسال أى فرد للدراسة فى جامعة أو معهد لاهوتى فى الخارج كان يعاقب عليه بغرامة قدرها مائة جنيه . ونفيت وأبعدت كل الارساليات الكاثوليكية ، وحرم أى تعليم كاثوليكى ، وفرض على كل الكاثوليك الذين يمتنعون عن إقامة الصلوات الأنجليكانية غرامة قدرها عشرون جنيها فى الشهر ، ويستتبع أى تخلف عن دفع مثل هذه الغرامات مصادرة الممتلكات الأصلية أو الشخصية ، والاستيلاء على الماشية فى أرض المقصر فى الدفع ، وعلى أثاثه وملابسه ، لمصلحة التاج[٢٦] .

ورأى أشباه المخبولين من الكاثوليك أنه لم يعد أمامهم الآن من علاج لهذه الحالة إلا القتل . وكان روبرت كاتسبي قد شهد أباه يعانى من السجن بتهمة العصيان فى عهد اليزابث ، وانضم إلى ثورة اسكس ضد الملكة . وهو الذى فكر الآن فى مؤامرة البارود لنسف قصر وستمنستر ، فى الوقت الذى يجتمع فيه الملك والأسرة المالكة ، واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان . وأشرك معه فى المؤامرة توماس ونتر، وتوماس برسى ، وجون رايت ، وجى فوكس Guy Fawkes ، وتعاهد الرجال الخمسة فيما بينهم وأقسموا على سرية الموضوع ، ووثقوا عهدهم بتناول القربان المقدس من يد مبعوث جزويتى اسمه جون جيرار . واستأجروا دارا ملاصقة للقصر ، وظلوا يعملون ستة عشر ساعة يوميا ليحفروا نفقا من قبو إلى قبو ، وأفلحوا

فيما أرادوا . ووضعوا ثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع فى مجلس اللوردات مباشرة . وعطل تكرار تأجيل إنعقاد المجلس مرة بعد أخرى ، تنفيذ مشروع المؤامرة ، تعطيلا مشوباً بالقلق والشك . وطيلة عام ونصف العام كان على المتآمرين أن يزكوا نار الغضب فى صدورهم ، فكم خامرهم الشك فى فضيلة أو صواب مغامرة يروح ضحيتها كثير من الأرواح البريئة . مع من يظن الكاثوليك بلا هوادة ولا رحمة أنهم مذنبون . وسأل كاتسبى ، رغبة فى إعادة الطمأنينة إلى نفوس المتآمرين — سأل هنرى جارنت أسقف الجزويت فى انجلترا : هل يجاز فى الحرب الاشتراك فى أعمال قد تودى بحياة أناس غير محاربين . فأجاب جارنت بأن كل الشرائع السماوية تجيز هذا الأمر ، ولكنه حذر كاتسبى من أية مؤامرة على حياة العاملين فى الحكومة ، لن تجر إلا مزيداً من الشقاء على الكاثوليك الإنجليز ، ونقل الأسقف مخاوفه وشكوكه إلى البابا وإلى زعيم الجزويت ، فأمروه بالابتعاد عن كل دسائس سياسية ، وأن يحبط أية محاولات ضد الدولة(٢٧) . وأفضى كاتسبى إلى رجل آخر من الجزويت — اسمه أوزوالد جرينواى — « أثناء الاعتراف » بسر المؤامرة التى تضمنت الآن اتخاذ تدابير أخرى لقيام الكاثوليك فى انجلترا بثورة عامة . وأبلغ جرينواى زميله جارنت بالموضوع « وحار الرجلان الجزويتيان بين أمرين : إفشاء سر المتآمرين إلى الحكومة ، أو الصمت ، وآثرا السكوت ، ومع ذلك بذلا قصارى جهدهما ليثنيا المتآمرين عن تنفيذ خطتهم .

وسعى كاتسبى — ليخفف من وخز الضمير عند زملائه ومن مخاوفهم — إلى اتخاذ الترتيبات بأن يتسلم أعضاء البرلمان الموالين لهم ، فى صبيحة اليوم المحدد للاجتماع رسائل عاجلة تستدعيهم إلى خارج وستمنستر . وأنذر فرد صغير الشأن بين المتآمرين ، صديقة لورد مونتجال قبل موعد الانعقاد بعدة أيام . فأطلع مونتجال روبرت سيسل على جلية الأمر ، فنقل الخبر إلى الملك ، فدخل عملاؤهم وأعوانهم إلى الأقبية ، وهناك وجدوا فوكس ، كما وجدوا المتفجرات فى أماكنها ، وفى ٤ نوفمبر ١٦٠٥ قبض على فوكس واعترف بما كان يقصد إليه من نسف البرلمان فى اليوم التالى ، ولكنه على رغم التعذيب الشديد رفض الإدلاء بأسماء المشتركين

معه . ولكن هؤلاء على أية حال ، كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاولة الهرب . فطوردوا ، وجرى قتال أصيب فيه كاتسبي ، وبرسى ، ورايت ، بجروح قتالة . وجرى البحث عن أتباعهم وأودعوا السجن. وعندما قدم المسجونون للمحاكمة اعترفوا صراحة بالمؤامرة . ولكن أى تهديد أو تعذيب لم يحملهم على توريط القساوسة الجزويت فيها . واقتيد فوكس وثلاثة آخرون ، وسط شوارع المدينة من السجن إلى دار البرلمان حيث أعدموا (٢٧ يناير ١٦٠٦) . ولا تزال إنجلترا تحتفل بيوم ٥ نوفمبر على أنه يوم جى فوكس ، بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية وحمل تماثيل أو صور جى والطواف بها فى الشوارع .

وفر جيرارد وجرينراى إلى القارة ، ولكن قبض على جارنت ومعه جزويتى آخر يدعى أولد كورن . وفى السجن وجد هذان الاثنان من الوسائل ماحسباه سبيلا لاتصال خفى بينهما . ولكن الجواسيس نقلوا أحاديثهما بنصها . واتهم كل منهما على انفراد بهذه الأحاديث فأنكرها جارنت ، وأقرها أولد كورن . فاعترف جارنت بأنه كان كاذبا . وانهارت قواه فسلم بأنه كان على علم بالمؤامرة ، ولكن بما أن أنباءها وصلت اليه عن طريق جرينواى الذى تلقاها على انها سر من أسرار « الاعتراف » . فإنه لم يشعر بأنه حر فى افشائها . ولكنه على أية حال بذل كل مافى طاقته لإحباطها . فأدين بالتستر على المؤامرة ، لا بالتآمر . وتمهل الملك لمدة ستة أسابيع فى التصديق على الحكم باعدامه ، وأبلغوه كذباً أن جرينواى فى سجن لندن « البرج » فأرسل إليه خطاباً وضع الرقباء أيديهم عليه . وسئل جارنت عما إذا كان قد اتصل بجرينواى فأنكر ، فواجهوه بخطابه ، فدافع بقوله إن المراوغة مباحة لشخص فى سبيل إنقاذ حياته . وفى ٣ مايو أعدم شنقاً ، ومزق إرباً[٣٨] .

وأحس البرلمان أنه على حق فى تشديد القوانين ضد الكاثوليك ، فمنعوا من مزاولة الطب أو الاشتغال بالقانون ، ومن استخدامهم أوصياء أو حراساً قضائيين ، وحظر عليهم أن يبعدوا بأكثر من خمسة أميال عن مساكنهم ، كما طلب إليهم أن يؤدوا قسما جديداً ، لا ينكر سلطة البابا فى خلع الحكام المدنيين فحسب ولكنه كذلك يدمغ الإصرار على هذه السلطة بأنه عمل موصوم بالعقوق والفسوق والكفر ،

ديستوجب اللعنة(٢٩) . وحرم البابا بول الخامس تأدية — مثل هذا القسم ، وامتثل للبابا أغلبية الكاثوليك الإنجليز وارتضت القسم أقلية كبيرة . وفى ١٦٠٦ أعدم ستة من القساوسة لرفضهم القسم وإقامتهم القداس . وفيما بين عامى ١٦٠٧ و ١٦١٨ أعدم ستة عشر آخرون(٣٠) . وامتلأت السجون بعدة مئات من القساوسة وعدة آلاف من الكاثوليك العاديين . وبرغم هذا الإرهاب كله ، استمر الجزويت فى دخول انجلترا ، ففى ١٦١٥ كان يوجد منهم ٦٨ على الأقل ، وفى ١٦٢٣ كان منهم ٢٨٤(٣١) . وشق بعض الجزويت طريقهم إلى إسكتلنده . وهناك أعدم واحد منهم — جون أوجيلفى — فى ١٦١٥ ، بعد أن سحقت رجلاه فى « الدهق » (آلة التعذيب) ، وإبقائه يقظاً لمدة ثمانية أيام بلياليها بغرز الدبابيس فى لحمه(٣٢) . وهكذا وقعت أوزار الكنيسة القديمة على رأسها هى ، على يد الحقائق والقوى والسلطات الجديدة .

٤ — المسرح فى أيام جيمس

تابعت نشوة انجلترا مسيرتها فى الأدب ، كما تابعتها فى الدين . وإنى لأنسب إلى عصر جيمس ، النصف الأروع فى روايات شكسبير ، وكثيراً من روائع تشابمان ، ومعظم روائع جونسون ، ووبستر ، ومدلتون ، ودكر ، ومارستون ، وبعضاً من أحسن أعمال ماسنجر ، وكل روائع بومونت وفلتشر ، وفى الشعر دون ، وفى النثر بيرتون . وأروع وأكرم من هذا كله الكتاب المقدس ترجمة الملك جيمس ، وتلك أمجاد تكفى لأن يتألق بها أى عصر ، وكان الملك يتذوق المسرحية . وفى أحد الاحتفالات بعيد الميلاد مثلت أربع عشرة رواية فى البلاط الملكى . وفى ١٦١٣ احترق مسرح « الجلوب » عن آخره نتيجة إطلاق مدفعين استلزم إطلاقهما تمثيل رواية هنرى الثامن ، ولكن سرعان ما أعيد بناؤه . وفى ١٦٣١ كان فى لندن أو بالقرب منها نحو سبعة عشر مسرحاً .

وكان جورج تشابمان يكبر شكسبير بخمس سنوات ، وعمر بعده ثمانية عشر عاماً ، وشهد ثلاثة عهود (١٥٥٨ — ١٦٣٤) . وشق طريقه فى أناة وروية

حتى صار فحلا فى فنه ، وكان فى ١٥٩٨ قد أكمل بنجاح رواية مارلو Hero and Leander ،ونشر سبعة كتب من الإلياذة ، ولكنه لم ينجز ترجمة هومبروس حتى ١٦١٥ ، وظهرت أحسن رواياته فيما بين ١٦٠٧ و ١٦١٣ . وفتح للمسرحية الإنجليزية مجالا جديداً ، حين اقتبس من التاريخ الفرنسى الحديث فكرة رواية Bussy d, Ambois (١٦٠٧؟) — خمسة فصول من الخطابة الصاخبة المليئة بالتهديد والوعيد ، لا يكاد يلطف من عنفها شىء من سحر البيان ، ولكنها تقوى إلى حد مزعج فى صحيفة يتبادل فيها بوسى وعدوه التحيات الساخرة التهكمية العسيرة الهضم قدر عسر هضم الحقيقة . ولم يفق تشابمان قط من التعلم أو لم ينقطع عنه ، فإن القدر الكبير الذى حصله من اليونانية ، والقدر الأكبر من من اللاتينية استحوذا على كل تأملاته وتفكيره ، بشكل خانق ، وإن قراءة رواياته اليوم لهى ضرب من الجهد المضنى لمجرد الاطلاع والدرس ، لا حباً فى الروايات أو الاستمتاع بها . ولن نبتهج كما فعل كيتس ، « لأول نظرة نلقيها على ترجمة تشابمان لهوميروس » . فثمة حيوية دافقة هنا وهناك فى الترجمة السباعية التفاعيل تسمو بها فوق ترجمة بوب ، التى هى أفضل بصفة عامة ، ولكن موسيقى الشعر تضيع فى الترجمة ، فإن التفاعيل السداسية الوثابة فى الأصل تداعبنا بتناغم أسرع مما تفعل التفاعيل الموزونة المقيدة فى الشعر المقفى . إن أية قصيدة إنجليزية طويلة مقفاة لم تتخلص من النعاس الذى يغلب على أناشيد بحارة البندقية . وحول تشابمان إلى « شعر ملحمى » أبياتاً عشرية المقاطع ليتفق كل اثنين فى القافية — حول الأوديسية فى ترجمته لها بنفس قوة التهدئة . ولابد أن جيمس غلبه النعاس تحت هذه الأغطية الثقيلة ، إلى جانب إيماءات هوميروس العارضة ، لأنه أهمل فى دفع مبلغ الثلثمائة جنيه التى كان الأمير الراحل هنرى قد وعد بدفعها إلى تشابمان ، عند إتمام الترجمة . ولكن ارل سومرست أنقذ الشاعر العجوز من الفقر .

وهل نتوقف قليلا عند توماس هايوود ، وتوماس مدلتون ، وتوماس دكر ، وسيريل تورنير ، وجون مارستون ، أو يسمحون لنا بأن نمر عليهم مر الكرام مع تحية متواضعة لشهرتهم المتأرجحة ، أما فلتشر ، فلن نستطيع أن نبخسه حقه .

فانه فى ذروة مجده (١٦١٢ — ١٦٢٥) رفعته انجلترا ، فى مجال المسرحية ، إلى المرتبة التالية لمرتبة شكسبير وجونسون . كان فلتشر ابن أحد أساقفة لندن ،وابن أخ أو ابن عم لثلاثة شعراء من طراز متواضع ، فرضع الشعر وتربى على القوافى ، وأضاف هو إلى هذا التراث ماكسب من ميزة اشتراكه مع شكسبير فى « هنرى الثامن » ، « القريبان النبيـــلان » ، ومع ماسنجر فى « الخورى الأسبانى » ، واشتراكه بأعظم النجاح مع فرانسيس بومونت .

ومن هذا الطراز أيضا ولد فرانك . وكان ابنا لأحد القضاة البارزين ، واخا لشاعر صغير الشأن ، ولد قبله بعام ومهد له طريق الحياة . وأخفق بومونت فى اتمام دراسته فى أكسفورد أوفى أحد معاهد الحقوق The Inner Temple وحاول أن يجرب قلمه فى شعر المرح ، وانضم إلى فلتشر فى كتابة الروايات . وشارك الأعزبان الوسيمان الواحد منهما الآخر ، فى الأكل والنوم ، والأمتعة والملابس ، والخليلات والأفكار ، أو كما قال أوبرى « كانت ثمة امرأة شركة بينهما ، وكان ثمة تشابه غريب فى أفكارهما وصورهما الذهنية(٣٣) » . وتعاون الاثنان على مدى عشر سنوات فى إخراج روايات مثل The Maids' Tragedy, Loves Liesa - Bleeding, Philaster The Knight of the Burning Pestle والحوار قوى ، ولكنه عاصف طنان ، وحبكات الرواية متشابكة تشابكا بارعا ، ولكن حل عقدها كان متكلفا . وقل أن ارتقى التفكير إلى مستوى الفلسفة . ومع ذلك فان هذه الروايات كما يؤكد لنا دريدن —كان لها فى أواخر القرن ، من الشعبية على المسرح ، ضعف ما كان لروايات شكسبير(٣٤) .

وتوفى بومونت فى سن الثلاثين ، فى العام الذى توفى فيه شكسبير ، وبعد ذلك كتب فلتشر بمفرده أو مع آخرين ، سلسلة طويلة من الروايات الناجحة التى جر عليها النسيان ذيوله ، ونبعت ملهاة من رواياته التى قامت على دسائس ملتوية صاخبة مرحة ، نبعت من نماذج أسبانية ، كما أنها بدورها — بتركيزها على الزنى — مهدت للمسرحية فى « فترة عودة الملكية » . ولما تعب من هذه المناظر الدامية أو الداعرة ، أخرج فى (١٦٠٨) رواية رعوية « الراعية المخلصة » خالية من الهراء والحمق ، مثل

رواية شكسبير « حلم ليلة منتصف الصيف » . بل أنها تنافسها أحيانا من حيث الشعر . فان كلورين ، بعد أن مات حبيبها الراعى تأوى إلى كوخ ريفى بسيط بالقرب من مقبرته وتقطع على نفسها عهدا ألا تبرحه حتى يوافيها الأجل المحتوم :

سلاما أيتها الأرض المقدسة التى تحتضن بين ذراعيها الباردتين ، أصدق رجل أطعم قطعانه على سهول تساليا الدسمة المثمرة ، وهكذا أحيي جدثك ، وأوثى بنذورى الأولى ، وأقدم نظرات الأكبار والاجلال لرفاتك التى لاتزال موضع حبى . وهكذا أحرر نفسى من دفء وحرارة أى حب ينشأ من بعدك ، وأودع كل رياضة أو بهجة أو ألعاب سارة ، يعتز بها الرعاة . ولن يتوج بعد الآن جبينى بالأكاليل الغضة النضيرة ، لأتصدر حلبة الرقص . ولن أفرح أو أبتهج بعد اليوم بصحبة الغادات اليانعات والرعاة المرحين ، ولا بصوت المزمار ذى الأنغام العالية السارة فى واد ظليل ، حين يداعب النسيم العليل الأغصان ، ولسوف أكون بمنأى عن هذا كله ، مادمت أنت نأيت عنى ، يامن كنت أجلس كثيرا إلى جواره السعيد متوجة بالأزهار الناضرة ، بوصفى ملكة الصيف ، على حين يرتدى صبية الرعاة اللون الأخضر الزاهى المفعم بالحياة ، مع المنجل المزوق . والحقيبة المتدلية المصنوعة من الجلد الناعم الجميل . ولكنك وليت ، وقد ولت هذه كلها معك ، لقد فنى كل شيء ، اللهم إلا ذكراك العزيزة ، التى سوف تبقى من بعدك ، والتى سوف تنمو وتنتعش ، طالما كانت هناك مزامير تصرخ أو رعاة مبتهجون يغنون .

وألقيت هذه القصيدة الرعوية مرة واحـــدة ثم اختفت من المسرح . وأى حظ من الطهارة والعفة لمثل هذه التسبيحة ، فى عصر لايزال يجيش بانفعالات عهد اليزابث ؟

أما أقوى الكتاب المسرحيين فى عهد جيمس وأسوأهم ، فهو جون وبستر . ونحن لانكاد نعرف شيئا عن حياته ، وهى فى الحقيقة مجهولة . ونحن نستنتج حالته النفسية من مقدمة أحسن رواياته « الشيطان الأبيض » (١٦١١) حيث يطلق على جمهور المشاهدين « الحمير الجهلة » ويشهد مقسما بأغلظ الأيمان « بأن الأنفاس التى تخرج من الجمهور العاجز كفيلة بأن تسمم أعمق مسرحية مأســوية . والرواية هى قصة فكتوريا أكورامبونى ، التى هزت آثامها ومحاكمتها كل إيطاليا (١٥٨١ — ١٥٨٥) أيام طفولة وبستر . وتحس فكتوريا بأن دخل زوجها لا يتفق مع جمالها ، فتستجيب لملاطفات دوق براتشيانو الثرى ، واقترح بأن يعمل هو على التخلص من زوجها ومن زوجته ، فيولى الموضوع عنــايته على الفور ، بمعونة أخ قواد فاجر لفكتوريا هو فلامنيو الذى كان يقدم لمثل هذه الجرائم أشد الأشعار سخرية فى الأدب الانجليزى . وقبض على فكتوريا للاشتباه فيها ، ولكنها تدافع عن نفسها فى جرأة وبراعة إلى حد يجعل أى محام يفزع من لغته اللاتينية وأى كاردينال من قلنسوته. ثم اختطفها براتشيانو من بين يدى العدالة . فطورد الاثنان وأخيرا ، قتل الاثنان مع من كانوا يتعقبونهما ، قتلة مفاجئة مثيرة أشبعت رغبة وبستر إشباعا تاما طيلة سنة كاملة ، لقد عولجت حبكة الرواية علاجا حسنا ، ورسمت الشخصيات رسما متماسكا متناغما . وكانت اللغة غالبا قوية أو كريهة ، والمناظر العصيبة قوية . وارتفع الشعر أحيانا إلى مستوى فصاحة شكسبير . ولكن الرواية بالنسبة للذوق الذى أصابته المدنية بالوسوسة وشدة الحساسية ، شوهتها فظاظة فلامنيو المتكلفة وحيرته الحقيرة البائسة ، كما شوهتها اللعنات والشتائم التى انسابت حتى من أرق الشفاه . « أواه : لو أنى أستطيع قتلك أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وأظل هذا أربع سنوات سويا ، لكان هذا شيئا قليلا جدا »(٣٥) ، كما كان يشوه الرواية الفحش المنتشر فيها ، حيث ترددت لفظة « البغى » فى كل صحيفة أخرى ، ثم الألفاظ المزدوجة المعانى التى ربما خجل منها شكسبير نفسه .

وعاد وبستر إلى الأرض المخصبة بدماء القتلى فى رواية « دوقة ملفى » (١٦١٣) فإن فرديناند دوق كالابريا ، يحرم على دوقة أمالفى ، أخته الشابة الأرملة الزواج

مرة ثانية ، لأنها إذا ماتت بلا زوج ، فإن أخاها الدوق يرث أموالها . فترثي الدوقة للطهارة المتكلفة التي أكرهت عليها :

إن الطيور التي تعيش في المروج وفق هوى
الطبيعة الجامحة ، تحيا حياة أسعد من
حياتنا ، حيث تستطيع أن تختار رفيقاتها
وتشدو بألحانها العذبة للربيع[٣٦] .

واستبدت بها الشهوة والحرمان ، فأغرت قهرمانها أنطونيو بالزواج سراً ، وبمضاجعة عاجلة . فدبر أخوها فرديناند قتلها . وفي الفصل الأخير نرى شخصاً يقتل في كل دقيقة تقريباً ، فالأطباء يستعدون بالسموم ، والمتوحشون بخناجرهم ، ولم يتذرع أحد بالصبر انتظاراً لقصاص عادل أو حكم مشروع . أما أسوأ الأشرار الأوغاد في الرواية — الذي قتل الدوقة واستولى على ممتلكاتها ، واتخذ له خليلة ثم قتلها — فهو كاردينال ، ولم يكن وبستر من أنصار البابوية . وهنا أيضاً توجد توريات في صراحة بالغة ، وتصميم على استنفاذ ألفاظ اللعنة والبغض ، واستنكار وحشي مشوش لحياة الإنسان . وترى شيئاً من النبل أو الإخلاص أو الرقة في الأركان السحيقة لهذه الحلبة المظلمة ، فان فرديناند ينسى نفسه ، ويبتسم بالشفقة لبعض الوقت ، وهو ينظر إلى أخته التي لا تزال جميلة في رقدة الموت .

« غطيا وجهها ! عيناى تنبهران ! لقد ماتت في عنفوان شبابها[٣٧] !
ولكن سرعان ما يستعيد وحشيته .

ولنتأمل في شيء أعذب وأحلى من هذا كله عند الرجل الذي كتب « اشربي من أجلي أنا وحدي ، بعينيك » . Drink to me only with thine Eyes

٥ — بن جونسون : ١٥٧٣ ؟ — ١٦٣٧

ولد في وستمنستر بعد وفاة أبيه بشهر واحد ، وعمد تحت اسم بنيامين جونسون ؛ وأسقط من اسمه حرف الباء تمييزاً لشخصه ، ولكن دور الطباعة ظلت تستخدمه ،

ولو أنه مات ، حتى ١٨٤٠ ، ولا زال يظهر على لوحة معلقة على جدران كنيسة وستمنستر . وكان الزوج الأول لأمه قسيساً . وكان زوجها الثانى بناء بالأجر . وكانت الأسرة فقيرة معدمة . وكان على بن أن يشق طريقه إلى التعليم بصعوبة بالغة . وما كانت إلا الشفقة التى ملأت قلب صديق بصير لتزوده بالمال ليلتحق بمدرسة وستمنستر ، وساقه حظه إلى الوقوع تحت إشراف « وكيلها » المؤرخ العالم الأثرى وليم كامدن ، وإنصرف إلى الدراسات القديمة ، مع عداء أقل من العادى ، وأحب شيشرون وسنكا ، وليفى وتاسيتس ، وكونتليان ، وزعم بعد ذلك ، وواضح أنه على حق — « أنه يعرف من اليونانية واللاتينية أكثر من شعراء انجلترا جميعهم[٣٨] » على أن « مرحه » السريع الاهتياج والإثارة ، وعالم لندن الخشن العنيف بلا حدود ، هما اللذان حالا دون أن يدمر تعليمه فنه .

وبعد تخرجه فى وستمنستر التحق بكمبردج حيث « بقى — كما يقول أول مؤرخ لحياته — أسابيع قليلة ، لحاجته إلى مورد رزق آخر[٣٩] » ، وأراد له زوج أمه أن يكون صبى بناء ، وقد نتخيل بن جونسون وهو يتصبب عرقاً ويضطرب لمدة سبع سنين دأبا ، وهو يرص الطوب ويفكر فى الشعر . ثم فجأة خرج إلى الحرب ، وانساق فى تيارها ، واندفع إليها بنشاط وحيوية أكثر منه إلى صناعة البناء . وخدم فى الأراضى الوطيئة ، وبارز جندياً من الأعداء ، فصرعه ، وسلبه ما معه ، وعاد إلى الوطن يروى قصصاً مفصلة . وتزوج وأنجب أطفالا ، وارى منهم التراب ثلاثة أو أكثر . ووقع الشجار بينه وبين زوجته فهجرها لمدة خمس سنوات ، ثم عاد وعاش معاً عيشة ينقصها الوفاق والانسجام حتى ماتت . ولا تعرف كلميو نفسها كيف كان بن جونسون — زوجها — يدبر معاش الأسرة .

ويكون السر أعمق حين نعلم أنه أصبح ممثلا (١٥٩٧) ، ولكن تفجرت منه أفكار مشرقة وأشعار ابقة . واهتز فرحاً حين دعاه توم للمشاركة فى رواية « جزيرة الكلاب » ولا شك فى أنه حمل نصيبه من المسئولية فى « المادة المثيرة للفتنة والتى تتضمن قذفاً وتشويهاً للسمعة » التى وجدها مجلس الشورى فى الرواية . وأمر المجلس بوقف التمثيل وإغلاق المسرح والقبض على المؤلفين . أما ناش الذى كان خبيراً

عتيقاً يمثل هذه المآزق ، فقد قضى نحبه فى يارموث . ووجد جونسون نفسه فى السجن ، ولما كان نظام السجن يقتضيه أن يدفع نفقة طعامه وإقامته وأصفاده فقد اقترض أربعة جنيهات من فيليب هنسلو ، فلما أطلق سراحه انضم إلى فرقة هنسلو (وشكسبير) المسرحية (١٥٩٧) .

وبعد سنة ، كتب ملهاته الهامة الأولى : « Everyman in his humour » ورأى شكسبير يمثل فيها فى مسرح « الجلوب » . ومن الجائز أن المؤلف المسرحى العظيم (شكسبير) لم يستسغ مقدمة الرواية التى اقترحت — على الرغم من النموذج السائد — اتباع الوحدات الكلاسيكية ، أو التقليدية القديمة ، وحدة العمل والزمان والمكان ، لا أن :

> تجعل طفلا ملفوفاً الآن فى قماطه ، ينهض حتى يستوى رجلا
> ويطوى ، بلحية وملابس حداد . ستين عاماً مضت ، إنك
> سوف تسر اليوم إذ تشهد رواية يجب أن تحتذى مثالها كل
> الروايات . رواية ليس فيها كورس ينطلق بك فيما وراء البحار ،
> ولا عرش ينهار . مما يفرح له الأولاد . . . بل فيها أعمال ،
> ولغة مثل تلك التى يستخدمها الناس ، وأشخاص ممن يجب
> أن تنتقيهم الملهاة ، إذ كان لها أن تصور الزمان ، وتسلى
> الناس بحماقات الإنسان لا بالجرائم .

وهكذا أثار جونسون ظهره للمزاح أو الهزل الارستقراطى فى ملهيات شكسبير الأولى ، وللجغرافيا والكرونولوجيا وتعيين تواريخ الأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمنى الخارقتين فى المسرحية « الرومانتيكية » . وأتى بأكواخ لندن إلى المسرح ، وتخلى عن ثقافته ومعرفته الواسعتين الخارقتين ليبرز إبرازاً مشهوداً لهجات الطبقات الدنيا وأساليبها . وكان أبطال الرواية رسوماً كاريكاتورية أكثر منها ابتكارات فلسفية معقدة ، ولكنهم يعيشون . وكانوا تافهين لا قيمة لهم ، ولكنهم من بنى الإنسان ، ولم يكونوا معقولين ولا مهذبين ، ولكنهم لم يكونوا قتلة ولا سفاحين .

وكان اللاتينيون قد استخدموا لفظة Umor لتعنى « الرطوبة » أو السائل ، كما استخدمت تقاليد أبقراط الطبية لفظة Humor لتدل على أربعة سوائل فى الجسم — الدم ، البلغم ، الصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء . وتبعا لغلبة الواحدة أو الأخرى من هذه المواد فى جسم الانسان، كان يقال إنه ذو « مزاج» دموى ، (متفائل) ، أو بلغمى (بارد)، أو سوداوى (مكتئب) ، أوصفراوى (سريع الغضب) أما جونسون فقد حدد تفسيره لهذا الاصطلاح :

عندما تتملك إنسانا صفة بعينها ، وتسيطر على كل أحاسيسه
وأنشطته وقواه ، حتى تسير كلها فى اتجاه واحد — فهذا
مايمكن أن يقال عنه بحق « المزاج » (Humour)[٤٠]

وظهرت الكلمة فى التصوير المرح للكابتن بوباديل ، وهو تحدر مباشر من رواية باريس « المحاربون الأمجاد » ، ولكنه يمور مورا « بمزاجه » الخاص به المميز له ، ومرحه غير الواعى — فهو دوما شجاع إلا عند الخطر ، مندفع إلى القتال إلا عندما يتحداه أحد ، فهو رب السيف المكنون فى غمده .

واستقبلت الرواية استقبالا حسنا ، وكان فى مقدور بن الآن أن ينغمس فى حماقات الشباب وشهواته على نطاق أوسع ، وكان فرحا بالثقة ، مزهوا بأنه شاعر يتحدث إلى اللوردات فى أنفة وكبرياء ، ويقف راسخ القدمين ، يتعجل التمتع ويستسيغ الصراحة والمرح الصاخب ، ويغوى النساء من آن لآن ، ولكنه أخيرا (كما قال لدروموند) « آثر جور الزوجة على خفر الخليلة[٤١] » — وهجر التمثيل ، وعاش عيشة طائشة على قلمه ، وازدهر لبعض الوقت بتأليف التمثيليات التنكرية للبلاط ، وتلاءمت الأشعار الخيالية التى نظمها مع المناظر التى صممها جونز ، ولكن بن كان حاد الطبع ، فكثرت مشاجراته . ففى عام نجاحه الأول اشتبك مع أحد الممثلين ، وهو جبرييل سبنسر ، وبارزه وقتله ، فأودع السجن بتهمة القتل (١٥٩٨) . ومما زاد الطين بلة ، أنه ارتد إلى الكاثوليكية فى السجن ، ولكنه مع ذلك حوكم محاكمة عادلة ، وأجيز له أن يدفع « بالحصانة الاكليريكية » لأنه تلا « المزامير » باللاتينية « كما يفعل رجل الدين » . وأطلق سراحه

بعد أن وشم ابهامه بحديد محمى بحرف T ، حتى يمكن فى الحال اكتشاف أنه مجرم عائد ، إذا ارتكب جريمة القتل مرة ثانية ، وظل بقية حياته مدموغا بأنه مجرم .

وبعد سنة قضاها مطلق السراح أعيد إلى السجن من أجل دين عليه لم يسدده . ومرة أخرى أطلق سراحه بكفالة هنسلو . وفى ١٦٠٠ سعى جونسون وراء تسديد ديونه بكتابة رواية Every Man out of His Humour . وأثقل الملهاة باقتباسات زخرفية كلاسيكية ، وأضاف إلى أشخاص المسرحية ثلاث شخصيات استخدمت كفرقة للتعليق على الأحداث ، وأمطر بوابل من المذمة والقدح ، البيوريتانيين الذين « كان الدين بين طيات ثيابهم ، والذين حلقوا شعر رءوسهم أقصر من شعر حواجبهم » ولوح بمعرفته وعلمه للكتاب المسرحيين الذين كانوا يحطمون « وحدات أرسطو » . وبدلا من الروايات الرومانتيكية المستحيلة الحدوث حول اللوردات الذين لا يصدق وجودهم ، عرض جونسون أن يكشف للندن عن ذاتها بلا هوادة ولا رحمة :

فليواجهوا مرآة كبيرة قدر كبر المسرح الذى نمثل عليه ،
وسوف يرون فيها علل العصر ونقائصه . مشرحة تشريحا
دقيقا مفصلا فى كل ناحية فيها ، فى شجاعة لا تلين
ولا تفتر . وفى ازدراء لأى خوف(٤٢)

وصنعت رواية من العداوات أكثر مما جلبت من أموال . وليس من يوصى اليوم بقراءتها . ولما لم يكن جونسون راضيا عن جمهوره الصاخب فى مسرح الجلوب ، فانه كتب ملهاته الثانية Cynthia's Revels (١٦٠١) لفرقة من الممثلين الشبان ونخبة صغيرة من الجمهور فى مسرح « Black Friars » ، وأحس دكر ومارستون أن الرواية تناولتهما بالهجاء . ولما استشاطت فرقة تسمبرلين غضبا لمنافسة أولاد مسرح « Black Friars » لها ، أخرجت فى ١٦٠٢ رواية دكر « Satiromastix » (ضرب المؤلف الهجاء بالسياط) وفيها تشهير بجونسون بأنه سفاح وبناء تافه مغرور متحذلق ، جسمه ملىء بالبثور . وانتهى الشجار بتبادل المديح وتقارض الثناء ؛ وابتسم الحظ

لبعض الوقت . واستضاف أحد المحامين النابهين بن جونسون فى بيته وأرسل ارل بمبروك إلى الشاعر عشرين جنيها « ليشترى بها كتبا[٤٣] » . وما أن أصبح فى أمان من الفقر والحاجة حتى أمسك بالقلم محاولا تأليف « مسرحية مأساوية » ، موضوعها « سيجانوس » الصديق الشرير الأثير لدى تيبيريوس . واعتمد فى روايته بدقة على كتابات تاسيتس وسوتونيوس وديو كاسياس وجوفينال ، وأخرج تحفة رائعة ثقافية فيها بعض مناظر مؤثرة (الفصل الخامس — ١٠ مثلا) وأبيات من الشعر الرائع . ولكن جمهور المشاهدين كره الخطب الطويلة والتوجيه الأخلاقى الممل الصادر عن شخصيات تعوزه الحيوية . وسرعان ما سحبت الرواية من المسرح . وطبع جونسون النص ، وأورد على الهامش مراجعه القديمة مع بعض ملاحظات باللاتينيـــة . وتأثر لورد Aubigny ، فهيأ للمؤلف المحزون مأوى آمنا لمدة خمس سنوات .

وعاد جونسون إلى الحلبـــة فى ١٦٠٥ بأعظم رواية له « Volpone — أو الثعلب » ، هاجم فيها ، فى هجاء مقذع شهوة المال التى اجتاحت لندن : وكما هو مألوف فى الملهاة — من عهد بلوتس إلى رواية The Admirable Crichton — فان محور الرواية هو خادم ماهر . ويحضر الخادم موسكا (ذبابة بالايطالية) إلى سيده البخيل فولبون (الثعلب) الذى يدعى أنه مريض مرضا شديدا ، مجموعة من صيادى الميراث الوصيـــة — فولتوز : نسر ، ثم كورباتشيو : غراب ، ثم كورفينو : غراب أسحم — وكل منهم يترك للسيد المريض (الثعلب) هدية ثمينة ، على أمل أن يسمى وريثا له . ويتقبل « الثعلب كل هدية بنهم جشع ، إلى حد استعارة زوجة كورباتشيو لليلة واحدة . وينتهى الأمر بأن يخدع الخادم موسكا سيده فولبون حتى يعينه هو وريثه وحيدا له . ولكن بوناريو (الطبيعة الطيبة) ، يكشف الخيانـــة ، ويرسل مجلس السناتو فى البندقيـــة كل الممثلين تقريبا إلى السجن . وجعلت هذه المسرحية ، آخر الأمر ، رواد مسرح الجلوب يركعون بين يدى جونسون .

وسرعان ما انتقل من نجاح إلى محنة . فقد اشترك مع مارستون وتشابمان فى

مسرحية Eastward ho (١٦٠٥) واعتقلت الحكومة المؤلفين على أساس أن الملهاة أساءت إلى الاسكتلنديين : وهدد المعتقلون بقطع أنوفهم وآذانهم ، ولكن أفرج عنهم دون أن يمسوا بأذى ، واشترك بعض ذوى المقامات الرفيعة — مثل كامدن وسلدن — فى المأدبة التى أقامها الثالوث الذى استرد حريته . ثم ، فى ٧ نوفمبر ١٦٠٥ ، استدعى جونسون إلى مجلس الشورى ، باعتباره كاثوليكيا يمكن أن يكون لديه معلومات عن مؤامرة البارود . وعلى الرغم من أنه كان قد تناول العشاء مع المدبر الرئيسى كاتسبى ، قبل ذلك بشهر ، فانه تفادى كل تورط فى المسألة . ولكن فى ٩ يناير ١٦٠٦ دعى إلى المحكمة بوصفه متمردا مخالفا للقانون . ولما كان فقيرا معدما إلى حد لا يستطيع معه دفع غرامة مجزية ، فان المحكمة لم تتشدد فى الاتهام . وفى ١٦١٠ ارتد إلى المذهب الأنجليكانى ، فى حماسة بالغة إلى حد أنه أتى على كل مافى كأس النبيذ حين جلس إلى « العشاء الربانى »(٤٤)

وفى تلك السنة أخرج أشهر مسرحياته « الكيميائى القديم The Alchemist » ، وهجا فيها ، لا مجرد الكيمياء القديمة (محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) ، وهذه مسألة تافهة ، بل هجا كذلك ألوانا كثيرة من الدجل والخداع التى غزت لندن بالشعوذة . إن سير ابيقور مامون واثق من أنه وقف على سر الكيمياء القديمة فيقول :

> « الليلة سأحول كل مافى بيتى من معدن إلى ذهب ، وفى الصباح الباكر أرسل إلى كل المشتغلين بالقصدير والرصاص ليبيعونى مالديهم من هذا وذاك ، وأرسل إلى لوثبرى من أجل كل مافيها من نحاس .... ولسوف أشترى ديفونشير وكورنوال ، وأجعلهما مثل جزر الهند الشرقية تماما . فإنى أريد أن يكون لى من الزوجات والخليلات مثل ما كان لسليمان ، الذى كان عنده خاتم مثل ماعندى . وسيكون لى بفضل إكسير الحياة

ظر قوى صلب مثل هركيوليز ، فأصرع من الأعداء خمسين
فى الليلة الواحدة . أما المتملقون لى فسيكونون من الكهنة ،
الأطهار الوقورين ، الذين يمكن أن أستحوذ عليهم بمالى ....
وسيقدم لى اللحم فى أصداف هندية وأطباق مصنوعة من
الذهب ومرصعة بالعقيق والزمرد والصفير والياقوت الأزرق
والأحمر . أما ألسنة الشبوط (سمك نهرى) ، والسنجاب ،
وكعوب الأبل ... والفطر العتيق ، والصدور المكسوة بالدهن
لخنزيرة سمينة حامل ، والتى قطعت لتوها ... فسأقول عنها
لطباخى « هاك الذهب » فتقدم ، ولتكن فارسا[٤٥] :

وقلما كان سيرابيقور تافها ، ولكن بقية أشخاص الرواية كانوا حثالة ، وكان كلامهم بغيضا بما احتوى من معالجة موضوعات الدعارة القذرة ، وإنه لما يدعو إلى الأسى والحسرة أن نرى بن المثقف خبيرا بهذا الغثاء وتلك النفاية ، وبلغة الأكواخ واللصوص والمتشردين . وهاجم البيوريتانيون مثل هذه الروايات تجاوزا ، فانتقم منهم جونسون بتصويرهم فى صور كاريكاتورية ساخرة فى رواية The Bartholomew Fair ١٦١٤ .

وأخرج مسرحيات هزلية أخرى كثيرة مفعمة بالحياة ممتلئة بالعكارات
وتمرد هو نفسه فى بعض الأحيان على واقعيته الخشنة ، فى مسرحية « الراعى الحزين » وأطلق لخياله العنان ليسرح دون مبالاة :

إن وطء أقدامها لا يثنى ورقة عشب ،
أو يهز الطائر الأزغب فى عشه
ولكنها مثل الرياح الغربية الخفيفة انطلقت مسرعة
وحيثما ذهبت تعممت جذور الأزهار
وكأنما زرعتها بأقدامها العطرة[٤٦] .

ولكنه ترك الرواية دون أن يكملها ، وقصر رومانتيكيته ، (أو خياله

وعواطفه) بقية حياته . على أغنيات رقيقة تناثرت فى ملهاواته ، مثل الجواهر وسط القـــاذورات ، من ذلك أنه فى ملهاة « الشيطان حمار The Devil is an Ass » (١٦١٦) : يغنى فجأة :

هل شهدت الا سوسنة متألقة تنمو
قبل أن تمسها الأيدى الخشنة ؟
هل شهدت إلا تساقط الثلوج
قبل أن تلطخها التربة ؟
أو لم تلمس فراء السمـــور
أو ريش البجعة قط ؟
وهل نشقت رائحة براعم الورد البرى
أو رائحة الناردين وهو يحترق ؟
وهلا تذوقت شهد النحلة ؟
أوه ! يا لبياضها ، أوه ! يالرقتها ، أوه ! يا لحلاوتها ؟

وأجمل من هذا بالطبع ، أغنيـــة « إلى ســـليا To Celia » التى سرقها من اليونانية من فيلوستراتوس ، وحولها بدقة وبراعة إلى « اشربى من أجلى أنا وحدى بعينيك » .

وبعد موت شكسبير أصبح جونسون الرئيس المعترف به لجماعة الشـــعراء . وأصبح شاعر البلاط غير المتوج فى انجلترا — ولو أنه لم يعين رسميا ، ولكن الحكومة اعترفت به فى معظم الأحوال ، ومنحته معاشا سنويا قدره مائة قطعة ذهبية . وأدرك الأصدقاء الذين التفوا حوله فى حانة مرميد أن طبيعته الطيبة الحافة تختفى وراء مزاجه الحاد ولسانه السليط ، فأفادوا من حديثه المثمر ، وهيأوا له أن يلعب دور الزعامة كما كان الحال مع سميه فى القرن التالى .

وكان بن آنذاك بدينا ، كما سيكون الحال مع سميه صمويل جونسون فيما بعد ، وما كان أكثر وسامة ولا رشاقة ، وكم حزن على « كرشه الفظيع » ووجهه المتجعد

المملوء بالبثور نتيجة الأسقربوط . وقل أن زار صديقا دون أن يكسر كرسيا . وفى ١٦٢٤ نقل الندوة إلى « حانة الشيطان Devil Tavern » فى شارع فليت . وهناك التقى بانتظام مع جماعة نادى أبوللو الذى كان قد أسسه هو من قبل. ليتزودوا بالطعام والشراب والدعابة وثمار الفكر ،وكان لجونسون مقعد مرتفع فى أحد طرفى الغرفة له درابزين يؤدى بجسمه الضخم إلى العرش . وجرى العرف على تسمية أتباعه « قبيلة بن » ، وكان من بينهم جيمس شيرلى وتوماس كارو وروبرت هرك. الذين سموه القديس بن (٤٧) » .

وكان جونسون فى حاجة إلى صبر أيوب ، وهو غير مفطور على الصبر ، ليحتمل الفقر والمرض فى السنين التى كان يتحطم فيها . وقدر أن كل رواياته لم تدر عليه إلا مبلغا يقل عن مائتى جنيه كان ينفقها بسرعة ، ويتضور جوعا طيله الأيام التى لا يعمل فيها . وكان يفتقر إلى شئ من الحاسة أو الخبرة المالية التى جعلت شكسبير خبيرا فى إقتناء الأملاك الثابتة أو العقار ، وتابع شارل الأول صرف المعاش المخصص لجونسون ، ولكن عندما خفض البرلمان المخصصات الملكية . لم يكن المعاش يدفع دائما . على أن شارل أرسل إليه مائة جنيه فى ١٦٢٩ وقرر رئيس كنيسة وستمنستر وجماعة الرهبان فيها خمسة جنيهات «لمستر بنيامين » جونسون فى أيام مرضه وفاقته(٤٨) ولم تصب رواياته الأخيرة أى نجاح ، وذبلت شهرته ، وأختفى أصدقاؤه ، وقضت زوجته وأولاده نحبهم ، وماجاءت سنة ١٦٢٩ حتى عاش وحيداً قعيداً ، ملازما الفراش بسبب الشلل ، مع سيدة عجوز تتولى العناية بأمره . وظل يعانى من المرض والفقر ثمانى سنوات أخرى ، ودفن فى وستمنستر ، ونقش جون يونج على حجر يواجه القبر ، العبارة المشهورة :

« أى بن جونسون الفذ »

ولم يبق منها إلا الكلمتان الأوليان . ولكن أى انجليزى مثقف متعلم يستطيع أن يكمل العبارة

٦ — جون درن ١٥٧٣ — ١٦٣١

فى مؤتمر هامبتون كورت اقترح مندوب بيوريتانى ترجمة جديدة للكتاب المقدس

فاعترض أسقف لندن بأن التّرجمات الموجودة صالحة تماما . فقاطعة الملك جيمس وأمر بأن تتخذ إجراءات خاصة لترجمة رسمية موحدة يقوم بها أفاضل العلماء فى كلتا الجامعتين ، ويراجعها الأساقفة ثم تقدم إلى مجلس الشورى ، ثم يعتمدها الملك حتى يمكن تلاوتها دون غيرها فى كل الكنائس (٤٩) » . ونهض بهذه المهمة سير هنرى سافيل وستة وأربعون عالما آخرون ، مستندين إلى ترجمات ويكلف وتندال القديمة ، وأنجزوا عملهم فى سبع سنين (١٦٠٤ — ١٦١١) وأصبحت هذه الترجمة المعتمدة » رسمية فى ١٦١١ ، وكان لها أثرها البالغ على الحياة والأدب الحديث فى إنجلترا . ودخل إلى اللغة الانجليزية من هذه التّرجمة ألف من العبارات البليغة ، وكان تقديس الانجيل آنذاك قويا جداً فى هذه البلاد البروتستانتية ، ولكنه الآن تزود بدفعة جديدة من القداسة والاقبال عليه فى انجلترا ، كما إزدادت معرفة البيوريتانيين ثم الميثوديين ثم الكويكرز بنصوصه والتعبد به ، بشكل لا يعدله إلا حب المسلمين للقرآن الكريم وتمسكهم به . وكان أثر الترجمة على أسلوب الأدب الإنجليزى مفيدا كل الفائدة ، فقد وضعت حدا للتعقيدات الطويلة الغريبة فى النثر الإنجليزى فى عهد اليزابث ، وانتهت به إلى جمل قصيرة قوية واضحة طبيعية وأحلت محل المصطلحات والتراكيب الأجنبية ألفاظا أنجلوسكونية واصطلاحات انجليزية مفعمة بالحيوية . وكان فيها ألف من الأخطاء العلمية ، ولكنها حولت العبرية الرفيعة واليونانية العادية فى الكتاب المقدس بقسميه إلى أروع تحفة فى النثر الانجليزى .

وثمة مؤلفان آخران من النثر الرفيع ميزا هذا العصر . كتاب سير والتر رالى « تاريخ العالم » (وهو ثانيهما فى الظهور) ، وكتاب روبرت بيرتون « تشريح الكآبة Anatomy of Melancholy (١٦٢١) (*) — وهو المرجع الضخم الذى وضع فيه قسيس سان توماس فى أكسفورد نبذاً مما جمعه من المعلومات اللاهوتية

(*) اكتسب بعض النثر العادى منزلة تاريخية : من ذلك نشرات الاخبار التى كانت تملأ لندن فى أيام جيمس ، والتى تدرجت فى ١٦٢٢ حتى أصبحت أول صحيفة انجليزية باسم "الانباء الاسبوعية" "The Weekly News"

والتنجيمية ، والقديمة والفلسفية . وحسب أساتذة الجامعة أول الأمر أنه « مرح فكه ظريف » ولكنه أصبح فى حياته فيما بعد مكتئبا إلى حد أنه لم يكن يسره ويسعده إلا بذاءة بحارة الزوارق فى نهر التاميز[٥٠] . وللتخلص من كآبته «التهم » «بيرتون» « المؤلفين » الذين أمدته بهم مكتبة بودليان . وفى هذه الكتب وفى مخطوطه وفى علم التنجيم وفى الخدمات الكهنوتية . قضى أيامه الكئيبة ولياليه الممتلئة بالنجوم . وحسب طالعه الخاص ، وتنبأ باليوم الذى سيوافيه فيه الأجل المحتوم بدقة ؛ إلى حد أن تلاميذ اكسفورد ارتابوا فى أنه شنق نفسه ليثبت أنه يعلم الغيب[٥١] .

أنه نشيط مفعم بالحيوية فى كتابه . ولما شرع فى فحص وسواس المرض عنده ووصف العلاج له ، وجد أن الاستطراد ألطف من خطته . وبالمرح الشاذ ، الذى يشبه مرح رابليه فى موضوعاته غير المطروقة ، ناقش كل شىء عن غير قصد كما كان يفعل مونتانى ، ويتبل صفحاته هنا وهناك بشىء من اللاتينية واليونانية ، ويغرى قارئه شيئا فشيئا بشكل لطيف ، إلى لا شىء ، وهو لا يدعى الأصالة ، ويشعر بأن كل التأليف سرقة ؛ « ما أرانا نقول إلا معادا من لفظنا مكرورا . وربما كان الانشاء والمنهج من عندنا فحسب[٥٢] . » ويعترف بأنه عرف الدنيا عن طريق الكتب وعن طريق الأنباء التى تتسرب إلى اكسفورد فحسب .

> أنى لأسمع أنباء جديدة كل يوم ، كما أسمع الاشاعات العادية
> عن الحرب والطاعون والحرائق والفيضانات والسرقات ،
> وحوادث القتل والمذابح والنيازك والمذنبات والأطياف
> والأعاجيب والأشباح ، وعن المدن التى تم الاستيلاء عليها .
> والمدن التى حوصرت فى فرنسا وألمانيا وتركيا ، وإيران وبولنده
> .... الخ والتجمعات والاستعدادات اليومية وغيرها ، مما يتم
> فى هذه الأيام العاصفة : فتنشب المعارك ، ويذبح كثير من
> الرجال ، كما نسمع عن غرق السفن وأعمال القرصنة
> والمعارك البحرية ؛ ثم الصلح وتكوين العصبات ، ثم تتبين
> خدع حربية وإنذارات جديدة ، انها فوضى هائلة من العهود

والرغبات والأعمال والقرارات ، والظلامات والقضايا البينات
والدفوع والقوانين والتصريحات . . . . والآراء والانشقاقات
والهرطقات .... والأعراس، والمسرحيات التنكرية وشعارات
الرياء والحفلات ، واحتفالات اليوبيل....والجنازات(٥٣)

وأنه ليحس (مثل ثورو) أنه إذا قرأ أخبار يوم واحد ، فقد يكتفى بها ويأخذها قضية مسلمة بقية العام ، مع مجرد تغيير فى الأسماء والتواريخ . وهو يرتاب فى أن الانسان سائر على طريق التقدم ، ومع ذلك يقول « لســـوف أصنع يوتوبيا (دنيا مثالية) خاصة بى ... أتحكم فيها بمحض حريتى » ويصفها فى تفصيل خيالى غريب . والواقع ، على أية حال ، أنه كان يؤثر تصفح الكتب فى هدوء فى مكتبه أو على ضفاف التاميز ، على الانصراف إلى إصلاح البشر . ويقدم له كل مؤلفى العالم أحسن ما لديهم ، ويثقل كاهله ما يجمع من اقتباسات ، فيعود مكتئبا مغتما من جديد ، وبعد مائة وأربع عشرة صحيفة ممتلئة ، يعقد العزم على التوصل إلى أسباب الكآبة ، وهى الخطيئة ، والشهوة الجامحة ، والافراط ، والشياطين . والسحرة ، والنجوم ، والامساك ، والاسراف الجنسى ، .... وأعراضها (أى الكآبة) ومن بينها : « ريح تقرقر فى البطن .... وتجشؤات كريهة .... وأحلام مزعجة(٥٤)». وبعد أن أكمل مائتى استطراد ، تراه يصف أنواع العلاج للكآبة : الصلوات ، الغذاء ، الدواء ، الملينات ، إدرار البول ، الهواء الطلق ، الرياضة ، الألعاب ، الحفلات المسرحية ، الموسيقى ، الصحبة المرحة ، النبيذ ، النوم ، فصد الدم ، الاستحمام . ثم يستطرد من جديد ، إلى حد أن كل صحيفة تغدو مخيبة للآمال ومفرحة معا — إذا توقف سير الزمن .

أما فى الشعر فقد اختفى شعراء « السونيت » ، وظهر « شعراء ما وراء الطبيعة »: ريتشارد كروشو ، أبراهام كاولى ، جون دون ، جورج هربرت — الذين عبروا فى جمال وديع ، عن الهدوء والتقوى فى بيت الكاهن الأنجليكانى ، ولقد سماهم صمويل جونسون « ميتافيزيقيين » ، من ناحية واحدة فقط ، لأنهم نزعوا إلى الفلسفة واللاهوت والجدل ، وأساسا لأنهم اختاروا عن ليلى ، أوجونجورا ، أو البلياد — أساوبا يتميز بالبدع والنزوات اللغوية ، والذكاء اللفظى والتركيبات

المعقدة ، والمقتطفات الكلاسيكية ، والغموض المتكلف . على أن شيئاً من هذا كله لم يحل دون أن يكون « دون » أرق شعراء العصر .

وعاصر جون دون — مثل جونسون وتشابمان — ثلاثة عهود : فى عهد اليزابث كتب فى الحب ، وفى عهد جيمس عن التقوى ، وفى عهد شارل عن الموت ؛ ومنذ نشأ كاثوليكياً ، وتعلم على أيدى الجزويت وفى أكسفورد وكمبردج ، فقد خبر مرارة الاضطهاد وهدأة الاختفاء . واعتقل أخوه هنرى لإيوائه كاهناً محكوماً عليه بالموت ، وقضى هنرى نحبه فى السجن ، وزاد من اكتئاب جون انصرافه فى بعض الأحيان إلى كتابات سانت تريز ولويس دى جرانادا الروحية . ولكن فى ١٥٩٢ نبذ عقله الفتى النابض بالحيوية ، ما ورد فى ديانته من معجزات وكرامات ، وحام فى العقد الثالث من عمره حول المغامرات العسكرية والجنسية وفلسفة التشكك .

ولفترة من الزمن قصر جون دون شعره على الاتصال الجنسى غير المشروع صراحة ، ففى القصيدة رقم ١٧ من قصائده التأملية التى تعروها الكآبة ، امتدح « أحلى شىء فى الحب : التنوع (لذة الهوى فى التنقل) :

ما كان أسعد آباءنا فى الزمان الأول
أولئك الذين لم يجدوا فى تعدد العشاق جرماً(٥٥) .

وفى قصيدته التأملية رقم ١٨ سبح فى « الدردنيل بين ستوس وأبيدوس فى صدرها » وفى القصيدة رقم ١٩ « إلى حبيبته وهى تأوى إلى مخدعها » نزع عنها ثيابها ، وفى خيال واسع ، طلب إليها : اسمحى ليدى « أن تجوسا حيث تشاءان » : وخلط بين علم الحشرات والعشق ، وحاول أن يبرهن على أنه ما دام أن البرغوث عضهما معاً فانه قد خلط دمه بدمها فقد تزوجا آنذاك بالدم ، ومن ثم يسرحان فى نشوة لا إثم فيها(٥٦) : ولكنه أتخم بالمظاهر فسئمها ، ووجد أنه ليس كريماً منه أن يرتكب الفاحشة مع كرائم السيدات ، ونسى مفاتنهن الموقوتة ، ولم يتذكر إلا الحيل التى كن قد تعلمنها من دنيا لا قلب لها ، وصب على عشيقته جوليا أكبر

اللعنات ، ونصح قارئه أن يختار رفيقة طبيعية غير متكلفة لأن « الحب المبنى على الجمال » سريع الفناء مثل الجمال(٥٧) » ثم أنشد مقطوعة شعرية مضادة لفيللون ، ووضع ميثاقاً شعرياً كان كل مقطع فيه يهوى على « العشق » بضربة قاتلة .

وفى ١٥٩٦ أبحر مع اسكس ، وساعد فى الحملة على قادس ، وأبحر معه ثانية فى ١٥٩٧إلى جزر الآزوروأسبانيا.ولماعاد إلىانجلترا وجد وظيفة محترمة ، سكرتيراً لسير توماس أجرتون « حامل الأختام الملكية » ، ولكنه هرب مع ابنة أخيه وتزوجها (١٦٠٠)، ونشط فى أن يعولها بالشعر ، وواتاه الأولاد بمثل السهولة التى واتته بها القوافى . وغالباً ما عجز عن غذائهم وكسائهم . وساءت صحة زوجته ، وكتب يدافع عن الانتحار . وأخيراً رق قلب سير أجرتون فارسل إلى الأسرة مبلغاً من المال (١٦٠٨) ، ووهبها سير روبرت دروري مسكناً فى قصره (١٦١٠) فى Drury Lane . ولكن بعد عام واحد فقد سير روبرت ابنته الوحيدة ، فنشر دون ، بلا توقيع ، أولى قصائده العظمى ، رثاء لها ، بعنوان An Anatomy of The world ، وفيها ضخم من موت اليزابث دروري تضخيما حتى جعل منه فناء الإنسان ثم الكون باسره :

وهكذا يفنى العالم منذ اللحظة الأولى . . . .
وتدعو الفلسفة الجديدة كل الناس إلى الشك .
وخمد عنصر النار ،
وضاعت الشمس والأرض . ولا يستطيع عقل أى إنسان
أن يوجهه التوجيه الصحيح للبحث عنها .
ويعترف الناس صراحة أن الدنيا قد ولت ،
على حين أنهم فى الكواكب وفى القبة الزرقاء
يلتمسون الكثير من الجديد ثم يرون أن كل هذا
قد انهار من جديد . . . .
لقد تفتت كل شيء ، وضاع التماسك ،
كل الزاد الكريم ، وكل علاقة(٥٨) .

وهكذا حزن لأنه يرى كيف أن هذه الأرض « عرجاء مشلولة » . وكانت يوماً مشهد الافتداء السماوى ، والآن فى الفلك الجديد ، مجرد « ضاحية » للدنيا . وفى إحدى حالاته النفسية نراه يمجد « الظمأ المقدس إلى العلوم » . وفى حالة أخرى يتساءل متعجباً هل سينتهى العلم بالجنس البشرى إلى الدمار

إنا نحارب أنفسيا بالأمراض الجديدة
وبالفيزياء الحديدة هناك آلة جديدة للحرب أسوأ كثيراً[٥٩] .

وكذلك تحول إلى الدين . فان تكرار إصابته بالأمراض والعلل ، والموت المشئوم لأصدقائه الواحد بعد الآخر ، انتهيا به إلى خشية الله فانه . ولو أن عقله ظل يحاول فى اللاهوت ، فانه كان قد تعلم ألا يثق فى العقل كذلك ، على أنه عقيدة أخرى . وقرر أن المذهب القديم يجب قبوله دون مزيد من النقاش ، إذا كان يوفر هدوء البال ولقمة العيش . وفى ١٦١٥ صار قسيساً إنجليكانيا ، ولم يقتصر حينئذ على إلقاء المواعظ فى نثر كئيب مؤثر . ولكنه نظم كذلك بعضاً من أكثر الأشعار الدينية تأثيراً فى اللغة الإنجليزية . وفى ١٦١٦ عين قسيساً خاصاً لجيمس الأول ، وفى ١٦٢١ أصبح رئيس كهنة سانت بول . ولم ينشر قصائده الغنائية الخنسية التى نظمها فى شبابه ، ولكنه كان قد سمح بتداول نسخ مخطوطة منها ، أما الآن فانه — كما روى جونسون « يندم أشد الندم ، ويسعى إلى إعدام كل قصائده[٦٠] » . وكتب بدلا منها « قصائد مقدسة من نوع السونيت . وتحدى الموت . وهو يصفر فى الظلام .

أيها الموت . لا تزه ولا تتكبر . ولو أن بعضهم قد أسموك
جباراً رهيباً ، لأنك لست كذلك .
لأن هؤلاء الذين تظن أنك صرعتهم
لا يموتون . أيها الموت الحقير ، إنك كذلك لن تستطيع أن تصرعنى ...
لقد انقضت غفوتنا القصيرة ، ولسوف نكون فى يقظة أبدية ،
ولن يكون ثمة موت بعد الآن ، ولسوف تموت أنت أيها الموت[٦١] .

وبعد أن أبل من مرض شديد ، كتب فى مذكراته فى ١٦٢٣ ، سطوراً مشهورة :
« إن موت أى رجل يهد من كيانى لأنى جزء متشابك فى الجنس البشرى ، ومن ثم لا أرسل

أحدا لأستفسر عمن تنعى النواقيس ، إنها تنعانى أنا[٦٢]» . وفى أول يوم جمعة من الصوم الكبير ١٦٣١ ، نهض من فراش مرضه ليلقى العظة التى بادر الناس فقالوا انها عظة جنازته هو ، وكان معاونوه قد حاولوا أن يثنوه عن الكلام ، لما رأوا (كما قال صديقه المخلص ايزك والتون) أن علته قد اشتدت حتى تركته مجرد جلد على عظم[٦٣] » . وما أن انتهى من إلقاء موعظته التى كان فيها فصيحا فى التعبير عن الايمان بالبعث ،« مبتهجا أشد الابتهاج لأن الله أعانه على القيام بهذا الواجب المرغوب فيه ، حتى أسرع إلى بيته الذى لم يغادره ... إلا محمولا على أيدى رجاله الأتقياء إلى قبره [٦٤] » . ووافاه الأجل (٣١ مارس ١٦٣١) بين ذراعى أمه التى كانت قد احتملت صابرة آثامه ، كما استمعت فى حنان وعطف إلى عظاته .

لقد كانت حياة حافلة متوترة ، انتظمت كل العواطف من شهوة وحب ، وشك وانحلال ، واختتمت فى عزاء دفئ ، هو عزاء الايمان القديم . إننا نحن أبناء اليوم الذين يسارع إلينا النعاس حين نقرأ سبنسر ، لنجد أنفسنا ، وقد هزها من سباتها هذا الواقعى الخيالى على نحو عجيب ، هذا الروح الوسيط معا ، عند قراءة كل صفحة من صفحاته تقريبا . إن شعره خشن ، ولكنه هكذا أراده : إنه نبذ اللطائف المتكلفة فى حديث الالزابيثيين واستطاب الألفاظ التى لم تبل جدتها ، وبحور الشعر الأخاذة . وأحب الأنغام الناشزة المتنافرة التى يستطيع تحويلها إلى أنغام متناسقة لم تألفها الأذن . ولم يكن ثمة شىء مبتـــذل فى شعره بعد أن تخرج فى المواخير . إن هذا الرجل الذى صقل الفحش ، كما صقله كاتوللوس من قبل ، اكتسب من رقة الشعور والفكر ، ومن أصالة فى العبارة والعاطفة ، مالم يضارعه فيه شاعر آخر فى ذلك العصر ، اللهم إلا شكسبير نفسه .

٧ — جيمس يثير العاصفة ١٦١٥ — ١٦٢٥

إن الحب والدبلوماسية رفيقان شيمتهما الخيانة والغدر . ففى ١٦١٥ أحب الملك جيمس ، بأسلوبه الرقيق ذى الوجهين ، جورج فلير Villiers ، الشاب الوسيم الجرىء الثرى ، ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، فخلع عليه لقب ارل ، ثم مركيز ثم

دوق بكنجهام ، ثم بعد ١٦١٦ أطلق يديه فى توجيه سياسة الدولة . وكانت زوجة بكنجهام ، ليدى كاترين مانرز تتبع الطقوس الإنجليكانية فى الظاهر ، ولكنها فى أعماق قلبها كاثوليكية ، وكان من الجائز أن تقنعه بصداقة أسبانيا .

إن الملك چيمس نفسه كان رجل سلام ، ولم يكن ليدع اللاهوت أو القرصنة لتورطه مع القارة . وما أن تولى العرش حتى وضع حداً للحروب الطويلة التى كانت إنجلترا قد شنتها على أسبانيا . ولما فقد فردريك أمير البلاتينات (إقليم غرب الراين) — وزوج ابنة چيمس المحبوبة اليزابث — أمارته فى بداية « حرب الثلاثين عاما » ، راود چيمس الأمل فى أن استرضاء ملك أسبانيا وهو من (آل هبسبرج) استرضاء جادا كريما ، قد يؤثر على امبراطور آل هبسبرج فرديناند الثانى ، فيسمح لفردريك باسترداد عرشه . وأثار چيمس استياء الشعب واشمئزازه حين اقترح لهذا الغرض على فيليب الرابع زواج أخته « الأميرة ماريا » الأسبانية من الأمير شارل .

ولقى رالى نهايته الأليمة ضحية السياسة الأسبانية . وكان رالى يعارض سراً إرتقاء چيمس عرش إنجلترا ، كما كان يعارض بشدة اسكس ، سند چيمس ومؤيده . وسرعان ماوصل چيمس إلى لندن حتى فصل رالى من جميع مناصبه الحكومية . وبانفعال واندفاع تميز بهما والتر ، سمح لنفسه بالتورط فى عدة محاولات لخلع الملك (٦٥) . فأودع السجن ، واحتج بأنه برئ وحاول الانتحار . وحوكم ، وأدين بناء على أدلة مشكوك فى صحتها ، وحكم عليه بالإعدام ، فى ١٣ ديسمبر ١٦٠٣ وقاسى كل ألوان التعذيب ، على أنه خائن . وفى ٨ ديسمبر كتب إلى زوجته رسالة تفيض رقة وتقى — لم يشهدها العالم فيه من قبل . ورفض چيمس توسلات الملكة والأمير هنرى للعفو عنه . ولكنه سمح للسجين بالبقاء على قيد الحياة لمدة خمس عشرة سنة أخرى ، مع بقاء حكم الإعدام سيفا مصلتا على رأسه ، وسمح لزوجة رالى بالإقامة معه فى بيت صغير بناه فى تخوم البرج (السجن) . وأمده أصدقاؤه بالكتب وأجرى بعض التجارب الكيميائية ، ونظم بعض القصائد الرائعة ، وألف كتابه « تاريخ العالم » . وبدأ الكتاب — كما نشر ١٦١٤ بمقدمة ورعة مشوشة معقدة مطولة مملة ، تكشف عن عقل مهموك شديد الاضطرابات والخبل . وبدأت القصة

بنينوى ، وانتقلت عبر مصر وجنوب فلسطين ، وإيران وكلديا واليونان وقرطاجة ، وانتهت بروما الامبراطورية . ولم يحرص رالى على الوصول إلى الأزمنة الحديثة « لأن من يتوخى الصدق كل الصدق فى كتابة التاريخ ، قد لاينجو من الأذى » وتحسن أسلوبه بمتابعة الكتابة ، حتى بلغ مرتبة عالية فى وصف معركة سلاميس ، وبلغ الذروة فى المناجاة الختامية « للموت البليغ العادل الجبار [٦٨] » .

ولكن رالى لم يرتض الهزيمة ولم يقنع بها ، ففى ١٦١٦ ، بعد أن جمع ١٦٠٠ جنيه ، رشا دوق بكنجهام ليتوسط له لدى الملك [٦٩] ، ووعده ، فى حال إطلاق سراحه ، بالإبحار إلى أمريكا الجنوبية ، ليكشف عما ظن أنه مناجم الذهب الغنية فى جويانا ، ويعود بالغنائم الملكية للخزانة الظمأى . فأفرج عنه جيمس افراجا مؤقتا مشروطا ، ووافق على أن يحتفظ رالى وشركاؤه بأربعة أخماس أية كنوز قد يستولى عليها من « الوثنيين المتوحشين » ولكن الملك الحذر البعيد النظر أبقى حكم الإعدام نافذ المفعول إغراء بحسن السلوك . وأشار السفير الأسبانى كونت جوندومار إلى أن هناك فى جويانا جاليات أسبانية ، ورجا ألا يضاروا أو يعكر صفوهم . فما كان من جيمس الحريص على السلام ،وعلى المصاهرة مع أسبانيا ، إلا أن حظر على رالى — تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام — التدخل فى شئون أية جاليات مسيحية فى أى مكان والأسبانية منها بوجه خاص [٧٠] ، ووافق رالى كتابة على هذة التحذيرات [٧١] ، واستمر جوندومار يعترض ويحتج ، فما كان من جيمس إلا أن أقسم على تنفيذ حكم الإعدام إذا خالف رالى تعليماته [٧٢] .

وجهز رالى بمعونة أصدقائه ، أربع عشر سفينة أبحر بها فى ١٧ مارس ١٦١٧ إلى مصب نهر الأورينوكو . ولـكن مستوطنة سانتا توماس الأسبانية اعترضت الطريق عبر النهر إلى المناجم المزعومة ،وتلك مسألة أسطورية تماما . ونزل رجال رالى إلى البر — وبقى هو على ظهر السفينة — وهاجموا القرية وأحرقوها وقتلوا حاكمها . وفترت همة القوة المنهوكة بما لقيت من مقاومة أسبانية بعد ذلك ، وتخلت عن ضالتها المنشودة فى الذهب ؛ وعادت صفر اليدين إلى السفن .

وانخلع قلب رالى عندما علم أن ابنه قد ذبح فى الهجوم ، وأنب الرجل الذى يليه فى القيادة ، فانتحر الرجل نتيجة لذلك . ولكن رجال رالى فقدوا ثقتهم به ، وتخلت السفن عن أسطوله الواحدة بعد الأخرى ، ولما عاد إلى انجلترا ، ووجد أن الملك غاضب عليه أشد الغضب ، أجرى مفاوضات للهرب إلى فرنسا ، ولكن قبض عليه ، فعاود محاولة الهرب ، ووصل إلى جرينتش . ولكن جاسوسا فرنسيا غدر به ، فقبض عليه وأودع السجن ، وأمر الملك ، الذى كان يستحثه جوندومار ، بتنفيذ حكم الاعدام .

وكان رالى ، آخر الأمر ، قد سئم الحياة ورحب بنعمة الموت العاجل ، فسار فى ٢٩ أكتوبر ١٦١٨ ، إلى ساحة الاعدام فى وقار هادىء ، جعل منه بطل شعب يمقت أسبانيا . وقال للموكلين بتنفيذ الحكم : « هيا ، أنجزوا مهمتكم ، لقد حانت ساعتى ، ولن أدع أعدائى يظنون أنى أرتعد فرقا » . واختبر بابهامه نصل البلطة ثم قال « هذا علاج ناجح عادل لكل ما أعانى من مرض وشقاء[٧٣] » وطالبت زوجته الوفية بجثته ودفنتها فى إحدى الكنائس . وكتبت « لقد أنعم علىّ السادة بجثته ، ولو أنهم أنكروا علىّ حياته . اللهم احفظ على عقلى وألهمنى الصبر[٧٤] » .

إن رحلة رالى كانت واحدة من رحلات كثيرة ، حملت رعايا جيمس إلى أمريكا ، يحدوهم الأمل . فالفلاحون المتلهفون على امتلاك أرض خاصة بهم ، والمغامرون الذين يجرون وراء الثراء من التجارة أو الأسلاب ، والمجرمون الذين يريدون الافلات من قبضة القانون ، والبيوريتانيون المصممون على رفع راية مذهبهم فوق أرض عذراء — هؤلاء جميعا وغيرهم ركبوا الصعاب وتحملوا مشاق البحر ليؤسسوا « انجلترا » جديدة فى كل مكان . فأسست فرجينيا فى ١٦٠٦ — ١٦٠٧ ، وبرمودا فى ١٦٠٩ ، ونيوفوندلند فى ١٦١٠ ، وهرب رجال الدين « الانفصاليون » الذين رفضوا كتاب الصلوات والطقوس الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، إلى هولنده مع أتباعهم فى ١٦٠٨ . ومن دلفت (يولية ١٦٢٠) وسوثمبتون ويليموث (سبتمبر) أبحر هؤلاء الحجاج عبر الأطلسى . وبعد ثلاثة

أشهر من المحن والمخاطر . ألقوا مراسيهم على صخرة بليموث (٢١ديسمبر) .

وفى آسيا . اقتصرت شركة الهند الشرقية الانجليزية على ٣٠ ألف جنيه و ١٧ سفينة . حاولت بها عبثا أن تنتزع الثغور والطرق التجارية من شركة الهند الشرقية الهولندية التى كان لها ٦٠ سفينة و ٣٤٠ ألف جنيه ، ولكن بعثة سير توماس رو (١٦١٥) انتهت إلى إنشاء مستودعات تجارية فى أحمدأباد وسورات وأجرا ، وغيرها ، فى الهند . وأنشىء وعزز بالأسلحة فورت سان جورج ، لحمايتها (٤٠ ٦١) . لقد اتخذت الخطوات الأولى لتأسيس الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وعلى الرغم من مغريات المصالح التجارية ، والاستحثاثات البرلمانية والغيرة الوطنية الشعبية : ظل الملك جيمس لمدة ستة عشر عاما متمسكا بسياسة السلام ؛ وتوسل إليه مجلس العموم أن يدخل حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت المهددين بالخطر فى بوهيميا وألمانيا . وأهاب به أن يزوج ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة : لا من أميرة أسبانية ، بل من أميرة بروتستانتية . وندد بتراخيه فى تنفيذ القوانين المعادية للكاثوليكية ، وحثه على الأمر بفصل الأطفال الكاثوليك عن آبائهم ، وأن ينشأوا على البروتستانتية ، كما حذره مجلس العموم من أن التسامح لابد أن يؤدى إلى نمو كنيسة كاثوليكية مفطورة صراحة على التعصب وعدم التسامح[٧٥] .

إن اختلاف وجهات النظر بين البرلمان والملك فى ١٦٢١ كاد أن يكون بمثابة تجريب للصراع بين البرلمان الطويل وشارل الأول (١٦٤٢) . واستنكر النواب اسراف البلاط ، والاحتكارات الدائبة على تعويق التجارة ، وفرضوا الغرامة والنفى على المحتكرين ، رافضين دفاعهم بأن الصناعة الناشئة لابد من حمايتها ضد المنافسة . فلما أنب جيمس مجلس العموم على تدخله فى أعمال « السلطة التنفيذية » أصدر المجلس (فى ١٨ ديسمبر) « الاحتجاج الأعظم » التاريخى الذى أكد من جديد أن « الحريات والاعفاءات والامتيازات ، وسلطة البرلمان ، هى التراث القديم وحق المولد غير المشكوك فيهما لأبناء انجلترا » : وأضاف : « أن المسائل الشائكة العاجلة

التى تتعلق بالملك والحكومة والدفاع عن المملكة .. كلها موضوعات ومادة صالحة للمشورة والمناقشة فى البرلمان[٧٦] » . ومزق جيمس فى غضب شديد ، من مضبطة البرلمان ، الصفحة التى دون فيها الاحتجاج ، وحل البرلمان (٨ فبراير ١٦٢٢) وأمر بأن يودع السجن أربعة من الزعماء البرلمانيين : سوثمبتون ، سلدن ، كوك ، بيم ، وعجل بتحقيق رغبة بكنجهام فى التحالف العسكرى مع أسبانيا .

وأغرى الوزير المستهتر آنذاك مليكه بأن يسمح له فى اصطحاب الأمير شارل إلى مدريد ، متباهياً ، ليرى الأميرة الأسبانية ، ويتمم الزواج ، ووافق جيمس على كره منه ، لأنـــه خشى أن فيليب قد يرد شارل إلى انجلترا خائبـــاً ، فيكون أضحوكة أوربا .

ووصل الأمير شارل ودوق بكنجهام إلى مدريد (مارس ١٦٢٣) ، فوجد أن الأميرة الفاتنة لا يمكن الوصول إليها أو الاقتراب منها ، وأن الشعب الأسبانى غاضب أشد الغضب لمجرد التفكير فى زواجها من أمير بروتستانتى ، قدر استياء الإنجليز لفكرة عودة أميرهم بعروس كاثوليكية إلى انجلترا . وقام فيليب ووزيره أوليفار بمراسم الحفاوة والتكريم للضيوف ، وكتب لوب دى فيجا رواية كمظهر من مظاهر الترحيب ، ورسم فيلاسكيه لوحة للأمير شارل ، وامتدح بكنجهام المفاتن الأسبانية إلى حد الامتياز والشرف . ولكن وضع لإتمام الزواج شرط أساسى لا مناص منه ، وهو منح الحرية الدينية للكاثوليك الإنجليز . ووافق شارل على الفور ، ووافق جيمس آخر الأمر ، ووقعت معاهدة الزواج ، ولكن عندما طلب جيمس فيما بعد من فيليب أن يعد باستخدام الأسلحة الأسبانية ، إذا اقتضى الأمر ، فى استعادة فردريك لإقليم البلاتينات ، أبى فيليب أن يلزم نفسه بشىء ، وأمر جيمس ابنه بالعودة إلى الوطن الحبيب . وإنا لنلمس الجانب الإنسانى فى الملك فى رسالته إلى شارل (١٤ يونيه ١٦٢٣) : « أنا الآن أعض بنان الندم ، وأتألم أشد الألم ، لأنى سمحت برحيلك . عنى أنا لا أعبأ بالزواج ولا بغيره ، طالما أراك بين أحضانى ثانية . أعادك الله إلى أعادك الله إلى أعادك الله إلى[٧٧] » أما الأميرة الأسبانية فانها ، عند توديعها الأمير شارل ، جعلته يقطع على نفسه الوعد بالاهتمام بأمر الكاثوليك فى انجلترا

ورعايتهم[٨٧] . وحيت انجلترا الأمير العائد بوصفه بطلا ، لأنه لم يأت بعروس ، بل أتى بدلا منها بمجموعة من لوحات تشيان (Titian — رسام من البنـدقية ١٤٧٧ — ١٥٧٦) .

أما بكنجهام الذى غضب الآن أشد الغضب لأنه خدع نفسه فى أسبانياوارتكب هذه الحماقة هناك (كما أكد له أوليفار ذلك) فقد ولى وجهه شطر فرنسا ليعقد معها حلف مصاهرة ، وهيأ لشارل الزواج من صغرى كريمات هنرى الرابع — وهى هنريتا ماريا التى كان مذهبها الكاثوليكى شوكة من الأشواك فى جنب البرلمان القادم . واستعاد الوزير الشـاب المتهور شعبيته فى مجلس العموم ، بالالحاح على جيمس — الذى تدهورت صحته وانحطت قواه العقلية — ليعلن الحرب على أسبانيا. وعاد البرلمان إلى الاجتماع فى فبراير ١٦٢٤ ، وانتهج سياسة قوامها ، من جهة ، المصالح التجارية المتلهفة على الاستيلاء على المكاسب أو المستعمرات أو الأسواق الأسبانية ، ومن جهة أخرى ، صرف أسبانيا عن مد يد المساعدة إلى الامبراطور الكاثوليكى ضد البروتستانت فى ألمانيا . إن الشعب الذى قال بأن جيمس جبان لأنه يحب السلام ، قال عنه الآن أنه طاغية لأنه يجند الرجال للخدمة العسكرية؛ ولم تكن الكتائب التى أعدت ولا الأموال التى اعتمدت كافية . وأحس جيمس بالمرارة ، لاختتام حكم سلمى بحرب عقيمة .

وتكاثرت عليه العلل والأدواء فى أعوامه الأخيرة ، وكان قد سمم جسمه بالاسراف فى الطعام والشراب دون تمييز ، وكان يعانى الآن من التهاب بالجهاز التنفسى ، والتهاب المفاصـل والنقرس والحصى فى الكلى واليرقان والاسهال والبواسير ، وكان لابد من فصده يوميا ، حتى جعلت أقل متاعبه الملكية من هذا الفصد أمرا غير ضرورى[٨٩] . ورفض تناول الدواء . وتناول الأسرار المقدسة الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، وفاضت روحه فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ ، وهو يتمتع بآخر راحة لنفسه فى عقيدته .

وعلى الرغم من غرور جيمس وخشونته كان ملكا أفضل من بعض ملوك

يزوه في النشاط والشجاعة والمغامرة . وكان « حكمه المطلق » بالدرجة الأولى عبارة عن « نظرية لطف الجبن من حدتها » وغالبا ما استسلمت لبرلمان قوى . ولم تحل مزاعمه اللاهوتية دون إرادة التسامح عنده ، وهو تسامح أكرم كثيرا من تسامح من خلفوه . وهيأ حبه الجرىء للسلام لانجلترا الازدهار ، وكبح جماح الولع بالقتال فى برلمانه ، وهو ولع يشوبه الفساد والرشوة ، وما يقابله من حماسة فى شعبه . وكان متملقوه قد أطلقوا عليه «سليمان » البريطانى لحكمته الدنيوية . ولما عجز صلى Sully عن توريطه فى النزاع فى القارة (أوربا) أطلق عليه "أعقل البلهاء فى العالم المسيحى" ، ولكنه لم يكن فيلسوفا ولا أبله ، ولكنه كان عالما يمثل دور الحاكم ، ورجل سلام فى عصر جن جنونه بالأساطير والحرب . إن الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته فى عهد الملك جيمس أفضل من تاج أى غاز أو فاتح .

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

١ - الخرافة .

هل الناس فقراء لأنهم جهلاء ، أم جهلاء لأنهم فقراء ؟ تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون أهمية عامل الوراثة (التفاوت الفطرى الموروث فى القدرة العقلية) ، ومصلحين يعتمدون على البيئة (أهمية التعليم وإتاحة الفرصة) . وبازدياد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة . ومع ذلك فانه حتى فى البلد المزدهر ازدهارا كبيرا — وبخاصة بين الفقراء المنهوكين والأثرياء الخاملين — نجد أن الفكر يعيش فى متاهة من الخرافات : علم التنجيم ، حساب الجمل (دراسة المعانى السحرية أو التنجيمية للأعداد) ، قراءة الكف ، الأعاجيب ، الحسد ، السحرة ، الغيلان ، الأشباح ، العفاريت ، التعزيم لاستحضار الجن ، التعاويذ والرقى ، تفسير الأحلام ، الكرامات والمعجزات ، الشعوذة والدجل ، الخصائص الخفية ، الشافية أو المؤذية ، للمعادن والنباتات والحيوانات . فلنتدبر إذن الجو الخانق الذى يسمم جذور العلم بثماره ، فى شعب ذى ثروة ضئيلة أو مركزة فى أيدى فئة قليلة . إن الخرافة لدى ضعاف الأجسام والعقول عنصر ثمين فى قصيدة الحياة ، تضىء أيامهم الكئيبة بالأعاجيب المثيرة ، وتخفف من بؤسهم بالقوى السحرية والأمانى الخفية .

وفى ١٦٤٦ احتاج سير توماس براون إلى ٦٥٢ صحيفة ليعدد ويعالج فى إيجاز الخرافات المنتشرة فى أيامه[1]، إن كل هذا الايمان بالقوى الخفية تقريبا ، نما وازدهر

بين البريطانيين فى عهد اليزابث وأوائل عهد آل ستيوارت . ففى ١٥٥٧ نشر الملك جيمس السادس كتاباً يعتبر مرجعاً « الإيمان بالشياطين » وهو من المروعات فى الأدب . وفيه ينسب إلى السحرة القدرة على ارتياد البيوت ، وغرس الحب و البغض فى قلوب الرجال والنساء بعض لبعض ، ونقل المرض من شخص إلى آخر ، والقتل بإحراق تمثال أو دمية من الشمع ، وإثارة العواطف المدمرة . وبرر عقوبة الإعدام للسحرة والمشعوذين — بل حتى لزبائنهم[٢] . وعندما كادت زوبعة تودى بحياته فى طريق عودته من الدنمرك مع عروسه ، أمر بتعذيب أربعة اشتبه فيهم حتى اعترفوا بأنهم كانوا قد تآمروا على القضاء عليه بوسائل سحرية . وأحرق واحد منهم حتى الموت ، وهو جون فين ، بعد أن عذب تعذيباً وحشياً[٣] .

واتفقت الكنيسة الوطنية الإسكتلندية مع الملك فى هذا الشأن ، وهدد القضاة المدنيون الذين يتساهلون مع السحرة بالحرمان من الكنيسة[٤] . وفيما بين عامى ١٥٦٠ — ١٦٠٠ أحرق نحو ثمانية آلاف من النسوة باعتبارهن ساحرات فى اسكتلندة التى لم يكن عدد سكانها يبلغ المليون[٥] . وكاد الاعتقاد فى السحر فى انجلترا أن يكون عاماً شاملا ، وشارك فى هذا الاعتقاد أطباء علماء مثل وليم هارفى وسير توماس براون . ونصت اليزابث العنيدة فى القوانين التى سنتها ١٥٦٢ على أن الاشتغال بالسحر جريمة عقوبتها الإعدام . وأعدم من أجلها إحدى وثمانون امرأة فى عهدها[٦] . وخفف جيمس السادس من نزمته بعد أن أصبح جيمس الأول ملك انجلترا ، وأصر على محاكمة المتهمين بالسحر محاكمة عادلة ، وفضح الاعترافات والاتهامات الباطلة وأنقذ حياة خمس من النسوة اتهمهن صبى مخبول[٧] . وكادت المطاردة أن تنقطع بعد اعتلاء شارل للعرش ، ولكنها استؤنفت ، وبلغت أقصاها أيام حكم البرلمان الطويل ، حيث أعدم فى عامين اثنين (١٦٤٥ — ١٦٤٧) مائتان من السحرة[٨] .

وفى وسط هذه الموجة العاتية من الضراوة والعنف ارتفع صوت واحد يناشد العقل ويتحكم إليه ، هو ريجنالد سكوت ، وهو إنجليزى على الرغم من اسمه ، وقد نشر فى لندن ١٥٨٤ « الكشف عن السحر » . ولم يسبقه إلا جوهان فير فى كتابه

« خدعة الشيطان » (بازل ١٥٦٤) فى هذه المحاولة الخطيرة ، محاولة التخفيف من الخرافة البالغة القسوة . ووصف سكوت الساحرات بأنهن نسوة عجائز بائسات لا يستطعن الإضرار بأحد ، وأنهن ، حتى لو تصرف الشيطان عن طريقهن ، أولى بالرثاء والإشفاق ، أكثر منهن بالإحــراق ، وقال إن فى نسبة المعجــزات إلى هاتيك العجائز الشمطاوات ، امتهاناً لمعجزات السيد المسيح . وفضح سكوت ألوان التعذيب التى جعلت اعترافات السحرة غير ذات قيمة ، وإجراءات المحاكمة المجافية للعدالة ، والمشوبة بالمخالفات والتراخى . والشكوك التى يزدردها القضاة والمحققون . ولـكن لم يكن ثمة أثر للكتاب .

وفى هذا الجو حاول العلم أن يشب على قدميه .

٢ — العــلوم

ومع ذلك ، فإن تقدم التجارة والصناعة كان يفرض تقدم العلوم . وكان من العسير أن تتسق النزعات الأفلاطونية والفنية فى عصر النهضة مع الاقتصاد المتوسع . واشتدت الحاجة إلى نهج عقلى يمكن أن يعالج الأرقام والحقائق . قدر ما يعالج النظريات والأفكار . ونشطت تجريبية أرسطو بعد تجريدها من أقنعة الفلسفة الهللينية المتأخرة فى الأسكندرية ومن أقنعة فلسفة العصور الوسطى . وقد أفسح توكيد الفلسفة الإنسانية الإيطالية على أمجاد الآداب القديمة وعظمتها ، نقول أفسح الطريق لتركيز أقل دقة لى الحاجيات العملية الراهنة . وكان لزاماً على الناس أن تعد وتحصى ، وأن تقيس وتصمم أو تخطط . فى دقة وسرعة تحكمها المنافسة واحتاج الناس إلى أجهزة للرصد والتسجيل . ونشأت المطالب التى تحققت باختراع اللوغاريتمات والهندسة التحليلية وحساب المثلثات والآلات . والمجهر (الميكروسكوب) . وطرق الإحصاء ، والموجهات الملاحية . والأجهزة الفلكية ، وتوافرت الحياة فى أوربا الغربية منذ الآن فصاعداً . على مواجهة تلك الحاجيات .

واقترح جون نابير فى إسكتلندة ١٦١٤ ، وجوست بورجى فى سويسرا ١٦٢٠ ، كل على حدة ، اقترحا طريقة للوغاريتمات (أى منطق الأرقام) يمكن بوساطتها إجراء

عمليات الضرب والقسمة وإيجاد الحدود فى سهولة ويسر من الجداول الرياضية (جداول اللوغاريتمات) بأساس معين. وفى ١٦١٦ عدل هنرى برجز الطريقة من أجل الحساب العادى، بجعل الأساس ١٠ ونشر جداول تعطى لوغاريتمات الإعداد من١ إلى ٢٠٠٠٠ر٢٠. وللآن يمكن إيجاد حاصل ضرب عددين، بأن يستخرج من مثل هذه الجداول العدد الذى يكون لوغاريتمه هو مجموع لوغاريتمى العددين المطلوب ضربهما. كما يمكن قسمة أ على ب، بإيجاد العدد الذى لوغاريتمه هو الفرق بين لوغاريتمى أ و ب. (لو أ ب = لو أ – لو ب. وأعد وليم أوترد Oughtred (١٦٢٢) وادموند جنتر (١٦٢٤) مساطر حاسبة يمكن بوسلطتها إجراء العمليات الحسابية فى ثوان قليلة. وقد وفرت هذه المخترعات نصف الوقت الذى كان يصرفه الرياضيون والفلكيون ورجال الإحصاء والملاحون والمهندسون، فى عملياتهم الحسابية، وأطالت فى الواقع حياتهم[٩]. ووجه كبلر، الذى استخدم الطريقة الجديدة فى حساب حركات الكواكب، مديحاً حماسياً إلى لورد مارشستون (فى إسكتلندة) ١٦٢٠، ولم يكن يدرى أن نابيير كان قد قضى نحبه قبل سنوات ثلاث، وكان نابيير نفسه قد وقع فى خطأ يسير فى التقدير والحساب، حين حدد أن العالم سينتهى فيما بين عامى ١٦٨٨ و ١٧٠٠[١٠].

وظل الرياضيون والفلكيون متكاتفين تكاتفاً وثيقاً من أجل حساب حركات الأجرام السماوية، وحساب التقويم، وتطلب توجيه الملاحة معالجة بارعة معقدة للقياسات الفلكية. ووضع توماس هاريوت، بوصفه عالماً رياضياً، الشكل القياسى للجبر الحديث، وأدخل علامات الجذر «أكبر من» و«أقل من» وأحل الحروف الصغيرة محل الكبيرة القبيحة المنظر، لتدل على الأرقام، وعثر مصادفة على الطريقة الناجحة، وهى وضع كل المقادير فى المعادلة فى طرف واحد، ووضع الصفر فى الطرف الثانى (المعادلة الصفرية) وبوصفه فلكياً اكتشف البقع الشمسية، وقام بارصاده لتوابع المشترى، مستقلا عن جاليليو. إن جورج تشابمان نفسه، وهو من فحول العلماء، قدر أن علم هاريوت «لايباريه فيه أحد، وأنه لا حدود له[١١]».

وكان علم الفلك لايزال ينضح بالتنجيم . وكان تنجيم « الساعة » يقرر هل تلائم النجوم مشروع الساعة أولا تلائمه . وتنبأ التنجيم « الشرعي أو القضائي » بالأحداث عامة ، في تعميم غامض متسم بالحكمة عادة . أما التنجيم « الطبيعي » فكان يكشف عن قدر الفرد وحظه من برجه — أي اختبار موقع النجوم ساعة مولده — وكل هذا موجود في روايات شكسبير (ولو أنه لايدل على إيمانه به) ، وفي أيمنا هذه . وتقول نظرية التنجيم بأن القمر يحدث المد والجزر ، والبكاء ، والجنون ، واللصوصية (رواية شكسبير هنرى الرابع ١ — ٢—١٥) . وكانت كل علامة في البروج تتحكم في طبيعة وفي مصير أعضاء بعينها في جسم الانسان (الليلة الثانية عشرة الفصل الأول ، ٣—١٤٦—١٥١) . واستخدم جون دى Dee الرموز في الزمن بادماج التنجيم والسحر والرياضيات والجغرافيا ، واشتغل بالعرافة البللورية وكتب Treatise of the Rosie Crucean Secrets ، واتهم بممارسة السحر ضد الملكة مارى تيودور (١٥٥٥) ورسم خرائط جغرافية ومائية للملكة اليزابث . واقترح طريقا عبر الشمال الغربي إلى الصين . وابتدع عبارة « الامبراطورية البريطانية » وألقى محاضرات عن اقليدس أمام جماهير غفيرة في باريس ، ودافع عن نظرية كوبرنيكس ، وأيد استخدام التقويم الجريجورى (قبل أن تروض انجلترا نفسها على هذه البدعة البابوية بمائة وسبعين عاما) . ومات عن إحدى وثمانين سنة ، وكانت حياة حافلة . وعزز تلميذه توماس دجز Digges تقبل فرضية كوبرنيكس في انجلترا ، واستبق فكرة برونو عن الكون اللانهائي(١٢) . واستخدم توماس وأبوه ليونارد دجز « العدسات البللورية » ومن المحتمل أنها كانت بشيرا بظهور التلسكوب . واخترع وليم جاسكوان (حوالى ١٦٣٩) المصغر (الميكرومتر : أداة تستعمل مع التلسكوب أو في الميكروسكوب لقياس الأبعاد والزوايا البالغة الصغر) الذى مكن الراصدين من ضبط التلسكوب بدقة لم يسبق لها مثيل . أما أرميا هوروكس ، وهو قسيس فقير من لنكشير مات في سن الرابعة والعشرين ، فقال إن للقمر مدارا بيضاويا . وتنبأ — كما رصد (١٦٣٩) لأول مرة سجلها التاريخ — انتقال الزهرة حول الشمس . وساعدت تأملاته في القوى التى

تحرك الكواكب ، نيوتن فى نظرية الجاذبية الأرضية .

وفى نفس الوقت كانت دراسة المغناطيسية الأرضية تمهد الطريق أمام نيوتن . فان جورج هارتمان ، وهو من رجال الدين الألمان (١٥٤٤) وروبرت نورمان، وهو انجليزى يشتغل بصنع البوصلة (١٥٧٦) ، اكتشفا ، كل منهما بمفرده بعيدا عن الآخر ، انحراف الابرة المغناطيسية ، حين تكون معلقة تعليقا حرا من مركز ثقلها ، وميلها إلى الانحراف عن الوضع الأفقى إلى وضع يصنع زاوية مع سطح الأرض . وذهب نورمان فى كتابه « الحديد الجذاب » إلى القول (١٥٨١). بأن « عامل الجذب » الذى تنحرف إليه الابرة يقع فى الأرض نفسها(١٣) .

وجاء بعد هذه الطليعة الباهرة ، وليم جلبرت ، طبيب اليزابيث . وبعد سبعة عشر عاما من البحث والتجربة — التى اعتمد فى تمويلها على ثروته الموروثة ، كما عاونته الملكة أحيانا — نشر النتائج التى توصل إليها فى أول مؤلف انجليزى كبير للعلوم : « فى المغناطيس ... والمغناطيس الأعظم وهو الأرض » (١٦٠٠) . لقد وضع إبرة بوصلة محورية ، على التعاقب : فى نقط مختلفة ، على حجر مغناطيس كروى . وسجل بخطوط على الكرة الاتجاهات التى اتجهت إليها الإبرة على التوالى ، ومد كل خط ليشكل دائرة كبيرة حول الحجر ، ووجد أن كل هذه الدوائر قطعت الكرة فى نقطتين متقابلتين تماما ، وكان هذان هما القطبان المغناطيسيان اللذان اعتبرهما جلبرت خطأ ، فى حالة الأرض ، القطبين الجغرافيين . ووصف الأرض بأنها مغناطيس ضخم ، وفسر ، بناء على ذلك سير الابرة المغناطيسية ، وأظهر أن أى قضيب حديدى يترك لمدة طويلة فى وضع شمالى جنوبى لابد أن يصبح ممغنطا . والمغناطيس الذى يوضع على أى من قطبى حجر المغناطيس الكروى . يأخذ وضعا عموديا على الكرة . وإذا وضع فى أية نقطة متوسطة بين القطبين (وهى النقط التى تكون خط الاستواء المغناطيسى) يأخذ وضعا أفقيا . وانتهى جلبرت إلى أن انحراف الإبرة يكون أعظم ، كلما وضعت أقرب إلى القطبين الجغرافيين للأرض . وعلى الرغم من أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، فقد أكده تقريبا هنرى هدسن فى ارتياده

المنطقة المتجمـــدة الشمالية (١٦٠٨) . ومن ملاحظاته الخاصة ، رسم اتجاهات لحساب خط العرض من درجة الانحراف المغناطيسى . وذهب إلى أنه « من حول جسم مغناطيسى تنتشر القوة المغناطيسية فى كل ناحية » . ونسب دوران الأرض إلى تأثير هذا المجال المغناطيسى . وانتقل جلبرت من هذا إلى دراسة الكهرباء — ولم يكن قد تم فيها شىء يذكر منذ القدم — وأثبت أن ثمة مواد أخرى كثيرة — غير الكهرمان ، يمكن بحكها أن تولد كهرباء بالاحتكاك . ومن اللفظة اليونانية لكلمة Amber (كهرمان) . كون لفظة Electric (كهرباء) لتدل على قوة تحرف الابرة المغناطيسية . واعتقد بأن كل الأجسام السماوية مزودة بالمغناطيسية ، واستخدم كبلر هذه الفكرة لتفسير حركة الاجرام السماوية . والحق أن معظم عمل جلبرت كان مثالا يدعو إلى الاعجاب للنهج التجريبى ، وأن آثاره على العلــوم والصناعة لا حدود لها .

وظهر تقدم العلوم أكثر إثارة فى جهود النفوس المغامرة أو المولعة بالتحصيل والكسب ، لا كتشاف « المغناطيس الأعظم » لأغراض جغرافية واقتصادية . وفى ١٥٧٦ نشر سير همفرى جلبرت (ولا يمت بصلة إلى وليم جلبرت) « مقالا موحياً .... عن طريق جديد إلى الصين » . مقترحا الابحار فى اتجاه الشمال الغربى ، عبر كندا أو حولها . وفى نفس العام أبحر ســير مارتن فروبشر بثلاث سفن صغيرة ليكتشف طريقا مثل هذا . وغرقت إحدى سفنه ، وهجر الثانية ملاحوها ، وسار هو نفسه بالسفينة « جبرائيل » البالغة الصغر والتى لم تتجاوز حمولتها ٢٥ طنا . ووصل إلى بفن لاند ، ولكن الاسكيمو حاربوه ، فعاد إلى انجلترا طلبا لمزيد من الرجال والمؤن . وانحرفت رحلاته بعد ذلك عن الجغرافيا للبحث عن الذهب دون جدوى ، ثم تمسك جلبرت بضالته المنشودة ، وهى الطريق الشمالى الغربى إلى الصين . ولكنه أغرق وهو يحاول ذلك (١٥٨٣) . وبعد ذلك بأعوام أربعة اندفع جون دافيز فى المضيق المسمى اليوم باسمه ، وحارب الأرمادا ، ثم انطلق إلى البحار الجنوبية مع توماس كافندش واكتشف جزر فولكلند ، وقتله القراصنة اليابانيون بالقرب من سنغافورة (١٦٠٥) وارتاد كافنـــدش الجزء الجنوبى من أمريكا

الجنوبية وأكمل ثالث طواف حول الكرة الأرضية،ومات فى البحر (١٥٩٢)، وسار هنرى هدسن فى نهر هدسن (١٦٠٩) ، وفى رحلة أخرى وصل إلى خليج هدسن، ولكن بحارته الذين ذهبت الصعب بعقولهم ، واشتد بهم الحنين إلى الوطن ، تمردوا عليه ، وأنزلوه هو وثمانية معه فى قارب صغير مكشوف ، (١٦١١) ولم يسمع لهم ذكر بعد ذلك قط ، واكتشفت وليم بفن الخليج والجزيرة اللتين تحملان اسمه،وغامر حتى وصل إلى خط عرض ٧٧٫٤٥ — وهو مالم يصل إليه أحد مرة أخرى قبل مضى ٢٣٦ سنة — وكان له امتياز آخر ، وهو إيجاد خطوط الطـول لأول مرة برصد القمر . وشهد ريتشارد هاكلوت فى هذه السفن المأخوذة من خشب البلوط فترة من البسالة والرعب تفوق أية البذاذة ، ونشر قصصها فى مجلدات ظهرت تباعا ، من أحسن ماعرف منها هومانشر تحت اسم « الابحارات الرئيسية ، رحلات الأمـة الأنجليزية وكشوفها » (١٥٧٩ ، ١٥٩٨ ، ١٦٠٠) ، وزاد صمويل بوركاس فى هذا السجل بكتاب« رحلاث بوركاس (١٦٢٥) . وهكذا كان الطمع فى الحصول على الذهب ، والتحمس لمواجهة الأخطار ومشاهدة البلاد البعيدة سببا فى تقدم الجغرافيا دون قصد .

وكان أحسن ما حققه العصر فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا من عمل القارة . أما فى انجلترا ، على أية حال ، فان سير كنلم دجبى Kenelm Digby اكتشف ضرورة الأكسجين لحياة النبات ، كما أيد روبرت فلد Fludd ، وهو متصوف وطبيب ، فكرة التطعيم، قبل جنر Jenner بمائة وخمسين عاما . واستمرت وصفات الدواء تعتمد على إثارة الاشمئزاز ليكون للأدوية أثرها . وأوصى الدستور الرسمى للأدوية فى لندن ١٦١٨ ، بالمر ، وعصارة النبات (الدم) وتشريط الجلد ، وعرف الديك ، والفراء ، والعرق واللعاب والعقـارب وجلد الثعبان وحمار القبان (حشرة) ونسيج العنكبوت ، على أنها وسائل للعلاج ، وكان فصد الدم أول شىء يلجأون إليه[١٤] — وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه الحقبة تفاخر بتوماس بار « بار العجوز Old Parr » الذى قدم إلى شارل الأول ١٦٣٥ ، على أنه يتمتع بصحة جيدة مع أنه كان كما زعموا ، فى الثانية والخمسين بعد المائة من عمره . ولم

يدع بار أنه يعرف سنه على التحقيق ، ولكن ولاة الأمور فى أبرشيته دونوا تاريخ ميلاده فى ١٤٨٣ ، وادعى أنه التحق بالجيش فى ١٥٠٠ ، وتذكر تفاصيل حل الأديار فى عهد هنرى الثامن . (١٥٣٦) ، فقال له الملك شارل الأول « لقد عمرت أطول من أى أناس آخرين ، فماذا فعلت أكثر مما فعلوا هم ؟ » فأجاب بار ، بأنه كان عمره فوق المائة حين ضاجع فتاة فحملت ، وأنه كفر عن خطيئته بأشد كفارة . وكان بار قد عاش ، تماماً تقريباً ، على البطاطس والخضر والخبز الجاف واللبن المخيض ، ونادراً ما ذاق اللحم . ولفترة من الوقت أصبح بار مشهوراً فى ردهات لندن وحاناتها ، وكانوا يقدمون له فيها ما لذ وطاب ، حتى أنه مات فى بحر عام من لقائه مع الملك . وفحص سير وليم هارفى جثته بعد وفاته فوجد أنه غير مصاب بتصلب الشرايين ، وشخص موته بأنه نتيجة لتغيير الهواء والغذاء[١٥] .

إن هارفى هو الذى هيأ لهذا العصر ذروة المجد العلمى بشرحه للدورة الدموية ، وهو « أجل حدث فى تاريخ الطب منذ عهد جالينوس[١٦] » . ولد فى فولكستون (١٥٧٨) ، ودرس فى كمبردج ثم فى بادوا على فابريزيو دكوابندانت ، فلما عاد أقام فى لندن ومارس الطب فيها ، وأصبح الطبيب الخاص لجيمس الأول ثم شارل الأول ، وعكف صابراً مثابراً ، سنين طوالا ، على إجراء التجارب والتشريح ، على الحيوانات والجثث ، ودرس ، بصفة خاصة تدفق الدم ومجراه فى الجروح . ووصل إلى نظريته الأساسية فى ١٦١٥[١٧] . ولكنه نشرها ، متأخراً ، فى فرانكفورت ١٦٢٨ ، على أنها « تجارب متواضعة فى تشريح الجثث ودماء الحيوان » . وهى أول وأعظم أثر فى الطب فى انجلترا .

وإن الخطوات التى تدرج فيها الكشف الذى توصل إليه هارفى لتوضح عالمية العلم . فإن وظائف القلب والدم ، ظلت لأكثر من ألف عام ، تفسر كما فسرها جالينوس فى القرن الثانى الميلادى . وكان جالينوس قد افترض أن الدم يتدفق إلى الأنسجة من الكبد والقلب سواء بسواء ، وأن الهواء يمر من الرئتين إلى القلب ، وأن الشرايين والأوردة بها مجريان للدم ، يدفعهما ويستنزلهما القلب ، فى حركة مد وجزر ، وأن الدم يجرى من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من القلب عبر

مسام فى الحجاب الحاجز بين التجاويف . وعارض ليونارد ودافنشى (حوالى ١٥٠٦) فكرة مرور الهواء من الرئتين إلى القلب ، وأنكر فيساليوس (١٥٤٣) وجود مسام فى الحجاب الحاجز . وكشفت رسومه البارعة للشرايين والأوردة عن أن نهاياتها أو أطرافها دقيقة ومتلاصقة حتى لا تكاد توحى بالمرور والدورة . وأوضح فابريزيو أن الصمامات فى الأوردة تجعل من المستحيل تدفق الدم الوريدى من القلب . وتلاشت نظرية جالينوس . واكتشف ميشيل سرفيتس (١٥٥٣) ، وريالدوكولومبو (١٥٥٨) ، الدورة الدموية الرئوية — أى مروره من الجانب الأيمن من القلب عبر الشريان الرئوى إلى الرئتين ومن خلالها ، وتنقية الدم هناك بوساطة التهوية ، وعودته عن طريق الوريد الرئوى إلى الجانب الأيسر من القلب . واستبق أندريا سيسالبينو (حوالى ١٥٧١) — كما سنرى النظرية الكاملة للدورة ، وتحولت النظرية إلى حقيقة واضحة جلية بفضل ما قام به هارفى .

وبينما كان فرانسيس بيكون ، المريض الذى يتولاه هارفى ، يمجد الاستقراء ، توصل هارفى إلى النتيجة الرائعة عن طريق الجمع اللافت للنظر بين الاستنتاج والاستقراء . إنه بتقديره كمية الدم المندفع من القلب فى كل انقباض أو تقلص بأنها نصف أوقية سائل ، حسب أنه فى ساعة ، لابد أن يصب القلب فى الشرايين ، ما يزيد على ٥٠٠ أوقية سائل ، وهى كمية تزيد على ما يحتويه الجسم كله ، فمن أين يأتى كل هذا الدم . وبدا من المستحيل أن مثل هذا القدر الكبير يمكن أن ينتج من ساعة إلى ساعة ، من هضم الغذاء . فاستنتج هارفى أن الدم الذى يخرج من القلب يعاد إليه ، وأنه ليس ثمة طريق آخر لهذا سوى الأوردة . وبفضل التجارب والملاحظات البسيطة . وعلى سبيل المثال ، الضغط بالأصبع على أى وريد سطحى — تبين فى الحال وبسهولة ، أن الدم الوريدى تدفق من الأنسجة نحو القلب .

> عندما استعرضت مجموعة الشواهد التى لدى ، سواء ما استقيتها من تشريحات الأحياء وتأملاتى فيها ، أو من تجاويف القلب والأوعية التى تدخل إليها أو تخرج منها . . . . والتى كثيراً ما أمعنت التفكير فيها بشكل جدى . . . ما عساها تكون كمية

الدم التى تنقل . . . ووجدت من المستحيل أن تكون مستمدة من عصارات الغذاء الذى يدخل إلى الجسم ، دون أن تجف الأوردة تدريجياً ، من جهة ، وأن تنفجر الشرايين لفرط امتلائها بالدم ، من جهة أخرى ، إلا إذا وجد الدم له ، بطريقة ما ، مخرجاً من الشرايين إلى الأوردة ، ومن ثم يعود إلى الجانب الأيمن من القلب . . . أقول إنى عندما استعرضت كل هذه البيانات والشواهد ، بدأت أفكر فى أنه يمكن أن يكون هناك ، « حركة ، كما لوكانت فى دائرة . » . . . والآن يمكن أن أستبيح لنفسى أن أدلى بفكرتى عن الدورة الدموية[١٨] .

وتردد طويلا فى نشر النتائج التى توصل إليها ، لما كان يعلم من روح المحافظة التى سادت مهنة الطب فى عصره . وتنبأ بأن أى فرد فوق الأربعين لن يقبل نظريته[١٩] . وروى أوبرى « سمعته يقول إنه بعد صدور كتابه : الدورة الدموية ، تدهور تدهوراً شديداً فى عمله ، حتى أعتقد السوقة أنه قد اختل عقله »[٢٠] . وحتى أثبت مالبيجى Malpighi (١٦٦٠) وجود الأوعية الشعرية التى تحمل الدم من الشرايين إلى الأوردة ، لم تكن دنيا العلم تسلم بأن الدورة الدموية حقيقة واقعة . إن الفكرة الجديدة أضاءت كل مجالات الفسيولوجيا تقريباً وأثرت على المشكلة القديمة ، مشكلة العلاقة المتبادلة بين الجسم والعقل . ويقول هارفى :

إن أى شعور فى العقل ، مصحوب بألم أو لذة ، بأمل أو خوف ، هو سبب فى اثارة يمتد أثرها إلى القلب ... وفى كل عاطفة تقريبا . . . تتغير ملامح الوجه ، ويظهر الدم جاريا هنا وهناك . وفى حالة الغضب تتقد العينان ، ويتقلص إنسان العين . وفى حالة التواضع تغمر الوجنات حمرة الخجل . أما فى حالة الشهوة فما أسرع ما يتضخم أو ينتفخ العضو بالـــدم[٢١] .

وظل هارفى فى خدمة شارل حتى الخاتمة الأليمة التى منى بها الملك تقريبا ، فقد رافقه حين طوحت الثورة بالملك إلى خارج لندن ، كما رافقه فى معركة ادجهل Edgehill ، حيث نجا من الموت بأعجوبة[٢٢] . وفى نفس الوقت نهب الثوار داره فى لندن ، وعبثوا بمخطوطاته ومجموعات التشريح التى كان يحتفظ بها . وربما كان هارفى قد جلب على نفسه عداوة كثير من الناس نظرا لحدة طبعه وآرائه . ولم يعتبر هارفى الانسان « إلا قردا ضخما شريرا كريها » كما قال أوبرى ، وذهب إلى « أننا نحن الأوربيين لم نعرف كيف نسوس نساءنا ونحكمهن ، وأن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يستخدمهن بحكمة[٢٣] . ولما كان محتفظا بنشاطه وحيويته وهو فى سن الثالثة والسبعين ، فانه نشر رسالة فى « علم الأجنة » (١٦٥١) ، نبذ فيها الاعتقاد السائد فى التوالد التلقائى لكائنات دقيقة من أجسام متحللة . واعتقد هارفى « بأن كل الحيوانات حتى هذه التى تنتج صغارها أحياء ، بما فى ذلك الانسان نفسه — تتطور وتخرج من بيضة ، وصاغ عبارة « كل حيوان يخرج من بيضة » . ومات بعد ذلك بست سنين بسبب شلل أصابه ، واهبا معظم ثروته التى تبلغ عشرين ألف جنيه لكلية الأطباء الملكية ، وعشرة جنيهات لتوماس هوبز « رمزاً للمحبة » .

٣ — صعود فرانسيس بيكون وسقوطه : ١٥٦١ — ١٦٢١

نحن الآن أمام أكبر عقل وأنشطه وأكثره مدعاة للفخر ، لقد وقفنا على مولده ونسبه ، ودراسته للأدب والدبلوماسية والقانون ، وفقره غير المتوقع ، والتماسه للوظيفة ، دون أن يسمع به أحد ، وتحذيره لصديقه المحسن الخير المجرم ، ومقاضاته أياه على كره منه . ولقد استنفد العلم والمعرفة والطموح كل طاقته ، حتى لم يعد به ميل إلى النساء ، على أنه على أية حال ، كان يحب الشبان[٢٤] . وفى سن الخامسة والأربعين (١٦٠٦) تزوج من أليس برنهام Barnham التى هيأت له ٢٢٠ جنيها فى العام . ولكنه لم ينجب أطفالا .

وعندما اعتلى جيمس الأول عرش انجلترا بعث إليه بيكون بكتاب مسرف فى

الزلفى والملق ، يعرض فيه نفسه على الملك على أنه صالح لتقلد المناصب وأهل لها ولما كان ابن حامل أختام الملك ، وابن أخ لآل سيسل أو من أبناء عمومتهم أو خؤولتهم ، فإنه أحس بأن طول انتظاره للوظيفة الحكومية يعكس شيئا من روح العداء من جانب الوزراء المتربعين على كراسى الحكم ، وربما كانت انتهازيته المتبرمة ، نتيجة ، وفى نفس الوقت سببا فى تأخر تعيينه فى أحد المناصب . وكان قد خدم بالفعل فى البرلمان لمدة تسعة عشر عاما ، دافع فيها عادة عن الحكومة ، واشتهر بسعة الاطلاع ، والفكر البناء ، والعبارة الواضحة الأخاذة . وكان يرسل بين الحين والحين . إلى الملك « مذكرات » تفيض بالآراء السديدة فى كيفية النهوض بالتفاهم المتبادل والتعاون بين مجلس العموم واللوردات ، وتوحيد برلمانى انجلترا واسكتلنده ، وإنهاء الاضطهاد الدينى للمخالفين ، وتهدئة أيرلنده باستمالة الكاثوليك فيها ، واعطاء الكاثوليك فى انجلترا مزيدا من الحرية دون فتح الباب للمزاعم البابوية ، وإيجاد وسيلة للتوفيق بين الانجليكانيين والبيوريتانيين . وقرر مؤرخ درس الشئون السياسية فى تلك الحقبة دراسة مستفيضة — قرر « أن تنفيذ هذا البرنامج لم يكن يعنى الا تغيير كل مساوئ النصف الثانى من هذا القرن [٢٥] » . وطرح جيمس هذه المقترحات جانبا على أنها غير عملية فى ظروف التفكير السائدة. واكتفى بضم بيكون إلى طبقة الفرسان الثلاثمائة الذين وزعهم ١٦٠٣ ، وتذرع بيكون بالصبر وظلى يمنى نفسه .

وعلى الرغم من كل شئ ، فان براعته بوصفه محاميا لم توفر له الغنى والثراء إلا فى شئ من البطء . وفى ١٦٠٧ قدرت ثروته بنحو ٢٤,١٥٥ جنيه [٢٦]. وفى ضيعته التى زودها بكل ألوان الترف ، فى جورهامبرى ، كما هيأ لها نخبة من العاملين المرتفعى الأجور والسكرتيرين اليقظين مثل توماس هوبز ، نقول انه فى هذه الضيعة استطاع أن ينعم بالجمال والراحة اللتين أحبهما فى حكمة أكثر مما ينبغى ، ورعى صحته بالعمل فى الحديقة التى بنى فى وسطها ركنا فاخرا يأوى إليه ليخلو إلى نفسه يتفرغ إلى الدرس والبحث ، فكتب كما يكتب الفلاسفة وعاش كما يعيش الأسراء،

اله لم يجد سببا يبرر أن يكون العقل مفلسا ، ويبرر ألا يكون « سليمان » (أى الحكيم) ملكاً .

إن بيكون لم يطل به الأمد حتى يبلغ الهدف ، فان الملك جيمس الذى قدره حق قدره آخر الأمر عينه فى ١٦٠٧ مساعدا للنائب العام وفى ١٦١٣ نائبا عاما ، وفى ١٦١٦ عضوا فى مجلس شورى الملك ، وفى ١٦١٧ حاملا للأختام ، وفى ١٦١٨ قاضيا للقضاة . وخلعت عليه ألقاب كريمة جديدة لتزين مواهبه وقدراته : ففى ١٦١٨ عين بارون فيرولام الأول ، وفى يناير ١٦٢١ فيكونت سانت ألبانز . ولما غادر جيمس انجلترا إلى اسكتلنده ، ترك قاضى قضاته ليحكم البلاد . « واستقبل بيكون السفراء يحف به الجلال والعظمة » وعاش فى جورهامبرى محوطة الفخامة والأبهة « حتى بدا أن البلاط الملكى هنا (فى قصر جورهامبرى) ، وليس قصر هويتهول أو فى قصر سان جيمس (٢٧) » .

لقد حظى بيكون بكل شىء إلا الشرف . ففى سعيه وراء المناصب كثيرا ماضحى بالمبادىء ، فاستغل نفوذه ، كمساعد للنائب العام ، لاصدار الأحكام القضائية على الصورة التى يرغب فيها الملك (٢١) ودافع ، وهو حامل الأختام الملكية ، عن أشد الاحتكارات تعسفا وظلما ، وحماها واضح أنه فعل هذا ابقاء على رضاء بكنجهام . وقبل ، وهو قاض ، هدايا ثمينة من المتقاضين أمام محكمته . ولم يكن كل هذا إلا شيئا من فساد هذا العصر ورخاوته ، ان الموظفين العامين كانوا يتقاضون رواتب هزيلة ، فعوضوا عنها « بالهدايا والعطايا » ممن يساعدونهم . واعترف جيمس قائلا : إذا كان لا بد لى من معاقبة الرشوة ، لما تركت واحدا من الرعايا » . ان جيمس نفسه كان يقبل الرشوة (٢٩) .

وثارت ثائرة البرلمان الذى اجتمع فى يناير ١٦٢١ ضد الملك — وكره بيكون ، لأنه أكبر مدافع عنه ، وأنه هو الذى قضى بشرعية الاحتكارات ، وإذا لم يكن فى مقدور البرلمان بعد أن يخلع الملك ، فان فى مقدوره تجريح وزيره ومساءلته . وفى فبراير عين لجنة لتقصى الحقائق فى دور القضاء خاصة . وفى مارس قدمت اللجنة تقريرا

أثبتت فيه أنها وجدت مخالفات كثيرة ، لاسيما فى تصرفات قاضى القضاة وسلوكه ، واتهمته بثلاث وعشرين حالة محددة من حالات الفساد . وأهاب بيكون بالملك أن ينقذه ، متنبأ بأن « هؤلاء الذين يطعنون قاضى القضاة الآن ، سرعان مايطعنون التاج بعده (٣٠) » . وأشار عليه جيمس باقرار الاتهام ، ومن ثم يضرب مثلا يحول دون الفساد فى الوظائف العامة مستقبلا ، وفى ٢٢ أبريل أرسل بيكون اعترافا إلى مجلس اللوردات . وسلم بأنه أخذ هدايا من المتقاضين ، كما فعل سائر القضاة ، وأنكر أن أحكامه تأثرت بها — فانه كان قد أصدر فى قضايا كثيرة أحكاما ضد مقدمى الهدايا . وحكم عليه مجلس اللوردات « بدفع غرامة قدرها أربعون ألفا من الجنيهات . وبالسجن فى برج لندن لمدة يرضاها الملك ، ولا يكون له إلى الأبد الحق فى تولى المناصب العامة ، وألا يدخل البرلمان فى الدولة بأسرها » . وسيق فى ٣٠ مايو إلى برج لندن ، ولكن أفرج عنه بعد أربعة أيام بأمر من الملك الذى ألغى كذلك الغرامة التى تبهظ كاهله . وآوى قاضى القضاة المعاقب إلى جورهامبرى ، وحاول أن يحيا حياة أكثر بساطة . ووجد راولى Rawley وهو أول من كتب سيرة حياة بيكون — على ورقة كتبها عند وفاته ، بالرمز « كنت أعدل قاض فى إنجلترا فى هذه السنوات الخمسين ، ولكنه كان كذلك أعدل تقريع من البرلمان فى هاتين المائتين من السنين » (٣١)

وكانت لهذا الاتهام والمحاكمة آثار طيبة ؛ ذلك أنها خففت من الفساد فى الوظائف العامة ، ولا سيما فى دور القضاء ، كما وضعت سابقة مسئولية وزراء الملك أمام البرلمان . كما أنها صرفت بيكون عن ميدان السياسة ، الذى كان فيه متحررا فى التفكير ؛ رجعيا فى التنفيذ ؛ وردته ثانية إلى مجال بديل ؛ هو مجال العلم والفلسفة حيث أمكنه « أن يدق الناقوس لتجتمع العبقريات معا » وأن ينادى فى نثر رائع بثورة العقل ومنهجه .

٤ — التجديد الكبير

كانت الفلسفة لأمد طويل ، الملجأ الذى يلوذ به بيكون هربا من عناء العمل ، إن لم تكن حبه الدفين الذى يطوى علية جوانحه ، وأسعد مايصبو اليه ويقبل عليه ؛ وكان بالفعل قد نشر فى ١٦٠٣ — ١٦٠٥ مؤلفا عظيما The Proficience

and Advancement of Learning (اتقان المعرفة والنهوض بها) ولكن بدا له أن هذا مجرد برنامج تمهيدى وليس انجازا . وفى ١٦٠٩ كتب إلى أسقف إلى Ely : أرجو أن يأذن الله لى فى أن أكتب كتابا مستفيضا منصفا فى الفلسفة ... [٣٢] » ، وفى ١٦١٠ كتب إلى كازوبون (عالم لاهوتى وكاتب فرنسى معاصر له) : « إن ما أهدف إليه هو أن أحدث تنظيما أفضل لحياة الانسان ... بفضل التأمل الصحيح الصادق[٣٣] » .

وفى أثناء السنوات التى أزعجته فيها المناصب ، كان بيكون قد أبصر — فى افتراض طائش فى أيام السعة والثراء — بخطة وقورة لتجديد العلم والفلسفة . وقبل سبعة شهور من سقوطه ، أعلن الخطة فى كتاب باللاتينية موجه إلى كل أوربا ، أسماه فى جرأة « التجديد الكبير » . وكانت صحيفة العنوان نفسها تحديا ، ذلك أنه قد رسم عليها قارب يعبر بأقصى سرعته أعمدة هرقل إلى الأطلسى ، ووضع بين الأعمدة أحد شعارات العصور الوسطى « لا تذهب إلى أبعد من ذلك » وكتب بيكون « إن كثيرين سوف يمرون عبره ، ولسوف تزداد المعرفة والعلم » . وأضافت المقدمة المزهوة « إن فرانسيس فيرولام (بيكون) قد تدبر هذا بينه وبين نفسه ، وحكم بأنه من مصلحة الأجيال الحاضرة والمستقبلة أن تتعرف على أفكاره[٣٤] . »

ولما وجد أن « مايجرى فى مجال العلم الآن ليس إلا مجرد دوران حوله ، وحركة دائبة تنتهى إلى حيث تبدأ ، خلص إلى أنه » :

> ليس ثمة إلا سبيل واحد أمامنا .... وهو أن نحاول الأمر كله من جديد ، وفق خطة أفضل ، وأن نشرع فى أن نقيم من جديد ، إقامة تامة ، صرح العلوم والفنون العملية ، وكل المعرفة الانسانية ، على أساس سليم .... وفضلا عن ذلك فانه لما لم يكن يعلم كم من الزمن قد ينقضى قبل أن تتيسر هذه الأفكار لأحد غيره ... فانه

عقد العزم على أن ينشر على الفور كل مايستطيع انجازه ، حتى يبقى ، فى حال وفاته ، موجزا أو خطة لما كان قد فكر فيه . إن كل المطامح بدت لناظريه هزيلة ضئيلة إذا قورنت بالعمل الذى هو بصدده[٢٥] .

وجعل إهداء المشروع برمته إلى جيمس الأول مع رجاء المعذرة « لأنى سرقت من الوقت المخصص لانجاز المهام التى وكلتها إلى ، وقتا اقتضاه هذا العمل » ، ولكن مع أكبر الأمل فى « أن يكون فى نتيجته تخليد لذكرى اسمك وتشريف لعهدك » — وهذا ماحدث ، فان جيمس كان رجلا معروفا بسعة الاطلاع والنوايا الطيبة ، فلو أمكن اقناعه بتمويل الخطة ، فأى تقدم كان يمكن تحقيقه ؟ وكما كان روجر بيكون قد أرسل قبل ذلك بزمن طويل (١٢٦٨) إلى البابا كليمنت الرابع « العمل العظيم » يلتمس منه العون على تنفيذ اقتراح بالنهوض بالعلم والمعرفة ، فان سميه أهاب الآن بالملك أن يأخذ على عاتقه « مهمة ملكية » هى تنظيم البحث العلمى ، والتوحيد الفلسفى لنتائجه ، من أجل الخير المادى والأدبى للجنس البشرى. وذكر جيمس « بالملوك الفلاسفة » — نرفا ، تراجان ، هادريان ، أنطونينوس ، بيوس ، ماركوس أوريليوس ، الذين هيأوا للامبراطورية الرومانية حكومة فاضلة لمدة قرن من الزمان (٩٦ — ١٨٠) بعد الميلاد . فهل كان من أجل حاجته إلى الاعتمادات الحكومية وأمله فى الحصول عليها ، أنه أيد الملك بمثل هذا العناد والاصرار ، وبشكل جر عليه الخراب ؟ .

وفى مقدمة أخرى طلب بيكون من القارىء أن يلقى نظرة على العلم السائد وقد هلهلته الأخطاء ، وركد بشكل مخز . لأن :

« العباقرة العظام ، على تعاقب العصور ، كانوا يرغمون على الانحراف عن طريقهم ، إن الرجال ذوى القدرة والفكر ، فوق مستوى السوقة ، كان يسرهم ، من أجل الشهرة ، أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجماهير ، وهكذا

فان أى تفكير من مستوى رفيع ظهر فى أى مكان ، كانت
تعصف به رياح الأفكار السوقية(٢٦) » .

ولكى يهدىء من روع رجال اللاهوت الذين كانوا متسلطين على الشعب أو الملك ، فان بيكون حذر قراءه من أن « يقصروا معنى » مايضطلع به « فى حدود الواجب ، فيما يتعلق بالمسائل الالهية أو الدينية » . وتنصل من أى قصد له فى التعرض للعقائد أو الشئون الدينية . « إن المهمة التى بين يدى ليست رأيا يجب اعتناقه ، بل هى عمل يجب القيام به . . . إنى لا أكد وأنصب فى وضع أساس أى مذهب أو نظرية ، بل أساس منفعة الانسان وقوته(٣٧) » . واستحث الآخرين أن يقبلوا عليه وينضموا إليه فى عمله ، ووثق فى أن الأجيال المتعاقبة ستواصله .

وفى نشرة تمهيدية رائعة عرض بيكون خطة للمشروع :

فأولا ، يمكن أن يحاول تصنيفا جديدا للعلوم القائمة أو المرغوب فيها ، ويفرد لها مسائلها ومجالات البحث فيها ، وهذا هو ما أنجزه فى " النهوض بالمعرفة " ، الذى ترجمه ووسع فيه فى كتاب (التوسع فى العلوم) ١٦٢٣ ، حتى يصل إلى القراء فى القارة .

ثانيا : ، يمكن أن يتفحص مواطن الضعف فى المنطق المعاصر ، ويسعى إلى " استغلال أدق وأكمل للعقل البشرى " مما صاغه أرسطو فى رسائله المنطقية ، المعروفة فى جملتها باسم Organon ، وهذا مافعله بيكون فى كتابه Novum Organum (١٦٢٠) .

ثالثا : يمكن أن يشرع فى " تاريخ طبيعى " " لظواهر الكون " — الفلك ، الفيزياء ، البيولوجيا .

رابعا : يمكن أن يعرض فى " سلم الفكر " نماذج من التحقيق العلمى ، طبقا لطريقته الجديدة .

خامسا : يمكن أن يصف مثل هذه الأشياء ، بوصفها بشائر ، " كما كشفتها أنا بنفسى " .

سادسا : يمكن أن يشرع فى تفسير تلك الفلسفة التى تعقبها فى مختلف العلوم على هذا النحو ، ومن ثم يجب إيضاحها وإثبات صحتها . « ان اكمال الجزء الأخير ه . . فوق طاقتى وأكثر مما أصبو إليه » . ويبدو لنا ، نحن الذين نتخبط وناهث اليوم فى خضم المعرفة والتخصصات ، ان برنامج بيكون عقيم أشد العقم . ولكن المعرفة لم تكن آنئذ بمثل هذه السعة والدقة ، وأن روعة الأجزاء التى أنجزت لتغفر جراءة الكل . وعندما أفضى بيكون إلى سيسل بقوله « انى ضممت كل المعرفة إلى نطاق ولايتى » ،فانه لم يكن يقصد أنه فى مقدوره أن يستوعب كل العلوم تفصيلا ، ولكنه قصد أن يستعرض العلوم ، وكأنما يمسحها أو يلقى عليها نظرة عامة « من عل » ، بغرض تنسيقها وتشجيعها . وقال وليم هارفى عن بيكون إنه « كتب الفلسفة ، على نهج قاضى القضاة فى الكتابة [٣٨] » ، بل وخططها كما يخطط القائد الامبراطورى معركة .

وانا لندرك اتساع مجال العقل وحدة الذهن عند بيكون إذا نحن تتبعناه فى كتاب «النهوض بالمعرفة »، إنه يعرض أفكاره فى تواضع غير مألوف ، على أنها « ليست أفضل كثيرا من الصوت ... الذى يحدثه الموسيقيون حين يضبطون آلاتهم [٣٩] » . ولكنه يعزف هنا كل نغماته المميزة ، إنه يدعو إلى مضاعفة عدد الكليات والمكتبات والمعامل وحدائق الأحياء والمتاحف العلمية والصناعية ، وتدعيمها جميعا ، كما يدعو إلى تحسين رواتب المعلمين والباحثين ، وتخصيص اعتمادات أكبر لتمويل التجارب العلمية ، وإلى اتصال متبادل وتعاون أوثق وخطة أفضل لتوزيع العمل بين جامعات أوربا [٤٠]. انه ، فى تقديسه أو عبادته للعلم ، لم يفقد رؤيته الصحيحة للأشياء أو وجهة النظر السليمة ، فهو يدعو إلى تعليم عام متحرر ، يشمل الأدب والفلسفة ، لأنه يهيئ للوصول إلى حكم سليم على الغايات التى تقترن بتحسين الوسائل على أساس علمى [٤١] . وهو يحاول أن يصنف العلوم فى ترتيب منطقى ،ويحدد مجالاتها وحدودها ويوجه كلا منها إلى أمهات المسائل التى تنتظر الفحص والحل وتحقق كثيراً من مطالبه عن طريق العلوم — تسجيل أفضل لتطورات المرض عند المريض ، إطالة الحياة باستعمال الأدوية الواقية ، الفحص الدقيق « للظواهر النفسية » ، والنهوض بعلم

النفس الاجتماعى . حتى لقد استبق دراستنا المعاصرة فى وسائل النجاح[٤٣] .

أما القسم الثانى والأكثر جراءة من « التجديد الكبير » فكان محاولة لصياغة منهج للعلم . لقد عرف أرسطو الاستقراء ، ودعا اليه أحيانا ، ولكن الأسلوب الغالب فى منطقه هو الاستنباط ، والمثل الأعلى فيه هو القياس . وأحس بيكون بأن المنهج القديم Organon قد أبقى العلم راكدا ، بتوكيده على الفكر النظرى أكثر منه على الملاحظة الواقعية . أما « المنهج الجديد » فقد عرض فيه بيكون نظاما وأسلوبا جديدين للفكر — الدراسة الاستقرائية للطبيعة ذاتها ، عن طريق الخبرة والتجربة . وهذا الكتاب أيضا ، ولوأن بيكون تركه دون أن يكمله ، وعلى الرغم من كل عيوبه ، هو أروع انتاج فى الفلسفة الانجليزية ، وأول دعوة صريحة واضحة إلى عصر العقل . ولقد كتب باللاتينية ، ولكن فى عبارات مشرقة بليغة ، جرى نصفهامجرى الحكم وجوامع الكلم . إن السطور الأولى جمعت أطراف فلسفة ... تعلن الثورة الاستقرائية ، وتؤذن أو تنذر بالثورة الصناعية ، وتضع مفتاح التجريبية فى يد هوبزولوك ومل وسبنسر.

> ان الانسان بوصفه خادم الطبيعة ومفسرها ، يمكن أن يعمل ويفهم الكثير،والكثير حقاً من مجرىالطبيعة ، مادام قد لاحظ الطبيعة واقعيا ، أوبفكره ... أما ما وراء هذا فهولايستطيع أن يدرك شيئا أويعمل شيئا . إن المعرفة الانسانية والقدرة البشرية تلتقيان فى الانسان الواحد ، وحيثما لايعرف مجرى الطبيعة ، لايمكن إنتاج الأثر المطلوب . ولكى تسيطر على الطبيعة . ينبغى أن تمتثل لها (*)

وكما اقترح ديكارت بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، فى « بحث فى المنهج » : أن يبدأ الفلسفة بالشك فى كل شىء ، فان بيكون هنا يتطلب تنقية الفكر «كخطوة أولى فى التجديد» . ذلك أن «المعرفة الانسانية كما نعهدها فى انفسنا ، ان هى إلا خليط وأكداس

(*) العبارة المشهورة « المعرفة قوة » لاترد بهذه الصيغة فى مؤلفات بيكون الموجودة الآن . ولكن فى نبذة من « التأملات المقدسة » كتب يقول « المعرفة نفسها قوة » (٤٣) والفكرة ، بطبيعة الحال ، سائدة فى كل كتابات بيكون .

لم يتيسر هضمها ، مكونة من كثير من السذاجة وسرعة التصديق ، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية ، وكذلك من الأفكار الصبيانية التي تشربناها في أول الأمر[٤٤] » . ومن ثم يجدر بنا ، منذ البداية ، أن نخلي أذهاننا ، قدر الطاقة ، من أية انشغالات سابقة وتحيزات وافتراضات ، بل يجدر بنا حتى أن ننصرف عن أفلاطون وارسطو ، ونكتسح من أفكارنا « الأصنام » أو الأوهام الخالدة التي ولدها فينا فرط الحساسية في الحكم على الأشياء أو المعتقدات والتعاليم التقليدية السائدة في مجتمعنا ، ويجب أن ننبذ الحيل المنطقية التي يمليها التفكير لمجرد الرغبة في شيء ما ، والحماقات اللفظية للتفكير الغامض ، ويجب أن نخلف وراء ظهورنا ، كل طرق الاستنباط الفخمة ، تلك الطرق التي عرضت أن نستنبط ألفاً من الحقائق الباطنة من بضع بديهيات أو مبادىء قليلة . وليس في العلم قبعة سحرية ، وكل ما يؤخذ من القبعة لخدمتنا يجب أن يوضع أولا عن طريق الملاحظة أو التجربة . ولكن لا يقصد هنا مجرد الملاحظة العابرة ؛ أو « السرد البسيط » للمعطيات ، ولكن « الخبرة . . . . المطلوبة للتجربة » . وعلى هذا نجد أن بيكون الذى غالباً ما انتقص من قدره على أنه يتجاهل المنهج الحقيقي للعلم ، يتقدم ليصف المنهج الفعلي للعلم الحديث :

> إن المنهج الصحيح للاختبار ، يشعل النور أولا (بالافتراض) ، ثم بوساطة هذا الضوء ينير الطريق ، بادئاً بالاختبار ترتيباً سليما . ومنه يستنتج بديهيات « الثمار الأولى » ، (النتائج المؤقتة) ومن البديهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة . . . إن التجربة نفسها هي التي ستقرر وتحكم[٤٥] .

ومهما يكن من أمر فإن بيكون كان على حذر من الفرضيات . حيث كانت في الكثير الغالب توحي بها التقاليد أو التحيز أو الرغبة ، أى توحي بها (مرة أخرى) « الأصنام » . فكان يرتاب في أى نهج تقليدى تصطفي الفرضية فيه ، قصداً أو عن غير قصد من التجريب معطيات مثبتة أو مؤكدة لها ، وتفسر تفسيراً خاطئاً أو تتعامى عن الشواهد العكسية أو المضادة . وتجنباً للوقوع في هذا الشرك ، اقترح بيكون استقراء شاقاً ، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة ، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها

وتصنيفها ، وربطها بعضها ببعض ، ثم « بعملية صحيحة من « الاستبعاد والنبذ » أى التخلص من فرضية بعد أخرى ، على التعاقب ، حتى يمكن الكشف عن " الصيغة " أو القانون الأساسى الضمنى وجوهر الظاهرة[٤٦] . إن معرفة « الصيغة » سوف يهيىء تحكماً متزايداً فى الحدث ، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة ، بل من المحتمل صنع الإنسان نفسه .

وأحس بيكون بأن هذا هو الهدف النهائى — أى أن منهج العلم سوف يطبق على التحليل البالغ الدقة للشخصية الإنسانية ، والصميم على إعادة تشكيلها . ويحث بيكون على دراسة الغرائز والعواطف ، وهذه وتلك وثيقة الصلة بالذهن ، قدر صلة الرياح بالبحر[٤٧] . ولكن هنا بصفة خاصة ، لا يكون الخطأ فى مجرد التماس المعرفة ، بل فى نقلها . ويمكن إعادة صنع الإنسان عن طريق التعليم المستنير ، لو أننا كنا نريد أن تجذب إلى ميدان التربية عقولا من الطراز الأول بمنحهم الرواتب الكافية وتكريمهم[٤٨] . ويبدى بيكون إعجابه بالجزويت ، وتمنى لو أنهم « كانوا على مذهبنا وفى صفنا[٤٩] » ، ويستنكر الملخصات ، ويحبذ التمثيل فى الكليات ، ويدعو إلى مزيد من العلم فى البرامج ، فإذا نظرنا إلى العلم والتعليم على هذا الأساس ، فإنهما (كما جاء فى « قارة أطلنطس الجديدة » لن يكونا من خدم الحكومة وأدواتها . بل مرشدها وهدفها ، ويختم قاضى القضاة الأمين بقوله « إنى أراهن بكل شىء فى سبيل نصرة الفن على الطبيعة فى سباقهما » .

٥ — فلسفة رجل الدولة

هنا نحس بعقل جبار ، أى — رجل واحد على مدى قرن ، متمكن من الفلسفة ومن السياسة على حد سواء . وقد يشوقنا أن نقف على تفكير الفيلسوف فى السياسة ، وتفكير السياسى فى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه كان لبيكون منهج فى الفلسفة ، وأنه ترك عرضاً حسن الترتيب لفكره ، باستثناء المنطق ، فإن اتجاه أفكاره كان واضحاً ، ولو أنها اتخذت شكلا يدل على رجل كان لزاماً عليه كثيراً أن يخرج عن هدوء الفلسفة لينظر فى قضية

قانونية ، أو ليقف فى وجه المعارضة فى البرلمان ، أو يمحض الرأى والنصح ملكاً لا يجدى معه الرأى والمشورة . ويجدر بنا أن نجمع آراءه من تعليقاته العابرة ومن نبذه الأدبية ، بما فى ذلك « مقالاته » (١٥٩٧ ، ١٦١٢ ، ١٦٤٥) . وفى إهدائه هذه المقالات إلى بكنجهام « وفى غرور صناعة الكتابة ، كتب بيكون، « إنى أرى . . . . أن الأثر قد يبقى ما بقيت الكتب » . وكان أسلوبه فى رسائله متكلفاً ملتوياً ، حتى لقد اعترفت زوجته : « إنى لا أفهم كتابته الملفوفة المليئة بالألغاز[٥٠] » . وبذل فى « المقالات » جهداً أكبر ، وراض قلمه على الوضوح ووصل إلى قوة هائلة فى التعبير ، لا تباريه فيها إلا صحائف معدودة فى النثر الانجليزى ، من حيث المادة ذات المغزى الهام الزاخرة بالتشبيهات المشرقة الواضحة فى صياغة دقيقة ، وكأنما أولع تاسيتس (مؤرخ رومانى — القرن الأولى الميلادى) بالفلسفة ، وتنازل ليكون واضحاً .

إن حكمة بيكون دنيوية إنه ينصرف عن الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) إلى الخفى أو الطائش من الأمور ، وقليلا ما قفز طموحه الوثاب من الجزء إلى الكل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أحياناً أنه يخوض فى مادية حتمية : « لا يوجد فى الطبيعة حقاً ، شيء عدا الأجسام الفردية التى تؤدى أعمالا فردية صرفة طبقاً لقانون محدد[٥١] » . وإن البحث فى الطبيعة ليأتى بأحسن النتائج حين يبدأ بالفيزياء وينتهى بالرياضيات[٥٢] ولكن " الطبيعة " هنا قد تعنى العالم الخارجى . لقد آثر بيكون الفلاسفة المتشككين قبل سقراط ، على أفلاطون وأرسطو . وامتدح ديموقريطس الفيلسوف المادى[٥٣] . ولكنه حينئذ يرتضى تمييزاً دقيقاً بين الجسم والنفس[٥٤] ، ويستبق انتقاد برجسون للفكر على أنه « مادى أساسى » . « إن إدراك الإنسان يتأثر برؤية ما يجرى فى الفنون الميكانيكية . . . . ومن ثم يتخيل أن شيئاً شبيهاً بهذا يجرى فى الطبيعة الأشياء[٥٥] » . ويرفض مقدماً البيولوجيا الميكانيكية عند ديكارت .

ومع ما يعتمل فى نفسه من عواطف متصارعة نحو الدين ، نراه «يتبل » فى حرص، فلسفته « بالدين ، وكأنما يتبل بالملح[٥٦] » « الأفضل عندى أن أصدق الخرافات التى

فى حياة القديسين وفى التلمود وفى الكتب المقدسة ، على أن يكون هذا العالم بلا عقل[٥٧] » . ويضع الالحاد فى مكانه فى قطعة تكررت مرتين[٥٨] . وإن تحليله لأسباب الالحاد لتوضح فكرة هذا الكتاب : —

> إن أسباب الالحاد هى الانقسامات فى العقيدة ، إذا كانت كثيرة ، لأن أى انقسام أساسى يلهب حماسة الفريقين كليهما وغيرتهم ، ولكن الانقسامات الكثيرة تقود إلى الالحاد ، وثمة سبب آخر ، وهو أعمال القسس المخزية . وأخيرا ، عصور المعرفة ، وخاصة إذا سادها السلم والرخاء ، فان المتاعب والعداوات تزيد فى اتجاه عقول الناس إلى الدين[٥٩] .

إن بيكون يؤكد قاعدة أن " الدين يحد من كل ألوان المعرفة[٦٠] " . وطبقا لما رواه قسيسه راولى « كان يذهب كثيرا إلى الصلاة فى الكنيسة ، إذا سمحت ظروفه الصحية » . . . ولقى ربه على العقيدة الصحيحة للكنيسة الانجليزية »[٦١] وعلى الرغم من ذلك ، فانه أفاد ، مثل خلفه العظيم وليم أوكهام ، من التمييز بين الحقيقة اللاهوتية والحقيقة الفلسفية ، فقد يمسك الدين بمعتقدات لا يجد العلم والفلسفة عليها دليلا ، ولكن الفلسفة يجب أن تعتمد على العقل فقط ، كما أن العلم ينبغى أن يلتمس تفسيرات دنيوية صرفة ، على أساس سبب ونتيجة ماديتين[٦٢] .

وعلى الرغم من تحمس بيكون للمعرفة ، فانه يخضعها أو يضعها فى المحل الثانى من الأخلاق . فليس ثمة نفع للانسانية إذا لم يؤد التوسع فى المعرفة إلى الخير . « إن طيبة النفس هى أهم مزايا العقل ومنازله الرفيعة [٦٣] » ومهما يكن من أمر فان حماسته المألوفة تفتر حين يتحدث عن الفضائل المسيحية . ومن الواجب ممارسة الفضيلة باعتدال ، لأن الأشرار قد يخدعون الاخيار غير الحكماء[٦٤] . وقليل من الخداع أو الرياء ضرورى للنجاح ، إن لم يكن المدنية . والحب ضرب من الجنون ، والزواج نوع من الشرك أو الفخ : « إن الذى له زوجة وأولاد ، يضع عقبات فى سبيل النجاح ، لأنهم عوائق فى سبيل المغامرات والمشروعات الكبيرة . . .

إن أفضل الأعمال وأعظمها أثرا على النـــاس نبعت من إناس ليس لهم زوجة ولا أولاد . " وأقر بيكون — مثل اليزابث وهلدبراند — عزوبة رجال الدين ". إن حياة العزوبة تصلح لرجال الكنيسة ، لأن الصدقات لاتكاد تروى الأرض ، إذا كان لزاما عليها أولا أن تملأ بركة(٦٥) " (لاحظ نزعته إلى الاستعارة والمجاز والايجاز الأنجلوسكسونى) . إن الصداقة خير من الحب : وإن المتزوجين ليكونون صداقات غير ستقرة . إن بيكون يتكلم عن الحب والزواج بأسلوب رجل ضحى بالعواطف الرقيقة فى سبيل الطموح ، ورجل أمكنه أن يحكم مملكة أفضل من أن يحكم بيته .

أما فلسفته السياسية فقد واجهت حالات وظروفا أكثر مما واجهت نظريات . وأوتى من الشجاعة ما امتدح معها ماكيافللى . وارتضى صراحة المبدأ القائل بأن الدول ليست مقيدة بالقانون الأخلاقى الذى تلقنه لرعاياها . وأحس — مثل نيتشه ، بأن الحرب الجيدة ترحب بأى سبب ،« ويجب ألا نستمع إلى رأى أساتذة وفلاسفة العصور الوسطى الذى يقول بأنه ليس من العـــدل أن تشن الحرب إلا إذا سبقها وقوع الضرر أو الاستفزاز ... إن الخوف الحقيقى من خطر محدق ، ولولم تحدث أية ضربات ، سبب مشروع للحرب . » وفى أية حادثة « فان الحرب العادلة الشريفة هى الطريقة المثلى » للمحافظة على الأوضاع السليمة للأمة(٦٦) . وإنه لمن أقصى درجات الأهمية ، من أجل الامبراطورية والعظمة ، أن تؤمن الأمة بأن « سلاحها هو مناط شرفها ، وهو هدفها وشغلها الشاغل ». والبحرية القوية ضمان لاحترام الجيران . « والسيادة على البحار هى الرمز الحقيقى للملكية(٦٧) » . وفى شباب الدولة تزدهر الأسلحة ، وفى وسط عمر الدولة ، تزدهر المعرفة ، ثم تزدهر الأسلحة والمعرفة كلتاهما معا لفترة من الزمن ، وفى عصر اضمحلال الدولة تنتعش الأعمال التجارية والتجارة(٦٨) . وسكان المدن محاربون ضعاف ، والفلاحون أو القرويون أفضل منهم فى الحرب ، ولكن صغار ملاك الأرض الأحرار أفضل الجميع . ومن ثم فان بيكون — مثل مور ، استنكر المساحات الزراعية الكبيرة

المسورة ، لأنها تقلل من نسبة ملاك الأراضى فى السكان . واستنكر تركيز الثروة على أنه سبب هام من أسباب الفتن والثورات :

> وأول علاج أو مانع لهذه ، هو أن نزيل بكل الوسائل الممكنة ، السبب المادى . . . وهو الحاجة والفاقة . . . ونهتم بكل مايخدم التوسع فى التجارة وتوازنها ، وتعزيز الصناعة والقضاء على الخمول ، والتبديد والتبذير ، بسن قوانين الحد من الانفاق وتنظيمه . وتحسين التربة وعدم إرهاقها وتحديد أسعار الحاجيات المبيعة وتخفيف الضرائب . . . . وفوق هذا كله ، انتهاج سياسة حكيمة فى عدم تجميع ثروات الدولة وأموالها فى أيد قليلة .... إن المال مثل السماد ، لاخير فيه ، إلا إذا انتشر(٦٩) .

وارتاب بيكون فى البرلمان ، بوصفه مشكلا من ملاك الأراضى والتجار غير المتعلمين المتعصبين أووكلائهم ، وفكر فى أن جيمس الأول ، بالمقارنة بهؤلاء ، متعلم يتحلى بروح إنسانية ، بل إن نظرية الملك فى " الحكم الاستبدادى المطلق " بدت فى نظره خيرة كبديل عن الزمر الجشعة والمذاهب العنيفة . واعتبر — مثل معاصره ريشيليو — أن تركيز السلطة فى يدالملك ،واخضاع كبار ملاك الأراضى له ، خطوة ضرورية لإقامة حكومة منظمة. وذهب ،مثل فولتير :إلى أن تعليم رجل واحد أيسر من تعليم الجماهير . إن الثروة الهائلة الخاصة لم تزعج الملك . وكان جيمس مشدودا فى عناد بالغ إلى التبذير والضرائب والسلام .

وسخر بيكون من « الفلاسفة » الذين « يسنون قوانين خيالية لدول خيالية ، إن مقالاتهم أو محاضراتهم ، كالنجوم التى لاتعطى إلا قليلا من الضوء لأنها على ارتفاع شاهق » . ولكنه فى أيام سأمه ، أغرى بأن يصور نوع المجتمع الذى يريده للناس ليعيشوا فيه . ولا ريب فى أنه كان قد قرأ " يوتوبيا " مور (١٥١٦) ، وكان كامبانللا قد نشر لتوه كتابه " مدينة الشمس " (١٦٢٣) ، والآن فى ١٦٢٤

كتب بيكون " القارة الجديدة " (The New Atlantis) " أبحرنا من بيرو التى كنا قد قضينا فيها سنة كاملة إلى الصين واليابان عبر البحر الجنوبى " : هدوء تام ، أرزاق محدودة ، جزيرة تحوطها العناية الإلهية ، شعب يحيا حياة سعيدة فى ظل قوانين سنها لهم المغفور له الملك سليمان . وبدلا من البرلمان . مجلس سليمان — مجموعة من المراصد والمعامل والمكتبات وحدائق الحيوان والنبات ، مزودة برجال العلم ورجال الاقتصاد والفنيين والأطباء وعلماء النفس والفلاسفة ، مختارين (كما هو الحال فى جمهورية أفلاطون) بعد اختبارات متكافئة بعد فرص تعليمية متكافئة ، ثم (دون إجراء انتخابات) يحكمون الدولة ، أو بالأحرى ، يحكمون الطبيعة ، لمصلحة الانسان . ويشرح أحد هؤلاء الحكام للمتبربرين القادمين من أوربا فيقول : " إن غاية مؤسستنا هى معرفة أسباب الأشياء وحركاتها الخفية ، وتوسيع حدود " امبراطورية الانسان ، من أجل التأثير فى كل الأشياء الممكنة[٧٠] " ، وفى هذه " الفتنة " التى تقع فى جنوب المحيط الهادى اخترع سحرة سليمان بالفعل الميكروسكوب والتلسكوب والساعات الذاتية الملء ، والغواصات والسيارات والطائرات ، واكتشفوا المسكنات والتنويم المغناطيسى ، ووسائل المحافظة على الصحة وإطالة العمر ، ووجدوا طرق تطعيم النبات وتوليد أنواع جديدة ، وتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة . ونقل الموسيقى إلى أماكن بعيدة . وفى مجلس سليمان ترتبط الحكومة والعلم معا . وكل الأدوات وتنظيم البحث ، وهو ماكان بيكون قد توسل إلى جيمس أن يزود به البلاد ، موجودة هنا ، فى القارة الجديدة ، كجزء من عدة الحكومة وأدواتها . والجزيرة تتمتع باستقلال اقتصادى ، وهى تتحاشى التجارة الخارجية لأنها شرك ينصب الحرب . إنها تستورد المعرفة لا السلع . وهكذا يحتل الفيلسوف المتواضع مكان رجل الدولة المزهو بنفسه ، كما أن نفس الرجل الذى كان قد نصح بالحرب أحيانا عند الاقتضاء ، بوصفها دواء مقويا أو منشطا اجتماعيا ، نراه الآن ، وقد آذنت شمس حياته بمغيب ، يحلم بجنة من السلام .

٦ — صيحة العقل

استمر بيكون يعمل حتى النهاية . فنشر بعد عام واحد من تقاعده ، " تاريخ

حكم هنرى السابع » ، سجل به مستوى جديدا لكتابة التاريخ ، فهو تفسير واضح صريح ، فى نثر رشيق قوى ، للقضايا والسياسات والأحداث ، وصورة وصفية أدبية منصفة نزيهة أخاذة لحاكم بعيد عن المثالية ، حقيقية إلى حد بعيد(٧١) . وأعقب هذا مجموعة من الرسائل : " دراسة فى الرياح " " دراسة فى الكثافة والتخلخل " . " دراسة فى الحياة والموت " ، وأبحاث أخرى ، لقد تهيأ له الآن من الفراغ مالم يكن يتوقعه ، فليس ثمة دار ولا أهل ولا أصدقاء ، فان كل طلاب المنافع الذين كانوا يزدحمون على بابه أيام نفوذه وسلطانه ، تمسحوا الآن بأعتاب أخرى . وسأل مرة أحد من يتبادل معهم الرسائل : " من معك من الزملاء فى عملك ؟ فأجاب اننى الآن فى وحدة تامة(٧٢) " .

وفيما كان يحاول أن يختبر كم من الوقت يمكن أن يحفظ الجليد اللحم من التعفن والفساد ، قطع الرحلة ذات يوم من أيام الربيع ليشترى دجاجة ، وذبحها وحفظها فى الجليد ، فوجد أنه أصيب بقشعريرة . فلجأ إلى دار لورد أروندل Arundel المجاورة ، حيث وضعوه فى الفراش ، وظن أنه سقم عارض لايلبث أن يزول ، وكتب أن التجربة " نجحت نجاحا تاما " : إنه حفظ الدجاجة ، ولكنه فقد حياته. لقد قضت عليه الحمى ، وخنقه البلغم فى ٩ ابريل ١٦٢٦ . ومات فى سن الخامسة والستين . وانطفأت الشمعة المتوهجة فجأة .

لم يكن بيكون ، كما ظن بوب " أحكم وأذكى وأحط بنى الانسان (٧٣) " . فان مونتانى كان أحكم ، وفولتير أذكى ، وهنرى الثامن أحط ، وقال أعداء بيكون عنه إنه كان عطوفا نافعا ، يبادر إلى الصفح والمغفرة . وكان أنانيا إلى حد الخنوع والاستسلام ، ومزهوا إلى حد اغضاب الآلهة . ولكننا نشاركه هذه الأخطاء إلى حد نغتفر معه طبيعته البشرية من أجل الأضواء التى نشرها . إن غروره كان القوة الدافعة فيه . وإذا كنا نرى أنفسنا كما يرانا غيرنا لشاب حركتنا وتوقفنا عن العمل .

ولم يكن بيكون من رجال العلم أو الأفراد العلميين ، ولكنه كان فيلسوف علم. وكان مدى قوة الملاحظة عنده هائلا ، ولكن مجال تأمله وتفكيره كان فسيحا إلى

حد لايهيىء له الوقت الكافى للبحث الخاص . وحاول شيئا من هذا دون نتيجة تذكر . . . وتخلف كثيرا عن تقدم العلم المعاصر . ونبذ آراء كوبرنيكس الفلكية ، ولكنه أورد أسبابا وجيهة لذلك[٧٤] . وتجاهل كبلر وجاليليو ونابيير . وكثيرا ماتنبه (كما حدث فى " القاره الجديدة ") إلى دور ملكة الخيال والافتراض والاستنباط فى البحث العلمي ، ولكنه ظل ينتقص من أهميته، وأتى اقتراحه بطول الأناة فى تجميع الحقائق وتصنيفها ، بأحسن النتائج فى علم الفلك ، حيث زودت الأرصاد النجمية والتسجيلات التى قام بها آلاف الباحثين — زودت كويرنيكس بمادة استقرائية ، لاستنباطاته الثورية ، ولكنها لم تكن قريبة الشبه بالطرق الفعلية التى كشفت فى عصره قوانين حركات الكواكب وتوابع المشـــترى وجاذبية الأرض والدورة الدموية .

ولم يزعم بيكون أنه اكتشف الاستقراء ، وعرف أن أناساً كثيرين مارسوه من قبل . ولم يكن أول من " أطاح " بأرسطو . فان رجالا مثل روجر بيكون ، وبتروس راموس ، فعلا هذا لعدة قرون خلت . ولكن أرسطو الذى أطاحوا به (كما تحقق بيكون أحيانا) لم يكن أرسطو الاغريق الذى كان كثيرا ما استخدم وامتدح الاستقراء والتجريب ، ولكن أرسطو الفيلسوف الذى صنعه العرب وأتباع الفلسفة السكولاستية (الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى) . إن الذى أراد بيكون أن يقضى عليه هو المحاولة الخاطئة لاستنباط عقـــائد العصور الوسطى من الميتافيزيقا القديمة ، لقد ساعد بيكون على أية حال ، على تخليص أوربا النهضة من الاذعان البالغ التزمت للقديم .

ولم يكن بيكون أول من أكد أن المعرفة طريق القوة . فقد فعل روجر بيكون هذا من قبل ، وقال كامبانالا ، فى بلاغة بيكون : " إن قوتنا تتناسب مع معرفتنا[٧٥] " . وربما أفرط رجل الدولة فى الالحاح على الغايات النفعية (طبقا المذهب المنفعة) للعلوم . ومع ذلك فانه أقر بقيمة " العلوم البحتة " بمقارنتها " بالعلوم التطبيقية " — تمييزا " لنور العلم " عن " ثماره " . وحث على دراسة الغايات والوسائل بقدر سواء ، وأدرك أن قرنا من الاختراع لا بد أن يخلق مشاكل كبرى ،

أكثر من أن يحل المشاكل القائمة ، إذا ترك الدوافع الانسانية على حالها دون تغيير ؟ وربما تبين بيكون ، فى انحلاله الخلقى هو نفسه ، الهوة التى خلقها تقدم المعرفة إلى ما هو أبعد من تهذيب الخلق ؟

ترى ماذا تبقى بعد ما أسلفنا من استنتاجات متأخرة ؟ يبقى أن بيكون كان أقوى أهل الفكر والذكاء وأعظمهم أثرا فى زمانه . لقد بزه شكسبير بطبيعة الحال فى الخيال والفن الأدبى . ولكن عقل بيكون حلق فى الكون كله ، مثل نور كشاف يحدق ويحقق مستطلعا ، فى كل الزوايا والخفايا ، فتمثلت فيه كل حماسة النهضة المتقدة اليقظة، وكل الاثارة والزهو اللذين تملكا كولمبوس وهو يبحر مسعورا إلى عالم جديد . استمع إلى هذه الصيحة المرحة من الديك روبين Cock Robin وهو يؤذن بانبلاج الفجر :

> وهكذا انتهيت من هذا القسط من التعليم الذى يمس المعرفة المدنية ، وبهذه المعرفة المدنية ختمت الفلسفة الانسانية ، وبهذه الفلسفة الانسانية ، انتهيت من الفلسفة بصفة عامة . والآن وقد توقفت قليلا ، أنظر إلى الوراء ، إلى مامررت به أو تصفحته ، فانه يبدو لى ، قدر ما يستطيع الانسان أن يحكم على نفسه ، أن هذه الكتابة ليست أفضل كثيرا من الصخب أو الصوت الذى يحدثه الموسيقيون عند ضبط آلاتهم ، مما لا يطرب الانسان لسماعه ، ومع ذلك فان هذا الضبط سبب فى حلاوة الموسيقى فيما بعد . وكذلك قنعت أنا بضبط آلات الوحى والتأمل حتى يكون العزف أفضل والأيدى أقدر . وحقا ، أنى إذ أضع أمامى حالة هذه الأزمان التى قامت فيها المعرفة بزيارتها أو جولتها الثالثة ، بكل خصائصها ، مثل تفوق عباقرة هذا الزمان وحيويتهم ، والمساعدات والأنوار التى حصلنا عليهامن أعمال الكتاب القدامى ، وفن الطباعة الذى ينقل الكتب إلى كل الناس من جميع المستويات ، وانفتاح العالم بفضل

> الملاحة التى كشفت النقاب عن تجارب لاحصر لها ، وعن قدر كبير من التاريخ الطبيعى ... أقول حقا إنى إزاء هذا كله ، لاأملك إلا أن أصل إلى الاقتناع بأن هذه الحقبة الثالثة من الزمن تفوق كثيرا عهد المعرفة اليونانية والرومانية ... أما عن جهودى وأعمالى ، إذا كان ثمة جهود وأعمال لى ، فانه إذا عنى الانسان أن يسر نفسه أو يسر الآخرين بالانتقاص من قيمتها أو نقدها ، فانها ستعود إلى المطلب القديم المتسم بالصبر والجلد « اضربنى إذا ما أردت ، ولكن اسمعنى فقط » فلينتقد الناس وليقرعوا ماشاءوا ، فانهم بذلك سوف يلاحظون ويقدرون(٧٦) .

إن بيكون عبر عن أنبل مشاعر عصره — لتحقيق حياة أفضل عن طريق التوسع فى المعرفة — ومن ثم فان الاعقاب خلدوا ذكراه بتذكار حى، هو تأثرهم به ، لقد حركت روحه — لا طريقته — العلماء وبعثت فيهم القوة والنشاط . فكم أنعشهم وشحذ عزائمهم ، بعد قرون كانت العقول فيها حبيسة قواعدها ، أو واقعة فى شراك عناكب من نسج الرغبات لا الحقائق ، أن يصادفوا رجلا أحب صوت الحقيقة مهما كان عنيفا ، وأحب جو البحث والكشف ، وهو جو يبعث على الحياة ، رجلا وجد متعة فى القاء ظلال الشك على دياجير الجهل والخرافة والخوف . وظن بعض رجال ذاك العصر ، مثل دون ، أن العالم فى طريقه إلى الاضمحلال والانحلال ، وأنه يسير بسرعة إلى نهاية الفناء والتحطيم ، فأعلن بيكون إلى عصره أنه مرحلة شباب عالم ، زاخرة بفورات الحياة .

ولم يكن الناس لينصتوا إلى بيكون فى بداية الأمر ، فإنهم فى انجلترا وفرنسا وألمانيا آثروا تحكيم السلاح فى صراع العقائد ، فلما خفت حدة هذا الصراع ، فان هؤلاء الذين لم يكونوا مغلولين بقيود الحقائق ، احتشدوا ، تحدوهم روح بيكون ، ليزيدوا من سيطرة الناس ، لا على الناس، بل على ظروف حياة الانسان ومايعتورها

من عقبات . وعندما أسس رجال من الانجليز « الجمعية الملكية فى لندن للنهوض بالمعرفة الطبيعية » (١٦٦٠) ، كان تكريما لفرانسيس بيكون وتخليدا لذكراه ، أن يكون مصدر وحى الجمعية وملهمها ، ومن الجائز أن : « مجلس سليمان » فى « القارة الجديدة » هو الذى حدد هدفها[٧٧] . وحيا ليبنتز بيكون باعتباره خالقا للفلسفة من جديد[٧٨] . وعندما تكاتف فلاسفة عصر التنوير لتأليف دائرة معارفهم التى هزت العالم (١٧٥١) فانهم أهدوها إلى فرانسيس بيكون . وكتب ديدرو فى نشرتها التمهيدية : « إذا كنا أدينا مهمتنا بنجاح ، فاننا نكون مدينين بأكبر الفضل لقاضى القضاة بيكون الذى اقترح خطة قاموس عالمى للعلوم والفنون ، فى عصر لم يوجد فيه — إذا صح التعبير — علوم ولا فنون ، وأن هذا العبقرى الفذ ، كتب فى عصر كان من المستحيل فيه كتابة تاريخ لما هو معروف — كتب تاريخا أو دراسة لما هو ضرورى أن نتعلمه أو نعرفه » . وفى غمرة الحماس قال دالمبرت عن بيكون « إنه أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأكثرهم شمولا » . ولما تمخضت جماعة التنوير عن الثورة الفرنسية قررت نشر مؤلفات بيكون على حساب الدولة[٧٩] . ونهج الفكر البريطانى فى مغزاه ومبناه ، من هوبز إلى سبنسر — باستثناء بركلى وهيوم والهيجليين الانجليز — منهج بيكون ، فان نزعته إلى إدراك العالم الخارجى على أساس من المذهب الذرى عند ديموقريطس ، هى التى حركت هوبز إلى المادية ، وتوكيده على الاستقراء هو الذى وجه هوبز إلى علم النفس التجريبى الذى تتحرر فيه دراسة العقل من ميتافيزيقا النفس ، كما أن تركيزه على « المنافع » و « التطبيقات » أسهم مع فلسفة هلفشيوس فى توجيه بنتام إلى تعيين « النافع والصالح أو الحسن » . وأخيرا فان روح بيكون هى التى هيأت انجلترا للانقلاب الصناعى .

ومن هنا جاز لنا أن نضع بيكون فى قمة عصر العقل . إنه لم يكن مثل بعض من جاءوا بعده ، يحب العقل حبا أعمى ، فانه ارتاب فى أية أفكار أو خطط لم يتحقق منها التجريب الفعلى ، وفى كل النتائج التى شابتها الرغبة . « إن الادراك الانسانى ليس ضوءا جافاً ، إن الارادة والعواطف تنفخ فيه ، ومن ثم تنطلق العلوم التى يمكن تسميتها : بعلوم يريدها الانسان ، لأن مايرى الانسان أنه يكاد يكون

حقيقيا ، يصدقه ويؤمن به على الفور » (٨٠) . وآثر بيكون " ذلك العقل المنتزع من الحقائق ، .... ومن تحالف أوثق وأنقى بين هاتين القوتين : التجريبية والعقلانية ، يمكن أن نأمل فى خير كثير (٨١) " .

كما أن بيكون لم يقل ، مثل فلاسفة القرن الثامن عشر ، بأن العقل عدو الدين أو أنه بديل عنه ، إنه أفسح لكل منهما مجالا فى الفلسفة وفى الحياة . ولكنه كره الاعتماد على التقاليد والنصوص والمراجع ، وطالب بتغييرات عقلانية طبيعية بدلا من الافتراض أو الحدس العاطفى ، ومن الاعتراضات الخارقة للطبيعة ، والأساطير الشعبية المألوفة . إن بيكون رفع راية كل العلوم ، وجذب للانضواء تحتها أشد العقول تلهفا فى الأجيال القادمة . وسواء شاء أو لم يشأ ، فان العمل الذى دعا إليه — التنظيم الشامل للبحث العلمى ، والتوسع فى المعرفة ونشرها فى العالم بأسره— نقول ان هذا العمل يحوى فى طياته بذور أعمق مسرحية فى الأزمنة الحديثة : المسيحية ، كاثوليكية أو بروتستانتية ، تناضل من أجل حياتها ، ضد انتشار العلم والفلسفة وقوتهما ه وكانت المسرحية الآن قد ألقت مقدمتها على العالم .

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ — ١٦٤٩

١ — الاقتصاد المتغير

إن الثورة التي سودت برلماناً وقتلت ملكاً — قبل أن يكفر لويس السادس عشر عن ذنوب أسلافه ، بمائة وأربعة وأربعين عاماً — كانت لهـا جذورها في الصراع الاقتصادي والخلاف الديني .

كان الإقطاع تنظيما يعتمد كل الاعتماد على الزراعة . وكانت الملكية تنظيما بلغ بالإقطاع ذروته . وكانت مرتبطة أشد الارتباط باقتصاد يقوم على الملاك والأرض . وحدث في انجلترا تطوران اقتصاديان قطعاً هذه الجذور الإقطاعية . أحدهما نمو طبقة كرام المحتد ذوى الملكيات الصغيرة من غير ذوى ألقاب النبالة (Gentry) ، وهم في موقف وسط بين الأشراف أو النبلاء ذوى الألقاب ، وبين صغار مالكي الأرض الأحرار أو المزارعين الذين يملكون أرضاً . وكانت أيديهم مغلولة في ظل ملاك وحاشية ومجموعة من القوانين لا تزال تفكر أو تصاغ بعقلية النظام الإقطاعي . ولقد اشتروا المقاعد في مجلس النواب أو استولوا عليها عنوة ، وتطلعوا إلى حكومة خاضعة لبرلمان خاضع لهم هم أنفسهم . أما التطور الثاني فهو نمو ثروة البرجوازية — أصحاب المصانع والمحامون والأطباء — ومطالبتها بتمثيل سياسي يتناسب مع قوتهم الاقتصادية ، ولم يكن لهذه الدوافع الثورية مصلحة مشتركة ، بل تعاونوا لمجرد أن يحاولوا كبح جماع الملاك ذوى النسب والحسب والحاشية المنتفخة الأوداج ، وملك اعتبر أن الاستقراطية الوراثية ، مصدر ضروري للنظام الاقتصادي والسياسي والاستقرار .

وكان النظام الاقتصادى يغير ، من عام لعام ، قاعدته ونقطة ارتكازه من الأرض الثابتة إلى المال المتحرك . وقبل ١٥٤٠ كان مصنع النحاس يتطلب توظيف ٣٠٠ دولار ، (بعملة الولايات المتحدة ١٩٥٨) وفى عام ١٦٢٠ ، ١٢٥ ألف دولار . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كانت المشروعات الرأسمالية التى تستلزم إنفاق اعتمادات ضخمة ، قد نهضت بمصانع حجر الشب فى يوركشير ، ومصانع الورق فى دارتفورد ، ومصانع صب المدافع فى برنديلى ، والمناجم البعيدة العمق التى ازداد التهافت عليها للحصول على مزيد من الفحم والنحاس والزنك والحديد والرصاص . وفى ١٥٤٠ كان هناك عدة مناجم أنتج الواحد منها عشرين ألف طن . واعتمد الحرفيون والصناع الذين يستخدمون المعادن ، على التعدين والصناعات المعدنية التى تركزت فى أيدى الرأسماليين ، وزودت مؤسسات النسيج بالمواد اللازمة . الحوانيت التى كانت تستخدم ما بين ٥٠٠ وألف عامل ، والنساجين والخياطين الذين انتشروا فى آلاف الدور فى المدن والقرى . وكانت الزراعة تسهم فى التحول الرأسمالى فى الإنتاج . واشترى الرأسماليون مساحات كبيرة من الأرض وسوروها ، بغية إمداد المدن باللحوم ، والمصانع بالصوف داخل انجلترا وخارجها . وارتفعت تجارة انجلترا الخارجية إلى عشرة أمثالها فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦٤٠ .

ولم يدر بخلد انجلترا أن الهوة كانت سحيقة جداً بين الغنى والفقير ، و « انحطت تعويضات العمال إلى أدنى مستوى لها فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، لأن أسعار الطعام زادت على حين بقيت الأجور على ما هى عليه[1] » . فإذا اتخذنا (١٠٠) كأساس ، فإن الأجور الحقيقية للنجارين الإنجليز كانت ٣٠٠ حوالى سنة ١٣٨٠ ، و ٣٧٠ فى سنة ١٤٨٠ ، ٢٠٠ فى عهد اليزابث ، ١٢٠ فى عهد شارل الأول — وهذا أدنى أجر فى بحر أربعمائة سنة[2] . وفى ١٦٣٤ كانت البطالة فظيعة إلى حد أن شارل أمر بتدمير مصنع ميكانيكى لنشر الخشب أنشىء حديثاً ، لأنه عطل كثيراً من النشارين عن العمل[3] . وكانت الحرب مع فرنسا سبباً فى رفع الضرائب ، كما كانت الحرب فى فرنسا سبباً فى تعطيل تجارة الصادرات ، وسوء المحاصيل (١٦٢٩ — ١٦٣٠) سبباً فى تضخم الأسعار حتى صارت البلاد على حافة

المجاعة(٤) . وأخذ هذا الاقتصاد المتضخم في الهبوط فجأة (١٦٢٩ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٨) ؛ وتضافرت كل هذه العوامل مع الصراع الديني في أن تدفع بكثير من الأسرات الإنجليزية إلى أمريكا ، وتوقع انجلترا في حرب أهلية غيرت وجه الأمة ومصائرها .

وكذلك أصبحت حرب الطبقات صراعاً بين المذاهب الدينية والقوانين الأخلاقية . وكان الشمال زراعياً بأغلبية ساحقة ، وكاثوليكيا في معظمه ولو في الخفاء . أما لندن والجنوب فكانت تنمو فيها الصناعة والبروتستانتية بشكل متزايد . وعلى حين تعلقت قلوب طبقة رجال الأعمال الجديدة باحتكاراتها وبتعريفة الحماية الجمركية . فإنها في نفس الوقت طالبت باقتصاد حر تتحدد فيه الأجور على قدر العمل والسلع ، وحيث لا تكون ثمة سيطرة إقطاعية ولا حكومية على الانتاج والتوزيع والربح والملكية ، وحيث لا توصم بوصمة العار ، الأعمال التجارية ، ولا تقاضي الفوائد على الأموال ، ولا المضاربة بالثروة . وتمسك البارونات وفلاحوهم بمفهوم الإقطاع عن الالتزام المتبادل والمسئولية الجماعية ، وتنظيم الدولة للأجور والأسعار ، وضوابط العرف والقانون لشروط الاستخدام والربح . واحتج البارونات بأن الاقتصاد التجاري (المركنتلي(*)) الجديد ، الذي ينتج لسوق وطنية أو دولية ، كان يمزق العلاقات بين الطبقات ويقوض الاستقرار الاجتماعي . وأحسوا (كما أحس صغار ملاك الأراضي والحكومة) أن قدرتهم على الوفاء بديونهم والتزاماتهم مهددة بخطر آثار التضخم على قيمة الرسوم والإيجارات والضرائب التي اعتمدوا عليها . ونظروا في ازدراء غاضب إلى المحامين الذين أسهموا بشكل واضح في الإدارة ، وإلى التجار الذين حكموا المدن ، وأوجسوا خيفة من سلطان لندن التي سادتها الروح التجارية (المركنتلية) ، والتي كان عدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠ ألف نسمة ، من مجموع سكان انجلترا البالغ خمسة ملايين ، ومن ثم كانت تستطيع تمويل جيش وثورة .

(*) Mercantile ، نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال تفسخ الاقطاعية لتعزيز ثروة البلاد عن طريق التنظيم الحكومي للاقتصاد واتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة . ولإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية .

٢ — مرحل الديانة ١٦٢٤ — ١٦٤٩

إن الملك الجديد الذى ارتقى العرش فى ظل النظام الإقطاعى والاجتماعى العتيق المعتمد على الأرض ، والذى أحس باليأس والضياع فى لندن بتجارها والبيوريتانيين فيها ، نقول إن هذا الملك لقى من التعب والنصب فوق ما يحتمل الصبر ، من جراء تعدد المعتقدات الدينية وحدتها . إن عملية الاجتهاد أو تكوين الرأى الفردى التى دعا إليها كل رأى جديد حتى سادت وسيطرت ، تضافرت مع انتشار الكتاب المقدس ، على تشجيع اختلاف الشيع والطوائف ، حتى لقد أحصى منها أحد المؤلفين ٢٩ طائفة فى ١٦٤١ ، وأحصى آخر ١٨٠ منها فى ١٦٤٩ . وفضلا عن الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت ، كان هناك الانقسام الحاد بين البروتستانت إلى أنجليكانيين ومسيخيين وبيوريتانيين ، وانقسام البيوريتانيين إلى المستقلين الذين كانوا يحلمون بالجمهورية ، والكويكرز الذين يعارضون الحرب والعنف وحلف الأيمان ، والمؤمنين بالعصر الألفى السعيد — أو طائفة الملكية الخامسة — الذين كانوا يعتقدون أن السيد المسيح سوف يعود سريعاً ليقيم حكمه على الأرض ، والأنتينوميين (طائفة تقول بأن الإيمان وحده — لا الامتثال للقانون الأخلاقى — ضرورى للخلاص) الذين كانوا يحاجون بأن المصطفين من عند الله مستثنون من القوانين الإنسانية ، والانفصاليين أتباع براون ، والباحثين Seekers ، والمشاغبين Ranters . وشكا أحد أعضاء البرلمان من أن « الرجال الميكانيكيين » (الحرفيين) كانوا يقيمون المنابر ويبشرون بألوان عقائدهم المتحمسة ، وكان كثيرون منهم يكسون مطالبهم الاقتصادية أو السياسية بنصوص من الكتاب المقدس ، وكان هناك الذين يقولون بتعميد البالغين فقط Anabaptists ، والمعمدانيون الذين انشقوا على الانفصاليين (١٦٠٦) وانقسموا (١٦٣٣) إلى معمدانيين عامين رفضوا النظرية الكلفنية فى القضاء والقدر ، ومعمدانيين خاصين قبلوها .

(*) Presbyterians رجال كنيسة بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية .

إن تعدد الطوائف والشيع ، ومساجلاتها الحادة الجريئة ، أدت بنفر من الناس إلى الشك فى جميع صيغ المسيحية وأشكالها . ورثى الأسقف Fotherby (١٦٢٢) « لأن الكتب المقدسة فقدت سلطانها على كثير من الناس ، وظن أنها لاتصلح إلا للجهلة والحمقى[٥] » — وفى ١٦٤٦ تحدث الحبر الجليل جيمس جرانفورد عن « الجماهير التى غيرت عقيدتها إما إلى التشكك . . . أو الإلحاد ، ولم يؤمنوا بشىء[٦] . » وفى كتيب عنوانه Hell Broke Loose « انفتحت الجحيم على مصراعيها » : بيان بالأخطاء السائدة ، والهرطقة والتجديف فى هذا العصر ، (١٦٤٦) وكان على رأس قائمة الهرطقات ، الرأى القائل بأن الكتاب المقدس سواء كان مخطوطاً حقيقياً (نصاموثوقا) أم لم يكن . . : فإنه لا يعدو أن يكون من صنع الإنسان ، وأنه عاجز عن أن يكشف عن إله فى السماء[٧] » ، وجهرت هرطقة أخرى « بأن العقل السليم هو الحكم فى العقيدة ، أو قاعدة الإيمان . . . ويجدر ألا نصدق بالكتب المقدسة و نظريات التثليث والتجسد و البعث إلا بقدر موافقتها للعقل ، وليس إلا[٨] » . وأنكر عدد كبير من المتشككين وجود الجحيم وألوهية المسيح . وسعى نفر متزايد من المفكرين الذين أطلق عليهم اسم « الربوبيين » إلى التوفيق بين مذهب التشكك والدين باقتراح مسيحية تقتصر على الإيمان بالله والخلود . وهيأ إدوارد ، لورد هربرت شربرى لهذا « الطريق الوسط ، أساساً فلسفياً فى بحث رائع عن « الحقيقة ١٦٢٤) . قال هربرت إن الحقيقة مستقلة عن الكتب المقدسة ، ولا يمكن أن تقررها كنيسة أو أية سلطة أخرى ، وإن أفضل اختبار للحقيقة هو موافقة الناس جميعاً عليها ، وتبعاً لذلك تكون أحكم ديانة هى ديانة « طبيعية » ، لا ديانة « موحى بها » ، تحصر نفسها فى النظريات التى تتقبلها كل المذاهب : وهى أن هناك « كائناً » ، وأنه تجب عبادته بالحياة الفاضلة المستقيمة أساساً ، وأن السلوك المستقيم يثاب ، وأن السلوك السيىء يعاقب عليه ، إما هنا فى الحياة الدنيا ، أو هناك الحياة الآخرة . ويقول أو برى إن هربرت مات « فى هدوء » بعد أن أبوا عليه الأسرار المقدسة[٩] .

وكان البرلمان أشد قلقاً وانشغالا بالكاثوليكية منه بالهرطقة . فنى ١٦٣٤ قارب الكاثوليك فى انجلترا أن يشكلوا ربع السكان[١٠] ، على الرغم من كل القوانين والأهوال التى كان يقاسيها نحو ٣٣٥ من الجزويت ، واعتنق النبلاء البارزون المذهب القديم ، وفى ١٦٢٥ أعلن جورج كلفرت ، لورد بلتيمور تحوله إلى الكثلكة ، وفى ١٦٣٢ منحه شارل مرسوماً بإنشاء المستعمرة التى عرفت باسم ماريلاند . وفى ١٦٣٣ أرسلت الملكة الكاثوليكية هنريتا ماريا إلى رومه مبعوثاً يستجدى منصب الكردينال لأحد الرعايا البريطانيين . وعرض الملك الأنجليكانى أن يسمح بإقامة أسقف كاثوليكى فى انجلترا إذا أيد إربان الثامن خطة شارل فى عقد بعض زيجات دبلوماسية (١٦٣٤) ولكن البابا رفض . وطالب الكاثوليك بالتسامح الدينى . ولكن البرلمان — الذى يعى فى ذاكرته تعصب الكاثوليك ، ومذبحة سانت برتلميو ، ومؤامرة البارود ، والاشمئزاز من إجراء تحقيق فى مستندات ممتلكات بروتستانية كانت يوماً كاثوليكية — طالب ، بدلا من ذلك ، بالتطبيق الكامل للقوانين التى صدرت ضد الكاثوليكية . وساد شعور قوى شعاره « لا كثلكة » ، وخاصة بين طبقة صغار الملاك والطبقة الوسطى ، يعارض بالمثل ، تدفق القساوسة الكاثوليك إلى انجلترا ، كما يقاوم ازدياد التقريب بين الفكر والطقوس الأنجليكانية والكاثوليكية .

وتمتعت الكنيسة الرسمية بحماية الدولة لها حماية كاملة . وكانت العقيدة والعبادة الأنجليكانية إجباريتين قانوناً ، وجعلت المواد التسع والثلاثون قانوناً من قوانين البلاد ١٦٢٨ . وادعى الأساقفة الأنجليكانيون « الخلافة الرسولية » — أى أنهم كانوا قد رسموا بوساطة الرسول ، ورفضوا توكيد المشيخيين والبيوريتانيين أن يرسموا الكاهن شرعاً ، وكان كثير من رجال الدين الأنجليكانيين فى ذاك العصر ، رجالا يتحلون بعلم واسع وشعور كريم . وكان جيمس أشر Usher رئيس أساقفة أرماج Armagh عالماً حقاً ، برغم حسابه المشهور (فى كتابه Annales Veteris Testamenti ، ١٦٥٠) أن الله خلق العالم فى ٢٢ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . — وهذه غلطة فى الحساب الزمنى جعلت شبه رسمية فى طبعات الكتاب المقدس[١٢] . ودعا جون

هيلز ، قسيس السفارة الإنجليزية فى هولنده ــ إلى الشك والعقل والتسامح :

> إن الطرق التى توصلنا إلى . . . . أى علم أو معرفة ليست إلا اثنتين ، أولاهما الاختبار وثانيتهما الاستدلال المنطقى ، إن الذين يأتونك ليلقوا إليك بم يجب أن تؤمن وماذا يجب أن تفعل ، دون أن يذكروا لك السبب فى هذا أو ذلك ، ليسوا أطباء بل إنهم متطفلون دجالون . . . إن أهم مصدر وقوة للحكمة ليس من السهل التصديق بهما . . . إن تلك الأشياء التى نجلها لقدمها ، ماذا كانت فى بداية نشوئها ؟ هل كانت زائفة ؟ إن الزمن لايستطيع أن يضفى عليها حقيقة وصدقا . إن عامل الزمن . . . مجرد شىء خارج عن موضوع البحث . . . وليس تعدد الآراء ، ولكن إرادتنا الفاسدة الشريرة ــ التى تظن أنه من الملائم أن نتخيل كل شىء (من نفس الفكر) كما نتصوره نحن نفسنا ــ هى التى أزعجت الكنيسة إلى هذا الحد . ألم نكن مستعدين لأن يلعن بعضنا بعضاً حين لم نكن متفقين فى الرأى ؟ ويمكن أن تكون قلوبنا متحدة . . . هناك شيئان يصنعان رجلا مسيحياً كاملا ــ إيمان صادق وسلوك قويم . ولو أن الثانى يبدو أجدر بالاعتبار ، ويخلع علينا اسم المسيحيين ، ولكن الثانى فى النهاية ، سيثبت أنه الأقوى والأرسخ ، وليس ثمة رجل . . . حتى ولو كان همجياً أو وثنياً ، لاتصل إليه أنسام الشفقة المسيحية(١٣) .

ولم يستجب بعض " عبدة الأصنام " لكرم هيلز . وكتب جزويتى بتوقيع " إدوارد نوت نبذة عنوانها Charit Mistaken (١٦٣٠) قال فيها إنه لن يكتب الخلاص لأى بروتستانتى ، إلا بمحض الصدفة(١٤) . ولكن أعاد الطمأنينة إلى قلوب البروتستانت الذين أدانهم المقال السابق ، وليم تشلنجورث Chillingworth ، الذى كان كتابه " العقيدة البروتستانتية هى الطريق المأمون للخلاص ، ١٦٣٧ " أشهر

بحث لا هوتى فى ذاك ، العصر ، لقد عرف تشلنجورث الفريقين كليهما ، فقد كان قد ارتد إلى الكاثوليكية ، ثم عاد إلى البروتستانتية ، وما زالت لديه تحفظاته ، وقال عنه كلارندون « إنه تعود الشك حتى أصبح شيئا فشيئا لا يثق فى شىء قط ، ومتشككا على الأقل فى أعظم الأسرار الدينية[١٥] » .

وكان جرمى تيلور أفصح الأنجليكانيين فى عهد شارل ، ولاتزال عظاته تقرأ ، كما أنها أشد تأثيرا من عظات بوسويه ، حتى أنها هزت مشاعر أحد الفرنسيين[١٦]. وكان تيلور ملكيا متحمسا ، وقسيسا فى جيش شارل الأول . وعندما سيطر المشيخيون والبيوريتانيون على البرلمان ، وأساءوا ، فى تعصب شديد ، معاملة الأنجليكانيين الذين كانوا يوما متعصبين ، أصدر تيلور كتاب « حرية الوعظ » (١٦٤٦) وهو دعوة حذرة إلى التسامح : إن أى مسيحى قبل عقيدة الرسل يجب أن تتلقاه الكنيسة بين أحضانها ، ويجب أن يترك الكاثوليك أحرارا ، إلا إذا أصروا على سيادة على انجلترا وعلى الملوك(*) ، وقبض حزب البرلمان على تيلور وأودع السجن فى الحرب الأهلية ، ولكن بعد عودة الملكية ، انضم إلى حكومة الأساقفة فى الكنيسة ، وخف تحمسه للتسامح .

وظهر أثر الكاثوليكية المتزايد فى الرجل الأنجليكانى البارز ذى النفوذ فى عصره ، وهو وليم لود ، الذى كان رجل فكر وإرادة ، ولد ليسيطر ويحكم أو يموت . وكان متمسكا بأهداب الفضيلة أشد تمسك ، متزمتا أشد التزمت ، وطيد العزم إلى حد العناد مع سرعة الغضب . ورأى لود — كأى رجل صالح من رجال الكنيسة ، أنه من القضايا المسلم بها أن المعتقد الدينى الموحد أمر لا غنى عنه للحكومة الناجحة وأن الشعائر المعتمدة ضررية لكل عقيدة مهدئة مؤثرة ، وما كان أشد حزن المسيحيين والبيوريتانيين وأسفهم عندما اقترح لود إعادة الفنون إلى خدمة الكنيسة ، لتجميل المذبح والمنبر وجرن التعميد ، وإعادة الصليب إلى الطقوس ، والمدرعة (الرداء الكهنوتى الأبيض) إلى الكهنة . وعلى هيئة جبل خاص للخطايا ، أمر بوضع مائدة

(*) فى ١٦٣١ ، فى مستعمرة خليج مساشوست نادى روجر وليم بالتسامح بلا حدود مع الكاثوليك واليهود والكفار .

العشاء الربانى التى كانت توضع حتى الآن وسط الهيكل (وكانت تستخدم فى بعض الأحيان لوضع القبعات عليها) ، نقول أمر لود بوضع هذه المائدة خلف حاجز فى الطرف الشرقى من الكنيسة ، وكانت هذه التغييرات فى معظمها إحياء لأعراف البزابث وقوانينها ، ولكنها فى نظر البيوريتانيين الذين أحبوا البساطة ، كانت تمثل رتدادا إلى الكاثوليكية ، وتجديدا للفصل الطبقى بين القسيس وجمهور المصلين . ويبدو أن لود أحس بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت على حق فى أحاطة الديانة بالمراسم والشعائر ، واضفاء هالة من القداسة على القسيس[١٧]. وقدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أراءه إلى حد أنها قدمت إليه منصب الكاردينال [١٨] . ولكنه رفض رفضا مهذبا . ولكن يبدو أن هذا العرض أيد لوم البيوريتانيين وتأنيبهم ، وأطلقوا عليه النذير بقدوم المسيح . وعينه شارل ١٦٣٣ رئيسا لأساقفة كنتربرى وعضوا وزارة الخزانة . وعين رئيس أساقفة آخر قاضيا للقضاة فى اسكتلندة فشكا الناس من أن رجال الكنيسة يعودون إلى السلطة ، كما كانت الكنيسة فى أوج عظمتها فى العصور الوسطى .

وشرع كبير أساقفة انجلترا ، من قصره فى لامبث Lambeth فى إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية ، وخلق مائة عدو جديد حين فرض عن طريق « محكمة اللجنة العليا » (وهى هيئة قضائية أقامتها البزابث ، وهى الآن كنسية بشكل واضح) : فرض غرامات فادحة على المتهمين بالزنى ، ولم تطب نفوس الضحايا باستخدامه الغرامات فى اصلاح كاتدرائية سانت بول المتهدمة ، وطرد المحامين والبائعين المتجولين والمثرثرين من أبهائها[١٩] وحرم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم ، أما الكتاب والخطباء الذين نقدوها مرارا وتكرارا . أو ارتابوا فى العقيدة المسيحية ، أو الذين عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يحرمون من الكنيسة ويوضعون فى آلة تعذيب خشبية ذات ثقوب تثبت فيها رجلا المذنب ويداه ، أو تقطع أذناه .

ويجب أن نتخيل بشاعة ووحشية العقوبات التى فرضت فى عهد لود ، حتى ندرك مصيره . فان الكاهن البيوريتانى اسكندر ليتون Leighton ، حوكم أمام

محكمة قاعة النجم لأنه المؤلف المعترف به لكتاب يقول بأن نظام الأساقفة ، نظام شيطانى معاد للمسيحية . فقيد فى الاغلال وسجن فى مكان موحش لمدة خمسة أسابيع فى زنزانة شديدة البرد « مليئة بالجرذان والفيران ، معرضة للثلوج والأمطار » ، فتساقط شعر رأسه ، وتقشر جلده ، وربط إلى خازوق ، وتلقى ستا وثلاثين جلدة بحبل سميك على ظهره العارى ، ووضع فى المشهرة (آلة تعذيب) لمدة ساعتين فى صقيع نوفمبر وجليده ، ودمغ بسمة العار فى وجهه ، وشق أنفه وقطعت أذنه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٢٠] . وفى ١٦٣٣ فرضت على لودويك بوير Ludowyc Bowyer ، الذى كان قد اتهم لود بأنه كاثوليكى فى دخيلة نفسه ، غرامة . ودمغ بسمة العار ، وبترت أطرافه ، وشوه جسمه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٢١] . واتهم وليم برين ، وهو من غلاة الدعاة البيوريتانيين فى « أنباء من أبسويك » (١٦٣٦) ، اتهم أساقفة لود بأنهم خدم للبابا وللشيطان[٢٢] ، وأوصى بشنق الأساقفة . فدمغ بسمة العار على خديه كليهما وقطعت أذناه ، وأودع السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل (١٦٤٠)[٢٣]. وسجنت لمدة أحد عشر عاما امرأة أصرت على اعتبار السبت يوم راحة وعبادة[٢٤] .

واتفق ألد أعداء لود ، وهم البيوريتانيون ، معه على ضرورة التعصب أو عدم التسامح . وذهبوا إلى أنه حكم نهائى معقول من الأصل السماوى للمسيحية والكتب المقدسة ، فان أى فرد يعارض عقيدة قامت على هذا الأساس ، لابد أن يكون مجرما أو معتوها ، وتجب حماية المجتمع من كثير من الخطايا واللعنات التى قد تنصب على المجتمع من جراء تعاليمه . وناشد المشيخيون البرلمان -- (١٦٤٨) أن يشرع عقوبة السجن مدى الحياة لمن يستمرون على نشر تعاليم الكاثوليك والمعمدانيين والأرمينيين والكويكرز ، وعقوبة الاعدام للذين ينكرون نظريات الثالوث الأقدس ، أو التجسد . ولكن المستقلين أتباع كرومويل ، على أية حال ، عرضوا التسامح مع كل من يقبل أساسيات المسيحية ، ولكنهم استبعدوا الكاثوليك والموحدين والمدافعين عن حكومة الأساقفة[٢٥] .

وكان فى البيوريتانيين شيع كثيرة إلى حد يصعب معه جمعهم فى تعميم واحد

ينطبق عليهم جميعا . وتمسك معظمهم بكلفنية صارمة ، وبحرية سياسية فردية ، وبحق جمهور كل كنيسة فى إدارة شئونها دون إشراف الأساقفة ، وبعبادة غير موسومة بالمراسم والشعائر ، متسمة بالمساواة ، وتخلوا عن الفن الدينى الذى يلهى المصلين ويشتت أفكارهم ، واتفقــوا مع المشيخيين فى اللاهوت ولكنهم رفضوا مجامعهم الكنسية ، لأنها تنزع إلى ممارسة سلطة الأساقفة ، وأصروا على تفسير حرفى للكتب المقدسة ، واستنكروا القول بحكم العقل على الحق الموحى به ، وكانوا يجلون العهد الجديد والعهد القديم بقدر سواء ، وطبقوا على أنفسهم الفكرة اليهودية « شعب الله المختار » ، وعمدوا أطفالهم بأسماء بطارقة « العهد القديم » وأبطاله ، وفكروا فى الرب على أساس « يهوه » الصارم القاسى ، وأضافوا إلى ذلك إيمان الكلفنية بأن معظم الناس هم « أبناء العقاب الإلهى » قضت عليهم الإرادة المتحكمة من لدن إله لا يرحم بالخلود فى الجحيم ، وعزوا خلاص القلة « المختارة » ، لا إلى صالح الأعمال ، بل إلى نعمة الهية ينعم الله بها على من يشاء متى شاء . وذهب بعضهم إلى أنه كلم الله ، وظن بعضهم أنهم ملعونون فهاموا فى الشوارع يئنون ويتأوهون ، استباقا لخلودهم فى العذاب . وبدا أن الله يسلط الصواعق دوما على رؤوس الناس .

وفى وسط هذا « الارهاب » الذى فرضته البلاد على نفسها كادت « انجلترا المرحة » أن يتقلص ظلها واستسلمت « انسانية عصر النهضة » و « طبيعية » عصر اليزابث المفعمة بالحيوية إلى شعور بالذنب وخوف من الانتقام الإلهى . وبهذا الخوف وذلك الشعور نظر الناس إلى مسرات الحياة وكأنها أرجاس من عمل الشيطان أو تحديات للاله . وعاودت قسما أكبر من الناس لم يعهد له مثيل من قبل فى التاريخ المعروف ، نقو عاودتهم المخاوف من الطبيعة البشرية والجسد ، التى كانت سائدة بين الرهبان فى الأديار . وأعلن بريم Pryme أن كل عناق « دعارة » ، وكل رقص مشترك « فسق وفجور[٣٦] » . وفى نظر معظم البيوريتانيين كانت الموسيقى والزجاج الملون والصور الدينية والأردية الكهنوتية البيضاء والكهنة الممسوحون بالزيت — كلها أمور تحول دون الاتصال بالله والاتجاه إليه . ودرسوا الكتاب

المقدس بعناية فائقة ، واقتبسوا عباراته فى كل حديث وفى كل فقرة تقريبا ، وطرز بعض المتحمسين المعصبين ثيابهم بنصوص مقدسة ، وأضاف المغالون فى التقى والورع لفظة « حقا » إشهادا على اخلاصهم أو صدقهم . وحرم البيوريتانيون الصالحون استخدام مستحضرات التجميل وترتيب الشعر ، على أنهما ضرب من الزهو والغرور والتفاهة . وحظوا بالاسم المستعار « ذوى الرءوس المستديرة Roundheads لأنهم قصوا شعورهم بشكل قصير جدا . ونددوا بالمسرح على أنه مخز (وهكذا كان) ، وبمطاردة الدببة والثيران على أنها عمل وحشى ، وبأخلاق البلاط على أنها وثنية . كما استنكروا الاحتفالات والأعياد الصاخبة ، ودق النواقيس ، والتجمع حول عمود أول مايو المزدان بالأشرطة والأزهار والرقص حوله ، وشرب الأنخاب ، ولعب الورق . وحرموا كل الألعاب أيا كانت فى يوم الراحة ، وقالوا انه يوم الرب ، ويجب ألا يسمى بعد الآن بالاسم الوثنى « الأحد » . ورددوا صيحات الغضب — ومن بينهم ملتون — حين أصدر شارل الأول ولود — تجديدا لمرسوم جيمس الأول — « إعلان الألعاب » ١٦٣٣ ، أجازا فيه الألعاب فى يوم الأحد بعد تأدية الصلوات . ومد البيوريتانيون تشددهم فى تحريم الألعاب والملاهى وفى الانقطاع إلى العبادة والراحة فى أيام الآحاد (قوانين الأحد الزرقاء) ، إلى يوم عيد الميلاد ، ورثوا لأسلوب الاحتفال بمولد المسيح بالمرح والرقص والألعاب ، وكانوا على حق فى أنهم نسبوا معظم تقاليد عيد الميلاد إلى أصول وثنية ، وطالبوا بأن يكون عيد الميلاد يوما مهيبا للصوم والكفارة ، وفى ١٦٤٤ أقنعوا البرلمان بعد لأى ، باقرار هذه الفكرة بمقتضى القانون :

وكما أكدت البروتستانتية على العظة أكثر مما فعلت الكثلكة ، فان البيوريتانيين كذلك توسعوا فيها حتى إلى أبعد مما جرى عليه البروتستانت ومزق التعطش إلى المواعظ بعض القلوب ، وانتقل عمدة نوروك إلى لندن ليستمع إلى مزيد من الوعظ ، واستقال بزاز من الأبرشية لأنها لا تقدم إلا عظة واحدة كل يوم أحد ، وقام « محاضرون » خاصون لإطفاء هذا الظمأ — وهؤلاء عبارة عن رجال

عاديين تستأجرهم الأبرشية لالقاء عظة يوم الأحد ، بالاضافة إلى مايلقيه الكاهن المعتاد . ونهض معظم الوعاظ البيوريتانيين بمهمتهم فى جدية بالغة فأرهبوا مستمعيهم بأوصـــاف الجحيم ، واتهم بعضهم الآثمين علنـــا بالاسم ، وأفصح واحد منهم عن مدمنى الخمر فى شعب الكنيسة ، وضرب ، وهو يتحدث عن البغايا ، مثلا بزوجة أحد أهالى الأبرشية المشهورين ، وقال آخر لمستمعيه إنه إذا كان الزنى والحلف والغش واغفال طقوس يوم الراحة ، إذا كانت هذه كلها تؤدى بالانسان إلى الجنة ، فسيكتب الخلاص للأبرشية بأسرها (٢٧) . وأحس القساوسة البيوريتانيون أن من واجبهم أن يصفوا للناس — أو يحرموا عليهم — قواعد السلوك ، وأنواع اللباس ووسائل التسلية ، فحرموا الاحتفال بأيام العطلة أو الأعياد فى الأعراف الوثنية أو الكنيسة الكاثوليكية ، وبذلك أضافوا نحو خمسين يوم عمل إلى السنة (٢٨) ؛ ودوت صيحة الواجب فى الخلق البيوريتانى ، مقترنه بغرس الشجاعة والاعتماد على النفس والحزم والاقتصاد والعمل فى النفوس ، وكان هذا نظاما أخلاقيا يلتئم مع الطبقة الوسطى ، فانه حث على العمل الجاد النشيط ، وأجاز من الوجهة الدينية المشروعات والمغامرات التجارية والملكية الخاصة . وكان الفقر ، لا الغنى ، فى نظرهم ، هو الخطيئة ، لأنه ينم على الافتقار إلى الخلق الشخصى وإلى نعمة الله (٢٩)

وكان البيوريتانيون ، من الناحية السياسية ، يتوقون إلى حكومة دينية ديمقراطية ، لا يكون فيها بين الناس إلا فروق أخلاقيه ودينية ، ولا يكون فيها حاكم غير المسيح . ولا قانون سوى كلمة الله . وكرهوا الضرائب الباهظة التى تعول الكنيسة الانجليكانية . وشعر رجال الأعمال منهم أن هذه الكنيسة الرسمية العليا الباهظة النفقات تحلبهم وتستنزف أموالهم . وقال أحد المؤلفين « إن هذه الهاوية الأسقفية تلتهم تجارة الأمة » (٣٠) . ودافع البيوريتانيون عن الثراء . ولكنهم احتقروا الترف الخامل الذى كان يرفل فيه النبلاء ، وتمسكوا بالأخلاقيات إلى حد التطرف ، كما فعلت الأجيال التالية بالحرية . ولكن ربما كانت مبادئهم القاسية تصحيحا ضروريا للانحلال الخلقى فى عصر اليزابث . وأنجبوا بعضاً من أقوى الشخصيات فى التاريخ — كرمول وملتون ، والرجال الذين فتحوا الفيافى والقفار الأمريكية .

ودافعوا عن الحكومة البرلمانية ونظام المحلفين ونقلوها الينا ، وإن إنجلترا لمدينة لهم؛ بشكل جزئى ، بالرصانة الحقه فى الخلق الإنجليزى ، واستقرار الأسرة البريطانية ؛ ونزاهة الحياة الرسمية فى بريطانيا . ولم تفقد شيئا .

٣ — البيوريتانيون والمسرح

إن أول انتصار أحرزه البيوريتانيون كان فى حربهم ضد المسرح . فإن كل ما تميزوا به — من لاهوت قائم على « الاصطفاء » و « الرفض » وخلق متزمت ؛ ومزاج قاس ، وحديث انجيلى — كان يتناوله المسرح بالتجريح والتسخيف ، عن طريق الصور الكاريكاتورية الفاضحة التى لا تغتفر ، وكانت الطامة الكبرى فى ١٦٢٩ : فإن ممثلة فرنسية تجاسرت على إسناد دور نسائى إلى شاب فى رواية مثلت على مسرح Black Friars فقذفوها بالتفاح والبيض الفاسد .

وربما أرضى الكتاب المسرحيون الجدد جماعة البيوريتانيين ، لأنهم كانوا فى جملتهم مهذبين ، ولو أنهم ، من حين إلى حين ، حاولوا بالبذاءات ، إرضاء جمهور الدرجة الثالثة ذوى الأذواق السقيمة واجتذابهم . إن رواية فيليب ماسنجر « طريقة جديدة لتسديد الديون القديمة (١٦٢٥) لم تكن تهجو الفضيلة المتزمتة : بل جشع الاحتكارات . ولم يكن ثمة شعر يحلق ، ولا ذكاء يدوى ، ولا مجازات وتخيلات صارخة ، ولكن الرجل المبتز المجرد من الضمير والمبادىء الخلقية وقع فى يدالعدالة آخر الأمر . وتعاقبت خمسة فصول دون أن تظهر واحدةمن البغايا أو بنات الهوى . وتحايل جون فورد علىتصيد الجمهور بأن جعل عنوان الرواية " يا حسرتاه إنها مومس " ، ولكن هذهالرواية ، ورواية " القلب الكسير " (كلتاهما ١٦٢٣) احتفظتا بشىء من الاحتشام ، وربما أمكن تمثيلهما الآن لو أن الجمهور الحديث استطاع أن يتحمل العذاب فى حل عقد الرواية .

وسدد البيوريتانيون أعنف ضرباتهم للمسرح ، حين أرسل أشد أنصارهم جرأة وشجاعة ، وليم برين ، إلى الصحافة (١٦٣٢) مقاله « سوط الممثلين Players Seourge وكان برين محامياً ، ولم يدع النزاهة والتجرد ، وقدم إلى

المدعى مذكرة من ألف صحيفة ، وبالاقتباس من الكتب المقدسة ومن كتابات آباء الكنيسة بل حتى من كتابات الفلاسفة الوثنيين ، أثبت أن المسرحية من عمل الشيطان ، فإنها بدأت كصيغة أو شكل لعبادته . إن معظم الروايات ممتلئة بالتجديف والدعارة والفحش ، زاخرة بعناق العشاق ، والإيماءات الخليعة ، والموسيقى والأغانى والرقص الذى يثير الشهوة ، وإن كل أنواع الرقص من عمل شيطانى ،وكل خطوة فيه إن هى إلا خطوة إلى الجحيم ، وإن كل الممثلين مجرمون فجرة كفرة » .« إن كنيسة الله ، لا المسرح ، هى المدرسة الوحيدة الصالحة ، والكتاب المقدس والعظات والكتب الدينية المخلصة الورعة . . . هى المحاضرات " أى القراءات الوحيدة الصالحة للمسيحيين . فإذا أرادوا التحول عنها :

> فإن أمامهم مشاهد متعددة فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم وسائر المخلوقات التى لا نهاية لتعددها وتنوعها ؛ ليمتعوا بها أنظارهم . وإن أمامهم تغريد الطيور ليشنفوا به آذانهم ، وإن لديهم الشذا الرقيق الجميل والروائح الزكية المنبعثة من الأعشاب والأزهار والفواكه لينعشوا بها أنوفهم . . ولديهم المذاق الجميل لكل ما يصلح للأكل . . . والمسرات والمتعة التى تقدمها لهم البساتين والأنهار والحدائق والبرك والغابات ، والبهجة التى يوفرها لهم الأصدقاء والأقرباء والأزواج والزوجات والأولاد ، والمقتنيات والثروة ، وسائر النعم الظاهرة التى أنعم الله بها على الإنسان(٣١)

وكانت الحجة قوية بليغة ، ولكنها وصمت كل الممثلات بالدعارة والبغاء ، وكانت الملكة لتوها قد استقدمت من فرنسا بعض الممثلات ، وكانت هى نفسها تتدرب على تمثيل دور فى البلاط ، وجرح شعور هنريتا ماريا واستاءت ، واتهم لود برين باثارة الفتنة ، ودفع المؤلف بأنه لم يكن يقصد الطعن فى الملكة أو التشهير بها ، واعتذر عن عدم مراعاة الاعتدال فى كتابته . ولكن على أية حال ، فى قسوة عاقت بأذهان البيوريتانيين طويلا ، منع من الاشتغال بالمحاماة وفرضت

عليه غرامة يستحيل دفعها ، ٥٠٠٠ جنيه (٢٥٠,٠٠٠ دولار ؟) ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ووضع فى المشهرة وقطعت أذناه كلتاهما[٣٢] ، ومن سجنه أصدر (١٦٣٦) "أنباء من أبزوك" اتهم فيه الأساقفة الأنجليكانيين بأنهم خونة شيطانيون ، وذئاب ضارية ، وأوصى بشنقهم . فعذب فى المشهرة من جديد ، واستؤصلت بقايا أذنيه ، وبقى فى السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل ١٦٤٠ .

وفى ١٦٤٢ أصدر البرلمان أمراً بإغلاق كل مسارح انجلترا . وكان هذا فى أول الأمر ، فن تدابير حرب ، بدا أنها محدودة بهذه الأوقات الفاجعة . ولكنها استمرت حتى ١٦٥٦ . وآذنت بزوال الحياة الطويلة للمسرحية الإليزابثية ، وسط مسرحية أكبر لم يشهد لها المسرح الإنجليزى مثالا قط .

٤ — النثر فى عهد شارل الأول

كان هناك فى انجلترا ، رجلان على الأقل ، يستطيعان أن يطلا على المشهد المضطرب فى مقدرة وهدوء . وكان جون سلدن Selden واسع الاطلاع والعلم حتى قال عنه الناس : لا يعلم أحد أى شىء لا يحيط به سلدن علما . إنه كرجل مهتم بالآثار والتاريخ القديم ، جمع بيانات عن الدولة فى انجلترا قبل عهد النورمنديين ، وسجلا موثوقاً عن « ألقاب الشرف » (١٦١٧) ، وبوصفه مستشرقاً ، ذاع صيته فى كل أوربا ، بدراسته فى الشرك وتعدد الآلهة ، وبوصفه من رجال القانون شرح قانون الأحبار وكتب «تاريخ العشور» ودحض فكرة أنها فرضت من عندالله ، وبوصفه عضواً فى البرلمان أسهم فى اتهام بكنجهام ولود وفى صياغة « ملتمس الحقوق » . وأودع السجن مرتين . وشهد « اجتماع وستمنستر » كمندوب علمانى عادى « يشهد اقتتال الحمير المتوحشة » ودعا إلى الاعتدال فى المنازعات الدينية . وبعد وفاته أصبح كتابه « حديث المائدة » الذى سجله سكرتيره ، من الآثار الأدبية الإنجليزية ، نقتطف هنا نموذجاً منه :

إنه لمن العبث أن نتحدث عن هرطيق ، لأن الإنسان لا يعتقد إلا بما يراه أو يفكر فيه هو نفسه . وفى العصور البدائية كان ثمة

آراء كثيرة ، اعتنق واحدا منها أحد الأمراء ، ودمغت
سائر الآراء بأنها هرطقات . ولا يمكن أن يكون رجل
ما أعقل الناس من أجل علمه ومعرفته ، فقد يجيء هذا
موضوعا للمناقشة ولكن الذكاء والحكمة تولدان مع الانسان
. . . . إن العقلاء لا يتفوهون بشيء فى أوقات الخطر .
إن الأسد دعا الشاة ليسألها إذا كانت ثمة رائحة تخرج من
فمه ، فلما أجابت بالايجاب عضها فأطاح برأسها لأنها غبية
حمقاء . فدعا الذئب وأعاد عليه نفس السؤال فأجاب بالنفى ،
فمزقه الأسد إربا لأنه متملق . وأخيرا نادى على الثعلب
وكرر عليه السؤال ، فتعجب وقال إنه مصاب بالبرد ولا يستطيع
أن يشم[٣٣] .

وكان توماس براون « ثعلبا » . إنه ولد فى لندن ١٦٠٥ وتلقى علومه فى مدرسة ونشستر ، واكسفورد ومونبلييه وبادوا وليدن ، واستزاد من العلوم والفنون والتاريخ كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم انصرف إلى الاشتغال بالطب فى نورولك . وهذب من « تحليلاته للبول » بتدوين ملاحظاته وأفكاره « عن كل هذه الأشياء ، وعن قليل غيرها « On all things and a few others وأخفى بلباقة نظريته فى الدين فى كتابه « الطب الدينى » (١٦٤٢) ، وهو يمثل مرحلة فى تاريخ النثر الانجليزى . وإنك لتجد فى شخصه « مونتانى بريطانى » ، فهو مثله فى طرافته وخياله ، وفى تذبذبه وتعدد جوانبه ، وربما اقتبس عنه فيما كتب عن الصداقة[٣٤] ، وهبط بتشككه إلى الامتثال للكنيسة الانجليزية مستسيغا العقل ومعلنا إيمانه . وملأ براون كلامه بالاشارات والاشتقاقات التقليدية ولكنه أحب فن الألفاظ وموسيقاها ، مستخدما أسلوبا كأنه دواء « مضاد للبلى والفساد » .

وكان بطبيعة دراسته وتعليمه نزاعا إلى الشك . وفى أطول مؤلفاته وعنوانه « الأقوال الزائفة الشائعة » شرح وهذب مئات من « الآراء الفاسدة الشائعة » فى

أوربا — منها أن العقيق الأحمر يضيء فى الظلام ، وأن الفيل لا مفاصل له ، وأن العنقاء تتوالد بذاتها من رفاتها ، وأن السمندر (نوع خرافى من الضفادع) يمكن أن يعيش فى النار ، وأن وحيد القرن (حيوان خرافى له جسم فرس وذيل أسد) له قرن واحد فى وسط الجبهة ، وأن البجع يغنى قبل موته ، وأن الفاكهة المحرمة كانت التفاح ، « وأن ضفدع الطين يبول وبهذه الطريقة ينفث سمه[٣٥] » ولكنه كأى مهاجم للتقاليد والمعتقدات القديمة ، كان له معتقداته، فانه آمن بالملائكة والشياطين وقراءة الكف والسحرة[٣٦] ، وشارك فى ١٦٦٤ فى اتهام امرأتين بأنهما ساحرتان ، وشنقتا بعد ذلك على الفور ، وهما تؤكدان براءتهما[٣٧] .

ولم يكن به ميل إلى النساء ، وذهب إلى أن « الجنس » أمر مرذول فقال

> لم أتزوج غير مرة واحدة فقط ، وإنى لأمتدح أولئك الذين يعقدون العزم على ألا يتزوجوا مرتين ، وإنى لأتمنى أن نتكاثر ، مثل الشجر ، دون اتصال جنسى ، أو أن تكون هناك وسيلة أخرى للابقاء على الجنس البشرى ، انه أقبح عمل يأتيه الرجل العاقل فى حياته ، وليس ثمة شيء يوهن من عزيمته ويؤذى خياله أكثر من تفكيره فى أية حماقة تافهة شاذة قد ارتكبها[٣٨].

أما بالنسبة لموضوعه الرئيسى فانه مسيحى بحكم الدفاع عن المسيحية :

> أما من حيث ديانتى ، فانه على الرغم من الظروف الكثيرة التى قد تغرى العالم ، فليس لدى منها شيء قط (مثل الخزى العام فى مهنتى ، المجرى الطبيعى لدراساتى وأبحاثى ، عدم التحيز فى سلوكى وفى أحاديثى فى الموضوعات الدينية ، فلا أتحمس فى الدفاع عن دين ، ولا أعارض دينا آخر بمثل هذا العنف الذى اعتاد الناس أن يعارضوا به الديانات الأخرى) ، ولكن برغم كل شيء ، فانى أتجاسر ، دون أى إكراه ، على اعتناق المسيحية الكريمة . لا لأنى أدين بلقبى لجرن المعمودية ، ولا من أجل

تعليمى ، أو المناخ الذى ولدت فيه ، .... ولكن لأنى
فى أيام نضجى وحكمى السليم على الأمـــور ، عرفت كل
الأديان وخبرتها[٣٩] .

ويحس براون بأن عجائب الدنيا ونظامها تنم على عقل إلهى — « إن الطبيعة هى فن الإله[٤٠] » ويعترف بأنه ارتكب بعض الهرطقة ، وينزلق إلى شيء من الارتياب فيما جاء بالكتاب المقدس عن الخلق والتكوين[٤١] ، ولكنه الآن يحس بالحاجة إلى ديانة مقررة ترشد الحائرين والمترددين من الناس ، ويرثى لتفاهة الهراطقة الذين يعكرون صفو النظام الاجتماعى بتوفيقهم فى عملهم[٤٢] . ولم يكن يحب البيوريتانيين ، وبقى على ولائه وإخلاصه لشارل الأول ، أثناء الحرب الأهلية ، وكافأه شارل الثانى على جهوده برفعه إلى مرتبة الفارس .

وفى سنواته الأخيرة أغراه بالتأمل والبحث فى الموت ، الكشف عن بعض المقابر فى نورفولك ، وسجل ملاحظاته وأفكاره فى تحفة من روائع النثر الانجليزى غير ذات موضوع محدد : Hydriotaphia Urne - Buriall. (١٦٥٨) . وينصح باحراق الموتى ، كأخف الوسائل عقما لتخليص الأرض منـــا . « إن الحياة بريق صاف ، واننا لنعيش «بشمس» خفية فينا » ، ولكننا نومض ثم نخبو بسرعة مخزية. وإن الأجيال لتمضى ، على حين يبقى الشجر ، وان الأسرات العريقة لا تعمر قدر ماتعمر ثلاث بلوطات[٤١] » ويحتمل أن العالم نفسه » يقترب من نهايته « فى هذه الساعة الفاصلة من الزمن » . ونحن بحاجة إلى الأمل فى الخلود ليثبتنا ضد قصر الحياة هذا ، وإنه لسند قوى لنا أن نحس بالخلود ، — ولكن يحزننا أشد الحزن أن تدفعنا أطياف الجحيم فى التياع إلى الاحتشام واللياقة[٤٤] . وليس الملأ الأعلى « فراغا سماويا » ولكنه « فى نطاق هذا العالم المحسوس » فى حالة من الرضا والهـــدوء . ولكن براون يستدرك بسرعة حتى لا ينزلق إلى هاوية الهرطقة ، فيختم تأملاته الدينية بدعاء خاشع إلى الله :

اللهم أنعم على فى هذه الحياة براحة الضمير ، وبالسيطرة

على عواطفى ، وامنحنى حبك وحب أصدقائى الأعزاء ،
وبهذا أكون سعيدا إلى حد الاشفاق على قيصر . تلك ،
يا إلهى ، رغباتى المتواضعة التى يمليها على طموحى المعقول .
وهو كل ما أجرؤ على القول بأنه السعادة على الأرض ،
التى لا أضع فيها قاعدة ولا حدا لنعمتك وعنايتك . وأمتنى
كما تشاء حكمتك فان مشيئتك سوف تنفذ ولو فى القضاء
على (٤٥) .

٥ — الشعر فى أيام شارل

وظهرت فى نفس الحقبة طائفة من الشعراء الثانويين الأقل شأنا — الذين حظى كل منهم بأعظم الحب لدى هـذا أو ذاك من الناس — والذين أمتعوا الناس ، وملأوا وقت فراغهم بقوافى الغزل وقصائد التقوى الرخيمة . وحيث أن الملك كان يميل إليهم ويرضى عنهم لأنهم كانوا أبواقا له ولسان حاله فى كل التقلبات ، فان التاريخ يعرفهم باسم « الشعراء الفرسان » . وكان روبرت هرك **Herrick** يدرب قلمه عند بن جونسون ، وظن لبعض الوقت أن قدحا من النبيذ يمكن أن ينظم مجلدا من القصائد ، وكان يحتسى الخمر لعدة ساعات دون انقطاع ، من أجل باخوس (إله الخمر والعربدة عند اليونان والرومان) ، ثم درس ليهيئ نفسه للانخراط فى سلك رجال الدين ، وتلقى درسا فى العشق والغرام ، وقطع على نفسه عهدا أن يؤثر الخليلات على الزوجات(٤٦) . وأشار على العذارى « بجمع براعم الورد » عند تفتحها . أما عشيقته كورنا **Corinna** فانه يستحثها بقوة :

انهضى ، انهضى ، يا للعار إن الصبح المتفتح يمثل بأجنحته
قدرة الله كاملة . انظرى كيف أن الفجر ينبثق فى الجو عن
خيوط الضوء الجديد الجميـل . انهضى أيتها الغادة النؤوم
وانظرى كيف تزين قطرات الندى العشب والشجر .... تعالى ،
ولنذهب ونحن فى ريعان شبابنا لنسرح ونمرح فى اللهو البرىء

فى أيامنا . سوف يدركنا الهرم بسرعة ونفنى قبل أن نستمتع
بحريتنا . . . وعندما يسعفنا زماننا ، وقبل أن نذبل
ونذوى ، تعالى ياحبيبتى كورنا ، تعالى ننعم بربيع
الحياة[٤٧] .

وهكذا فى كثير من قصائده الماجنة التى نشرها (١٦٤٨) فى مجموعة Hesperides ، حيث نجد أنها ، حتى فى أيامنا الفاجرة ، فى حاجة إلى تهذيب ، حتى تلائم كل الناس . ولكن كسب العيش ضرورى كذلك . ومن ثم غادر هرك لندن الحبيبة إلى نفسه (١٦٢٩) — حاملا معه حبه للقصيد والقوافى — وقصد وهو محزون ، ليعمل قسيسا ويقيم فى بيت متواضع فى ديفونشير النائية .

وسرعان ماشرع فى نظم قصائد تفيض بالتقى والورع ، بادئا بدعاء الغفران :

أما عن قصائدى الجافية للدين ، والتى كتبتها فى أيام طيشى
ومجونى ، عن كل جملة أو عبارة أو لفظة فيها ، لم يرد فيها
ذكرك ، يا إلهى ، فتجاوز عنها يارب ، وامح من كتابى كل
سطر لم تلهمنى فيه الصواب[٤٨] .

وفى ١٦٤٧ عزله البيوريتانيون من وظيفته . وتضور جوعا ، فى خضوع وولاء ، طوال الأيام السود فى حكم كرومول ، ولكنه عاد إلى أبرشيته بعودة الملكية ، ومات هناك ، وهو فى سن الرابعة والثمانين ، وضاعت كورنا فى زوايا النسيان .

ولم يعمر توماس كارو Carew مثلما عمر هرك ، ولكنه مثله ، وجد فسحة من الوقت للخليلات والمحظيات . وثمل كارو بالمفاتن التى تدق عن الوصف فى المرأة . فتغنى بها فى تفصيل جذل نشوان فى « نشوة ARapture » ، وفى ازدراء جرىء للطهر والعفة حتى أن الشعراء الآخرين عابوا عليه دقته الفاسقة . ولم يغفر البيوريتانيون لشارل الأول تعيينه فى المجلس الخاص . ولكن ربما تجاوز عن الموضوع من الناحية الشكلية . لقد اقتبس الشعراء فى أيام شارل كل الرقة والأناقة

الفرنسيتين فى شعر رونسار وبنات أطلس ليزوقوا بالفن الرشيق مجون الشهوات] وبعدها عن اللياقة والاحتشام .

وحظى سيرجون سكلنج Suckling بثروة طائلة فى حياته القصيرة التى لم تجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا . ولد فى ١٦٠٩ ، وورث فى الثامنة عشرة من عمره أموالا كثيرة . وطاف بأنحاء أوربا ليكمل دراسته ، وضمه شارل الأول إلى طائفة الفرسان ، وحارب تحت إمرة جوستافوس أدولفوس فى حرب الثلاثين عاما . وعاد إلى انجلترا (١٦٣٢) ، ليصبح بفضل وسامته وذكائه وثرائه الواسع من ذوى الحظوة فى البلاط الملكى . ويقول عنه أوبرى إنه « كان من أشجع أهل زمانه وأكثرهم شهامة وتودداً إلى النساء ، ومن أكبر المقامرين فى لعبة البولنج (اللعب بالكرات الخشبية) ولعب الورق . . . وقد تأتى أخواته إلى . . . ساحة اللعب ، تتعالى صيحاتهن وصراخهن خوفا من ضياع أنصبتهن فى القمار[٤٩] . » وابتدع نوعا من لعب الورق Cribbage (كريبج) . ولم يتزوج قط فى حياته . ولكنه صاحب « عددا كبيرا من السيدات ذوات المكانة » . وفى إحدى الحفلات أهدى السيدات جوارب حريرية . وكأنها حلوى ، ثم مضى الحفل فى بذخ هائل[٥٠] . وأخرجت روايته أجلورا Aglaura فى مناظر باذخة مسرفة ، دفع نفقاتها من جيبه الخاص ، وحشد قواته للقتال إلى جانب الملك ، وخاطر بحياته فى محاولة لانقاذ سير توماس ونتورث ارل سترافورد ، وزير الملك ، من السجن (فى برج لندن) . فلما أخفق هرب إلى القارة ، وهناك حين حرم من كل ثروته . تناول السم ومات .

كذلك خدم ريتشارد لفلاس Lovelace الملك فى الحرب والشعر معا ، كما كان أيضا ثريا وسيما . رآه أنتونى وود فى اكسفورد فقال عنه انه « ألطف وأجمل إنسان وقعت عليه عيناه »[٥١] وفى ١٦٤٢ رأس وفدا من كنت يلتمس من البرلمان الطويل (وكان مشيخيا لأمد قصير) ، إعادة الطقوس الأنجليكانية . ومن أجل هذه الجرأة فى التمسك بمعتقداته ، قضى فى السجن سبعة أسابيع . ولما جاءت معشوقته ألثيا Althea تزوره وتواسيه فى السجن ، خلدها بهذه الأبيات :

عندما يرفرف الحب بأجنحة طليقة حول الأبواب ، ويأتى
بملاكه الطاهر ألثيا تهمس من خلف القضبان . وعندما
أرقد متشابكا فى شعرها لاأحول بصرى عن عينيها ، فان
الطيور التى تسبح فى الهواء لاتعرف حرية مثل هذه .

إن بعض الجدران لاتصنع سجنا ، ولا تصنع بعض
القضبان قفصا ، لأن العقول البريئة الهادئة تتخذ من
هذا وذاك صومعة . وإذا كنت أنعم بالحرية فى حبى ، وإذا
كانت نفسى طليقة . فان الملائكة الذين يحلقون فى السماء
هم وحدهم الذين ينعمون بمثل هذه الحرية(٥٢) .

وخرج إلى الحرب ثانية فى ١٦٤٥ ، معتذرا إلى خطيبته (لوسى ساكفرل
Sacheverell) فى قصيدة : To Lucasta, Going to the Wars

لاتقولى ياعزيزتى انى قاس لاأرحم ، لأنى من معبد
صدرك الطاهر وبالك الخالى ، أطير إلى ساحة الحرب
وأمتشق الحسام . . . .
على أنك أنت نفسك سوف تقدسين مثل هذا التحول لأنى
لم أكن لأحبك ، إذا لم يكن الشرف أحب إلى منك(٥٣) .

وطبقا لأنباء كاذبة عن موته فى ساحة القتال تزوجت لوكاستا (لوسى الطاهرة)
من شخص آخر طلب يدها . ولما أن فقد لفلاس فتاة أحلامه وثروته فى سبيل
الدفاع عن الملكية ، ساءت أحواله إلى حد الاعتماد على إحسان أصدقائه وبرهم
ليقيم أوده . وبات هذا الذى كان يرفل فى ثياب موشاة بالفضة والذهب ، يرتدى
الآن أسمالا بالية ويأوى إلى الأكواخ . ومات من السل والهزال ١٦٥٨ ، وهو
فى سن الأربعين .

وكان من الممكن أن يتعلم لفلاس فن البقاء من ادموند وولر Waller الذى
نجح فى الاحتفاظ بنشاطه لمدة ستين عاما ، مماثلا جانبي الثورة الكبرى كليهما ،

وأصبح أكثر شعراء زمانه شعبية ، وعمر بعد ملتون ، ومات فى سريره ١٦٨٧ وهو فى سن الواحدة والثمانين . ودخل البرلمان فى السادسة عشرة من عمره ، وأصابته لوثة من الجنون فى سن الثالثة والعشرين ، ثم شفى وتزوج فى سن الخامسة والعشرين من سيدة فى لندن آلت إليها ثروة ضخمة ، وواراها التراب بعد ثلاث سنوات من زواجهما . وسرعان ماتودد إلى ساكاريسا (ليدى دوروثى سدنى) ، بأسلوب جديد لموضوع قديم .

اذهبى أيتها الوردة الجميلة ، وأبلغى هذه التى تضيع
وقتها وتضيعنى ، إنها الآن تعرف حق المعرفة أنى
إذ اشبهها بك ، كم تبدو هى جميلة فاتنة .
أبلغيها ، وهى فى ريعان الشباب ، وتتجنب أن يختلس
أحد النظر إلى مفاتنها ، أنك لو كنت (أيتها الوردة) ،
نشأت فى الصحراء ، حيث لايقطن إنسان ، لأصابك الذبول
دون أن يتغنى أحد بجمالك . . . .
ثم تفنى تلك التى نقرأ فيها المصير المشترك لكل ماهو
فذ نادر ، وما أقصر الأيام التى نقضيها مع ربات الحسن
الرائع والجمال المذهل .

وثمة شاعر آخر يكاد يكون من الشعراء الأقل شأنا يدخل فى زمرة شعراء هذه الحقبة ، وهو ريتشارد كراشو ، الذى امتلأ بالحماس الدينى أكثر مما أغرم بمتاع الدنيا . وكتب والده ، وهو من رجال الكنيسة الأنجليكانية ، مقالات ضد الكاثوليكية ، وملأ قلب ابنه بالمخاوف من البابوية . ولكن ريتشارد اعتنق الكاثوليكية ، وفصل من كمبردج (١٦٤٤) لمناصرته الملك ، فهرب من انجلترا إلى باريس . وهناك تعزى عن فقره « بتجليات الذات الإلهية » ، كان المتصوفة الأسبان فى نظره كشفا مقدسا عن النشوة الدينيةوالورع . وحين وقف أمام صورة للقديسة تريزا غبطها على ماظفرت به من اختراق سهم المسيح لقلبها ، وتوسل إليها أن تقبله تلميذا لها ، منكرا لذاته :

استحلفك بملء ملكوت هذه القبلة الأخيرة التى أمسكت
بروحك الطـــاهرة ، وختمتك ملكا للمسيح ، وبكل
السموات التى لك فيه (ياشقيقة الساروفيم الجميلة) ،
وبكل مانجده فيك من صفاته ، ألا تتركى فى شيئا من
نفسى ، وأن تدعينى أتأمل حياتك ، بحيث أموت عن
كل حياتى .

قدم كراشو للعالم هذه القصيدة وقصائد غيرها فى ديوانه« خطوات إلى المعبد » (١٦٤٦) ، وهى خليط متناقض يجمع بين النشوات الدينية والنزوات الشعرية : وإنا لندرك من خلال هـــذا الشاعر ، وشاعر آخر مثله متأخر عنه ، هو هنرى فوجـــان ، أنه فى تلك الأيام العصيبة المحمومة ، لم تكن انجلترا منقسمة إلى بيوريتانيين وكلفنيين ، بل وسط حرب الشعر واللاهوت ، وجدت بعض الأرواح أن الدين ليس كامنا فى الأضرحة الضخمة والطقوس المنومة ، ولا فى التعاليم الرهيبة والاختيار المرسوم بالكبرياء والزهو ، ولكن فى الاتصال البرىء الواثق ، للنفس الحائرة الخاشعة ، بالله الغفور الودود .

٦ — شارل الأول يواجه البرلمان ١٦٢٥ — ١٦٢٩

أى طراز من الرجال كان هذا الملك الذى كان على انجلترا بأسرها أن تقاتل من أجله ؟ وقبل أن تنتزع العاصفة كل آثار الرحمة والشفقة من قلبه ، كان رجلا فاضلا إلى حد معقول — كان ابنا عطوفا بارا ، وزوجا مخلصا بشكل غير عادى ، وصديقا وفيا ، وأبا يحبه أبناؤه حب العبادة ، وكان قد بدأ صراعه فى الحياة بعلة خلقية فى جسمه ، فلم يكن يستطيع المشى إلى أن بلغ السابعة من العمر . وتغلب على هذه العـــاهة بالدأب على ممارسة ألعاب قوية ، حتى استطاع فى سنى الشباب والنضج أن يتقن ركوب الخيل والصيد على أحسن وجه . وعانى من عجز عن النطق ، فكان حتى سن العاشرة لايكاد يستطيع الابانة فى كلامه . وفكر أبوه فى إجراء عملية له فى لسانه ، وتحسن شارل شيئا فشيئا ، ولكن ظل حتى آخر لحظة فى

حياته يتلعثم ، وكان عليه أن يتغلب على هذه العقبة بالتزام البطء فى الكلام(٥٤) .
وعندما قضى أخوه هنرى نحبه ، وكان محبوباً لدى الشعب ، وتركه الوريث الظاهر للعرش ، حامت الشبهات حول اشتراك شارل فى موته ، وكان اتهاماً ظالماً ، ولكنه أسهم فى اكتئاب الأمير وسوء حالته النفسية . فآثر العزلة المملة على المرح الصاخب والإدمان على الخمر فى بلاط والده . وبرع فى الرياضيات والموسيقى واللاهوت . وتعلم شيئاً من اليونانية واللاتينية ، وقليلا من الأسبانية . وأحب الفن ، فاحتفظ بمجموعة أخيه ، وزاد عليها ، فأصبح جامعاً للتحف مع التمييز بين الغث والثمين منها ، وراعياً كريماً للفنانين والشعراء والموسيقيين . ودعا إلى بلاطه الرسام الإيطالى أورازيو جنتلسكى ، ثم روبنز وفانديك وفرانس هالز ، ورفض هالز ، وجاء روبنز أساساً بوصفه سفيراً . ولكن العالم كله عرف شارل على أنه الملك المزهو الوسيم ، مع فنديك بلحيته ، وكم من لوحة للملك بريشة فانديك . واستمر وليم دوبسون ، تلميذ فانديك يصور الأسرة المالكة .

وأسهمت أبوة شارل وزواجه فى القضاء عليه . لقد ورث عن أبيه فكرته عن الحق المطلق للملك ، وسلطته فى سن القوانين وتنفيذها ، والحكم بلا برلمان ، وإلغاء القوانين التى يسنها البرلمان . وبدا أن هذه الفكرة تبررها السوابق ، وكانت قضية مسلماً بها فى فرنسا وأسبانيا ، وكان يشجع شارل على اعتناقها ، بكنجهام والحاشية والملكة جميعاً . نشأت هنريتا ماريا فى البلاط الفرنسى فى نفس الفترة التى كان فيها ريشيليو قد جعل من أخيها لويس الثالث عشر حاكماً مطلقاً مستبداً على فرنسا بأسرها ، فيما عدا ريشيليو نفسه . وقدمت الملكة إلى انجلترا ، وهى تجهر عنده بها الكاثوليكى ، مصطحبة معها فى ركب عرسها الكهنة الكاثوليك ، وزاد من تشددها فى التمسك بمذهبها ما رأت من العنت الذى يلاقيه الكاثوليك فى انجلترا . وتحلت الملكة بسحر الجمال والحيوية والذكاء ، وبكل نزوع آل مديتشى إلى الاشتغال بالسياسة . ولم يكن بد من أن تحث زوجها المخلص على التخفيف من آلام الكاثوليك فى انجلترا ، ولا ريب فى أنها كانت تحلم بتحويل الملك نفسه إلى الكثلكة . وأنجبت له ستة أطفال . ولابد أنه لقى عناء شديداً فى مقاومة رغبتها فى تنشئة

الأطفال على العقيدة الكاثوليكية . ولكنه كان قد انتهج نهجاً مخلصاً فى التمسك بالعقيدة الأنجليكانية . وتحقق أن بلاده ، انجلترا ، بروتستانتية إلى حد كبير ، معادية للبابوية التى تنذر بالأخطار .

فى ١٨ يونية ١٦٢٥ اجتمع أول برلمان فى عهد شارل : مائة من اللوردات — نبلاء وأساقفة — تمتعوا بعضوية مجلس اللوردات ، وخمسمائة رجل ثلاثة أرباعهم من البيوريتانيين[٥٥] ، انتخبوا لمجلس العموم ، بمختلف طرق الاحتيال المالى والسياسى[٥٦] ، ولم يزعم أحد بأنه كان ثمة ديمقراطية . ومن المحتمل أن مستوى الكفاية فى هذا البرلمان أعلى مما كان يمكن أن يأتى به اقتراع البالغين ، فقد ضم كوك وسلدن وبيم وسيرجون اليوت وسير توماس ونتورث . وغيرهم ، ممن خلد التاريخ ذكرهم . وزادت جملة ثروات أعضاء مجلس العموم على ثلاثة أمثال ثروات اللوردات[٥٧] . وتكشفت نزعة مجلس العموم فى مطالبته بتطبيق القوانين المعادية للكثلكة . وطلب الملك تخصيص أموال للنفقات الحكومية وللحرب مع أسبانيا ، فاعتمد المجلس مبلغ ١٤٠ ألف جنيه (٧ ملايين دولار ؟) ، وتعمد أن يكون هذا المبلغ غير كاف ، فإن الأسطول وحده كان يتطلب ضعف هذا المبلغ . وجرى العمل لمدة قرنين من الزمان ، على منح الملوك الإنجليز طيلة مدة حكمهم . حق فرض رسوم على الصادرات والواردات ، وكانت عادة شلنين أو ثلاثة شلنات عن كل برميل كبير Tun (وحدة سعة٢٥٢جالوناً عادة) ومن ستة إلى إثنا عشر بنساً لكل باوند . ولكن القانون الذى سنه البرلمان آنذاك « Tonnage and Poundage » سمح للملك بممارسة هذا الحق لمدة عام واحد فقط . واحتج بأن الاعتمادات السابقة كانت حاشية الملك جيمس تبددها فى إسراف وتبذير . كما شكا من أن الضرائب كانت تفرض دون موافقته ، وتقرر منذ الآن أنه لابد من دعوة البرلمان سنوياً ليفحص كل عام مصروفات الحكومة . واستاء شارل من هذه التدابير والنيات . ولما باتت لندن مهددة بالطاعون ، اتخذ من ذلك ذريعة لحل البرلمان فى ١٢ أغسطس ١٦٢٥ .

كان بكنجهام يقبض آنذاك على زمام الأمور فى الحكومة ، فإن شارل لم يرث عن أبيه الدوق اللطيف المستهتر فقط ، بل إنه كان كذلك قد تربى فى أحضانه ، ورافقه فى أسفاره ، فى صحبة كان من الصعب معها على الملك (شارل) أن يرى فى صديقه مستشاراً غير حكيم يجر عليه الكوارث . وكان بكنجهام ، بتأييد من البرلمان ، قد دفع جيمس إلى الحرب مع أسبانيا ، أما الآن فقد رفض البرلمان اعتماد الأموال اللازمة للحرب . وجهز الدوق أسطولا ضخماً ليقلع ويهاجم البضائع والثغور الأسبانية ويسلبها ، ولكنه أخفق إخفاقاً تاماً ، أما الجنود العائدون ، الذين لم يتسلموا رواتبهم ، والذين ساءت روحهم المعنوية ، فقد أعملوا السلب والنهب ونشروا الروح الانهزامية فى المدن الساحلية الإنجليزية .

ولما اشتدت حاجة شارل إلى المال ، راض نفسه على دعوة برلمانه الثانى ، وقويت المعارضة باشتداد حاجة الملك . وحذره مجلس العموم من فرض الضرائب دون إقرار البرلمان لها . ووصم اليوت الدوق (وكانا يوماً صديقين) بأنه رجل فاسد عاجز ازداد ثراء كلما أخفقت استراتيجية البلد أو سياستها . وعين البرلمان لجنة لمساءلة بكنجهام . فأنبه الملك قائلا : « أنا لا أسمح بأن يحقق المجلس مع خدمى ، فما بالكم برجل قريب منى إلى هذا الحد . » فأشار اليوت على المجلس بوقف أية اعتمادات حتى يسلم الملك بحق البرلمان فى إسقاط أى وزير ، وذكر شارل البرلمان غاضباً ، بأن فى مقدوره أن يفضه فى أية لحظة ، فرد المجلس على ذلك بمحاكمة بكنجهام رسمياً — متهمين إياه بالخيانة ومطالبين بعزله عن منصبه (٨ مايو ١٦٢٦) وأبلغ الملك بأنه لن يقر أية اعتمادات ، حتى يتم ذلك . فحل الملك البرلمان فى ١٥ يونيه ، وترك البت فى موضوع المسئولية الوزارية للمستقبل .

وبات شارل مرة أخرى معوزاً فى مسيس الحاجة إلى المال ، وبيع مقدار كبير من الصحاف الملكية الفضية والذهبية . وطلب إلى البلاد بأسرها أن تبعث بالهبات والهدايا للملك ، ولكن ما جمع منها كان يسيراً ، فإن الثروات البريطانية كانت تناصر البرلمان ، وأمر شارل أعوانه أن يجمعوا رسوم الصادرات والواردات سالفة الذكر . برغم عدم حصوله على موافقة البرلمان ، وأن يستولوا على بضائع التجار

الذين يعجزون عن الدفع . وأمر الثغور بالانفاق على الاسطول ، وأمر وكلاءه يسوق الرجال إلى الخدمة العسكرية عنوة . وهزم رجال الامبراطور القوات الانجليزية الدنمركية التى كانت تقاتل من أجل البروتستانتية فى ألمانيا شر هزيمة . فطالب الدنمركيون حلفاء انجلترا بالمعونة التى كانت وعدتهم بها . وأمر شارل بعقد قرض إجبارى — فكان على كل دافع ضرائب أن يقرض الحكومة ١ ٪ من قيمة أرضه و ٥ ٪ من ثمن ممتلكاته الشخصية . وأودع الخصوم الأثرياء السجون ، وسيق المعارضون الفقراء إلى الجيش أو البحرية . وفى نفس الوقت حمل التجار البريطانيون المؤن والذخيرة إلى بوردوو لاروشيل للهيجونوت المشتبكين فى حرب مع ريشيليو . فأعلنت فرنسا الحرب على انجلترا (١٦٢٧) ، وقاد بكنجهام أسطولا لمهاجمة الفرنسيين فى لا روشيل ، ولكن الحملة أخفقت . وسرعان مانفد المبلغ الذى جمع من القرض وقدره ٢٠٠ ألف جنيه . وبات شارل مرة أخرى على شفا الافلاس ، فدعا برلمانه الثالث .

اجتمع البرلمان فى ١٧ مارس ١٦٢٨ ، وأعيد كوك واليوت وونتورث وجون هامدن . وأرسلت مدينة هنتنجدون لأول مرة أحد ملاك الأرض الأقوياء الشكيمة ممثلا عنها ، هو أوليفر كرومويل . وفى خطاب العرش طالب شارل بالاعتمادات متجهما ، ثم قال فى وقاحة وبغير اكتراث : « لا تأخذوا هذا على أنه تهديد ، فانى احتقر أن أهدد إلا من هم أنداد لى[٥٨] واقترح البرلمان اعتماد مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه ، ولكن قبل التصويت على ذلك ، طلب موافقة الملك على « ملتمس الحقوق » (١٨ مايو ١٦٢٨) الذى أصبح أحد المعالم التاريخية فى الطريق إلى « سيادة البرلمان » :

إلى صاحب الجلالة الملك المعظم

إننا فى خشوع واحتشام نعرض على مليكنا وسيدنا . . . أنه من حيث أنه قد أعلن وطبق بقانون . . . . من ادوارد الأول ، أنه لا ضريبة ولا معونة يمكن أن توضع أو تفرض ،

> بغير الارادة الخالصة لرؤساء الأساقفة والأساقفة وكل ارل وكل بارون وكل فارس ، وممثلى المدن والجامعات والأحرار من العامة . وورث رعاياك هذه الحرية ،أى أنهم لا يجبرون على الاسهام فى أية ضريبة أو رســوم أو معونة أو أى تكليف آخر من هذا القبيل ، لا يكون قد وضع بموافقة البرلمان موافقة عامة .

ومضى « الملتمس » يحتج على القروض الاجبارية ، وإهدار الملك لحق الفرد فى التحقيق فى قانونية الاعتقال ، وحق المحاكمة أمام المحلفين كما وردا فى « العهد الأعظم ١٢١٥ » . وقال كوك : « إننا سنعرف عن طريق هذا الملتمس ما إذا كتب للبرلمان أن يحيا أو يندثر » . ووافق شارل على الملتمس موافقة غامضة ملتوية ، وطالب البرلمـــان برد أكثر صراحة ووضوحا . وظل على موقفه من وقف الاعتقادات . فوافق الملك موافقة رسمية أو شكلية . وأحست لندن بأهمية هذا الاستسلام ومغزاه ، وقرعت النواقيس بشكل لم يسمع له مثيل لعدة سنوات من قبل .

وخطا البرلمان خطوة أخرى ، فطالب الملك بعزل بكنجهام ولكنه رفض ، وفجأة روع الطرفان حين وجــد أن هذه المشكلة خرجت من أيديهما . ذلك أن جون فلتون — وهو محارب قديم جريح أثقلته الديون ، غاضباً من أجل متأخرات معاشه ، متأثرا أشد التأثر بالنشرات — اشترى سكين جزار ، ومشى ستين ميلا من لندن إلى بورتسموث ، وغمس السكين فى صدر بكنجهام ، وسلم نفسه للسلطات (٢٣ أغسطس ١٦٢٨) . وانهارت أمام الجثة زوجة بكنجهام التى كانت على وشك الوضع ، واستولى الشعور بالندم على فلتون فأرسل إليها باعتذاراته وطلب منها الصفح ، فأجابته إلى طلبه . ولكنه أعدم دون تعذيب .

وحذر البرلمان الملك بأن استمراره فى تحصيل رسوم الصادرات والواردات إهدار لملتمس الحقوق ، فأجاب شارل بأن مثل هذه الرسوم لم يرد ذكرها فى الوثيقة ، فشجع البرلمان التجار على الامتناع عن دفعها[٥٩] وتوكيدا لحق البرلمان

فى سن التشريع الدينى ، برغم سيادة الملك الدينية ، نادى بكلفنية صارمة ، وبتفسير مضاد لآراء أرمينيوس* للمواد التسع والثلاثين باعتبارها قانون انجلترا ، واقترح ، استنادا إلى السلطة المخولة له ، فرض الخضوع للكنيسة الانجليزية على هذا الأساس ، وفرض العقوبات على الكاثوليك والأرمينيين على حد سواء[٦٠] . فأمر الملك بفض البرلمان ، وغادر رئيسه مقعد الرياسة امتثالا لهذا الأمر ، ولكن المجلس أبى أن يفض الاجتماع ، وأرغم رئيسه على العودة إلى كرسيه . نحن الآن فى ٢ مارس ١٦٢٩ حيث قدم جون اليوت ثلاثة قرارات تنص على أن تكون جريمة كبرى عقوبتها الاعدام : إدخال المذاهب البابوية أو الأرمينية أو أية أفكار أخرى تخالف تعاليم الكنيسة القويمة الصحيحة ، والاشارة أو الاشتراك بأى شكل من الأشكال فى جمع رسوم الصادر والوارد التى لم يقرها البرلمان ، ودفع مثل هذه الضرائب غير المعتمدة . ورفض رئيس المجلس أخذ الرأى على هذه الاقتراحات . فقام أحد الأعضاء بهذه العملية ، وقابلها المجلس بالهتاف والتصفيق وأقرها . ومذ علم أعضاء المجلس بأن جنود الملك على وشك الدخول إلى قاعة المجلس وطردهم ، فانهم قرروا فض اجتماعهم ، وانصرفوا .

وفى مارس أمر شارل بسجن اليوت وسلدن وسبعة أعضاء آخرين بتهمة إثارة الفتنة . وسرعان ما أطلق سراح ستة منهم ، وحكم على الثلاثة الباقين بغرامات فادحة وبالسجن لمدد طويلة ، ومات اليوت فى السجن وهو فى سن الثامنة والثلاثين (١٦٢٢) .

٧ — شارل حاكم مطلق : ١٦٢٩ — ١٦٤٠

ومضت إحدى عشرة سنة — وهى أطول فترة من نوعها فى تاريخ انجلترا لم يجتمع فيها البرلمان . وبات شارل آنذاك حرا فى أن يكون حاكما مطلقا . إنه من الوجهة النظرية لم يطالب بأكثر مما ذهب إليه جيمس واليزابث وهنرى الثامن ،

(*) جاكوب أرمينيوس (١٥٦٠ — ١٦٠٩) — وهو لاهوتى هولندى بروتستانتى عارض آراء كلفن ، فى القضاء والقدر وحرية الارادة والخلاص .

ولكنه من الوجهة العملية ذهب إلى أكثر مما ذهبوا إليه ، لأنهم لم يبلغوا بسلطات الملك وحقوقه قريبا من حد التوتر والانفجار كما كان يفعل شارل ، بفرض الضرائب غير المقررة ، وعقد القروض الاجبارية ، وإيواء الجنود لدى المواطنين ، وإجراء الاعتقالات التعسفية ، وإنكار حق المسجونين فى طلب التحقيق فى أمر حبسهم وفى المحاكمة أمام المحلفين ، وتشجيع طغيان محكمة « قاعة المنجم » ، ومحكمة اللجنة العليا وقساوتهما ، الأولى فى المحاكمات السياسية ، والثانية فى القضايا الكنسية ؛ ولكن غلطة شارل الأساسية هى عجزه عن أن يدرك أن الثروة التى يمثلها مجلس العموم أعظم كثيرا من الثورة التى يسيطر عليها الملك أو الثروة الموالية له ، وأن سلطة البرلمان لابد أن تزداد تبعا لذلك .

وفى أثناء هذه الأزمة ، وقبل أن تستنزف دماء الأمة ، ازدهر الاقتصاد ، لأن شارل — مثل والده — كان رجل سلام ، وأبقى انجلترا بعيدة عن الحرب طيلة معظم حكمه ، على حين أرهق ريشيليو فرنسا ، كما أصبحت ألمانيا خرابا بلقعا . وبذل الملك المنهوك أقصى الجهد فى التخفيف من التركيز الطبيعى للثروة . فأمر بوقف المساحات المسورة وألغى ما أقيم منها فى خمس مقاطعات داخلية بين عامى ١٦٢٥ و ١٦٣٠ ، وفرض غرامات على ٦٠٠ من ملاك الأرض المتمردين[٦١] وأمر برفع أجور عمال النسيج فى ١٦٢٩ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٧ ، وأمر قضاة الصلح بفرض رقابة أدق على الأسعار . وعين لجانا لحماية مستوى الأجور ، والاشراف على إعانة الفقراء . وخلق لود لنفسه أعداء جددا ، بتحذيره أرباب العمل من « إذلال الفقراء واضطرارهم إلى إراقة ماء وجوههم[٦٢] » ولكن فى نفس الوقت منحت الحكومة الاحتكارات فى الملح والصابون والنشا والبيرة والنبيذ والجلود ، وأفادت منها . واحتفظت لنفسها باحتكار الفحم . فكانت تشتريه بأحد عشر شلنا للعبوة ، وتبيعه بسبعة عشر فى الصيف وتسعة عشر فى الشتاء[٦٣] . وتلك أيضا احتكارات أرهقت الفقراء إلى أبعد حد ، وهاجر إلى انجلترا الجديدة أكثر من ٢٠ ألفا من البيوريتانيين .

ودفع شارل بأنه كان لابد له من إيجاد وسيلة لتغطية نفقات الحكومة . وفى

١٦٣٤ حاول محاولة مشئومة : فرض ضريبة جديدة . ذلك أن السوابق جرت من قديم على مطالبة المدن الساحلية بأن تمد الأسطول بالسفن اللازمة له زمن الحرب ، مقابل حمايته لها ، أو أن تدفع ، بدلا من ذلك ، « مال السفن » للحكومة لتنفق منه على الأسطول . ولكن شارل الآن ، ونحن فى ١٦٣٥ ، فرض « ضريبة السفن » هذه ، وبغير سابقة ، على كل انجلترا بأسرها فى زمن السلم ، متذرعاً (وهذا حق تماماً) بالحاجة إلى إعادة بناء البحرية الحربة ، استعداداً للطوارى ، ولتتولى حماية التجارة البريطانية ضد قراصنة القنال الإنجليزى . وعارض الكثيرون هذه الضريبة الجديدة ، ورفض جون هامدن دفعها ، اختباراً لمشروعيتها ، فأودع السجن ثم أطلق سراحه . وكان بيوريتانياً موسراً من بكنجهامشير . قال عنه أحد أنصار الملكية — كلارندن ، إنه ليس من مثيرى الفتن بل إنه رجل هادىء « يتميز برزانة ودقة غير عاديتين[٦٤] » . أخفى صلابته فى كياسته ومجاملته ، وأخفى زعامته فى تواضعه .

وتأخرت محاكمة هامدن طويلا ، ولكن أخيراً بدىء بنظر القضية فى نوفمبر ١٦٣٧ ، وأورد محامو التاج سوابق "ضريبة السفن" وقالوا بأن للملك فى ساعة الخطر الحق فى أن يطلب المعونة المالية دون انتظار لانعقاد البرلمان . فأجاب محامو هامدن بأنه لم يكن ثمة ضرورة ماسة تقتضى العجلة ، و حالة طوارىء . وأنه كانت هناك فسحة من الوقت لدعوة البرلمان ، ثم أن فرض الضريبة انتهك ملتمس الحقوق الذى قبله الملك . وصدر الحكم لمصلحة التاج بأغلبية سبعة ضد خمسة من القضاة ، ولكن الرأى العام ساند هامدن ، وارتاب فى نزاهة القضاة الذين هم عرضة لانتقام الملك . وسرعان ما أطلق سراح هامدن . واستمر شارل حتى ١٦٣٩ يجمع ضريبة السفن . واستخدم الجزء الأكبر منها فى بناء البحرية التى قاتلت الهولنديين وانتصرت عليهم فى ١٦٥٢ .

وفى الوقت نفسه جاوزت أخطاء الملك الجسام انجلترا إلى اسكتلنده ، فإنه أزعج المشيخيين الاسكتلنديين بزواجه من كاثوليكية ، ومده سلطان الأساقفة على

كنائسهم . وروع نصف الأشراف « بقانون الإلغاء » (١٦٢٥) الذى يقضى بالغاء كل ما منح من أراضى التاج أو الكنيسة منذ ارتقاء مارى ستيوارت إلى العرش . وعين خمسة من الأساقفة ورئيساً للأساقفة أعضاء فى المجلس المخصوص فى اسكتلنده ، ثم عين هذا الأخير وهو جون سبوتيزود Spottizwoode قاضياً للقضاة — وهو أول رجل من رجال الكنيسة يعين فى هذا المنصب منذ عهد الإصلاح الدينى . ثم إنه لما قدم ، بعد إبطاء أو تمهل مثير ، إلى اسكتلنده ليتوج عليها (١٦٣٣) ، سمح للأساقفة بإجراء الطقوس التى تكاد تكون فى معظمها مراسم كاثوليكية فى الكنيسة الأنجليكانية — الملابس والشموع والمذبح والصليب . ولما كان الأساقفة الإسكتلنديون قد وطدوا العزم على فرض سلطانهم على المشيخيات ، فانهم وضعوا مجموعة من القواعد الطقسية التى صارت تعرف — باسم " قوانين لود " ، وقد أولت هذه القوانين الملك سلطة كاملة فى الفصل فى قضايا الكنيسة ، وحرمت اجتماع رجال الدين إلا بدعوة من الملك ، وقصرت حق القيام بالتدريس على من يجيزهم الأسقف ، ونصت على ألا يرسم قسيساً إلا من يرتضى هذه القوانين[٦٥] . وأقر شارل هذه القوانين وأمر باعلانها فى كل كنائس اسكتلنده . واحتج القساوسة المشيخيون على أن نصف الإصلاح الدينى بهذه الطريقة قد نسف ، وحذروا من أن شارل يمهد لإخضاع بريطانيا لرومه . وثارت ثائرة الجمهور فى كنيسة سانت جيل فى إدنبرة عند محاولة إقامة الشعائر على الشكل الجديد ، وقذف بالعصى والحجارة الكاهن الذى تولى إقامة الشعائر ، وطوحت جنى جدز Jenny Geddes بكرسيها فى رأسه صارخة " أيها اللص القذر ، هل أنت الذى ستتلو القداس ؟ [٦٦] " وانهالت الظلامات والالتماسات على شارل من كل الطبقات تطالب بالغاء " القوانين الكنسية " السابق ذكرها . فكان جوابه أنه دمغ هذه الملتمسات بالخيانة . وبدأت إسكتلنده الثورة ضد الملك .

وفى ٢٨ فبراير ١٦٣٨ وقع ممثلو الكنيسة الإسكتلندية وسواد الناس فى إدنبره " الميثاق الوطنى " يؤكدون فيه من جديد مذهب المشيخية وطقوسها ، ويرفضون القوانين الجديدة ، وينذرون أنفسهم للدفاع عن التاج وعن " العقيدة الصحيحة " .

وبتحريض من القساوسة أيدت إسكتلنده كلها تقريباً هذا الميثاق . وهرب سبوتزوود وكل الأساقفة فيماعدا أربعة ، إلى انجلترا . وطردت الجمعية العامة للكنيسة الإسكتلندية فى جلاسجو كل الأساقفة ، وأعلنت استقلالها عن الحكومة . وأرسل الملك أوامره بفض الاجتماع ، وإلا وجهت إلى المشتركين فيه تهمة الخيانة . ولكنهم واصلوا عقد جلساتهم . وحشد الملك جيشاً قوامه ٢١ ألف جندى تعوزهم الحماسة ، ساربه إلى إسكتلنده ، على حين جمع " الميثاقيون " قوة من ٢٦ ألف رجل ألهبهم الحماس الدينى والغيرة الوطنية . وعندما تلاقى الجمعان وافق شارل على عرض القضية على برلمان إسكتلندى حر وجمعية غير مقيدة من الكنيسة الإسكتلندية ، ووقعت الهدنة فى بروك Berwick فى ١٨ يونية ١٦٣٩ وبذلك انتهت « حرب الأساقفة الأولى » دون إراقة دماء . ولكن الجمعية الجديدة انعقدت فى إدنبره فى ١٢ أغسطس ١٦٣٩ ، وأكدت القرارات " الخائنة " التى اتخذت فى مؤتمر جلاسجو ، وصدق البرلمان الإسكتلندى على قرارات الجمعية . واستعد الطرفان " لحرب الأساقفة الثانية " .

ودعا الملك للوقوف إلى جانبه ، فى هذه الأزمة ، رجلا ثابت العزم كامل المزايا (وكانت هذه الكلمة شعاره) بقدر ما كان الملك متردداً عاجزاً . وكان توماس ونتورث Wentworth قد وصل إلى مقاعد البرلمان وهو فى سن الحادية والعشرين (١٦١٤) ،وكان غالباً ما يصوت ضد الملك . وكسبه شارل إلى جانبه بتعيينه رئيساً «لمجلس الشمال " ، وكافأه على نشاطه فى تنفيذ سياسة الملك بضمه إلى مجلس شورى الملك وبعث به نائباً للملك فى إيرلنده (١٦٣٢) حيث أخمدت الثورة هناك سياسته " البارعة " التى ارتكزت على كفاية مجردة من الرحمة ، وأقامت سلاماً مشوباً بالغضب . وفى ١٦٣٩ عين ارل سترافورد ورئيساً لمستشارى شارل . ونصح الملك بحشد جيش كبير ، لقمع " الميثاقيين " ومواجهة البرلمان المتمرد بقوة لا قبل له بمقاومتها . ولكن الجيش الكبير يتطلب اعتمادات من العسير تدبيرها بدون البرلمان . فدعا ، على كره منه ، برلمانه الرابع ، فلما اجتمع هذا " البرلمان القصير " (١٣ أبريل ١٦٤٠) عرض عليه الملك رسالة ضبطت ، التمس فيها الميثاقيون نجدة لويس الثالث عشر(٦٧) . واحتج الملك بأن له الحق ؛ إزاء مثل هذه الخيانة ؛

فى أن يحشد جيشا ، واتصل جون بيم سرا بالميثاقيين ، وقرر أن مشكلاتهم مماثلة لقضية البرلمان ضد الملك ، وحرض البرلمان على منع المعونات المالية عن الملك ، وعلى التحالف مع الاسكتلنديين . فحل شارل البرلمان القصير بتهمة الخيانة (٥مايو ١٦٤٠) . واندلعت الفتنة فى لندن ، وهاجم الرعاع قصر رئيس الأساقفة لود ، فلما لم يجدوه قتلوا كاثوليكيا رفض الصلاة البروتستانتية[٦٨] .

وسار شارل إلى الشمال بجيش جمع ارتجالا ، وتقدم الاسكتلنديون نحو الحدود وهزموا الانجليز (٢٠ أغسطس ١٦٤٠) واستولوا على شمال انجلترا . ووافق الملك البائس على دفع ٨٥٠ جنيها يوميا حتى يتم التوصل إلى معاهدة مرضية ، ولكنه عجز عن الدفع ، وبقى الجيش الاسكلندى حول نيوكاسل ، بوصفه حليفا حاسما للبرلمان الانجليزى فى حربه ضد المالك . فدعا شارل ، وقد تولاه اليأس والذهول والحيرة ، مجلسا من النبلاء للاجتماع به فى يورك . فنصحوه بأن سلطانه بات على شفا الانهيار ، وأنه لابد له من تسوية مع أعدائه . وللمرة الأخيرة دعا الملك البرلمان ، وهو أطول البرلمانات وأشـــدها حسما وأكثرها شؤما فى تاريخ انجلترا .

٨ — البرلمان الطويل

اجتمع البرلمان فى وستمنستر فى ٣ نوفمبر ١٦٤٠ . وكان مجلس العموم يضم نحو ٥٠٠ عضوهم « زهرة الطبقة العليا والعامة المتعلمين . . . . مجلس ارستقراطى لا شعبى[٦٩] » ، يمثلون ثروة انجلترا أكثر مما يمثلون شعبها ، ولكنهم يناضلون من أجل المستقبل ضد الماضى . وأعيدت أغلبية أعضاء البرلمان القصير ، متحفزين للانتقام . وتبوأ سلدن وهامدن وبيم أماكنهم من جديد . وكان كرومول رجلا مرموقا ، ولو أنه لم يرق إلى الزعامة بعد .

وإنه ليتعذر ، على بعد الشقة ، أن نصور كرومول تصويرا موضوعيا . فان المؤرخين منذ ظهر حتى اليوم ، يصفونه بأنه منافق طموح[٧٠] ، أو قديس سياسى[٧١] . . . . إنه شخصية متناقضة ، ربما جمع — وربما وفق فى بعض

الأحيان — فى خلقه بين الصفات المتعارضة التى أدت إلى اختلاف الناس فى تقديرهم له . وهذا هو مفتاح سيرة كروموبل .

كان كروموبل من ملاك الأرض من غير ذوى الحسب والنسب . الذين لم يتمتعوا ببريق الوظائف الحكومية ، ولو أنه أسهم عن غير طيب نفس فى الانفاق عليها . ومع ذلك فانه كان له أسلافه . فكان والده روبرت كروموبل يملك ضيعة متواضعة فى هنتنجدون تدر ٣٠٠ جنيه فى العام . وكان جده الأكبر ريتشارد وليامز ابن أخى توماس كروموبل أحد قساوسة هنرى الثامن ، فغير اسمه إلى كروموبل ، وحصل بوصفه كاهنا ، أو من الملك ، على شيء من الضياع والموارد المصادرة من الكنيسة الكاثوليكية (٧٢) ، وكان أوليفر واحداً من بين عشرة أطفـال ، وهو الوحيد الذى عمر ، على حين مات الباقون فى سن الطفولة وكان معلمه فى المدرسة الثانوية واعظا متحمساً ، كتب رسالة يثبت فيها أن البابا عدو المسيح ، وأخرى يعدد فيها العقوبات الالهية للخطائين المعروفين بسوء السمعة . والتحق أوليفر (١٦١٦) بكلية سدنى سسكس فى كمبردج ، وكان ناظرها صمويل وارد الذى مات فى السجن (١٦٤٣) لاتخاذه موقفا بيوريتانيا عنيدا ضـد بدع لود و « إعلان الألعاب » الذى أصدره شارل . والظاهر أن أوليفر ترك كمبردج قبل التخرج . وأخيرا فى ١٦٣٨ اتهم نفسه بمقارفة شيء من طيش الشباب ونزقه :

> تعلمون أية حياة كنت أعيشها . آه لقد عشت فى ظلام محبب إلى نفسى ، وكرهت النور . كنت زعـيما ، ولـكن زعيم الخطائين الآثمين . إن هذا حق : كان التقى بغيضا إلى قلبى ، ولـكن الله حبانى رحمته ، آه ببركات رحمته سبحانه ، احمدوه واشكروه وأثنوا عليه من أجلى — وتوجهوا إليه من أجلى بالدعاء ، لعل من أسدى هـذا الصنيع الجليل أن يتمه يوم المسيح ، أو يوم الحساب (٧٣) .

ومارس كروموبل كل ضروب الندم ، وانتابه هذيان الموت وكل مظاهر القلق العقلى ، مما بقى معه مكتئبا باستمرار ، وتحدث بقية حياته بأسلوب الورع البيوريتانى .

ثم استقر وتزوج وأنجب تسعة أطفال ، وأصبح مواطناً نموذجياً ، إلى حد أنه في ١٦٢٨ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، انتخب ليمثل هنتنجدون في البرلمان . وباع ممتلكاته في هنتنجدون بمبلغ ١٨٠٠ جنيه (١٦٣١) وانتقل إلى سانت إيف St. Ives ، ثم بعدها إلى Ely . وعندما أعادته كمبردج إلى البرلمان (١٦٤٠) وصفه عضو آخر بقوله : " يرتدي بشكل عادي جداً حلة من قماش بسيط . . . . ولم تكن ملابسه الداخلية نظيفة كل النظافة . . تلطخ ياقته الصغيرة بقعة أو بقعتان من الدم " . . وكان وجهه منتفخاً يميل إلى الحمرة ، وصوته حاداً مجرداً من التناغم — وكان طبعه منتقداً إلى حد بعيد ، ولكن مع القدرة على ضبط النفس(٧٤) ، — وكان يتحين الفرصة الملائمة ، ويخاطب الرب . وكان له قوة عشر رجال . ومهما يكن من أمر ، فان الله حتى هذه اللحظة ، اصطفى أدوات أخرى .

إن جون بيم هو الذي كشف عن الغضب الذي ساد البرلمان باتهامه سترافورد بأنه يناصر البابوية سراً ، وأنه يدبر قدوم جيش من إيرلنده للإطاحة بالبرلمان ، و « تغيير القانون والديانة(٧٥) » . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اتهم مجلس العموم إرل سترافورد ، حيث لم يغفر له المجلس قط تخليه عن الملك — بالخيانة وأمر بايداعه السجن . وفي ١٦ ديسمبر ، وبعد أن أعلن المجلس أن القوانين الأنجليكانية الجديدة باطلة قانوناً ، اتهم رئيس الأساقفة لود « بالكثلكة » والخيانة ، وأمر بايداعه السجن كذلك ، واعترف سلدن فيما بعد بقوله : « إننا نعلم أنهم لم يرتكبوا جريمة من هذا القبيل(٧٦) » . أما شارل فقد أصابه الذهول والحيرة إزاء هذه الخطوات العنيدة القاسية ، إلى حد أنه لم يتخذ أي إجراء لحماية معاونيه . وبررت الملكة مخاوف البرلمان حين طابت إلى كاهن الاعتراف الخاص بها أن يلتمس العون من البابا(٧٧) .

وعادت موجة التأثر والانفعال لدى الفريقين كليهما . وظهر بين المتطرفين في لندن حزب Roota nd Branch (استئصال الأصل والفرع) — وكان يضم ملتون — وتقدم إلى البرلمان بملتمس يطلب فيه إلغاء الحكومة الأسقفية ، واستعادة حكومة الكنيسة إلى الشعب ، ويستنكر فيه ما يقول به بعض الأساقفة من « أن البابا ليس

عدو المسيح ، وأن الخلاص يمكن تحقيقه فى العقيدة الكاثوليكية[٧٨] » . ورفض المجلس هذا الملتمس . ولكنه أقر تحريم ممارسة الأعمال التشريعية والقضائية على رجال الكنيسة . ووافق اللوردات شريطة احتفاظ الأساقفة بمقاعدهم فى مجلس اللوردات . وهذا ، على أية حال ، هو ما كان يريده بالضبط أعضاء مجلس العموم ، لأنهم توقعوا أن الأساقفة فى مجلس اللوردات سوف يصوتون دائماً إلى جانب الملك . وزاد النار اشتعالا ، تلك النشرات التى انهالت ، دفاعاً عن حكومة الأساقفة أو هجوماً عليها . ذهب الأسقف جوزيف هول إلى أن لحكومة الأساقفة حقاً إلهياً ، على أن الرسل ، أو المسيح ، هم الذين أسسوها . فرد عليه خمسة من المعلقين المشيخيين ، فى نشرة مشهورة ممهورة باسم مستعار Smectymnuus مكون من الأحرف الأولى لأسمائهم . وأعقبها خمس هجمات عنيفة شنها ملتون . وفى ١٧ مايو ١٦٤١ عاد كرومويل فاقترح إلغاء حكومة الأساقفة إلغاء تاماً . وأقر مجلس العموم المشروع ورفضه مجلس اللوردات . وفى أول سبتمبر قرر أن تزال من كل الكنائس الإنجليزية كل " الصور الخليعة " وأن يمنع فى " يوم الرب " (يوم الأحد) الرقص والألعاب الأخرى . واجتاحت انجلترا موجة أخرى من تحطيم الصور المقدسة والقضاء على المعتقدات التقليدية ، فأزيلت أسيجة المذبح وأستاره ، وحطمت النوافذ ذات الزجاج الملون ، ومزقت الصور إرباً[٧٩] . وعاد مجلس العموم فأقر مشروعاً بإقصاء الأساقفة فى ٢٣ أكتوبر . فأهاب الملك باللوردات ، معلناً أنه قرر الاستشهاد فى سبيل المحافظة على مبدأ الكنيسة الأنجليكانية ونظامها ، وقد كان . وضمن تدخله عدم إقرار المشروع . ولكن الجموع المعادية منعت الأساقفة من دخول البرلمان . ووقع إثنا عشر منهم احتجاجاً أعلنوا فيه أن أى تشريع يقر فى غيبتهم يعتبر باطلا عقيما . فأدانهم البرلمان وأودعهم فى السجن . وأخيراً أقر مجلس اللوردات قانون إقصاء الأساقفة (٥ فبراير ١٦٤٢) . ولم يعد الأساقفة يتخذون مقاعدهم فى البرلمان .

وتابع مجلس العموم تدعيم سلطانه ، فاقترض من مدينة لندن المال اللازم لتغطية نفقاته . وأقر مشروعات قوانين تنص على أن تكون مدة البرلمان ثلاث

سنوات ، وتحرم حل أى برلمان قبل مضى خمسين يوماً من بدء اجتماعه ، وحل البرلمان الحالى دون موافقته . وأصلح نظام الضرائب والقضاء . وألغى محكمة قاعة النجم ومحكمة اللجنة العليا . وقضى على الاحتكارات وعلى ضريبة السفن . وألغى الحكم الصادر ضد هامدن : ومنع الملك حق جمع رسوم الصادرات والواردات ، إلا لفترات يحددها البرلمان وحده . ووافق شارل على هذه الإجراءات ، ولكن البرلمان جاوز الإصلاح إلى الثورة .

وفى مارس ١٦٤١ قدم المجلس ارل سترافورد إلى المحاكمة ، وأدانه بتهمة الخيانة ، وأرسل الحكم إلى الملك لتوقيعه . وخلافاً لما نصح به لود ، شخص شارل إلى مجلس اللوردات ، وأعلن أنه على الرغم من استعداده لعزل سترافورد من منصبه ، فإنه لن يوافق قط على إدانته بالخيانة . فأعان أعضاء مجلس العموم أن فى حضور الملك انتهاكاً لحرمة البرلمان وإهداراً لحريته وفى اليوم التالى تجمعت « حشود ضخمة حول مجلس اللوردات وقصر الملك وهى تهتف « العدالة ، العدالة » : وتطالب باعدام سترافورد . وتوسل مجلس الشورى الذى تولاه الجزع ، إلى الملك أن يذعن ، فأبى . وضم رئيس أساقفة يورك رجاءه لى رجائهم فى أن يوقع الملك على الحكم ، وأنذره النبلاء بأن حياته وحياة الملكة وحياة أطفالهما فى خطر ، ولكنه أصر على الرفض . وأخيراً أرسل إليه نفس الرجل المحكوم عليه بالإعدام رسالة ينصحه فيها بالتوقيع ، الذى هو البديل الوحيد « لعنف الرعاع[٨٠] » . فوقع شارل ، ولكنه لم يغتفر لنفسه هذا العمل قط . . وفى ١٢ مايو ١٦٤١ سيق سترافورد إلى ساحة الإعدام ، ومد لود يديه بين قضبان الزنزانة ليباركه أثناء مروره . ومات « الرجل الكامل » دون أنين أو تشنج ، أمام أعين جمهور معاد .

ووسع إعدام سترافورد هوة الخلاف فى المجلس وانقسامه إلى ما عرف فيما بعد بحزبى الأحرار والمحافظين — أولئك الذين أيدوا ، والذين عارضوا انتقال سلطة من الملك إلى البرلمان إلى حد أبعد . إن رجالا مثل لوسيوس كارى (فيكونت

فولكلند) وادوارد هايد (ارل كلارندون فيما بعـــد) وكان كلاهما يساندان البرلمان — نقول إن هؤلاء الرجال تساءلوا : أولا يكون الملك ، بعد تأديبه وتهذيبه بمثل هذه القسوة ، حصنا مرغوبا فيه ضد حكم الرعاع فى لندن ، وضد تحكم البيوريتانيين فى الدين ، وضد برلمان جامح يمكن أن يقوض أركان الكنيسة ، ويهدد الملكية الخاصة ، ويعرض للخطر الكيان الطبقى فى الحياة الانجليزية بأسره ؟. وربما سلم بيم وهامدن وكرومويل بهذه الأخطار ، ولكن كان ثمة خطر آخر كان يعتلج فى نفوسهم ، ألا وهو خوفهم على حياتهم هم أنفسهم إذا استعاد الملك قوته وسلطانه . إن الملك قد يأتى فى أية لحظة بجيش نصف كاثوليكى من إيرلنده ، كما اقترح سترافورد من قبل . وقرر البرلمان ، من أجل سلامته وحمايته ، الاحتفاظ بالجيش الاسكتلندى الموالى له فى شمال انجلترا ، وأرســـل إلى الاسكتلنديين منحة مبدئية قدرها ٣٠٠ ألف جنيه ، ووعد بدفع إعانة شهرية قدرها ٢٥ ألفا من الجنيهات[٨١] .

وازدادت مخاوف البرلمان باندلاع ثورة عنيفـــة فجأة فى إيرلنده (أكتوبر ١٦٤١) . ودعا فليم أونل و رورى أومور الثالث ، وغيرهما من الزعماء ، إلى حرب التحرير — تحرير ألستر من مستعمريها الانجليز ، وتحرير الكاثوليك من ربقة الظلم ، وتحرير ايرلنده من نير انجلترا . وألهبت الثوار ذكريات الاضطهادات الفظيعة ، وانتزاع الملكية وطرد الأهالى بصورة أثمة ، فقاتلوا قتالا عنيفا وحشيا . أما الانجليز فى ايرلنده — دفاعا عما بدا لهم آنذاك أنه ممتلكات شرعية لهم ، وعن حياتهم — فانهم قابلوا الضراوة بأشد منها ، وغدا كل انتصار بمثابة مذبحة . واشتبه البرلمان الانجليزى خطأ فى أن الملك أذكى نار الثورة لاستعادة الكثلكة إلى ايرلنده ، ثم بعد ذلك إلى انجلترا ، فرفض طلب الملك مالا لحشد جيش لانقاذ الانجليز فى شرق ايرلنده ، خشية أن يوجه مثل هذا الجيش ضد البرلمان ذاته . واستمرت ثورة إيرلنده فى غمرة ثورة انجلترا .

واشتدت الثورة حين رفع شارل إلى مرتبة أعلى ، اثنين من الأساقفة المبعدين الذين حوكموا ، فاقترح النواب الناقمون « الاحتجاج الأعظم » يلخصون فيه قضيتهم

ضد الملك ويعلنون عنها ، ويمكن أن يرغم الملك على منح البرلمان حق الاعتراض على التعيينات فى الوظائف الكبرى . وأحس كثير من المحافظين أن مثل هذا الإجراء سوف ينقل السلطة التنفيذية إلى البرلمان ويشل يد الملك . وازداد الانقسام الحزبى حدة ، والمناقشات عنفا ، واستل الأعضاء سيوفهم ليؤكدوا وجهات نظرهم . وصرح كروMويل فيما بعد بأنه لو كان هذا الاقتراح رفض لركب البحر إلى أمريكا(٨٢). ولكنه أقر بأغلبيـــة ١١ صوتا . وفى أول ديسمبر ١٦٤١ قدم إلى الملك . وبدأ « الاحتجاج الأعظم » بتوكيد ولاء البرلمان للتاج ، ومضى يعدد بالتفصيل إساءات الملك إلى البرلمان ، والأضرار التى ألحقها بالبلاد ، واستعرض العيوب التى عالجتها الاصلاحات البرلمانية ، واتهم " الكاثوليك . . . والأساقفة ، والقسم الفاسد من رجال الدين " والمستشارين ورجال الحاشية الأنانيين ، بالتآمر على رد انجلترا إلى الكاثوليكية . وأشـــار إلى تكرار خرق " ملتمسى الحقوق " وتكرار حل البرلمانات المنتخبة حلا تعسفيا استبداديا . وطالب الملك بالدعوة إلى عقد جمعية من علماء اللاهوت لاعادة المذهب الأنجليكانى إلى ما كان عليه قبل قوانين لود ،واقترح على الملك أن يعزل من مجلس الشورى كل المناوئين لسياسة البرلمان ، وأن يستخدم فقط منذ الآن . " مستشارين وسفراء ووزراء ممن يرى البرلمان مبررا للوثوق بهم . وبدون هذا لن يستطيع الأعضاء أن يقدموا لجلالته الامدادات اللازمة له ، أو المساعدات للبروتستانت فيما وراء البحار ، كما أراد جلالته(٨٣) " .

وتمهل شارل فى الرد على هذا الانذار النهائى . فتخطاه البرلمان إلى الشعب ، وأمر بنشر " الاحتجاج الأعظم " ثم رد شارل فوافق على دعوة مجمع كنسى ليقمع كل " غزوات كاثوليكية " ، ورفض حرمان الأســاقفة من حق التصويت فى البرلمان ، وأصر على حقه فى أن يختار لمجلس شورى الملك أو للوظائف العامة كل من يرى أنه صالح . ثم طلب مرة أخــرى اعتمادات ماليــة . ولـكن البرلمان بدلا من هذا ، اقترح " قانون الميليشيا " الذى يخوله حق السيطرة على الجيش .

ولكن شارل"، فى غمرة الحيرة والتردد ، كما هو شأنه دائما ، عمد إلى توجيه ضربة جريئة إلى البرلمان الذى شجبها على أنها عمل من أعمال الحرب . ذلك أنه فى ٣ يناير ١٦٤٢ اتهم النائب العام ، باسم الملك ، أمام اللوردات ، خمسة أعضاء من مجلس العموم — بيم ، هامدن، هوللز ، هسلريج ، سترود — اتهمهم بالخيانة لعملهم على أن يشق الجيش عصا الطاعة على الملك ، وتشجيعهم " دولة أجنبيـــة " (اسكتلنده) على غزو انجلترا وشن الحرب على الملك . وفى اليوم الثانى دخل شارل ، تظاهره قوة من ثلثمائة جندى تركهم عند الباب ، إلى مجلس العموم للقبض على الرجال الخمسة ، فلم يجدهم هناك . فقال الملك الحائر المرتبك ، وقد صار فى مأمن ، " أرى أن كل الجبناء ، قد هربوا " ، وشيعته وهو فى طريقه إلى الخروج صيحات الاستنكار والتوبيخ " الحصانة " . لأن مثل هذا الغزو الملكى المسلح للبرلمان كان غير مشروع بشكل واضح صريح . وخشية الاعتقال بالجملة ، انتقل النواب إلى دار البلدية " جلد هول " تحت حماية المواطنين . وعندما غادر شارل لندن إلى هامبتون كورت ، عاد النواب ، بما فيهم الخمسة المتهمون إلى وستمنستر . وهربت الملكة هنريتا سرا إلى فرنسا ومعها مجوهرات التاج لتشترى بها العون للملك . وسافر شارل إلى الشمال ومعه أختامه . وحاول أن يدخل هل لتأمين المؤن العسكرية هناك ، ولكن المدينة أبت عليه ذلك . فغادرها إلى يورك . وأصدر البرلمان أوامره إلى جميع القوات المسلحة بألا تمتثل إلا للبرلمان وحده (٥ مارس ١٦٤٢) . وانسحب من البرلمان خمسة وثلاثون من اللوردات وخمسة وستون من النواب ، وانضموا إلى الملك فى يورك . وأصبح إدوار هايد آنذاك كبير مستشارى الملك .

وفى الثانى من يونية نقل البرلمان إلى شارل تسعة عشر مقترحا رأى أن قبولها ضرورى للصلح . منها أن عليه أن يخول للبرلمان سلطة الاشراف على الجيش وجميع المواقع المحصنة . وأن يكون له حق تعديل الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة ، وتعيين وعزل وزراء التاج وحراس أبنــاء الملك ، وأن يكون له سلطة إقصاء الاشراف الذين يعينون فيما بعد ذلك ، عن مجلس اللوردات ، ورفض شارل هذه

المقترحات ، على أنها ، عمليا ، تقويض للملكية . وعين البرلمان — وكأنما كان يتدرب على دور الثورة الفرنسية — لجنة " الأمن العام " ، وأمر بأن " يحشد جيش على الفور ، (١٢ يوليه) " وسافر كرومويل وآخرون إلى مواطنهم لجمع المتطوعين وتنظيمهم . وفى نداء إلى الأمة (٢ أغسطس) أسس البرلمان ثورته ، لا على رغبته فى السيادة البرلمانية ، بل على تفاقم الكاثوليكية فى انجلترا ، وحذر البلاد من أن انتصار الملك لابد أن يعقبه مذبحة عامة للقضاء على البروتستانت(٨٤) . أوفى ١٧ أغسطس استولى وكلاء البرلمان على المخازن العسكرية فى هل . وفى ٢٧ غسطس ١٦٤٢ نشر شارل رايته فوق نوتنجهام ، وبدأت الحرب الأهلية الأولى.

٩ — الحرب الأهلية الأولى : ١٦٤٢ — ١٦٤٦ :

انشقت انجلترا الآن — بصورة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل فى تاريخها المعروف ، وانحاز إلى صف البرلمان لندن والثغور والمدن الصناعية ، وبصفة عامة الجنوب والشرق ، ومعظم الطبقة الوسطى ، وجزء من الطبقة العليا ، وعمليا كل البيوريتانيين . وانضم إلى جانب الملك اكسفورد وكمبردج والغرب والشمال ، ومعظم الارستقراطيين والمزارعين ، وكل الكاثوليك والانجليكانيين الأسقفيين تقريبا . وكان مجلس العموم منقسما على نفسه ، حيث ناصر الثوار نحو ٣٠٠ عضو ، على حين بلغ عدد الملكيين نحو ١٧٥ عضوا . وبلغ عدد مجلس اللوردات ١١٠ ، انحاز إلى جانب البرلمان نحو ٣٠ منهم فى بداية الأمر ، ورجحت كفة الثورة ضد الملك . وكان فى لندن نصف ثروة الأمة ، وقدمت للثورة القروض بسخاء عظيم ، على حين عجز الملك عن الاقتراض من أى مكان . وكان الأسطول يناصبه العداء ، فسد المنافذ على كل معونة أجنبية . ولم يكن أمام الملك إلا أن يعتمد على الهبات والمنح وعلى رجال من الضياع الكبيرة التى أحس أصحابها أن مصلحتهم فى تلك الأرض تتحقق بانتصاره ، وانبعثت من جديد فى الأسرات القديمة بعض فضائل الفروسية ومشاعرها ، وقدموا المال للملك بلا قيد أو شرط ، وقاتلوا وسقطوا فى الميدان كما يسقط كرام الرجال . واندفع الفرسان المفعمون فتوة وحيوية ، بشعورهم المعقوصة وخيالهم المطهمة بأبهى السروج إلى غمار حرب بطولية ، ومعهم كل الشعراء

إلا ملتون . ولكن الثروة كانت إلى جانب البرلمان .

والتقى الجمعان لأول مرة فى ادجهل Edgehill (٢٣ أكتوبر ١٦٤٢)، وكان كل جيش يتألف من ١٤ ألف رجل . . . وكان الملكيون تحت قيادة الأمير روبرت Rupert ابن اليزابث أميرة بوهيميا أخت شارل ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره . أما " ذوو الرءوس المستديرة " أو البرلمانيون فكان يقودهم روبرت دفريه ارل اسكس الثالث . ولم تكن المعركة فاصلة . ولكن اسكس سحب قواته ، وتقدم الملك إلى اكسفورد ليتخذها مقراً لقيادته . ولكن نحميا والنجتون — وهو بيوريتانى متحمس أو سياسى ، أسماها فوزامبينا للبرلمان وللرب ، فهو يقول :

> هنا ندرك رحمة الله الواسعة . . . لأن جملة القتلى من الجانبين ، كما سمعت ، كان ٣٫٥١٧ ، ولكن قتل من الأعداء عشرة مقابل كل واحد فقدناه منا . ولكن انظر إلى حسن صنيع الله ، فان الذين قتلوا منا كان معظمهم من الذين ولوا الأدبار . أما الذين صمدوا واستبسلوا فقد كتبت لهم النجاة . . . . كم أود أن أوتى القدرة على أن أروى كيف أن يد العناية الإلهية صوبت بشكل رائع مدافعنا وقذائفنا لتدمير العدو . . . يا للعجب ، كيف وجه الله قذائفهم . . . إن بعضها سقط أمامهم (من جانبنا) وبعضها مر مرورا عابرا ، وبعضها عبر فوق رءوسهم، وأخرى سقطت إلى جانبهم . . . يا لله ، ما كان أقل من مس بأذى برصاص الأعداء ممن وقفوا فى وجوههم وقاوموهم ببسالة . . . هذا صنع الله ، وما أروعه فى نظرى(٨٥) .

على أن الأمور تأزمت فى صفوف البرلمانيين فى الربيع التالى . فان الملكة هنريتا تسللت إلى انجلترا ،حاملة معها بعض الأسلحة والذخيرة ولحقت بالملك فى اكسفورد .

وضيع إسكس الوقت سدى ، على حين كان الهرب والمرض ينخران فى جيشه ، وأصيب هامدن بجرح مميت فى بعض المناوشات عند شالجروف فيلد . وهزمت قوة برلمانية فى أدوالتون مور (٣٠ يونيه ١٦٤٣) ، ودمرت قوة أخرى فى راوندواى داون (١٣ يوليه) . وسقطت برستول فى يد الملك . ولما ساءت أقدار البرلمان إلى هذا الحضيض ، ولى وجهه شطر اسكتلنده طلباً للعون . وفى ٢٢ سبتمبر وقع مندوبو اسكتلنده « تحالفاً وميثاقاً مقدسين » ، تعهد الاسكتلنديون بمقتضاه بإرسال جيش لمساعدة البرلمان مقابل ٣٠ ألف جنيه شهرياً ، شريطة أن يقيم البرلمان فى انجلترا وإيرلنده مذهب البروتستانتية المشيخية — أى حكومة المشايخ فى الكنيسة ، دون سيطرة الأساقفة ، وفى نفس الشهر عقد شارل صلحاً مع المتمردين الإيرلنديين ، المتقدم بعضهم للقتال فى صفوفه فى انجلترا . وابتهج الكاثوليك الإنجليز لهذا . وتزايد عدد البروتستانت الذين انقلبوا على الملك . وفى يناير ١٦٤٤ هزم الغزاة الإيرلنديون فى نانتوتش وتقدم الجيش الاسكتلندى نحو انجلترا . والآن كانت الحرب الأهلية تضم ثلاث أمم وأربعة مذاهب .

وفى يولية ١٦٤٣ انعقدت « جمعية وستمنستر » — ١٢١ من رجال الدين الانجليز ، ٣٠ من العلمانيين الانجليز ، وثمانية مندوبين اسكتلنديين (انضموا فيما بعد) — لتحدد البروتستانتية المشيخية الجديدة فى انجلترا . ولقد عوقت السيطرة البرلمانية أعمال هذه اللجنة حتى باتت تجرر أذيالها فى مؤتمرات تعقدها لمدة ست سنوات . وانسحب نفر قليل من الأعضاء كانوا يظاهرون الحكومة الأسقفية . وطالبت فئة قليلة من البيوريتانيين المستقلين ألا يشهد الاجتماع مشيخيون ولا أساقفة . أما الأغلبية — وفاء بتعهد البرلمان ونزولا على إرادته ، فإنها أيدت أن يتولى الأمور الدينية فى انجلترا أو إيرلنده وإسكتلنده شيوخ الكنيسة ومجلسهم والمجامع الإقليمية والجمعيات العامة . وألغى البرلمان الحكومة الأسقفية الإنجليكانية (١٦٤٣) ، وأقر التنظيم المشيخى والمذهب المشيخى ، ووضع لهما القوانين (١٦٤٦) ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاعتراض على أية قرارات كنسية . وفى ١٦٤٧ أصدرت الجمعية « اعتراف وستمنستر بالعقيدة والتعاليم الكبرى والتعاليم الصغرى » وكلها تثبت

مذهب كلفن فى القضاء والقدر ، والاصطفاء ، والرفض (أى الإخراج من زمرة الإبرار(*)) وأهملت الكنيسة الانجليكانية وعودة الملكية إلى أسرة ستيورت ، جمعية وستمنستر ، ولكن « الاعتراف والتعاليم » بقيت معمولا بها نظرياً فى الكنائس المشيخية فى البلاد الناطقة بالانجليزية .

واتفقت الجمعية والبرلمان على رفض ما تقدمت به الفرق الصغيرة من إلتماس التسامح الدينى . والتمست مدينة لندن المتحدة من البرلمان القضاء على كل الهرطقات . وفى ١٦٤٨ قدم أعضاء مجلس العموم مشروعات تقضى بعقوبة السجن مدى الحياة على خصوم تعميد الأطفال ، وبعقوبة الإعدام على من ينكرون الثالوث الأقدس أو المتجسد أو نزول الكتاب المقدس بوحى من عند الله ، أو خلود الروح[٨٧] . وأعدم عدد من الجزويت فيما بين عامى ١٦٤٢ و ١٦٥٠ . وفى يناير ١٦٤٥ ، اقتيد رئيس الأساقفة لود ، وهو فى الثانية والسبعين ، من السجن إلى ساحة الاعدام ، ولكن البرلمان أحس أنه مشغول بالحرب إلى أقصى حد ، وأنه ليس ثمة مجال للرفق والمجاملة . ومهما يكن من أمر فإن كرومول ناضل فى سبيل شىء من التسامح . وفى ١٦٤٣ شكل فى كمبردج فرقة أطلق عليها « ذوو الدروع الحديدية Ironsides » وهو اسم أطلقه فى الأصل الأمير روبرت على كروموبل نفسه ، ورحب بكل الأفراد الذين ينضمون إلى الفرقة من كل الملل والنحل — باستثناء الكاثوليك وأنصار حكومة الأساقفة — « ممن لا تفارق خشية الله نفوسهم » ، وممن يتدبرون

(*) مقتطفاة من « اعتراف » وستمنستر ، فقرة ٣ « بأمر الله ، وإظهاراً لمجده وعظمته ، قدر على بعض الناس والملائكة الحياة الخالدة ، وقضى على آخرين بالموت الأبدى . أما الذين كتب عليهم الحياة الخالدة من البشر ، فإن الله — قبل وضع أساس العالم ووفقاً لمشيئته الخالدة الثابتة التى لا تتغير ، وما اقتضت إرادته الخفية — قد اختارهم فى المسيح لمجد خالد ، منه ونعمة وحباً ، دون تنبؤ بالعقيدة أو صالح الأعمال ، أو المثابرة على أى منهما ... وكل هذا وفق مشيئته الخالصة سبحانه . أما بقية البشر فعد اقتضت إرادته التى لا مرد لها ، أن يبسط إليهم رحمته ، أو يقبضها عنهم كما يشاء ، لأنه المهيمن على كل خلقه فيتغاضى عنهم ، أو يوقعهم فى الخزى ويسلط عليهم العذاب جزاء بما كسبت أيديهم إقراراً للعدالة الإلهية (٨٦) .

ما صنعت أيديهم[٨٨] . وعندما أراد ضابط مشيخي أن يطرد — من الفرقة ضابطا برتبة مقدم من أنصار تجديد التعميد (إعادة تعميد البالغين ورفض تعميد الأطفال) ، اعترض عليه كرومويل قائلا . « سيدى ، إن الدولة حين تختار موظفيها لا تلتفى بالالتفات إلى آرائهم ، طالما أنهم جادون فى خدمتها بإخلاص ، وهذا يكفى[٨٩] » . وفى ١٦٤٤ طلب إلى البرلمان « أن يلتمس وسيلة ما للتسامح ، وفقا لما جاء فى الكتاب المقدس ، مع ذوى النفوس الضعيفة الذين لا يستطيعون فى كل الأحوال أن يخضعوا لحكم الكنيسة[٩٠] » . وتجاهل البرلمان هذا الطلب ، ولكن كرومويل ظل يمارس تسامحا نسبيا فى فرقته ، وطوال سيطرته على انجلترا .

وكان ارتقاء كرومويل إلى مرتبة القيادة مفاجأة من مفاجآت الحرب . إنه شارك لورد فرديناندو فيرفاكس أمجاد النصر فى ونسبى (١١ أكتوبر ١٦٤٣) . ولقد هزم فيرفاكس فى مارستون مور (٢ يوليــة ١٦٤٤) ولكن رجال كرومويل « الحديديون » أنقذوا الموقف . إن قوادا برلمانيين آخرين ، مثل إرل اسكس وإرل مانشستر ، تراجعوا أو عجزوا عن متابعة انتصارهم وأقر مانشستر صراحة بعدم رغبته فى الاطاحة بالملك . وبغية التخلص من هؤلاء القادة ذوى الألقاب ، اقترح كرومويل « قرار انكار الذات » (٩ ديسمبر ١٦٤٤) ، يعتزل كل أعضاء البرلمان بمقتضاه قياداتهم . وهزم الاقتراح ، ولكن عرض من جديد وأقر (٣ أبريل ١٦٤٥) . واعتزل اسكس ومانشستر ، وعين توماس فيرفاكس — ابن فردينالدو — قائدا أعلى — وسرعان ما عين كرومويل قائدا للفرسان ، وأمر البرلمـــان بتكوين جيش « على طراز جديد » ، من ٢٢ ألف جندى ، وأخذ كرومويل على عاتقه مهمة تدريبه .

ولم يكن لدى كرومويل سابق خبرة عسكرية قبل الحرب . ولكن قوة شخصيته وخلقه ، وثبات أردته وصموده لتحقيق الهدف ، وبراعته فى التلاعب بالأحاسيس الدينية والسياسية لدى الناس ، كل أولئك هيأ له القدرة على تشكيل قواته على نظام فذ وولاء فريد : فكان المذهب البيوريتانى يضارع الخلق الاسبرطى فى صنع جنود لا يقهرون ، انهم لم « يؤدوا القسم مثل الفرسان » ، بل على النقيض من ذلك

لم يسمع حلف الأيمان فى معسكراتهم قط ، بل إنها كانت تدوى بالعظات والصلوات . انهم لم يسلبوا ولم ينهبوا ، ولكنهم اقتحموا الكنائس ليجردوها من الصرر الدينية ، ويخلصوها من الأسقفيين أو البابويين [٩١] » . وكانوا يهتفون فرحين أو غاضبين حين يلاقون العدو . ولم تنزل بهم الهزيمة قط . . وعند ما كان الملكيون يطاردون مشاة سير توماس فيرفاكس فى ناسبي (١٤ يونية ١٦٤٥) ، حول كرومول بفرسانه الجدد الهزيمة إلى نصر مبين ، إلى حد أن الملك فقد كل مشاته ومدفعيته ونصف خيالته ، ونسخا من مراسلاته التى نشرت لتكشف عن خطته فى استقدام مزيد من القوات الايرلندية إلى انجلترا ، وإلغاء القوانين المناهضة للكاثوليكية .

ومنذ تلك اللحظة أخذت أحوال الملك تزداد سوءا وبسرعة . فإن مركيز مونتروز ، قائده البطل فى اسكتلنده ، بعد عـــدة انتصارات ، هزم فى فيلبهو وهرب إلى القارة . وفى ٣٠ يوليه ١٦٤٥ استولى جيش البرلمان على باث ، وفى ٢٣ أغسطس تخلى روبرت عن برستول إلى فيرفاكس ، والتمس الملك ، دون جدوى ، العون من كل الجهات . وأحس جنوده بأن قضيتهم خاسرة ، فتذرعوا بمختلف المعاذير وتخلفوا عنه وانضموا إلى العـــدو . وحاول بالمفاوضات الملتوية مع كل فريق على حدة أن يوقع الانقسام فى صفوف أعدائه — فيفرق بين المستقلين والبرلمان ، وبين البرلمان والاسكتلنديين ،ولكنه أخفق فى ذلك . وكان لتوه قد أرسل زوجته الحامل ، عبر أراضى معادية ، لتبحر إلى فرنسا ، وأمر الآن الأمير شارل بالفرار من انجلترا بأية وسيلة ممكنة . وتنكر هو ، مع اثنين من المرافقين ، وشق طريقه إلى الشمال حيث استسلم للاسكتلنديين (٥ مايو ١٦٤٦) . ووضعت الحرب الأهلية الأولى ، بالفعل أوزارها .

١٠ — المتطرفون : ١٦٤٦ — ١٦٤٨

وراود شارل الأمل فى أن يعامله الاسكتلنديون ، وكأنه لا يزال ملكا عليهم ، ولكنهم آثروا أن يعتبروه سجينا لديهم . وعرضوا عليه أن يعاونوه على استرداد عرشه ، إذا قبل التوقيع على « التحالف والميثاق المقدسين » وبمقتضى ذلك . يكون مذهب المسيحية المشيخية إجباريا فى كل الجزر البريطانية ، ولكنه أبى عليهم ذلك . وبعث

البرلمان الانجليزى بمندوبيه إلى الاسكتلنديين فى نيوكاسل يعرض عليهم ارتضاء شارل ملكا ، شريطة أن يقبل الميثـاق ، ويوافق على إقصاء زعماء الملكيين ، ويسمح بسيطرة البرلمان على كل القوات المسلحة ، وتعيين كبار موظفى الدولة ، ولكن الملك رفض . وعرض البرلمـان على الاسكتلنديين مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه لتسديد متأخراتهم ونفقاتهم ، إذا عادوا إلى اسكتلنده وسلموا الملك إلى المندوبين الانجليز . ووافق برلمان اسكتلنده ، وقبل المـال ، لا على أنه ثمن الملك ، بل على أنه تعويض عن نفقات الحرب . وأحس شارل ، على أية حال ، بأنهم قايضوا عليه بالذهب . ونقل إلى هولمبى هاوس فى نورثمبتو نشير (يناير ١٦٤٧) على أنه سجين البرلمـان البريطانى .

واستعرض الجيش الانجليزى المعسكر آنذاك فى سافرون والدن ، على بعد أربعين ميلا من لندن ، استعرض انتصاراته ، وطالب بمكافآت متساوية . ان الاحتفاظ بجيش يبلغ ثلاثة وثلاثين ألف رجل ، اضطر البرلمان إلى رفع الضرائب إلى ضعف أعلى معدل لها أيام شارل ، ومع هذا تأخر للجند رواتب ما بين أربعة إلى عشرة شهور . وفوق ذلك فإن البوريتانيين الذين انهزموا فى البرلمان ، كانت لهم اليد الطولى فى الجيش ، وحامت الشبهات حول زعيمهم كرومويل فى أن له أطماعا لا تتفق مع سيادة البرلمان . وأسوأ من هذا كله ، أنه كان فى فرقته « أنصار المساواة Levelers » الذين يرفضون أى تمييز بين المراتب فى الدولة وفى الكنيسة ، والذين نادوا بحق الاقتراع للبالغين وبالحرية الدينية . وكان نفر قليل منهم شيوعيين فوضويين . وأعلن وليم والوين أن كل شىء يجب أن يكون مشاعا مشتركا ، ومن ثم لن تعود هناك حاجه لقيام حكومة ، لأنه لن يكون هناك حينذاك لصوص ولا مجرمون[٩٢] » وكان جون للبورن Lilburne أعظم دعاة أنصار المساواة يزداد ، بعد كل اعتقال وعقاب ، شعبية فى لندن (١٦٤٦) [٩٣] . وهوجم كرومويل على أنه من « أنصار المساواة » ولكنه برغم تعاطفه معهم ، كان يعارض آراءهم ، احساسا منه بأن انجلترا آنذاك لابد أن تؤدى فيها الديمقراطية إلى الفوضى .

واستياء البرلمان ؛ وهو آنذاك « مشيخى » . لما ينطوى عليه من خطر ، وجود جيش عرمرم مزعج ، فى مكان قريب ، وهو جيش مستقل ذو قوة . فأقر مشروعا بتسريح نصفه ، وتسجيل الباقى متطوعين للخدمة فى أيرلنده . فطالب الجنود بمتأخر رواتبهم ، فأقر البرلمان صرف جزء منها نقدا والباقى وعودا . ورفض الجنود أن يتفرقوا إلا إذا دفعت استحقاقاتهم ورواتبهم كاملة . وجدد البرلمان المفاوضات مع الملك ، وكاد أن يصل معه إلى اتفاق على إعادته إلى العرش ، شريطة قبوله « الميثاق » لمدة ثلاثة أعوام . وحذر الملك من قبول هذا العرض ، ولكن جماعة من الفرسان هاجمت هولمبى هاوس وأسرت الملك ، واقتادته إلى نيوماركت (٣ — ٥ يونيه ١٦٤٧) ، وأسرع كرومويل إلى نيوماركت ، وجعل من نفسه رئيسا « لمجلس من الجيش » ، وفى ١٠ يناير بدأ الجيش مسيرة غير متعجلة إلى لندن . . وفى الطريق أرسل إلى البرلمان أعلانا صاغه أساسا صهر كرومويل القدير ، هنرى أيرتون Ireton ، ندد فيه باستبداد البرلمان الذى لم يكن خيرا من استبداد الملك ، وطالب بانتخاب برلمان جديد مع توسع فى حق الانتخاب . ووقع البرلمان بين نارين ، فإن التجار والصناع وأهل لندن كانوا يخشون احتلال الجيش للمدينة ، وطالبوا ، فى صخب شديد بعودة الملك ، وفق أية شروط كانت ، تقريبا . وفى ٢٦ يوليه اقتحمت الجموع البرلمان وأرغموه على دعوة الملك إلى لندن ، ووضع المليشيا تحت قيادة المشيخيين . وترك سبعةوستونمن « المستقلين » البرلمان إلى الجيش .

ودخلت القوات لندن فى ٦ أغسطس ، وأتوا بالملك معهم ، وأعيد « المستقلون » السبعة والستون إلى أماكنهم فى البرلمان ، الذى سيطر عليه الجيش منذ تلك اللحظة إلى أن قبض كرومويل على زمام الأمور . ولم تشب تصرفات الجيش شائبة من الفوضى أو التشويش ، ولم تكن مجردة من المبادىء ، بل حافظ على النظام فى المدينة ، وفى القوات المسلحة نفسها ؛ بل إن الأجيال التالية أجازت مطالبه التى يحتمل أنها كانت غير عملية فى أوانها . وفى نشرة بعنوان « قضية الجيش مدونة بصدق وأمانة » (٩ أكتوبر ١٦٤٧) طالب بحرية التجارة وإلغاء الاحتكارات ، وإعادة الأراضى العامة إلى الفقراء ، وألح على ألا يرغم إنسان على الشهادة ضد نفسه

فى المحكمة(٩٤) . وفى « اتفاقية الشعب » (٣٠ أكتوبر) أعلن « أن كل السلطة أصلا وأساساً فى مجموع الشعب بأسره » ، وأن الحكومة العادلة الوحيدة هى التى تكون عن طريق ممثلين ينتخبون انتخاباً حراً يتوفر فيه حق الاقتراع للبالغين ، وأنه بناء على هذا ، فإن الملوك واللوردات ، إذا سمح لهم بالبقاء فيجب أن يكونوا خاضعين لمجلس العموم ، وأنه لا يجوز إعفاء أحد من سلطة القانون ، وأنه يجب تمتع الجميع بالحرية الدينية الكاملة(٩٥) . قال الكولونيل رينزبورو « إن كل من ولد فى انجلترا ، الفقير أو أحط الناس فى المملكة ، يجب أن يكون له صوت فى اختيار أولئك الذين يضعون قوانين البلاد ، تلك القوانين التى يعيش ويموت فى ظلها(٩٦) . »

وخفف كرومويل من حدة المناقشة بدعوة زعمائها إلى الصلاة . واتهمه « أنصار المساواة » بالنفاق والتفاوض سراً لإعادة الملك ، واعترف بأنه لا يزال يؤمن بالملكية ، وأوضح لهم أن معارضة مقترحاتهم ستكون شديدة إلى حد لا يمكن معه التغلب عليها ، « بقوة العضلات » وحدها . وبعد نقاش طويل أقنع الزعماء بأن يخففوا من مطالبتهم بالاقتراع العام إلى طلب التوسع فى حق الانتخاب . ورفض بعض الجنود هذا الحل الوسط ، وعلقوا « اتفاقية الشعب » فى قبعاتهم ، وتجاهلوا أمر كرومويل بالانصراف . وقبض على ثلاثة من زعماء الفتنة ، وحوكموا أمام محكمة عسكرية قضت بإعدامهم . فأمرهم كرومويل بإجراء القرعة على حياتهم ، ومن يخسر يعدم . وعاد النظام سيرته .

وفى الوقت نفسه تمكن الملك من الهرب من سجانيه العسكريين ، واتخذ طريقه إلى الشاطىء وإلى جزيرة وايت حيث وجد مأوى أميناً فى قلعة كارسبروك (١٤ نوفمبر ١٦٤٨) . وشدد من عزيمته ما ترامى إليه من أنباء ثورة الملكيين ضد البرلمان فى الريف وفى الأسطول ، وعرض عليه المندوبون الإسكتلنديون فى لندن سراً ، أن يمدوه بجيش يعيده إلى عرشه إذ قبل إقامة النصرانية المشيخية وإبطال ما عداها من المذاهب المسيحية . وارتضى الملك هذا « الارتباط » ولكنه حدده

بثلاث سنوات . وغادر المندوبون لندن ليحشدوا جيشاً . واعتمد البرلمان الإسكتلندى خطتهم لغزو انجلترا ، وأصدر فى ٣ مايو ١٦٤٨ بياناً يطالب كل الانجليز بالالتزام « بالميثاق » ، ويحظر كل الأشكال الدينية فيما عدا المشيخية ، ويأمر بحل جيش « المستقلين » ورأى البرلمان الانجليزى أن تنفيذ هذه المقترحات لا يعنى شيئاً إلا القضاء عليه وإخضاع انجلترا لإسكتلندة . وأسرع بمصالحة كرومويل ، وأقنعه بأن يقود قواته ضد الإسكتلنديين . ولا ريب أن البرلمان سر لإبعاد كرومويل ، والإلقاء به إلى التهلكة ، وبعد ثلاثة أيام من الأخذ والرد أقنع الجيش بأن يتبعه إلى ميدان المعركة . وتبعه الجيش على كره منه ، وأقسم بعض الزعماء أنهم إذا قدر لهم إنقاذ انجلترا فلسوف يكون من « واجبهم أن يستدعوا رجل الدم ، شارل ستيوارت ، ليقدم حساباً عن الدماء التى سفكها(٩٧) . »

١١ — وأسدل الستار : ١٦٤٨ — ١٦٤٩

استطاع كرومويل بفضل ما أوتى من طاقة أن يقصر من أمد الحرب الأهلية الثانية . فعلى حين أخمد فيرفاكس ثورات الملكيين فى كنت ، اتجه أوليفر غرباً واستولى على معقل ملكى فى ويلز . وعبر الاسكتلنديون نهر تويد فى ٨ يوليه ، وتقدموا فى سرعة مذهلة حتى صاروا على بعد نحو ٤٠ ميلا من ليفربول . وفى برستون ، فى لنكشير ، التقى جيش كرومويل المكون من تسعة آلاف جندى ، مرتين ، بهذا الجمع من الاسكتلنديين والخيالة الملكيين وأوقع بهم هزيمة منكرة (١٧ أغسطس) .

وبينما كان كرومويل وجنوده يعملون على إنقاذ البرلمان ، دبر البرلمان أن يحمى نفسه منهم ، بفتح باب المفاوضات من جديد ، لإعادة الملك . ولكنه أصر على أن يوقع الملك « الميثاق » وأن يضعه موضع التنفيذ ، فرفض الملك . وعرض الجيش العائد أن يؤيد عودته إلى العرش مع الحد من حقوقه الملكية إلى أضيق الحدود ، فأبى (١٧ نوفمبر) . وبغية أن يقطع الجيش الطريق على البرلمان ليعيد الملك إلى العرش ، قبض عليه ثانية وأودعه قلعة هيرست المواجهة لجزيرة وايت ، وشجب البرلمان هذا التصرف ، واقترع على قبول شروط الملك أساساً لتسوية النزاع — فأعلن قادة الجيش الذين

كانوا يتوقعون الموت ، إذا عاد شارل ، أنه لن يسمح بالدخول إلى مجلس العموم إلا لمن ظلوا على « ولائهم وإخلاصهم للمصلحة العامة» . وفى بواكير يوم٦ ديسمبر أحاطت قوة من الجند تحت قيادة كولونيل توماس برايد ، بمجلس العموم ، واقتحمته ، ومنعت أو طردت ١٤٠ من الأعضاء الملكيين والمشيخيين ، وأودعت السجن أربعين عضوا أبدوا شيئا من المقاومة (٩٨) . واستحسن كروموبل هذا الاجراء . واشترك فى الاقتراع على سرعة محاكمة الملك وإعدامه .

لم يبق الآن من الأعضاء الخمسمائة الذين كان يتألف منهم مجلس العموم ١٦٤٠ إلا ستة وخمسين . وأقر هذا « البرلمان الأثارة » (الذى لم يبق فيه إلا نفرٌ قليل) ، بأغلبية ستة أصوات ، قانونا ينص على أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى ، ورفض اللوردات القانون على أنه ليس من سلطة مجلس العموم ، وعندئذ (٤ يناير ١٦٤٩) ،قرر النواب أن الشعب » بعد الله مصدر كل سلطة عادلة « وأن النواب ، وهم يمثلون الشعب » ، « أصحاب السلطة العليا فى هذه الأمة ، وأنه بناءعلى ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون ، دون موافقة اللوردات أو الملك» . وفى ٦ يناير عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك ، وأبلغ أحد الأعضاء — وهو ألجرنون سدنى — كرومول بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ، ليحاكموا ملكا . ففقد كروموبل صوابه وصاح فى وجهه قائلا : « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج (٩٩) » وبذل قادة الجيس آخر محاولة لتفادى قتل الملك . فعرضوا تبرئة شارل إذا وافق على بيع أراضى الأساقفة ، وتنازل عن حقه فى الاعتراض برفض قرارات البرلمان . ولكن الملك أجاب بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة انجلترا . وليس ثمة من ينازع فى شجاعته .

وبدأت المحاكمة فى ١٩ يناير ١٦٤٩ . وجلس القضاة المرتجلون الستون أو السبعون على منصة مرتفعة فى طرف من قاعة وستمنستر ، واصطف الجند فى الطرف الآخر ، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين ، وأجلس شارل وحده وسط القاعة . وتلا چون برادشو رئيس الجلسة قرار الاتهام ، وطلب إلى الملك أن

بجيب ، فأنكر شارل سلطة المحكمة فى محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب انجلترا ، وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليـــه الجيش ، هى أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو قط ، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك » ودوت المنابر باستنكار المحاكمة وشجبها . وخشى برادشو على حياته فى الشوارع ، وأرسل الأمير شارل من هولنده صحيفة لا تحمل إلا توقيعه ، ووعد القضاة بالموافقة على أية شروط يدونونها فوق اسمه ، إذا هم أبقوا على حياة والده [١٠٠] . وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فـــداء للملك [١٠١] ، فرفض عرضهم . ووقع تسعة وخمسون من القضاة ، من بينهم كرومويل ، الحكم بالاعدام . وفى ٣٠ يناير سار الملك فى هدوء إلى الموت ، أمام جمهور غفـــير تملكه الرعب . وبضربة واحـــدة من بلطة الجلاد قطع رأسه . وكتب شاهد عيان « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم ، بشكل لم أعهده قط من قبل ، وأرجو ألا أسمعه من بعد » [١٠٢] .

وهل كان الاعدام عملا مشروعا ؟ إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك . فإنه طبقا للقانون المعمول به ، يكون البرلمان شيئا فشيئا ، وبشكل قاس ، قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التى أقرتها السوابق لمائة عام . فالثورة على التحديد أمر غير مشروع ، وليس أمامها من طريق لتدفع بالجديد إلى الأمام إلا هدم القديم . وكان شارل مخلصا فى الدفاع عن السلطات التى ورثها عن اليزابث وجيمس ، لقد أثموا ضده قدر ما أثم هو ، وكانت غلطته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع الجديد للثروة ، اقتضى ، من أجل الاستقرار الاجتماعى ، توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان الاعدام عدلا ؟ إذا نحى القانون جانبا ، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضرورى لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين ، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كرومويل وأيرتون وفيرفاكس وكثيرين غيرهم ، وربما مع مختلف ألوان التنكيل والعذاب التى يتعرض لها عادة كل من يتهمون بالخيانة .

وهل كان الاعدام عملا حكيما ؟ من المحتمل ألا يكون كذلك ، ومن الواضح [

أن كرومويل اعتقد بأن بقاء الملك على قيد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز الملكيين الى معاودة الثورة المرة بعد المرة ، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجدد المقاومة من جانب ابن الملك الذى لا يمكن الوصول إليه فى فرنسا أو هولنده ، والذى لم تلوثه أخطاء والده ، والذى لابد أن تكلل هامته وشيكا بأمجاد البطولة . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به فى الشعور الوطنى الذى استرد مساره على مدى أحد عشر عاما ، ويوحى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة فإنه عندما وقع چيمس الثانى ، ابن شارل ، بالمثل ، فى الخطأ الجسيم ، تدبرت ثورة ١٦٨٨ الجليلة الأمر ، فى دهاء ارستقراطى ، وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة دائمة . ومهما يكن من أمر ، فإن الثورة السابقة هى التى مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة .

إن الثورة الكبرى تماثل ثورات الهيجونوت فى فرنسا القرن السادس عشر ، كما تماثل ، برغم الفوارق الكثيرة ، الثورة الفرنسية ١٧٨٩ — فهناك فى الحالة الأولى العصيان المسلح للكلفنية البسيطة العابسة التى شدت من أزرها الثورة التجارية ، ضد الكنيسة الشديدة التمسك بالشعائر والطقوس وضد الحكومة الاستبدادية المطلقة . وهناك فى الحالة الثانية ثورة الجمعية الوطنيه التى تمثل سلطان المال وقوة الطبقة الوسطى ، ضد ارستقراطية تمتلك الأرض يتزعمها ملك حسن النية ولكنه متخبط مرتبك . وما وافى عام ١٧٨٦ حتى كان الانجليز قد استوعبوا ثورتيهم ، وكان فى مقدورهم أن ينظروا بعين الفزع القلق ، عن اقتناع ، إلى ثورة خضبت بالدم ، مثل ثورتهم ، أرض دولة وقتلت ملكا ، لأن الماضى حاول أن يقف جامدا لا يريم .

NOTES المراجع

CHAPTER I

1. Froude, *Reign of Elizabeth*, I, 11.
2. Neale, *Queen Elizabeth*, 26.
3. Ibid., 37.
4. Froude, I, Introd., vii.
5. Read, C., *Mr. Secretary Cecil and Queen Elizabeth*, 32.
6. Ibid., 119.
7. Hughes, P., *The Reformation in England*, III, 46.
8. Froude, *Elizabeth*, III, 306.
9. Froude, I, 448.
10. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 205.
11. Hallam, *Constitutional History of England*, I, 245.
12. Lingard, J., *History of England*, VI, 324.
13. Christopher Hatton in *Shakespeare's England*, I, 80.
14. Neale, 61.
15. Ibid., 75-6.
16. *Shakespeare's England*, I, 5.
17. Neale, 186.
18. Froude, I, 120.
19. *Cambridge Modern History*, III, 289.
20. Froude, IV, 61.
21. Thornton, *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 9.
22. Hallam, I, 133.
23. Neale, 80.
24. Read, 161.
25. Froude, II, 84.
26. *Camb. Mod. History*, II, 581.
27. Froude, I, 100.
28. Ibid., 101.
29. Ibid., 491.
30. Creighton, *Queen Elizabeth*, 154.
31. Church, R. W., *Spenser*, 116.
32. Lingard, VI, 121.
33. Aubrey, *Brief Lives*, 105.
34. Chute, *Shakespeare of London*, 145.
35. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, 860, Apophthegm 55.
36. Froude, V, 306.
37. Sir John Hayward in Muir, K., *Elizabethan and Jacobean Prose*, 1.
38. Chute, *Ben Jonson*, 164.
39. Froude, I, 8, 14.
40. Ibid. and 145, II, 358. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 199-200.
41. Ascham, *The Scholemaster*, 81.
42. Froude, III, 4.
43. Taine, *English Literature*, 160.
44. Smith, Preserved, *The Age of the Reformation*, 634.
45. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 5, 6.
46. Bradbrook, *The School of Night*, 7; Boas, *Marlowe and His Circle*, 90; and the ed. of *Love's Labour's Lost* by A. T. Quiller Couch and J. Dover Wilson, London, 1923.
47. Bradbrook, 39.
48. Ibid., 12.
49. Robertson, *Freethought*, II, 10.
50. Green, J. R., *Short History of the English People*, ch. vii, sect. 3.
51. Froude, I, 183; IV, 65; V, 228.
52. Ibid., IV, 385-6.
53. *Camb. Mod. History*, II, 562.
54. Chute, *Ben Jonson*, 79.
55. Roeder, *Catherine de' Medici*, 492.
56. Froude, IV, 119; Neale, 215.
57. Payne, E. A., *The Anabaptists of the 16th Century*, 19; Lingard, VI, 170.
58. Pastor, *History of the Popes*, XVII 250.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 150.
60. Froude, I, 329.
61. Ibid., II, 345; Hughes, III, 159.
62. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, I, 6; *Camb. Mod. History*, III, 349.
63. Lingard, VI, 122.
64. Hughes, III, 289.
65. Pastor, XIX, 441-2.
66. Ibid.
67. McCabe, *Candid History*, 148.
68. Ibid., 150.
69. Froude, IV, 284.
70. Ibid., 294-5.
71. Lingard, VI, 165; Froude, IV, 297.
72. Pastor, XIX, 458.
73. Hughes, III, 315-6.
74. Neale, 265.
75. Hughes, III, 363; Williams, F. B., *Elizabethan England*, 10.
76. Froude, V, 238.
77. Hughes, III, 380; Neale, 299.
78. Hallam, I, 169; Lingard, VI, 257.
79. Hughes, III, 391-6.
80. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 216-7; Hallam, I, 190.
81. Hallam, I, 198.
82. Hughes, III, 408.
83. Lea, H. C., *Studies in Church History*, 508.
84. Neale, 178.
85. Hallam, I, 205.
86. *Camb. Mod. History*, III, 345.
87. Walton, Izaak, *Life of Richard Hooker*,

in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 556.
88. Hooker, Richard, *Works: Laws of Ecclesiastical Polity*, I, x, 4, 8.
89. Ibid., VIII, vi, 11.
90. Ibid., I, i, 1.
91. Froude, IV, 237.
92. Ibid., 191.
93. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, III, 199.
94. Froude, IV, 233, 236.
95. Ibid., 233.
96. Froude, II, 466.
97. *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., XV, 778b.
98. Froude, II, 211.
99. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 122; Froude, II, 468.
100. Barnes, *Economic History*, 265.
101. Acton, J. E., *Lectures on Modern History*, 152; Davies, E. Trevor, *The Golden Age of Spain*, 212; Froude, III, 309; V, 37.
102. Froude, V, 344.
103. Ibid., 400.
104. Michelet, Jules, *Histoire de France*, IV, 4.
105. Froude, V, 413.
106. Ibid., 430-1.
107. Spedding, J., *Life and Times of Francis Bacon*, I, 56.
108. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 173.
109. In Eddy, Sherwood, *The Challenge of Europe*, 205n.
110. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 6.
111. Clarendon, *Robert Devereux and George Villiers*, in Clark, *Great Short Biographies*, 603.
112. Spedding, I, 21.
113. Ibid., 179.
114. Ibid., 56.
115. Strachey, 65.
116. Spedding, I, 231.
117. Spedding, note to Rawley's *Life of Bacon*, in Bacon, *Philosophical Works*, 3.
118. Strachey, 172; Spedding, *Life of Bacon*, I, 227; Creighton, *Queen Elizabeth*, 279.
119. Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare's Plays*, 301; Chambers, E. K., *William Shakespeare*, I, 354; Strachey, 241.
120. Spedding, I, 343-8.
121. Strachey, 264-5.
122. Creighton, 295.
123. Strachey, 279.
124. In Muir, *Elizabethan and Jacobean Prose*, 39.
125. Ibid., 40.
126. *Hamlet*, III, iii, 15-23.
127. Bacon, *Advancement of Learning*, Preface to the King.
128. *Henry VIII*, V, v, 18.

CHAPTER II

1. A phrase of unknown origin, as old as 1300.—Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 343.
2. Bernal, *Science in History*, 284; Wolf, A., *History of Science in the Eighteenth Century*, 630.
3. Trevelyan, *English Social History*, 191.
4. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 38; Traill, *Social England*, III, 365; Froude, *Henry VIII*, I, 19; Lipson, *Growth of English Society*, 157f..
5. *Shakespeare's England*, I, 320.
6. Rogers, *Economic Interpretation*, 37; Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 84, 88, 100.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 94; *Shakespeare's England*, I, 331.
8. Creighton in Traill, III, 373.
9. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, II, 515n.
10. Smith, P., *Age of the Reformation*, 476.
11. Beard, Chas., *Toward Civilization*, 227.
12. Trevelyan, *Social History*, 160-1.
13. Wolf, *History of Science in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 614.
14. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 497
15. Sée, H., *Modern Capitalism*, 55.
16. Trevelyan, *Social History*, 120.
17. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, IIIa, 324.
18. Addison, J. D., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, 26.
19. Froude, *Elizabeth*, II, 88.
20. Chute, *Shakespeare of London*, 63.
21. Ascham, *Scholemaster*, 71-8 and end.
22. Einstein, Lewis, *Italian Renaissance in England*, 160.
23. Hughes, III, 137.
24. Goethe, *Faust*, Part II, lines 616-18, quoted in Haydn, H., *The Counter-Renaissance*, 362.
25. *Camb. Mod. History*, III, 36[illegible]
26. Chute, *Ben Jonson*, 41.
27. Trend, J. B., *Civilization of Spain*, 110.
28. Hughes, III, 144.
29. *Shakespeare's England*, I, 416.
30. Froude, *Elizabeth*, V, 461.
31. Trevelyan, *Social History*, 140.
32. Lingard, VI, 323.
33. *King Lear*, IV, vi.
34. Lingard, VI, 323.
35. Hallam, I, 35.

36. *Shakespeare's England*, I, 398.
37. Froude, *Elizabeth*, IV, 122-3; *Shakespeare's England*, I, 400.
38. Hallam, I, 234; Spenser, E., *Poetical Works*, Introd., xxiii.
39. Browne, Sir Thos., *Religio Medici*, Introd., x.
40. Garrison, *History of Medicine*, 819.
41. Bacon, Essay "Of Gardens," in *Philosophical Works*, 791.
42. *Merchant of Venice*, I, ii.
43. *Much Ado about Nothing*, III, iv.
44. Holzknecht, 44.
45. Philip Stubbs in James, B. B., *Women of England*, 250.
46. Wright, Thomas, *Womankind in Western Europe*, 334.
47. *Merchant of Venice*, III, ii, 89.
48. *Shakespeare's England*, II, 94.
49. Wright, Thomas, *History of Domestic Manners and Sentiments in England*, 456.
50. James I, *A Counterblast to Tobacco* (1604), in Muir, 89.
51. McKinney and Anderson, *Music in History*, 278.
52. *Oxford History of Music*, II, 221.
53. Ibid., 208.
54. Haydn, H., *The Portable Elizabethan Reader*, 666.
55. Burney, C., *General History of Music*, II, 306.
56. In the National Portrait Gallery, London.
57. Blomfield, R., *Short History of Renaissance Architecture in England*, 37.
58. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 34; Blomfield, 86.
59. Ibid.
60. Haydn, *Counter-Renaissance*, 13.

CHAPTER III

1. Burton, Robert, *Anatomy of Melancholy*, 7.
2. *Shakespeare's England*, II, 183.
3. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 258.
4. *Shakespeare's England*, II, 217.
5. Cambridge *History of English Literature*, III, 369.
6. Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 68.
7. Camb. *History of English Literature*, III, 372.
8. Ascham, *Scholemaster*, 17-23.
9. Haydn, *Portable Elizabethan Reader*, 183.
10. Lyly, *Euphues: The Anatomy of Wit*, 3.
11. Greene, Robert, *A Groats-worth of Wit Bought with a Million of Repentance*, in Taine, *English Literature*, 168.
12. In Muir, 28.
13. Symonds, J. A., *Shakespeare's Predecessors*, 435.
14. Saintsbury, *History of Elizabethan Literature*, 233.
15. Bourne, *Sir Philip Sidney*, 75.
16. Aubrey's *Brief Lives*, 278.
17. Bourne, 115.
18. Ibid., 27-30.
19. Ibid., 277.
20. Sidney, Philip, *Works: Defense of Poetry*, 9.
21. Sidney, *Works*, III, 14.
22. Ibid., I, 7.
23. Ibid., I, 16.
24. *Defense of Poetry*, 41.
25. Sidney, Sonnet xxxi.
26. Bourne, 326.
27. In Haydn, *Elizabethan Reader*, 394.
28. Bourne, 349.
29. Spenser, *Poetical Works*, 559.
30. Prefatory *Letter to Raleigh*, in *Poetical Works*, 407.
31. *Faerie Queene*, II, xii, 78.
32. Thornton, *Table Talk*, 1.
33. Van Doren, *Anthology of World Poetry*, 1026.
34. Aristotle, *Poetics*, 1449-50.
35. *Defense of Poetry*, 38.
36. Mantzius, *History of Theatrical Art*, III, 11.
37. *Shakespeare's England*, II, 241.
38. Chambers, E. K., *The Elizabethan Stage*, I, 255.
39. Holzknecht, 110.
40. Chambers, *Elizabethan Stage*, I, 258.
41. Shakespeare, *Twelfth Night*, II, iii.
42. *Pericles*, IV, ii.
43. Chambers, *Elizabethan Stage*, IV, 273-5.
44. *Henry V*, I, i, 13.
45. *Hamlet*, III, ii, 10.
46. Holzknecht, 153.
47. *Shakespeare's England*, II, 277.
48. *Hamlet*, II, ii, 354.
49. Mantzius, III, 228.
50. Marlowe, *Works*, Appendix, 428-30.
51. Bakeless, John, *Tragicall History of Christopher Marlowe*, 112.
52. Symonds, *Shakespeare's Predecessors*, 437.
53. Bakeless, 113.
54. Marlowe, *Tamburlane*, Part I, Act II, vii.
55. France, A., *The Gods Are Athirst* 57.
56. Ecclesiastes, i, 18.
57. Marlowe, *Faustus*, I, i.
58. *The Jew of Malta*, II, iii.

59. Ibid., I, i.
60. Ibid., II, i.
61. *Tamburlane*, Part I, Act I, i.
62. Bakeless, 156; *Esquire Magazine*, December 1954.

CHAPTER IV

1. Chambers, *William Shakespeare*, II, 264.
2. Ibid., 257.
3. Lee, Sidney, *Life of William Shakespeare*, 22.
4. Chambers, *Shakespeare*, II, 188.
5. Ibid., 189.
6. Ibid., 259, 265.
7. Shakespeare, Sonnet XXIX.
8. Sonnet CX.
9. Chute, *Shakespeare*, 269.
10. Sonnet CLII.
11. Lee, 68.
12. Raleigh, W., *Shakespeare*, 150.
13. Chambers, *Shakespeare*, I, 434.
14. *As You Like It*, II, vii.
15. *King Lear*, IV, vi, 120.
16. *Timon of Athens*, IV, i, 35.
17. Ibid., IV, iii, 54.
18. Ibid., IV, iii, 151f.
19. *Troilus and Cressida*, II, ii, 166.
20. *Coriolanus*, I, iv, 57.
21. Thornton, *Table Talk*, 5.
22. *Encycl. Brit.*, III, 781b.
23. *Two Gentlemen of Verona*, I, i, 71.
24. *The Tempest*, I, ii, 129.
25. *Midsummer Night's Dream*, II, iii, 61.
26. *Hamlet*, II, ii, 310.
27. *Romeo and Juliet*, I, ii, 139
28. *Julius Caesar*, I, ii, 139.
29. *Tempest*, II, i, 47.
30. Hauser, A., *Social History of Art*, I, 422.
31. *Love's Labour's Lost*, I, i, 166.
32. *Richard III*, I, i, 1.
33. Ibid., I, i, 24.
34. *2 Henry IV*, IV, iv.
35. *1 Henry IV*, III, i.
36. *Much Ado about Nothing*, II, iii.
37. *2 Henry IV*, III, i.
38. *King John*, IV, ii.
39. *Troilus and Cressida*, III, iii.
40. *Midsummer Night's Dream*, I, iii.
41. *Merchant of Venice*, I, iii.
42. *Twelfth Night*, III, iv.
43. *Mid. Night's Dream*, I, i.
44. *Othello*, I, i.
45. *King Lear*, IV, vi.
46. *Hamlet*, I, iv.
47. Ibid., II, ii.
48. *Mid. Night's Dream*, II, i.
49. *Two Gentlemen of Verona*, IV, ii.
50. *Cymbeline*, II, iii.
51. *Measure for Measure*, IV, ii.
52. *Mid. Night's Dream*, V, i, 7.
53. Examples in Chambers, *Shakespeare*, 228-30.
54. *Comedy of Errors*, III, i, 76.
55. *Tempest*, IV, i, 199.
56. *As You Like It*, III, ii.
57. Shaw, Bernard, *Man and Superman*, Preface, xxviii.
58. *Hamlet*, I, v.
59. *Much Ado about Nothing*, V, i.
60. *Hamlet*, III, iv, 88.
61. Ibid., II, ii.
62. *Coriolanus*, IV, vii
63. *Hamlet*, I, iv, 25.
64. *Richard III*, V, iii.
65. *Richard II*, III, iii.
66. *1 Henry IV*, III, i; cf. Haydn, *Counter-Renaissance*, 602f.
67. *Troilus and Cressida*, I, iii.
68. *King Lear*, V, ii, 9.
69. *Twelfth Night*, II, iii.
70. *King Lear*, IV, vi, 112f.
71. *Pericles*, II, i.
72. *Tempest*, II, i, 147-64.
73. *Hamlet*, IV, iv, 35.
74. Raleigh, *Shakespeare*, 61.
75. *King John*, III, i.
76. *Henry VIII*, II, ii; *Romeo and Juliet*, IV, ii.
77. *King Lear*, IV, i, 36.
78. Ibid., V, iii, 169.
79. V, ii, 10.
80. *King John*, III, iv, 108.
81. *Hamlet*, I, iii, 126-28.
82. *Macbeth*, V, v, 23.
83. *Merchant of Venice*, V, i.
84. *Measure for Measure*, III, i, 118.
85. *Hamlet*, I, iv, 67.
86. Chambers, *Shakespeare*, II, 194.
87. In Lee, *Shakespeare*, 179.
88. Jonson, *Timber*, in Chute, *Ben Jonson*, 340.
89. Lee, 177.
90. Ibid., 178.
91. Aubrey, 275.
92. Jonson, *Timber*, in Lee, 277.
93. Chambers, *Shakespeare*, I, 84.
94. Lee, 203.
95. Aubrey, 275.
96. Ibid., 85.
97. *Tempest*, I, ii, 5.
98. Ibid., IV, i, 148.
99. V, i, 48.
100. V, i, 181.
101. Chambers, *Shakespeare*, I, 89.
102. Holzknecht, 380-1.
103. Voltaire, Letter of July 19, 1776, in Desnoiresterres, G., *Voltaire et la société française au xviiime siècle*, VIII, 108.

104. In Croce, B., *Ariosto, Shakespeare, and Corneille*, 284.
105. Voltaire, article on Dramatic Art, in Holzknecht, 387.
106. Goethe, *Wilhelm Meister*, Book II, chs. xiii-xvi.

CHAPTER V

1. Brantôme, *Book of the Ladies*, 92.
2. Ibid., 124.
3. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 6.
4. Pastor, XVI, 283.
5. Lingard, VI, 12.
6. *Book of Discipline*, Heads I and III, in Knox, *History of the Reformation in Scotland*, II, 281-3.
7. Knox, *History*, II, 321-2.
8. In National Portrait Gallery, London, and in Uffizi Gallery, Florence.
9. Lang, Andrew, *Mystery of Mary Stuart*, 13, 61.
10. Knox, *History*, II, 10; Froude, *Elizabeth*, I, 255.
11. Knox, II, 8.
12. Ibid., 12.
13. Ibid., 13f.
14. Lang, *History of Scotland*, II, 107.
15. Ibid.
16. Muir, Edwin, *John Knox*, 240.
17. Knox, *History*, II, 29.
18. Lang, *History*, II, 110.
19. Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xxix.
20. Knox, *History*, II, 44-6.
21. Lang, *History*, II, 126.
22. Knox, II, 71-7; Lang, II, 127; Muir, *Knox*, 253.
23. Knox, II, 81.
24. Ibid., 83.
25. Ibid., 93.
26. Zweig, *Mary Queen of Scots*, 108.
27. Neale, *Queen Elizabeth*, 141.
28. Lang, *History*, II, 160.
29. Ibid.; Froude, *Elizabeth*, II, 50.
30. Lang, II, 162.
31. *Camb. Mod. History*, III, 272.
32. Lang, *Mystery*, 75.
33. Ibid., 108-11.
34. *Camb. Mod. History*, III, 273.
35. Lang, *History*, II, 171; Lingard, VI, 67.
36. Lang, II, 170-2.
37. Ibid.; Knox, *History*, lxxiii.
38. Zweig, 158.
39. Lang, *Mystery*, 236.
40. Acton, *Lectures*, 150-2; Lang, *Mystery*, 295, 353, 362.
41. Ibid., 133.
42. Lang, *History*, II, 188.
43. Neale, 161.
44. Lang, *Mystery*, 194.
45. Froude, *Elizabeth*, II, 307, 310.
46. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 112.
47. Hallam, I, 167.
48. Froude, *Elizabeth*, II, 407.
49. Ibid., 404; Lang, II, 200.
50. Lang, II, 203.
51. Lang, *Mystery*, 286.
52. Lingard, VI, 97.
53. Froude, III, 110.
54. Muir, *Knox*, 282.
55. Knox, *History*, I, vii.
56. Lingard, VI, 126.
57. Ibid., 128; Hughes, III, 278.
58. Roeder, *Catherine de' Medici*, 491.
59. Neale, 263.
60. Pastor, XIX, 450-2.
61. Lingard, VI, 187.
62. Ibid., 205-6; Pastor, XXI, 7-19.
63. Ibid., 25; Froude, V, 259-61.
64. Williams, Chas., *James I*, 76, 80-3; Froude, V, 294.
65. Zweig, 291.

CHAPTER VI

1. Fontenoy in Froude, V, 74.
2. Lang, *History*, 276, 294-6, 305, 395; Lingard, VI, 183.
3. Lea, *Studies in Church History*, 502-8.
4. Ibid., 500.
5. Lang, *History*, II, 243.
6. James I, *Basilikon Doron*, in Gooch, *English Democratic Ideas in the Seventeenth Century*, 41.
7. Lang, *History*, II, 278.
8. *History Today*, March 1956, 159.
9. Buckle, *History of Civilization*, IIa, 199.
10. Williams, *James I*, 132.
11. *Encycl. Brit.*, IV, 310.
12. Allen, J. W., *History of Political Thought*, 339-40; cf. Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory*, 332f; Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius*, 167-72.
13. Allen, op. cit., 342.
14. Quoted by Oliver Dick in Introduction to Aubrey's *Brief Lives*, xxx.
15. In Chute, *Ben Jonson*, 249.
16. Ibid., 268.
17. Ibid., 217.
18. Bowen, C. D., *The Lion and the Throne*, 315.
19. Aubrey, 67.
20. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 349; Allen, 254; Dunning, W. A., *History of Political Theories*, II, 217.
21. Allen, J. W., *English Political Thought*, 26.
22. Ibid., 124.

23. Lingard, VII, 17.
24. Allen, *English Political Thought*, 223.
25. Williams, *James I*, 192-3.
26. Lingard, VII, 19-22.
27. Ibid., 29.
28. Ibid., 40-3.
29. Ibid., 46-8.
30. Ibid., 50, 96.
31. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 198.
32. Lang, *History*, II, 508.
33. Aubrey, 21.
34. Hallam, H., *Literature of Europe*, III, 324.
35. Webster, *The White Devil*, in Webster and Ford, *Plays*, p. 91.
36. Webster, *Duchess of Malfy*, in Webster and Ford, p. 145.
37. Ibid., IV, ii.
38. Thornton, *Table Talk*, 15.
39. Thomas Fuller in Chute, *Ben Jonson*, 37.
40. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
41. Thornton, 7.
42. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
43. Thornton, 8.
44. Chute, *Ben Jonson*, 161.
45. Jonson, *The Alchemist*, II, i.
46. Baskerville, Read, etc., *Elizabethan and Stuart Plays*, 1077.
47. Herrick, *Poems*, 241.
48. Chute, *Ben Jonson*, 310.
49. Williams, *James I*, 189.
50. Introduction to Burton, *Anatomy of Melancholy*, p. x.
51. Ibid.
52. Burton, *Anatomy of Melancholy*, 8.
53. Ibid., 3.
54. Ibid., 79-80.
55. Donne, *Poems*, 83.
56. Ibid., 26.
57. Elegy XIII; Elegy II.
58. *Poems*, 182.
59. Ibid., 180.
60. Thornton, 4.
61. *Poems*, 253.
62. In Peterson, *Treasury of the World's Great Speeches*, 91.
63. Ibid., 92.
64. Walton, *Life of Dr. Donne*, in Peterson, 95.
65. Hallam, *Constitutional History*, I, 347; *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b; Lingard, VII, 7.
66. Text in Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 82-4.
67. Raleigh, Sir Walter, *Selections*, 61.
68. Ibid., 117.
69. Lingard, VII, 101.
70. Spedding, *Life of Fr. Bacon*, II, 288-9; Wallace, *Sir Walter Raleigh*, 261f
71. Lingard, VII, 102.
72. *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b.
73. Wallace, *Raleigh*, 315.
74. Raleigh, *Selections*, Introduction, 28.
75. Lingard, VII, 117.
76. Williams, *James I*, 258.
77. Hallam, *Constitutional History*, 109.
78. Ibid., 122.
79. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 137.

CHAPTER VII

1. Browne, Sir Thomas, *Pseudodoxia Epidemica*, in *Works*, Vols. II and III.
2. Thorndike, Lynn, *History of Magic and Experimental Science*, VI, 548-9.
3. Lecky, *Rationalism in Europe*, I, 38n; Williams, *James I*, 106-10.
4. Lang, *History*, II, 434.
5. Hughes, *Reformation*, II, 286n.
6. Ibid., 285.
7. Thorndike, VI, 550; Chute, *Ben Jonson*, 229.
8. Trevelyan, *English Social History*, 232.
9. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 97.
10. Ibid., 95.
11. Robertson, *History of Freethought*, II, 13.
12. Huntington Library Bulletin, April 1934, p. 99.
13. Wolf, *History of Science*, I, 292.
14. Ibid., 426.
15. John, Evan, *King Charles I*, 153; Kellogg, *The New Dietetics*, 84?.
16. Garrison, *History of Medicine*, 248.
17. Sigerist, *The Great Doctors*, 141.
18. Harvey, *Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis*, in Hammerton, *Great Books*, 273.
19. Walsh, J. J., *The Popes and Science*, 396.
20. Aubrey, 131.
21. Prinzmetal, *Heart Attack*, 121-2.
22. Aubrey, 128.
23. Ibid., 130.
24. Ibid., 11.
25. Gardiner, S. R., in Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 12.
26. Spedding, *Life of Bacon*, I, 542.
27. Aubrey, 9.
28. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 326-8.
29. Bowen, *The Lion and the Throne*, 418; *Camb. Mod. History*, III, 571.
30. Spedding, *Life*, II, 463.
31. Ibid., 633.
32. Ibid., I, 563.
33. Ibid., 569.

34. Bacon, *Philosophical Works*, 241.
35. Ibid.
36. Ibid., 244.
37. Ibid., 247.
38. Aubrey, 130.
39. Bacon, *Phil. Works*, 167.
40. Ibid., 76, 78; *De Augmentis scientiarum*, Preface.
41. *Philosophical Works*, 76.
42. *Advancement of Learning*, ch. 8.
43. Bacon, *Works*, ed. Spedding and Ellis, VII, 241.
44. *Novum organum*, i, 97.
45. Ibid., i, 82; and "Plan of the Work" in *Philosophical Works*, 250.
46. *Novum organum*, ii, 13, 17.
47. *Philosophical Works*, 144.
48. Ibid., 77.
49. Ibid., 50.
50. Spedding, *Life*, I, 111.
51. *Novum organum*, ii, 2.
52. Ibid., ii, 8.
53. Ibid.
54. *De Augmentis*, iv, 3.
55. *Novum organum*, i, 66.
56. *De Augmentis*, end.
57. Essay "Of Atheism"
58. Ibid.; *Advancement of Learning*, in *Philosophical Works*, 45; *De Augmentis*, iii, 2.
59. Essay "Of Atheism."
60. *Valerius Terminus*, ch. i, in *Philosophical Works*, 186.
61. Rawley's *Life*, in *Phil. Works*, 9.
62. *De Augmentis*, ix, 1.
63. Essay "Of Goodness."
64. Ibid.
65. "Of Marriage and Single Life."
66. Essays "Of Empire" and "Of the True Greatness of Kingdoms."
67. *De Augmentis*, viii, 3, in *Phil. Works*, 610-11.
68. "Of Vicissitude of Things."
69. "Of Seditions and Troubles."
70. *Phil. Works*, 727.
71. *History of Henry VII*, in *Works*, VI, 238-45.
72. In Nichol, J., *Fr. Bacon*, II, 4.
73. Pope's *Essay on Man*, line 282.
74. *Thema coeli*, in *Phil. Works*, 705; *Descriptio globi intellectualis*, ibid., 685.
75. In Friedell, *Cultural History of the Modern Age*, I, 335.
76. *The Advancement of Learning*, in *Phil. Works*, 167.
77. Wolf, *Science in the Sixteenth Century*, 630; Bernal, *Science in History*, 305.
78. Hallam, *Literature of Europe*, III, 72.
79. Nichol, J., II, 235.
80. *Novum organum*, i, 49.
81. Ibid., i, 26, 95.

CHAPTER VIII

1. Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 103.
2. Ibid., table at p. 73.
3. John, *Charles I*, 167.
4. French, Allen, *Charles I and the Puritan Upheaval*, 100-2.
5. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 24.
6. Ibid., 77.
7. Ibid., 76.
8. Ibid.
9. Aubrey, 135.
10. Belloc, H., *Richelieu*, 49.
11. McCabe, *Candid History*, 202.
12. Toynbee, A., *Study of History*, IX, 178.
13. Allen, *English Political Thought*, 237.
14. Ibid., 242.
15. Ibid.
16. Taine, *English Literature*, 259-62.
17. Hume, D., *History of England*, IV, 183.
18. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 302.
19. French, *Charles I*, 281.
20. Lingard, VII, 181; Taine, *English Literature*, 265.
21. *Camb. Mod. History*, IV, 279.
22. Allen, *English Thought*, 194.
23. Carlyle, T., *Oliver Cromwell*, I, 93.
24. French, 306.
25. Schaff, *History of the Christian Church: The German Reformation*, I, 79.
26. Allen, *English Thought*, 283.
27. French, 281.
28. Markun, L., *Mrs. Grundy*, 114.
29. Weber, Max, *The Protestant Ethic*, 177.
30. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 387.
31. Allen, *English Thought*, 279f; Lingard, VIII, 190.
32. Ibid., 191n.
33. Thornton, *Table Talk*, 72, 106.
34. Browne, *Religio Medici*, 77.
35. Browne, *Works*, II, 226.
36. *Religio Medici*, 70, 34.
37. Singer, *Studies in the History of Science*, 222.
38. *Religio Medici*, 82.
39. Ibid., 1.
40. Ibid., 18.
41. Ibid., 25.
42. Ibid., 10.
43. Ibid., 179.
44. Ibid., 60.
45. Ibid., 92.
46. Herrick, *Poems*, 181.
47. Ibid., 178.
48. Ibid., 398.
49. Aubrey, 287.
50. Ibid., 289.
51. Ibid., 192.

52. Lovelace, *Poems*, 78.
53. Ibid., 18.
54. MacLaurin, *Mere Mortals*, 143-4; John, *Charles I*, 4; French, 16.
55. Bishop, *Renaissance Architecture*, 25.
56. John, *Charles I*, 65.
57. Ibid., 66.
58. Ibid., 133; Lingard, VII, 164.
59. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 1.
60. Ibid., 41-3.
61. Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 173.
62. Ibid., 174; Allen, *English Thought*, 360.
63. Rickard, *Man and Metals*, II, 799
64. Clarendon, *History of the Rebellion*, I, 323.
65. Ibid., 188f.
66. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 94.
67. Lang, *History of Scotland*, III, 71.
68. John, *Charles I*, 207.
69. Morley, *Oliver Cromwell*, 72.
70. Clarendon, *passim*; Hume, D., *History of England*, IV, 174, 401.
71. Carlyle, *Oliver Cromwell*; Firth, *Oliver Cromwell*; Buchan, *Oliver Cromwell*.
72. Morley, *Cromwell*, 9.
73. Carlyle, *Cromwell*, I, 98.
74. Ibid., 108.
75. Clarendon, I, 300; Gardiner, *History of England*, IX, 230.
76. Thornton, *Table Talk*, 108.
77. Gardiner, IX, 251-2.
78. Allen, *English Thought*, 346f.
79. Morley, *Cromwell*, 91; Hallam, *Constitutional History*, II, 119; Allen, 354.
80. Clarendon, I, 452.
81. Ibid., 466.
82. Firth, *Cromwell*, 61.
83. Clarendon, II, 49 f.
84. Allen, *English Thought*, 313, 403-4.
85. Robinson, J. H., *Readings*, 356.
86. Schaff, *History of the Christian Church: The Swiss Reformation*, II, 565.
87. Firth, 149; Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 86; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 76.
88. *Camb. Mod. History*, IV, 312
89. Firth, 147.
90. Ibid.
91. Macaulay, *History of England*, I, 100.
92. Gooch, *English Democratic Ideas*, 119, 179.
93. Ibid., 124.
94. Ibid., 128.
95. *Camb. Mod. History*, IV, 345.
96. Firth, 175.
97. Morley, *Cromwell*, 240.
98. Lingard, VIII, 110.
99. Morley, 267.
00. John, *Charles I*, 294.
101. Hume, *History*, IV, 485.
102. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, II, 223.
103. Robinson, *Readings*, 359.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

